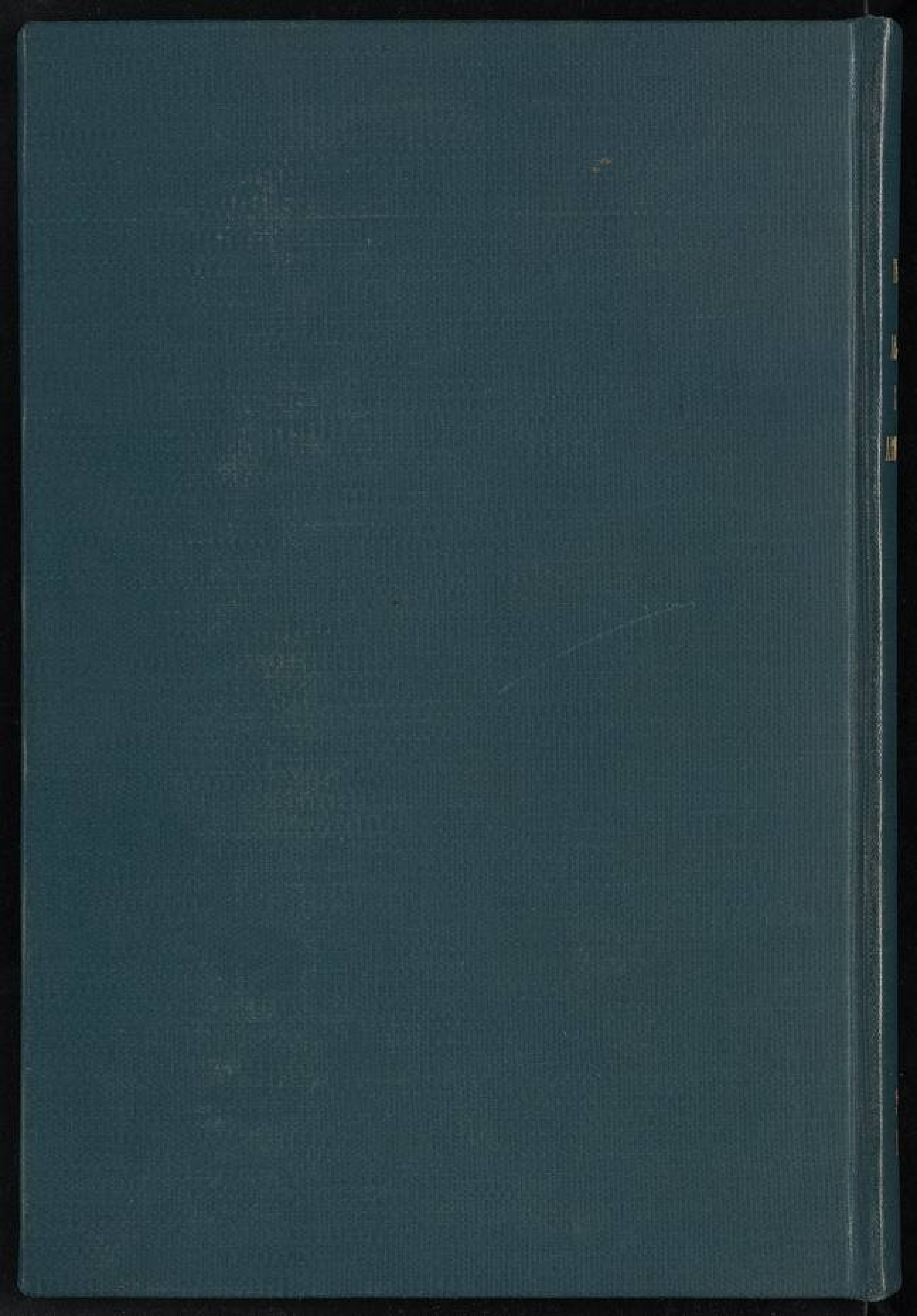
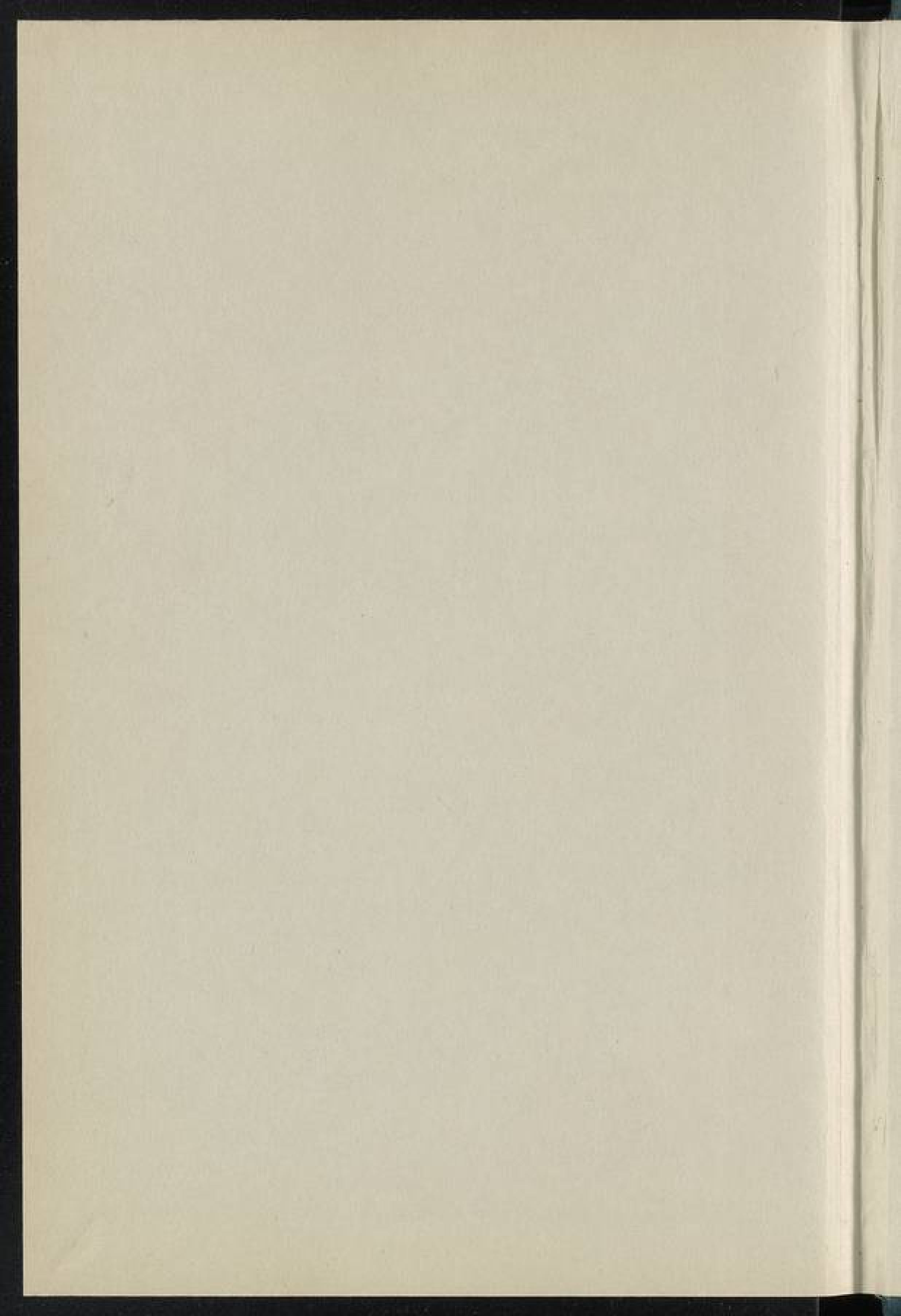
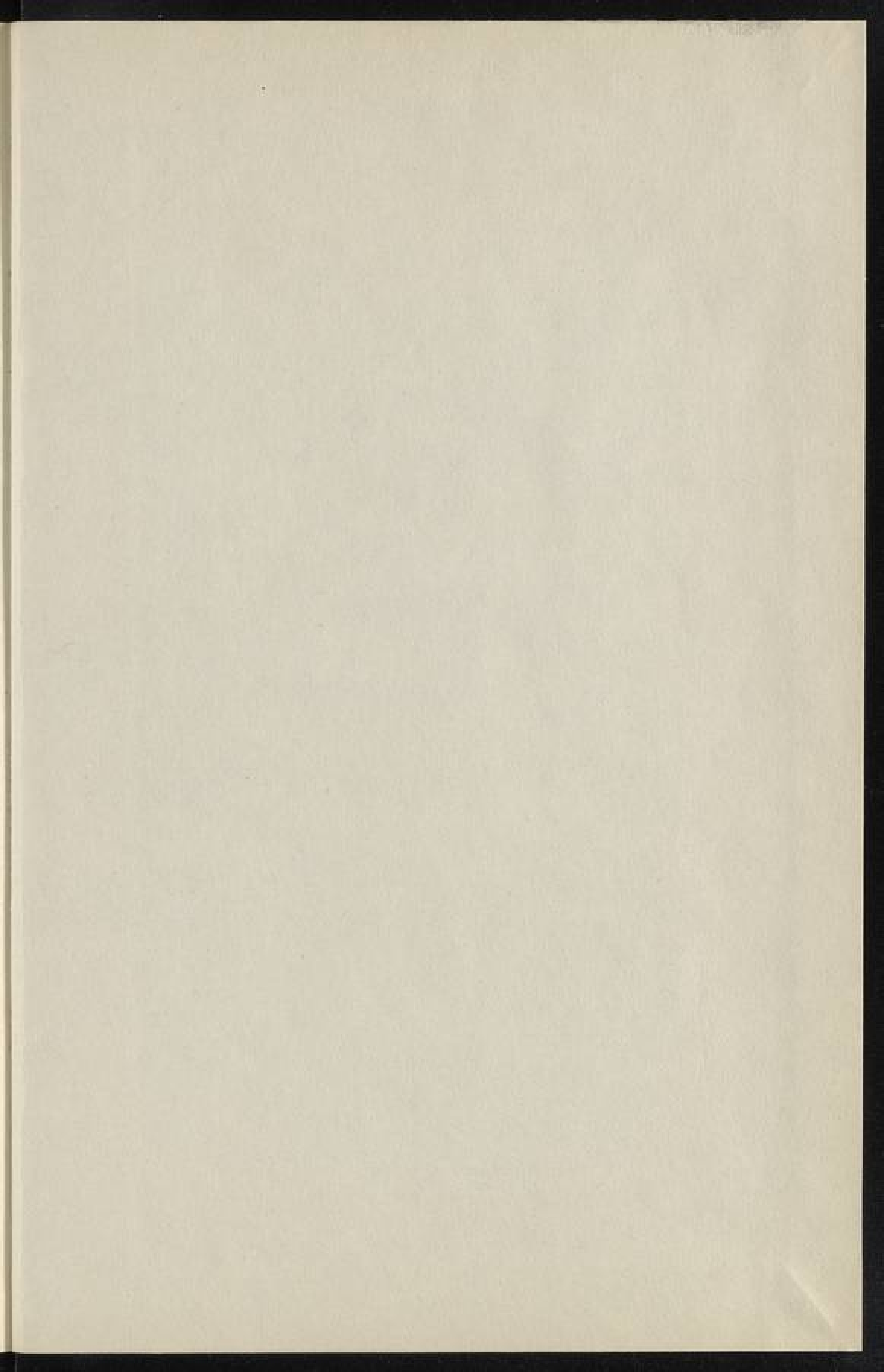
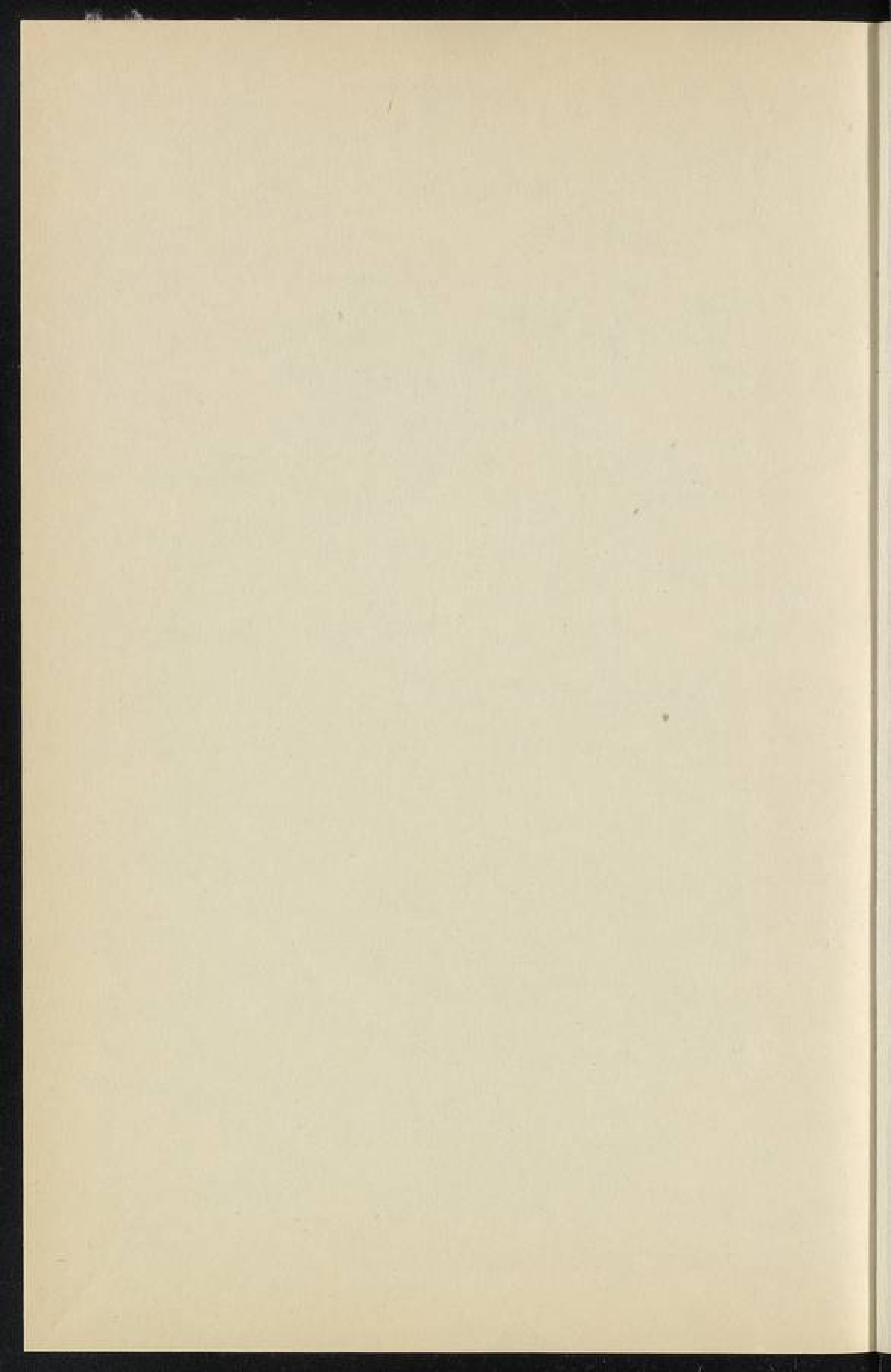
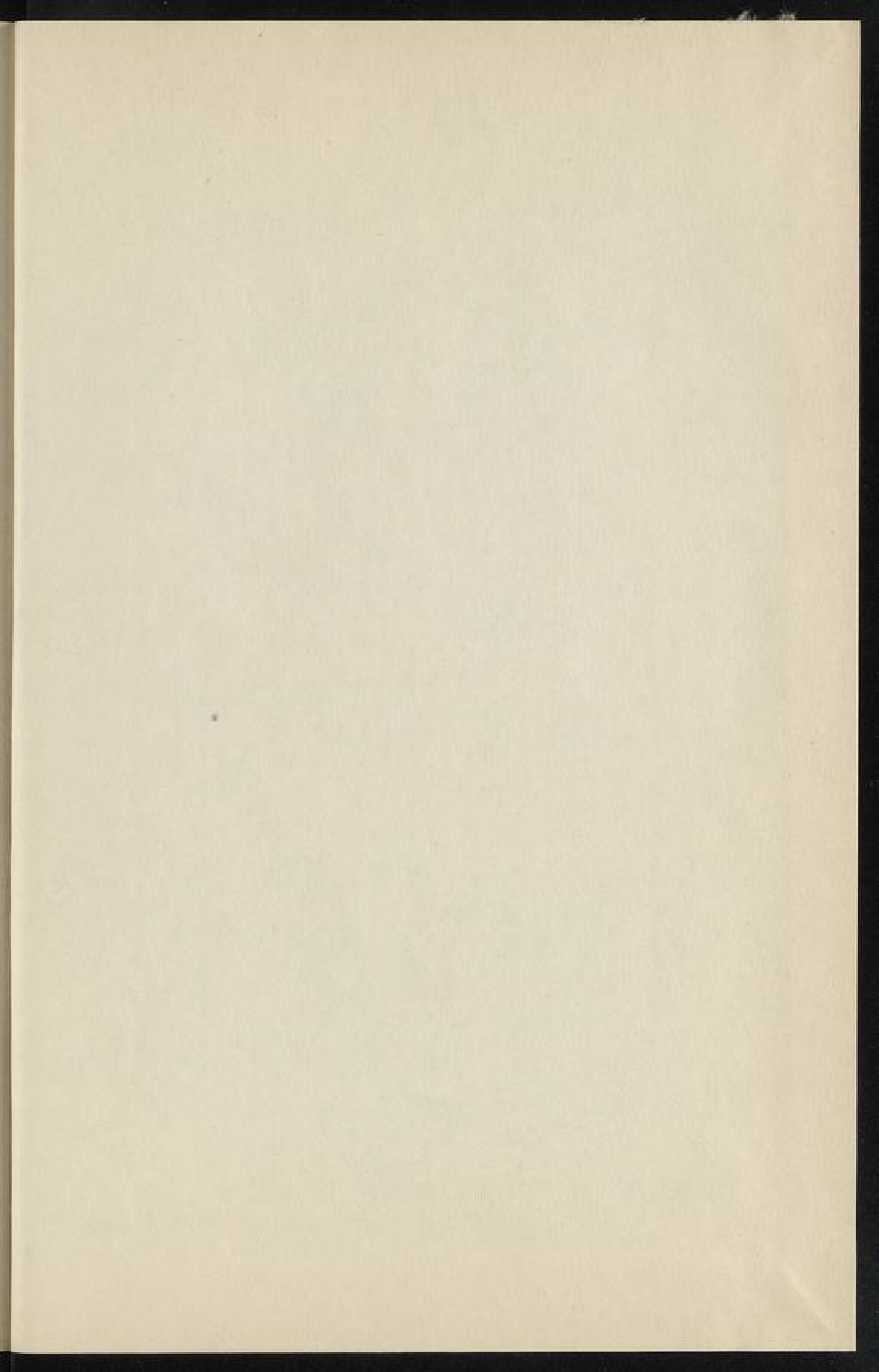


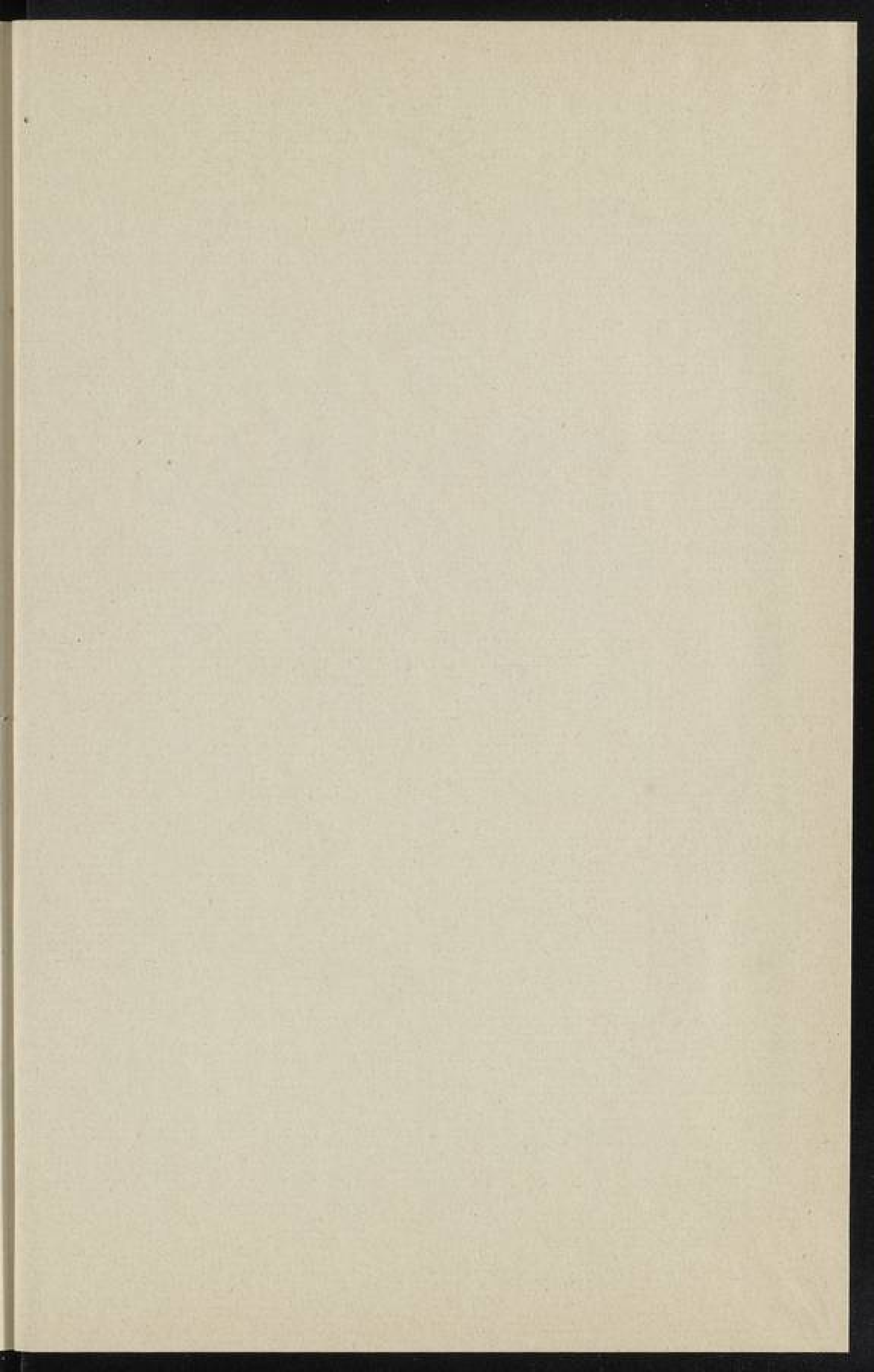








الانكليز كما عرفتهم



الانكليز كما عرفتهم

مطالعات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني

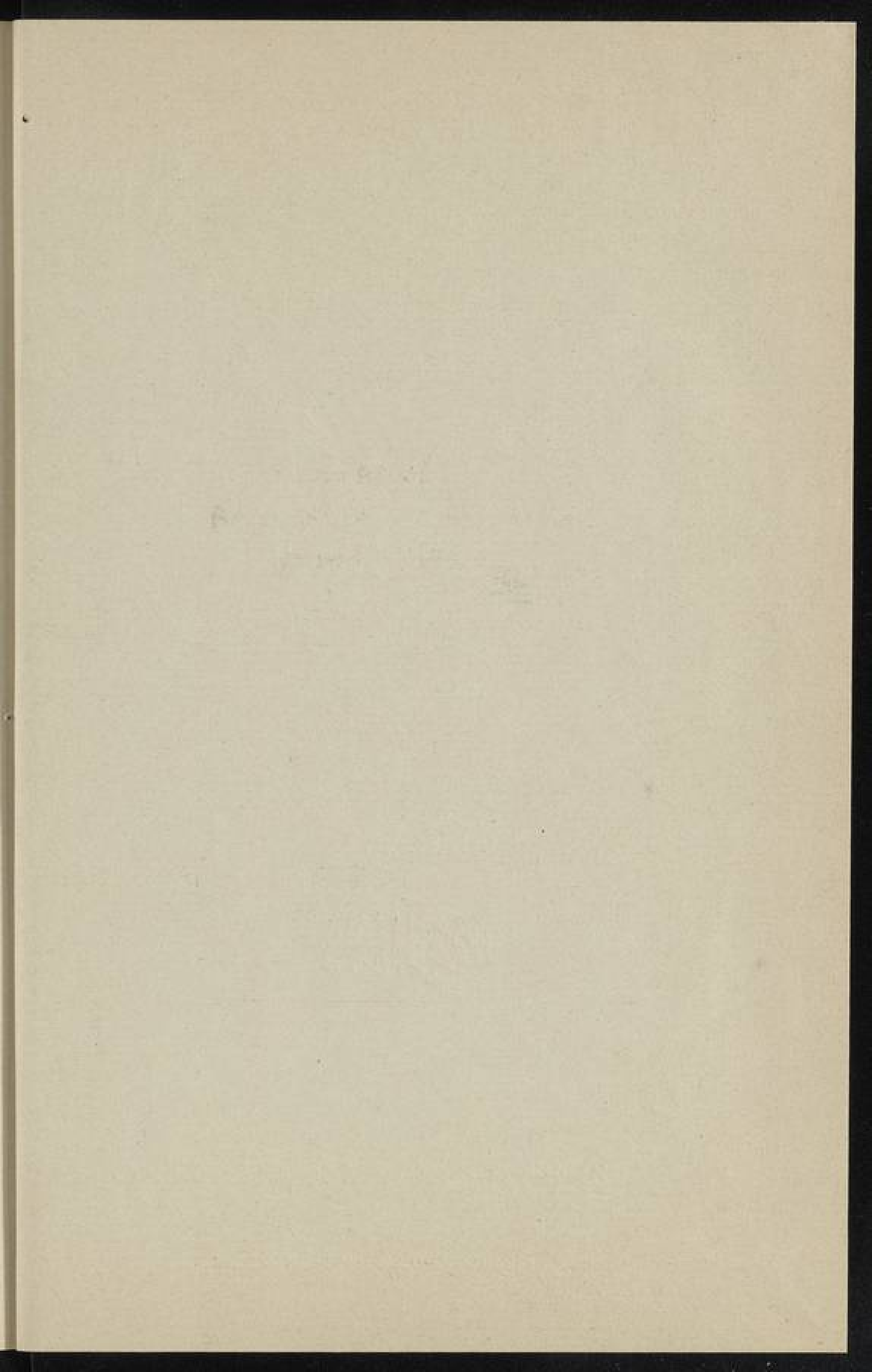
تأليف

امين المميز ، ب.ع

من اعضاء السلك الدبلوماسي العراقي

الجزء الأول

طبع بمطبعة السكك الحديدية للحكومة العراقية — بغداد



The Arabic version of:

ENGLAND

and

THE ENGLISH PEOPLE

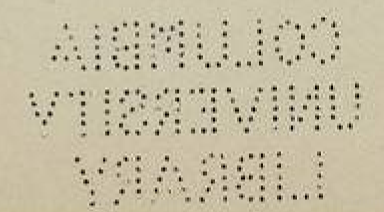
Observations of an Iraqi-Moslem

by

AMIN MUMAYIZ, B.A.

Formerly of the Royal Iraqi Legation in London

(The English version of the book was first written in 1942 and sent to England for publication, but owing to the stringent shortage of paper its publication was withheld for a future date).



الى المؤسسة التى غرست فى قلبى
حب الله والمليك والوطن :
الى الجامعة الاميركية فى بيروت
اهدى كتابى هذا

محتويات الكتاب

الجزء الاول

صفحة

الجزء الثانى

(يصدر قريبا)

مُقَدِّمَة

هذا الكتاب وليد المصادفة، فقد فرضت على احدى وجائب السلك الدبلوماسى تقديم اطروحة فى ناحية من نواحي الحياة لاحدى البلاد الاجنبية التى خدمت فيها وبلغة تلك البلاد، ولما كنت قد قضيت معظم سنى خدمتى الخارجية فى انكلترة فمن الطبيعى ان اختارها واكتب فى احدى نواحيها، وبلغتها الانكليزية. فبعد ان اديت ذلك الواجب صادف ان اشار على صديق بأننى ان عالجت نواحي اخرى من حياة تلك البلاد وضممتها الى ما كتبت وجعلت منها كتيبا صغيرا فسيكون ذلك الكتيب سفرا ممتعا ويكون الاول من نوعه يكتبه عراقى مسلم عن الشعب البريطانى. اتممت ذلك وارسلت الكتاب الى احدى شركات النشر فى انكلترة لنشره لكن الحرب شاءت ان تجعل جهودى هذه ضحية من ضحاياها العديدة، اذ ان ندرة الورق فى تلك البلاد حالت دون نشره الآن وربما نشر فى اول فرصة ممكنة.

وبناء على ارشاد بعض من اجلهم اعدت كتابة الكتاب باللغة العربية لفائدة القارىء العربى وهاانذا اضعه بين يديه عسى ان يسد بعض الفراغ. فيتضح للقارىء ان الكتاب لم يوضع لغرض الربح ولا لطلب الجاه ولا ليتخذ اداة للدعاية كما اننى لا اريد من القارىء ان يعتبره نتاجا ادبيا او بحثا تاريخيا انما هو استعراض عام لبعض نواحي الحياة لقوم عشت بضع سنوات بين ظهرانيهم وقرأت شيئا عما كتب عنهم. وان العامل الاساسى الذى حدا بى الى بذل الجهود وانفاق المال لتحقيق هذا المشروع لا علاقة له باحد تلك الامور الثلاثة، انما هو دافع ثقافى وطنى.

قال حكيم افرنسى «من المستحيل ان تكره شخصا ان عرفته معرفة حقة» وما يصدق على الاشخاص يصدق على الشعوب فلو عرفت شعوب الارض بعضها بعضا معرفة حقة وادرك الشعب الواحد المثل العليا والشعور والافكار والميول للشعب الاخر، واطلع على آلامه وآماله وطرق حياته لساد التفاهم

التام والتآخي الحقيقي بين شعوب العالم جمعاء، ولاصبحت البشرية في غنى عن هذه المجازر والفظائع التي تتنابها بين جيل وآخر. ان جهل الشعوب بعضها بعضا هو فيما ارى، السبب الاساسي لكل حرب استعراوارها في الماضي وكل حرب تنشب في المستقبل. فان ادرك العالم حق الادراك هذه الحقيقة وعمل على تلافيها ببذل اقصى الجهود لتعريف الامم احداها بالاخرى تعريفا حقيقيا مخلصا بريئا لتسنى للبشرية ان تنعم بخيرات سلم وطمأنينة دائمين وتأمن شرور الحروب واهوالها. وكما قال الارل بولدوين عندما كتب مقدما بني قومه الى العالم. (اننا نريد ان نتفهم مزايا الشعوب المختلفة وخصالها تفهما حقيقيا لان مثل هذا التفهم لازم لازب لضمان السلام بين امم العالم).

نحن مقبلون على عالم جديد وحياة جديدة ستختلف في كثير من النواحي عن الحياة التي اعتادها عالمنا السالف، وعلينا ان نعد العدة ونتنكب السلاح لمواجهة هذا العالم الجديد، وحري بنا نحن معاشر العرب ان ندرك اننا اقرب بتفكيرنا وآمالنا ومطامحنا وأمانينا ومثلنا العليا وطرق حياتنا ونظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الانكلوسكسوني من اية مجموعة دولية اخرى. فعلينا اذن ان نتفاهم ونتعاون ونتبادل الرأي والشعور والمصلحة معه بالدرجة الاولى ان اردنا ان نحقق مهمتنا ونؤمن خيرنا وسعادتنا ونحتل المركز اللائق بنا بين مجموعات الشعوب العالمية.

بغداد　　　　　　　　　　　　　　امين المميز

آب ١٩٤٤

كلمة شكر

لقد وجدت لزاما على ان اقدم شكرى الى حضرات الافاضل الذين تفضلوا على بالمعونة والتشجيع فى مختلف مراحل وضع هذا الكتاب. ولما كانت الطبعة العربية هذه مستمدة من الطبعة الانكليزية فقد رأيت ان ابادر بشكر الذين لقيت منهم كل لطف ومعونة عند اعداد الطبعة الانكليزية لان المصادفات شاءت ان تصدر العربية قبل الانكليزية.

اقدم شكرى بالدرجة الاولى الى جناب السر ادوين دراور (Sir Edwin Drower, K.B.E.) مستشار وزارة العدلية العراقية على تفضله بمطالعة الفصل المتعلق بالقضاء الانكليزى وما ابداه من اهتمام فى تدقيق محتوياته وتقديم المطالعات والارشادات القيمة، كما ان فكرة وضع الكتاب باللغة العربية هى فكرة جنابه.

واشكر جناب المستر طومسون (Mr G. H. Thompson, C.M.G.) مشاور سفارة صاحب الجلالة البريطانية فى بغداد على تفضله بقراءة الفصل المتعلق بالحياة الاجتماعية وعلى ما آنسته منه من تشجيع وعناية.

واشكر جناب البروفسور هاملى (Professor H. R. Hamley) على قراءته الفصل الاول (الرجل الانكليزى) والفصل المتعلق بـ(التربية والتعليم من الجزء الثانى).

واشكر جناب المستر ستيوارت بيرون (Mr. S. Perowne, O.B.E.) رئيس شعبة العلاقات العامة فى سفارة صاحب الجلالة البريطانية فى بغداد على ما شاهدته منه من اهتمام فى موضوع نشر الطبعة الانكليزية وعلى تفضله بقراءة الفصل الاول (الرجل الانكليزى) والفصل المتعلق بـ(الرأى العام). وابدائه المطالعات القيمة والآراء السديدة حولهما.

واشكر الكاتبة المعروفة الآنسة فريا ستارك (Miss Freya Stark) على مطالعتها الفصل المتعلق بالمرأة الانكليزية وعلى ما ابدته من تشجيع وما قدمته من ملاحظات.

واشكر جناب القس روج (Rev. C.A. Roach) القائم بشؤون كنيسة سانت جورج فى بغداد على دراسته الفصل المتعلق بالدين وتزويدى ببعض المعلومات التى لم اتمكن من الحصول عليها من غيره.

واشكر المستر سايد بوتوم (Mr. E. J. Sidebothom) مدير التربية البدنية بوزارة المعارف العراقية لقراءته الفصل المتعلق بالرياضة والالعاب.

ويؤلمنى جدا ألا يقرأ المرحوم الاستاذ عبد المسيح وزير الطبعة العربية من الكتاب بعد ان قرأ الطبعة الانكليزية واظهر اعجابه بها وتقديره لها.

واخيرا اشكر الاستاذ الاديب السيد مصطفى على شكرا جزيلا على تجشمه عناء قراءة جميع فصول الطبعة العربية وابداء ملاحظاته اللغوية القيمة فيها.

مقدمة
بقلم
فخامة السيد توفيق السويدي

بالرغم مما الم بى من مرض اقعدنى عن المطالعة مدة غير يسيرة فقد توفقت مع ذلك ان اتصفح واطالع هذا الكتاب القيم بمباحثه، الدقيق بمواضيعه المنوعة المتعلقة بشعب حاز الاعجاب بميزاته بين شعوب الارض. لقد كانت المكتبة العربية فى اشد حاجة الى مثل هذه الابحاث حتى ان العلامة الدكتور حافظ عفيفى عندما وضع كتابه عن (الانكليز فى بلادهم) كانت موجة الفرح شديدة بين قراء العربية لان ذلك السفر المجيد كان قد احتوى الكثير من المعلومات عن الشعب الانكليزى ونشاطه فى مختلف ميادين الحياة و كان قد اعتبر فى حينه فتحا مبينا فى عالم المطبوعات العربية.

غير ان عظمة الشعب البريطانى وتشعب مناحى فعالياته وحاجة اطلاع ابناء الضاد على مختلف اوجه نشاطه بدرجة اوسع فاوسع قد جعلت المتعطشين الى ذلك يترقبون جهودا جديدة تؤول الى تطمين حاجتهم اكثر فاكثر. و كتاب (الانكليز كما عرفتهم)

الذی یسرنی ان اعلق علیه بهذه الکلمات هو فی الحقیقة لیس سوی
حلقة ثانیة من سلسلة الاطلاعات الثقافیة التی یتشوق الیها کل
عربی لیعرف الانکلیز فی بلادهم او فی خارجها. فهو جدیر
بالمطالعة الدقیقة والعنایة الفائقة لانه جاء فی بعض اقسامه مکملا
لمباحث کتاب (الانکلیز فی بلادهم) او موضحا لها لکنه جاء فوق
ذلك بمبتکرات غیر مطبوعة وبحوث غیر مطروقة فی العربیة فخدم
سلسلة الاطلاعات المذکورة خدمة لا تقدر. حتی انه برع فی
تحلیل الکثیر من النواحی الخلقیة والنفسیة لشعب حار العلماء فی
تعلیل سر تقدمه ونبوغه. ویخال لی ـ علی ما فی آرائه من صراحة
قد تتعدی نطاق البحث العلمی ـ ان ما قام به مؤلف هذا الکتاب
من مراجعات لامهات الکتب المنتشرة بلغات مختلفة والباحثة فی
موضوع الشعب الانکلیزی قد اکسبته ملکة وقوة جعلتاه اکثر
جزما من غیره عندما یبدی رأیا فی خواص هذا الشعب ومؤهلاته
حتی ولو ادی الامر الی ما قد یصل الی مس الاحساس والشعور
مما جعلنی اعتقد وانا اطالع هذا الکتاب ان مؤلفه لو بحث فیه عن
شعب اخر غیر الانکلیز لجابه بعض الانتفاض منه. لکن الشعب
الانکلیزی ـ وهذا من میزات عظمته ـ لا یفتأ یستلطف البحث
العلمی ویعشقه وان وجد فیه ما یجرحه احیانا من حقائق. فبرنارد
شو لا ینفك یتحف العالم منذ اکثر من خمسین سنة بحقائق نفسیة
وخلقیة ومعاشیة عن الشعب الانکلیزی لو نظر الیها قاریء بسیط
لوجدها حملة شعواء مملوءة بالتعریض المر. ومع هذا فالانکلیز

باجمعهم اخذوا يتداولون اقوال برنارد شو كانها حقيقة ليستدلون. بها على طباعهم وخلقهم وطرز تفكيرهم وهم جذلون غير عابئين بشدتها. ودليل اخر على رحابة صدر هؤلاء القوم هو ان المؤلف يذكر فى مستهل كتابه انه عرض النسخة الانكليزية منه على بعض كرام الانكليز هنا فلم يعترض منهم احد على ما ساقه فيه من اقوال واستنتاجات عن بلادهم وشعبهم.

انى لم اكن ممن اسعدهم الحظ باكمال دراساتهم العالية فى بلاد الانكليز حيث اتيحت لهم فرص قيمة ليعيشوا بين افراد هذا الشعب الوديع المجامل فى بلاده فاكتسبوا من معاشرته دروسا ثمينة واستفادوا كثيرا من اتصالهم بمجتمعاته وحياته العائلية مما جعلهم فى مركز يستطيعون معه ان يبدوا اراء مفيدة عنه. ومع ذلك فقد سنحت لى بعض الفرص فزرت بلاد الانكليز وبقيت فيها اوقاتا غير قصيرة واتصلت بالفرد الانكليزى مرارا كثيرة هنا وهناك فى خلال خمس وعشرين سنة واستطيع بناء على خبرتى هذه ان اؤكد باننى كنت مأخوذا بشعور التقدير والاعجاب لهذا الشعب الحى فى كل مظاهر حياته، وقد يمتد هذا الشعور الى الشعوب الانكلوساكسونية باجمعها ولكنى اضع دائما فى مقدمتها هذا الشعب الذى رغم محاولاتى فهم كنه العوامل التى جعلت منه شعبا ممتازا يتزعم حضارة العالم لم اصل تماما الى ما اطمئن اليه من استنتاج علمى واضح. وقد ساورتنى عدة هواجس وتيارات كلما حاولت ان استنبط قاعدة اركن اليها فى تدقيقاتى لاتمكن من

اسناد فوز الشعب البريطانى الى خصائصه القومية والمعاشية فقط فلم اقدر على ذلك حتى وصل بى الامر الى ان اجازف بالقول واخرج عن نطاق البحث العلمى وأؤمن بالحظ والتوفيق اكثر من اى شيء اخر. لقد صرت اميل الى القول بان للافراد فى معركة الحياة طالعا حسنا يكسبهم الفوز او طالعا سيئا يبعدهم عنه وللشعوب ما للافراد سواء بسواء. فهى كالافراد لا تتساوى جميعها بالتمتع من خيرات الطوالع او من اثارها، وحسن الطالع لا ينفك يساند الشعب البريطانى فى معارك حياته. والا فكيف نعلل ظواهر وعوامل لا تحصى تتصل بحياة هذا الشعب وهى ليست من شأنها ان تضمن له الفوز فى الحياة ؟

فشعب منعزل فى جزيرة يخيم عليها الضباب اكثر ايام السنة ولا يتمتع بنور الشمس الا ثلث السنة وينزل فى بلاده المطر مدرارا الى درجة تشل كل نشاط زراعى وله من برودة الطبع والجمود الخلقى ما اصبح مضرب الامثال، يتمسك باذيال التقاليد البالية التى اصبحت لا تجارى مقتضيات الزمن وهى لو كانت مقتصرة على اشكال ومظاهر لهان الامر ولكنها احاطت بامهات الامور الاجتماعية والاقتصادية والمعاشية فى بلاده. وقد خالف هذا الشعب العالم فى الاعتقاد فثار على الكنيسة الكاثوليكية التى هى فى الحقيقة ام النصرانية وحجرها الاساسى كما خالف العالم بالمقاييس والموازين وفى اتجاه السير فى الشارع وفى طرز تلقيه الحياة والمعاش وفى مواريثه وفى تنظيم طبقاته ومجتمعاته وهو

يعيش على خيرات ومنتجات البلاد الاجنبية عنه حتى انه لا يستطيع انتاج ما يحتاجه من طعام يكفيه ومن ملبس يقيه عوارض الطبيعة الا بمواد اولية ليست من بلاده. نعم ان هذا الشعب القدير قد اتخذ قواعده من الشواذ وضرب القواعد بركلة او لم يحفل بها. هذا قليل من كثير ومن يطالع مباحث هذا الكتاب يجد الكثير من هذه الشواذ. قلنا ان هذا الشعب برغم ما قد اسلفنا قد فاز على انداده وهم وهو من عنصر واحد وفاز كذلك على غيرهم من غير عنصره مع انهم ورثوا تراثا ضخما ومدنية زاهية لم يملكها اجداده. ولا اعتقد انه من السهل اكتشاف السر الدفين كلما زاد التعمق فى البحث ولكن هذا لاينفى ضرورة هذا البحث ومعرفة تلك العوامل الخفية والعجيبة التى جعلت هذا الشعب العظيم يفوق اقرانه واضطرت الاخرين الى السعى لتقليده فى اعماله واقواله.

فمحاولة السيد امين المميز فى كتابه هذا ليست الاولى من نوعها كما قدمنا بل هى جزء ضئيل من تلك المحاولات الواسعة النطاق التى قام بها العلماء فى العالم لسبر غور هذه العوامل الكامنة فى هذا الشعب، حتى العالم الإفرنسى الشهير (ادمون دومولان) عندما وضع كتابه القيم (سر تقدم الانكليز السكسونيين) سنة ١٨٩٧ كان كلما اراد ولوج هذا الباب من الوجهة النظرية والاستنتاجية وجد نفسه عاجزا عن الوصول الى نتيجة حاسمة فاكتفى ببحث المسائل الواقعية ودققها واشار على بلاده باقتفاء اثر الانكليز فيها.

ومهما يكن من امر فان محاولة المؤلف لجمع شتات الخواص والميزات للشعب الانكليزى وعرضها على القارىء العربى باسلوب سهل وبصيغة واضحة لمن احسن المحاولات الموفقة الجديرة بالتقدير والتشجيع.

لقد كان ضروريا ان يتعرف الجمهور العراقى حقيقة المجتمع الانكليزى ولو اراد كل قارىء ان يراجع مطاوى الكتب والمصادر التى تعطمن حاجته لاحتاج ذلك الى وقت طويل وجهد مضن فخدمة المؤلف فى هذا الشأن كانت مشكورة وجزيلة. واذا تعرف الجمهور العراقى الى صديقه وحليفه الجمهور الانكليزى يكون من السهل تقوية اواصر المودة ما بينهما وخدمة المصالح المشتركة التى تأسست لحسن الحظ وتوطدت اسسها لا بين العراق وحده وبريطانيا بل بين العالم العربى وبينها وفى ذلك ما لا يقدر من منافع تعود بالخير العميم على الجميع.

قد يكون لدى بعض الملاحظات على بعض اقسام الكتاب او بعض المباحث التى لا علاقة لها بالمجتمع الانكليزى ولكنى ارجح ان ابديها للمؤلف شفهيا حتى اذا راقت له اخذ بها فى الطبعة التالية.

وفى الختام اود من الصميم ان يعم انتشار هذا السفر الجليل اذ بانتشاره الخير كله وان يستطيع مؤلفه الفاضل مواصلة تتبعاته ليتحفنا بما نحتاجه لثقافتنا من طرق ثمينة.

بغداد ٢٠ تشرين الثانى ١٩٤٤ — توفيق السويدى

الفصل الأول

الرجل الانكليزى

الشعب البريطانى

الشعب البريطانى شعب غريب فى اطواره فريد بصفاته، فلو سئلت ان أضيف اعجوبة ثامنة الى عجائب الدنيا السبع لما ترددت فى اختيار هذا الشعب. لا لان الفرد الانكليزى يتصف بصفات جسمية خاصة او يمتاز بخواص ذهنية فوقه على سائر ابناء الشعوب، بل لان هؤلاء القوم الذين انزووا فى تلك الجزر قد كونوا شعبا اقل مايقال فيه انه يدعو الى الحيرة والاستغراب. لا اعرف شعبا من شعوب العالم اهتم به الاجانب ودرسوا احواله من نواحى متعددة وألفوا فيه الكتب الكثيرة كالشعب الانكليزى وبلاده. وقد يكون السبب ان هذه الجزر وسكانها تستهوى الباحث والمدقق فيكب على البحث والتدقيق لعله يتمكن من فهم حقيقة هؤلاء القوم. ولكن ليت شعرى هل يتيسر لكل باحث او مدقق ان يتوصل الى نتائجه عنهم بسهولة. فالجواب على ذلك بالسلب اذ كلما مكث المرء فى بلاد الانكليز يوما اكثر تفتحت له امور جديدة وتوصل الى حقائق لم يدركها من قبل. وسبب ذلك ان الانكليزى بطبيعته لا يريد ان يكشف النقاب عن نفسيته وعقليته بسهولة كما هو حال ابناء شعوب القارة الاوروبية وخاصة الفرنسيين. ولذا فان الطريقة الوحيدة التى تمكن الاجنبى من الوصول الى قرارة نفس الشعب الانكليزى ودراسة ذهنيته هى الانخراط فى سلكهم انخراطا تاما والمعيشة بين ظهرانيهم واظهار الود لهم والعطف عليهم. بهذه الوسيلة وبهذه الوسيلة وحدها، يضاف اليها استعمال ادق الطرق الدبلوماسية، يتمكن الاجنبى من الوصول الى بعض النتائج عن هذا القوم. لان الانكليزى بطبيعته لا يحب الكلام ويمقت الهذر والثرثرة مقتا عظيما والحقيقة انه يعتقد ان اللغوصفة غريبة عنه ولو ان المتبصر يصادف بين حين وآخر بين الانكليز وخاصة بين عجائزهم من لا يطاقون لكثرة هذيانهم، والشاذ لا يقاس عليه.

الاجنبي فى انكلترا

ماذا يشعر الاجنبي تجاه هذه الاعتبارات وهو بين اولئك القوم لاول مرة ؟ لقد وجدت فى عدد من الاقطار الاجنبية بين شرقية وغربية ولكنى اقول بـانى لم اشعر بغربة ووحدة بقدر ما شعرت به عندمـا وصلت بلاد الانكليز، رغم انه لى بعض الحظ من لغتهم. على انى لا انفرد بهذا الشعور بل هو شعور اغلب الناس وخاصة الشرقيين منهم ولذلك نرى ان عددا ضئيلا جدا من بين اولئك الذين يزورون اوروبا يخطر ببالهم ان يعبروا القنال الانكليزى، اللهم الا اذا استثنينا الامريكان او ابناء الدومنيونات الذين تربطهم بتلك البلاد روابط الرحم والشعور فهم ينظرون الى الانكليز والى بلادهم ومؤسساتهم وآثارهم ومختلف نواحى حياتهم بغير المنظار الذى ينظر به الشرقيون. فالشرقى الذى يزور الجزر البريطانية لا تجذبه تلك الروح التى تتغلغل فى حياتهم وغرضه الوحيد من زيارته هو الاطلاع على ما سمعه او قرأه عن المشـاهد التى تنفرد بهـا تلك البلاد. ان من اهم الاسبـاب التى تجعل الغريب ينفر من الانكليز وبلادهم هو موقفهم من الاجنبى. فالانكليز يشعرون نحوه شعورا خاصا وللفظ اجنبى (Foreigner) مفهوم خاص فى انكلترا. فالانكليزى لا يشعر براحة مطلقة فى اختلاطه بالاجنبى، فاغلب الانكليز يرتبكون منه اذا وجد بينهم ولو انهم قد يأنسون به ويرون فيه شيئا ممتعا الا ان شعورهم هذا وقتى غير دائم. فتراهم يوجهون اليه مختلف الاسئلة عنه وعن بلده وطبائع اهله وأخلاقهم وطرق معيشتهم وغير ذلك ثم يأخذون فى مراقبة حركاته وسكناته التى يتخيلون انها غريبة عنهم. فعامة الانكليز لا تهمهم الا راء الاجنبية (فى ظروف السلم طبعا) وهم يسيئون الظن بالاجنبى ولا يثقون بمبادئه ومعتقداته مهما كان، حتى ان بعض المدققين ومنهم السنيور دى مادارياكا(١)، يذهبون الى ابعد من ذلك فيقولون ان كلمة «أجنبى» فيها معنى الازدراء بالنظر الى مفهومهـا عند الانكليز. يحكى ان صاحب فندق فى مدينة ايطالية سأل عجوزا انكليزية عما اذا كانت اجنبية، «كلا» اجابت السيدة بنفرة شديدة «اننى انكليزية وانت اجنبى». تدلك هذه القصة على وقع كلمة الاجنبى لدى الانكليز واغلبهم يفهمون معناها كما فهمته

(١) فى كتابه المسمى (Englishmen, Frenchmen and Spaniards)

هذه السيدة. فانك ان راقبت تصرفات الانكليز تجاهك وقد علموا باجنبيتك، رأيت اكتافا ترفع وحواجب تتحرك ونظرات شزرة اذا ما خالفت عادة من عاداتهم التى لا تعد ولا تحصى. هذا فيما اذا كنت بين جمع خاص منهم ولكنك فى المجتمع العام تشعر بانك حر طليق تفعل ما تشاء وتقول ما تهوى - ضمن حدود القانون طبعا - دون ما رقيب او منتقد. ولكنك اذا مافعلت ما يجب الا تفعله سواء اكنت اجنبيا ام مواطنا فالطريق قصير - من يد الشرطى - الى قاعة المحكمة - الى حجرة السجن.

عندما يصل الاجنبى بلاد الانكليز يشعر لاول وهلة كأنه فى التيه فيتذكر بلاده ويئن لفرقتها ويحن الى اهله وخلانه. وذلك ليس لان المدنية الانكليزية لا تسحره ولا لان ليس فى انكلترا، واخص بالذكر منها لندن، ما يستهويه. ففى انكلترة كل شىء ولكنه ليس من السهل على الاجنبى ان يرى كل شىء فى انكلترة. انما الطبيعة الانكليزية هى التى تجعل الغريب يشعر بغربته فى تلك البلاد. فالانكليزى محافظ بطبيعته يتعشق العزلة ويميل الى الهدوء الفكرى، وهذه الصفات هى التى جعلت الانكليز وبلادهم فى نظر اغلب الاجانب شعبا وبلادا لا روح فيها ولا حياة. فما يعتاده الاجنبى وهو فى اقطار اوروبا الاخرى كفرانسا والمانيا والنمسا او هنغاريا مثلا من روح المرح والانغماس فى حياة اللهو لا يراها فى انكلترا وهو فى اوائل عهده فيها. وعليه حينئذ اما ان يماشى القوم فيعيش كما يعيشون واما ان يحمل حقائبه ويعود من حيث اتى. يمكنك ان ترى وانت فى اول عهدك بهم كثيرا من الاشياء بسهولة ولكن الشىء الوحيد الذى لا يمكنك ان تحصل عليه بمثل تلك السهولة هو التوغل فى قرارة الحياة الانكليزية. ومثل هذا التوغل ضرورى اذا ما اردت معرفة التفكير الانكليزى والنفسية الانكليزية لان كثيرا من حسناتهم وسيئاتهم يختفى وراء ستار كثيف يصعب اقتحامه دون عناء وجهد. ولكن هنا السر فى حب كثير من الاجانب لتلك الجزر وسكانها. فاذا ما اقام الغريب فى انكلترا مدة كافية وتمكن من التعرف ببعض السكان فحينئذ يرى كل شىء بمنظار يختلف تماما عن المنظار الذى كان ينظر فيه قبلا. فالبلد يصبح فى نظره نعيما واهل البلد يظهرون له كأنهم شعب الله المختار. ومن مميزات ذلك

حب الاجانب لانكلترا

البلد الامين انه لم يرق قط لعين الاجنبى الذى بقى فيه اياما معدودات. وفى الوقت ذاته قليلا ما ترى اجنبيا اقام فى تلك البلاد مدة طويلة من الزمن دون ان يفتتن بها ويعجب باهلها. على ان فريقا من الاجانب كانوا فى تلك البلاد فلم تعجبهم. وعندى ان السبب فى ذلك هو واحد من اثنين. أما انهم لم يقيموا فيها مدة كافية تمكنهم من فهم القوم ومعرفة البلد واما انهم اقاموا مدة طويلة ولكن لم تسنح لهم الفرص الكافية لدراسة النواحى الفكرية والاجتماعية فى البلاد. لفت نظرى مرة صديق انكليزى الى انه لاحظ كثيرا من الشرقيين الذين كانوا فى انكلترا قد رجعوا منها وهم يكرهون البلاد وشعبها. ان هذه الملاحظة وان كانت صحيحة الى درجة ما، بيد ان الشعب الانكليزى نفسه هو الذى يجب ان يلام على ذلك. لقد ذكرت الشىء الكثير عن وجهة نظر الانكليزى نحو الاجنبى وهى نظرة يجب الا تتوفر فى شعب هو اكثر شعوب العالم اتصالا وعلاقة بالاجانب. فانكلترا هى مركز لاعظم امبراطورية فى العالم وعاصمتها هى كعبة العالم سواء من الناحية السياسية او الثقافية او الاقتصادية او من النواحى العديدة الاخرى والانكليز على اتصال وثيق ومستمر بكثير من الاجانب فمن الغريب حقا ان تكون نظرتهم الى الاجنبى على الوجه الذى اسلفنا.

بغض بعض الاجانب لانكلترا

سبب ذلك

واظن ان هناك عاملا آخر قد اثر فى اعتقاد الاجانب بانكلترا وبالشعب البريطانى. وهذا الاعتقاد مستمد من التأثير الذى يتركه الانكليز الموجودون خارج انكلترا والذى يمكن تصنيفهم الى عدة اصناف. فمنهم الطبقة الحاكمة واعنى بهم اولئك الذين على رأس المصالح البريطانية. ومنهم الهواة الذين وجدوا فى الخارج لاشباع رغبة نفسية كحب البحث والاستطلاع وهذان الصنفان لا يمثلان الفرد الانكليزى او ما نسميه «برجل الشارع» وما ينطبق عليهم لا يصح ان يؤخذ مقياسا لرجل الشارع الانكليزى، فهم اعلى من مستواه الاجتماعى والفكرى. وهناك الفريق الذى اضطرته ظروف المعيشة الى العمل فى الخارج واكثر هؤلاء قد أشرب بالروح الاستعمارية الانكليزية تلك الروح التى كانت تطبع بطابعها السياسة البريطانية فى القرن الماضى واوائل القرن الحالى. فهؤلاء قد فقدوا انكليزيتهم الحقيقية كما انهم لم

الانكليز خارج انكلترا

ينطبعوا بطابع البلاد الاجنبية التى اقاموا بها وبذلك فقد أضاعوا المشيتين• وفى اعتقادى ان لهذا الفريق ترجع اهم الاسباب التى ادت الى توليد نفرة الكثير من الناس من الانكليز• ويحسن الشعب البريطانى الصنع اذا ما طالب باستدعاء مثل هؤلاء العناصر من بنيه من الخارج فيفسح بذلك مجال العمل للجيل الجديد الذى يظهر انه مدرك اكثر من سلفه ظروف العالم الحديث والتطور الفكرى والسياسى الذى يسود العالم اليوم•

الانكليز ومنتقدوهم من الاجانب

ومن أمتع خصال الفرد الانكليزى داخل بلاده هو أنه يحب أن يقرأ كل ما يقوله عنه الاجانب من أنتقادات مهما كانت تلك الانتقادات مرة ولاذعة• فتراهم لا يكترثون ولا يبالون اذا رأوا ان اجنبيا قد فضح بعض خصالهم السيئة بل بالعكس تراهم يقرأون ذلك بكل أمعان وحماس حتى انهم كثيرا ما يردون على المنتقد الاجنبى بانه لا يعرف كل الحقائق عنهم فيأخذون هم أنفسهم فى متابعة ما بدأ بـه ذلك المنتقد من أنتقـاد لانفسهم• فيقولون عن سيئاتهم ونقائصهم اضعاف ما يتمكن الد أعدائهم ان يقوله عنهم• فمن المستبعد جدا ان يغضب الشعب الانكليزى من انتقاد فلا مظاهرات ولا مشاغبات ولا احتجاجات ولا عرائض ان أنتقدهم كاتب اجنبى او هاجمهم خطيب غريب• ويمكن استطلاع مبلغ حب الشعب الانكليزى للاطلاع على ما يفكره الاجانب فيهم انه لم يصدر كتاب عنهم بلغة اجنبية الا وترجم ذلك الكتاب حالا وعرض للنشر وكم من هذه الكتب ما كانت اكثر الكتب رواجا فى البلاد وعرضة للنقد والتقريض من قبل الصحف والكتاب• صادف ان ترجم كتاب لاحد الاجانب (١) عن الشعب الانكليزى فيه أنتقاد لهم ومدح بهم• فشاء احد الكتاب البارزين الذى كان نفسه قد وضع كتابا عن صفات وخصال بنى قومه (٢) ان يقرض الكتاب• فجاء على ملاحظة كان قد أبداها الكاتب الاجنبى عن الشعب البريطانى فلم يتمكن ذلك الكاتب الانكليزى من ردها او دحضها فقال (أن هـذه الملاحظة هى صحيحة تمامـا ولكن ليت شعرى كيف تمكن هذا الاجنبى من التوصل اليها)•

---

(١) Those English by Baron Kurt Von Stutterheim

(٢) England by the Rev. W. R. Inge

انكلترا بلاد المتناقضات والشذوذ

قلت فى مستهل هذا الفصل ان الشعب البريطانى شعب غريب فريد ولدى من الادلة ما يدعم ذلك الادعاء. فبلاد الانكليز بلاد المتناقضات والشذوذ. ومن الخطل ان يحاول المرء وضع قاعدة ثابتة او قانون عام اذا ما اراد البحث عن اية ناحية من نواحيه الفكرية او الاجتماعية او السياسية او غيرها. ولذلك فما على الباحث الا ان يأخذ كل امر بواقع حاله وبصورة مستقلة. كما انه من الخطل الزائد ان يحاول تطبيق القواعد المنطقية عند درس نفسية هؤلاء القوم اذ من الغريب انهم انفسهم يقرون بانهم اناس لا منطقيون والانكى من ذلك انهم يفتخرون بلا-منطقيتهم هذه. وفى احدى رسائله (١) كتب (برنارد شو) يقول «ان الشذوذ والخروج على القواعد المنطقية هى خاصة من خصائص الشعب الانكليزى ونحن فخورون بهذه الصفة». وعندى شواهد عديدة لاثبات شذوذ القوم ومناقضاتهم منها: بينما تشتهر انكلترا بكونها مهد الديمقراطية فى العالم نرى من الناحية الاخرى انها بلد تتمثل فيه (البلوطوقراطية) والحكم (الاوليكاركى) بأجلى مظاهرها. وفى الوقت الذى يعلم اغلب الناس بان الانكليز بطبيعتهم يميلون الى التفريق بين الطبقات والاصناف الاجتماعية ويهتمون بتلك اشد الاهتمام، يمكننا القول فى الوقت نفسه ان انكلترا هى بلد الفرص، فكم من صبى معدم ليس له من حطام الدنيا ولا من شرف الانتساب الى طبقة عالية، نراه يصل الى اعلى مناصب الدولة او منتهى درجات السعة والجاه. وبينما انكلترا هى النعيم للغنى فهى فى الوقت ذاته جحيم للفقير. وبينما المعلوم عن الانكليزى انه يهتم جدا بما يخص نفسه نرى من الناحية الاخرى روح التعاون فيه فى ذروتها. ومن الشواهد الاخرى: ان رياء الانكليز حقيقة ثابتة ومعلومة لدى كل من يعرفهم، ولكن من الناحية الاخرى فان استقامة الانكليز وصدقهم وفضائلهم الاخلاقية يقرها كل واحد. وكثيرا ما يتهم الانكليز بانهم اناس يعبدون المادة حتى ان نابليون وآدم سميث قد وصفا الشعب الانكليزى بانه شعب مكون من (اصحاب دكاكين)، بينما يعلم كل من يعرف هذا الشعب درجة كرمه وميله الى البر والاحسان والانفاق. وشاهد آخر: بينما تعرف بريطانية، كما قال (بالمرستون)

---

(١) نشرت هذه الرسالة فى جريدة التايمس اللندنية ١٩٤٤ .

احد مشاهير ساستهم بان ليس لها صداقة دائمة ولا عداوة دائمة بل لها مصلحة دائمة، نرى انها تدعى بأنها كثيرا ما خاضت غمار حرب ضروس حفظا لعهد او وفاء لصديق، فالحربان اللتان شهدهما جيلنا دخلت احداهما وفاء لتعهداتها للمحافظة على حياد بلجيكة وثانيها تنفيذا لعهد اعطته لمساعدة بولونيا اذا ما اعتدى عليها.

العوامل التى اثرت على الفرد

وقبل ان اتغلغل فى بحث صفات الرجل الانكليزى ومزاياه ارى لزاما على ان اتطرق اولا الى العوامل التى اثرت فيه وكونت منه هذه الشخصية التى تضم بين جوانحها تلك الصفات والمزايا. وارى ان هذه العوامل يمكن ان تعزى الى ثلاثة امور: اولها الوضع الجغرافى لبلاد الانكليز وثانيها المناخ وثالثها التاريخ والمدنية الانكليزية. وسأحاول ايضاح ما اقصد بذلك.

الوضع الجغرافى

تكون بلاد الانكليز من عدد كبير من الجزر اكبرها الجزيرة التى تضم اسكوتلندا وانكلترا الاصلية وويلس والتى تسمى (انكلترا) وما يسميها الانكليز انفسهم ببريطانية العظمى وهى تعد من اكبر جزر العالم من حيث المساحة وتقع كما قال شكسبير فى «ابعد زاوية من زوايا العالم» وهذه الجزيرة التى تبلغ مساحتها اكثر من نصف مساحة العراق بقليل قد انجبت شعبا لم يعرف تاريخ البشر نظيرا له كما انها قد اصبحت مركزا لاعظم امبراطورية عرفها التاريخ. ان هذا المركز الجغرافى الذى تتمتع به انكلترا قد اثر تأثيرا كبيرا فى الشعب الذى يسكن هذه الجزر وله فى الوقت ذاته فوائد ومحسنات. فمن اهم ما انعمت الطبيعة به على هذه البلاد هو انها أمنت شر تجاوز الامم والشعوب الاوروبية فكان غزوها من اخطر المجازفات العسكرية التى عرفت ومع ذلك فقد ذاقت البلاد مرارة الغزو سنة ١٠٦٦ . كما ان (الارمادا) الاسبانية كانت مقدمة لغزو آخر. ولم يلبث نابليون بعد ان دوخ اوروبا ان اعد العدة لركوب البحر ولكنه لم يفلح وربما فكر هتلر فى ذلك ايضا (١) وبغية تأمين شر تجاوز الشعوب الطامحة آلى الانكليز على انفسهم ان

---

(١) غزت جيوش الشعوب المتحدة القارة الاوروبية صباح ٦ حزيران ١٩٤٤ والكتاب تحت الطبع. وقد قال المارشال ستالين بحق هذا الغزو ان الجيوش الانكلوسكسونية قد حققت ما لم يتمكن من تحقيقه نابليون ولا هتلر.

ينشئوا اعظم قوة بحرية فى العالم ترمى، فيما ترمى اليه، الى امرين مهمين: اولهما رد عادية الاعادى وثانيهما ضمان معيشة سكان هذه الجزر التى ليس فى وسعها تأمين عيشهم بما تدره من الخيرات. وبهذه الوسيلة لم تأمن انكلترا شر غزو الدول الاجنبية فحسب ولكنها سمحت لنفسها بان تتدخل فى شؤون كل قطر من اقطار العالم دون ان يكون لاى منها دخل ما فى الشؤون الانكليزية. ويظن الانكليز ان الطبيعة قد مازتهم بهذا الحق فترى دائما ان لبريطانية العظمى ما تقوله فى شؤون فرانسا او المانيا مثلا، واذا قاوم الانكليز احد المرشحين لرئاسة الولايات المتحدة فمن العسير ان ينال ذلك المرشح امنيته، او تراها تترقب ما تأتى به حركة سياسية داخلية قامت فى احدى دول اوروبا الوسطى او الشرقية، او ترى لها شأنا عظيما فى امور الصين او فى امور الحبشة او فى امور احدى دول اميريكا الجنوبية او فى التيبت وحتى الربع الخالى من الجزيرة العربية قد خضع لنفوذ (برترام توماس) و (جون فيلبى). ولكن ليت شعرى هل فكرت احدى هذه البلدان فى ان تقول ولو كلمة واحدة حول شؤون انكلترا او تتعرض لها؟. وقد بلغ التطرف عند من قال انه لا توجد دولة فى العالم «مستقلة» بقدر ما يتعلق الامر بالتدخل البريطانى فى شؤونها.

انكلترا والدول الاجنبية

العزلة

هذا هو رأى بريطانية الدولة فلنستعرض الآن رأى الفرد الانكليزى. قبل كل شيء لا اريد ان اضرب مثلا تمهيدا لكلامى ذلك الانكليزى الذى تشاهده فى الاوساط ذات الامتياز وحتى فى المدن الكبيرة. فالانكليزى الذى يمكن ان يؤخذ نموذجا للشعب هو الذى يقطن البقاع النائية عن هذه المناطق وهو الذى يمثل الفرد الانكليزى تمثيلا صحيحا. ان الوضع الجغرافى لانكلترا قد ولد فى الانكليز فكرة العزلة (Insularity) أى الشعور بالانفصال عن بقية أجزاء العالم. يقال ان معلما سأل احد تلاميذه ان يعرف الجزيرة فاجاب التلميذ «ان الجزيرة هى بقعة من الارض تحيطها البحرية البريطانية» هذا هو مفهوم الطفل الانكليزى لكيانه ووجوده الوطنى ويظل مفهومه كذلك وهو رجل كامل بتفكيره وادراكه. ومن اظرف ما يروى بهذا المعنى ان هبت ذات ليلة اعاصير شديدة قطعت سير البواخر بين الجزر البريطانية واوروبا

فصدرت فى صباح اليوم التالى الصحف الانكليزية بالعنوان التالى «انعزال القارة» كأن القارة هى جزء متم للعالم الانكليزى وليس عالم الجزر جزءا من اجزاء العالم الخارجى. فالفرد الانكليزى العادى لا يعلم شيئا عن العالم الخارجى بل كل ما يعلمه ينحصر ضمن نطاق افقه الوطنى فقط. فهو يظن ان كل ما يعمل او يرى فى انكلترا هو الشىء الصحيح والوحيد واذا ما اراد ان يعترض على اى شىء او يصفه بالبطلان يقول ان ذلك الشىء(غير انكليزى). يعجز الزائر لانكلترا ان يجد اسبابا تبرر السير على الجهة اليسرى من الشارع خلافا للنظام المتبع فى جميع اقطار العالم تقريبا. فبرغم المحاذير التى قد تنجم عن اختلاف جهات السير ترى ان الحكومة لم تفكر فى تغييره لان ذلك هو «النظام الانكليزى» للسير. كتب احد الممثلين الدبلوماسيين الذين وجدوا فى انكلترا فى القرن الخامس عشر يصف لحكومته النفسية الانكليزية فقال: «يعتقد الانكليز بانه لا يوجد فى العالم بشر غيرهم، ولا يوجد عالم آخر غير عالمهم (اى انكلترا) واذا ما رأوا اجنبيا شائق المظهر وصفوه بانه (يشبه الانكليزى) وانه من المؤلم جدا ان يكون غير انكليزى، واذا ما اشتركوا مع اجنبى فى اكلة لذيذة تساءلوا عما اذا كان يوجد فى بلاده مثلها» (١) فيخال لى ان كل من وجد فى انكلترا واتصل بهؤلاء القوم لا مندوحة له من الاتفاق مع هذه الملاحظات التى كتبت عنهم قبل خمسة قرون اذ يظهر ان آراءهم هذه لم تتغير كثيرا منذ ذلك الحين. كنت ابحث مع مؤلف انكليزى شهير عن العنوان الذى سأختاره للطبعة الانكليزية من هذا الكتاب فذكرت له بانى اود ان اسمى كتابى «مطالعات عراقى مسلم عن الانكليز». فسكت ذلك الصديق هنيهة ثم قال «الاوفق ان تبحث لك عن عنوان آخر للكتاب لان القارىء الانكليزى العادى لا يفهم معنى (عراقى) ولا معنى (مسلم)». وهذا هو الواقع.

الانكليز بالامس واليوم

العزلة والآداب الانكليزية

ان فكرة «العزلة» فى الفرد الانكليزى يمكن ان تظهر للعيان فى كثير من المظاهر. لنأخذ الآداب الانكليزية مثلا ـ نرى ان اغلب الشعراء والكتاب الانكليز لم يتطرقوا الا فيما ندر الى شىء خارج افق انكلترا. فقد انفرد من

(١) (History of England—By G. M. Trevelyan)

بين الشعراء الانكليز المعروفين الشاعر (كبلنك) بنظم بعض الاشعار الاستعمارية كما ان توماس هاردى ولو انه كتب الشيء الكثير عن امور كائنة خارج العالم الانكليزى بيد انه لم يتعد العالم الانكلوسكسوني. ومن الشواهد الاخرى ان الكاتبة الشهيرة جين اوستن عاشت اثناء الحروب النابليونية وكتبت عددا كبيرا من الكتب ومن الغريب ان القارىء لتلك الكتب لا يتمكن من ان يستنتج ان الكاتبة قد عاشت فى ذلك العهد. وقد يتبادر الى ذهن القارىء كتابات شكسبير واشعاره غير ان هذا الشاعر العظيم فلتة شاذة والشاذ لا يقاس عليه. ان فكرة العزلة لدى الشعب البريطانى آخذة بالتضاؤل على مدى السنين والاعوام متأثرة بعوامل كثيرة. ففى القرن الحاضر اشترك الشعب البريطانى بحربين عالميتين اضطرته الى ان يتطلع الى ما بعد الافق الانكليزى، الى الافق العالمى، فصار الشعب يتصل بالعالم الخارجى سواء عن طريق ما يسمعه او يقرأه من الاخبار وما يراه فى الصور او فى السينما، وعن طريق الاتصال الفعلى باشتراكه فى مختلف جبهات القتال.

تضاؤل فكرة العزلة

المناخ

والعامل الثانى الذى اثر فى الحياة والطبيعة الانكليزية الى حد ما هو المناخ. لقد كتب الشيء الكثير عن المناخ الانكليزى فى كتب الجغرافيا والتاريخ والآداب. فقد وصف (سترابو) المناخ الانكليزى بالعبارات التالية: «فاما الطقس فهو ممطر اكثر من ان يكون مثلجا وعندما يكون الطقس جميلا يكثر الضباب مدة طويلة وتظهر الشمس ثلاث ساعات او اربعا فقط فى منتصف النهار». وقال (تاسيتوس): ان المناخ الانكليزى مزعج بالنظر الى كثرة المطر والضباب ولكن البرد غير قارص. وقال (هيروديان): «ان انكلترا يكتنفها ضباب دائم». وقال (مينوسيوس فيلكس). «ان بلاد الانكليز فقيرة باشعة الشمس لكنها دافئة بسبب حرارة البحار التى تحيط بها». هذه آراء بعض المؤرخين الاجانب فى المناخ الانكليزى ولا اخالنى اختلف عنهم فى هذا الوصف. وهذا رأى الملك تشارلس الثانى الذى قيل عنه انه لم (ينطق بشيء غير معقول ابدا) اذ قال: «يندر ان يوجد بلد آخر فى العالم يمكن ان يعمل الشخص فيه براحة تامة فى الهواء الطلق فى جميع مواسم السنة». والسبب فى ذلك يرجع الى ان المناخ الانكليزى هو من النوع الذى يسمى بالمناخ

(البحرى) فشتاؤه معتدل وصيفه لطيف والتغيرات الفصلية غير فجائية كما ان الحالات التى تحدث بها طفرات جوية هى قليلة. والمفهوم ان الاحوال الجوية وطبيعة مناخ اى بلد من بلاد العالم قد تترك بعض الاثر فى طبيعة سكان تلك البلاد. فلو قارنا مثلا بين طبيعة الفرد العراقى وطبيعة الفرد الانكليزى لرأينا الفرق البين بينهما فتباين الاحوال الجوية والمناخ القارى ذى الصيف الحار جدا والشتاء البارد جدا قد جعلت من العراقى فردا سريع التأثر والانفعال تسيره العاطفة فى كثير من الاحيان (١) اما الانكليزى فهو على العكس من ذلك بارد الطبع بطىء التأثر الى درجة انه يوصف بالبلادة. فالرطوبة الزائدة التى تقل كلما اتجه المرء نحو المناطق الشرقية من الجزر البريطانية والضباب والمطر والزوابع والاعاصير وغير ذلك من الاعراض الجوية قد (جمدت) عظام الشعب كما قال احد الكتاب. يمكننى ان استشهد بتأثير المناخ فى طبيعة الفرد بحالتى الشخصية فان انفعالاتى النفسية او العصبية فى انكلترا اقل بكثير منها عند ما اكون فى بلاد اخرى حتى ان بعض معارفى كانوا يصفوننى بانى «ابرد من الانكليز انفسهم». ولذلك فمن الطبيعى ان يكون الفرد الانكليزى الذى نشأ وترعرع فى ذلك المناخ بارد الطبع بطىء الانفعال.

تأثير المناخ على طبيعة الفرد

ان القسم الاكبر من السنة تكون الايام فيه ممطرة ومظلمة وملبدة بالغيوم ولذلك ترى جميع الناس يتكلمون عن اليوم الذى تظهر فيه الشمس ويكون فيه الطقس صاحيا. فتسمع الخادم وموزع البريد وعامل الباص وزميلك فى العمل يحيونك بتحية الطقس الجميل: (الطقس جميل اليوم يا سيدى. اليس كذلك ؟) هذا ما تسمعه على لسان كل من تصادفه فى مثل تلك الايام. وليس هذا الامر مقصورا على المعارف فحسب بل انك اذا جلست فى سيارة الباص او كنت فى الحديقة او فى الشارع ترى ان الشخص الذى بجنبك كانه مخول بالكلام معك حول المناخ والطقس دون ان تتعارفا طبقا للاصول المتعارف عليها. واذا ما جرى التقديم وفق الاصول ترى ان اول موضوع يتطرق اليه الانكليزى هو البحث عن الطقس والمناخ. فمن جملة الامور التى بقى اثرها

(١) كتب مؤخرا مراسل انكليزى فى العراق الى جريدته فى انكلترا مستغربا كيف ان سكان العراق قد بقوا فى قيد الحياة فى هذا الحر الشديد وهذا البرد القارص.

فى الفرد الانكليزى من جراء المناخ هو التأثير فى حياة الفرد الخاصة، ثم فى الحياة العامة. ومن هذه التأثيرات ان الانكليزى اصبح ولوعا بالرياضة لان اعتدال المناخ فى جميع فصول السنة يمكنه من القيام بالحركات الرياضية دون ما عنت او تكلف. ثم ان نوع ذلك المناخ لا يمكنه، كما هو حال الفرنسى مثلا، من التمتع فى ارتياد المقاهى المفتوحة او التمشى على ارصفة الشوارع ولذلك تراه قد جعل البيت والنادى المحلين اللذين يجد فيهما راحته وحريته واستقلاله وبنتيجة الانهماك فى الرياضة تولدت فى الفرد الانكليزى خواص وصفات اغلبها صفات سامية. كما ان عوامل المناخ المختلفة قد حملته على ان يكيف حياته ونفسيته وفاقا لها ومن ذلك يظهر لنا مدى تأثير هذا العامل فى الفرد والشعب.

التاريخ والمدنية

لنرجع الآن الى العامل الثالث وهو التاريخ الانكليزى والمدنية الانكليزية. مما لا شك فيه ان تاريخ كل شعب ومجده يؤثران فى كل جيل من اجياله وكل فرد من ابنائه سواء من ناحية التفكير او العادات والطباع الفردية او الشعبية. ولكن اذا دققنا ما يفكر فيه الفرد الانكليزى العادى رأيناه، مع افتخاره بماضيه البعيد، قليل العلم او الاعتناء بتفاصيل ذلك الماضى واغلب معلوماته عنه لا تتعدى حوادث تاريخية متقطعة غير مرتبط بعضها ببعض بالتسلسل التاريخى المعتاد، كالقصص الغرامية او اعمال البطولة او المجازفات التى قام بها ملوكه الاقدمون واسلافه. وهذه الوقائع تمثل له بطرق شتى منها ما يقرأه فى الكتب الروائية ومنها ما يسمعه من الحكايات ومنها ما يراه فى المتاحف او على ستائر السينما. ان هذه القصص والمشاهد كثيرة جدا ولكن اهمها فى التاريخ الانكليزى هى قصص الملك آرثر، تلك القصص التى تكون قسما كبيرا من تاريخ الادب الانكليزى الذى يبحث فى الشخصية الخيالية للملك آرثر ومآثره التى اشهرها مواقعه الاثنا عشر وقصة خيانة زوجته له وقصة اختفائه وكثير غيرها. ومن القصص الشهيرة فى التاريخ الانكليزى غير المتسلسل قصص وليم الفاتح وشجاعته وبطولته التى تجعل اى فرد انكليزى يفتخر باسلافه. واذا ما زار متحف الشمع (لمدام توسو) فانه يشاهد ما يزيد فى فخره. فهناك يرى مشهدا للملك جون وهو محاط بنبلاء

الفرد الانكليزى لا يعلم الا حوادث متقطعة عن تاريخه

الانكليز الذين ارغموه على توقيع (الماكناكارتا) وهناك يفهم الانكليزى كيف ارغم الملك فى(Runnymede) على اعطاء الشعب حقوقه وحريته وكيف ان ذلك الملك احتضن التراب ومضغ الحشيش من غضبه على اغتصاب الشعب هذا الحق منه. وهناك ايضا قصص الملك ريشارد قلب الاسد وبطولته فى الحرب الصليبية. وهذه القصص كلها تنتقل بين الانكليز من السلف الى الخلف ومن الاب الى الولد فتبعث فيه غرورا بماضيه وزهوا باسلافه وتجعله يتباهى على سائر الاقوام والشعوب بهذا الماضى الذى جعله يظن انه اعلى الاقوام منزلة واشرفهم محتدا ولكن مثل هذه القصص، كما قلت، وقائع متقطعة وغير متسلسلة من التاريخ الانكليزى. اما التاريخ الانكليزى المتسلسل كما يتراءى لرجل الشارع فهو يبدأ منذ حكم ملوك التيودور وخاصة هنرى الثامن وابنته اليزابث التى بدأ بعهدها عز الامة البريطانية. ففى عهد الاب انشئت البحرية البريطانية واخذت انكلترا على عاتقها امر التوازن الدولى فى اوروبا وفى عهد البنت تفوقت تلك البحرية على كل من نافسها فاخضعت الارمادا الاسبانية وسادت البحار السبعة. ويمتاز هذا العهد ــ عدا ما تقدم ــ بنشاط الآداب والفنون والسياسة. والحلقة الثانية من التاريخ المتسلسل تبدأ من عهد ملوك الستيوارت حيث جرت حوادث تاريخية لا يجهلها اى انكليزى مهما كانت درجة ثقافته، كالخلاف بين الملك شارل الاول والبرلمان والحرب الاهلية واعلان دولة كرومويل والاتحاد بين انكلترا واسكوتلندا الى غير ذلك. وفى حكم سلالة (آل هانوفر) بلغت انكلترا ذروتها فى السطوة والنفوذ وخاصة فى أثناء حكم الملكة فكتوريا التى حكمت بريطانية اربعا وستين سنة وهى اطول مدة حكم فيها ملك بريطانى بل ربما حكم فيها اى ملك آخر فى العالم. ولذلك فمن الطبيعى ان يترك حكمها طابعا خاصا للحياة الانكليزية والفكر الانكليزى. ففى هذا اليوم نرى الانكليز يصفون بعض الامور بانها «فكتورية» كالابنية الفكتورية واللباس الفكتورى والفن الفكتورى او السياسة الفكتورية الى غير ذلك. ولا شك فى ان تفاصيل ما جرى فى ايام هذه الملكة هو خارج نطاق هذا البحث ولكنا رغبة فى جعل الصورة كاملة يحسن بنا ان نشير الى اهم الحوادث، التى جرت فى عهدها والتى لا بد من انها تركت

التاريخ المتسلسل

اثرا عظيما فى بريطانية كما نراها اليوم. فقانون الانتخاب وتعيين حقوق الناخبين وقضية التجارة المقيدة تلك القضية التى كانت دائما هى السياسة التى ينتهجها ويرتكز عليها الحزبان البريطانيان آنئذ وهما حزب المحافظين وحزب الاحرار، ثم الحروب الخارجية التى اشتركت فيها بريطانيا فى عهد فكتورية كحرب القرم وحرب البوير وثورة المهدى فى السودان وغيرها تلك الحروب التى خرجت منها بريطانية صاحبة الكلمة العلياء وعدا ذلك يمتاز العهد الفكتورى بما ظهر فيه من رجال السياسة البريطانية البارزين كاللورد بيل واللورد رسل وبالمرستون وغلادستون وبيكونسفيلد (دزرائيلى) وسالسبورى وكثيرين غيرهم.

المدنية

لا تستند بريطانيا كما نراها اليوم الى هذا التاريخ السياسى المجيد فحسب بل تستند ايضا الى مدنية زاهرة خاصة بها. وهذه المدنية لم تكن من نتاج الفكر البريطانى حصرا بل مستمدة من المدنية التى جاءت بها الشعوب والعناصر التى قطنت الجزر البريطانية كالنورمانديين والاسكانديناڤيين والدانمركيين والكلت والسكسونيين وعناصر اتت من حوض البحر الابيض المتوسط كسكان شبه جزيرة ايبريا والرومان مثلا ولا شك فى ان المدنية الانكليزية لا تنكر فضل يوليوس قيصر عندما غزاها سنة ٥٥ قبل المسيح. ولو ان النفوذ الاجنبى وهجرة الشعوب الغربية الى الجزر قلت بعد الغزو

المدنيات الاجنبية

النورمانى الا ان المدنية الانكليزية لم تستغن عن المدنيات الاجنبية. فاليونان والرومان والجرمان، واضيف اليهم بفخر ابناء قومى العرب، قد قدموا الشىء الكثير الى الانكليز ومدنيتهم الحاضرة ولا سيما فى العلوم الطبيعية والثقافة العامة. فقد نقل المستشرقون الشىء الكثير من المدنية العربية الى الجزر البريطانية وكان لما ترجموه من المواد الادبية العربية تأثير كبير فى رجال الفكر والادب من الانكليز كالفيلسوف الانكليزى (روجر بيكون) والشاعر (تشوسر) وغيرهم حتى ان كثيرا من آثار المدنية اليونانية اخذها الانكليز بواسطة العرب. ومهما كانت العوامل والاسباب التى اثرت فى منشأ المدنية الانكليزية، فهناك حقيقة واحدة وهى ان المدنية الانكليزية كما نراها اليوم مدنية خاصة بهذا الشعب فهى انكليزية بالطابع والمظهر وبكل شىء.

الآداب

لنستعرض الآن اهم مظاهر هذه المدنية الانكليزية ولنبدأ بالآداب الانكليزية. وقبل ذلك نمهد بكلمة عن اللغة الانكليزية. ان اللغة الانكليزية هى الاداة التى ترتكز عليها المدنية الانكليزية والتاريخ الانكليزى ومن المستحسن ان نتفهم مميزات هذه اللغة وخصائصها ومبلغ تأثيرها فى مدنية القوم وتأريخهم ونفسيتهم. فاللغة الانكليزية ككثير من مظاهر المدنية والتاريخ الانكليزى قد خضعت لتأثيرات اجنبية كثيرة فاصلها يرجع الى ما اتى به الغزاة الى الجزر البريطانية فى القرنين الخامس والسادس. ثم جاء الرومان وتركوا بعض الاثر فيها. ولما دخلت المسيحية انكلترا كانت لغة العبادة هى اللغة اللاتينية وبذلك اضيف الى اللغة الانكليزية مفردات كثيرة. وعلى توالى الزمن اضيفت اليها مفردات اخرى من اللغات الاوروبية واهمها الالمانية والاسكندنافية والدانمركية والفرنسية. وتأثير الاخيرة اكثر حتى ان لغة القضاء ولغة البرلمان الانكليزى نفسه كانت اللغة الفرنسية الى اواسط القرن الرابع عشر واول خطاب القى بالانكليزية فى البرلمان الانكليزى كان سنة ١٣٦٣ وما زال اثر الفرنسية باقيا حتى القرن الحالى كما يتضح من بعض الاصطلاحات القضائية والملوكية. وملك الانكليز يضيف الى توقيعه (R.I.) وهى بدء الحروف من كلمتى (Rex Imperator) اللاتينيتين. وظلت الفرنسية، اضافة مع اللاتينية، لغة الدين والثقافة عصورا طويلة الى ان نتج شكل جديد من اللغة الانكليزية هى خليط من اللغة العامية البسيطة ولغة الثقافة العامة. وكان كل جيل من الاجيال يؤدى قسطه من التحسن والتغير فى هذا الشكل من اللغة حتى بلغت حالها الحاضر. ولكن اعتبارات جديدة اخذت تظهر فى الجيل الحاضر قد تحمله على اجراء بعض التحوير فيها. فقد نشأت قبل بضع سنين فكرة ايجاد لغة انكليزية عالمية وهى ما تسمى (Basic English) [١] وهى لغة (انكليزية ـ اميركية ـ علمية ـ دولية ـ تجارية) وضعها المستر (اوكدن) (Ogden) واقرتها لجنة وزارية، الغرض منها الاستعاضة عن المفردات المعلومة بـ(٨٥٠) كلمة تفى بالاغراض المدرجة اعلاه. وبالرغم مما لها من فائدة

اللغة الانكليزية

تأثير الفرنسية عليها

التطورات الحديثة

---

(١) ان كلمة (Basic) مكونة من الاحرف الاولى للكلمات التالية:
(British, American, Scientific, International, Commercial)

فى ايجاد لغة عالمية بسيطة فلاشك فى انها ان انتشرت انتشارا جديا فانها بنظرى ستؤثر فى لغة الانكليز انفسهم فتؤدى بها الى الضعف والاضمحلال. ومن الفكرات الاخرى التى يكثر الآن حولها الاخذ والرد هى تنقية اللغة الانكليزية من الاصطلاحات الاجنبية والاستعاضة عنها باصطلاحات انكليزية بحته وخلق ما يسمى (Courtroom English) اى الانكليزية الخالية من الاصطلاحات الاجنبية. والفكرة الثانية التى ينادى بها بعض افراد الجيل الحاضر هى نبذ التقيد فى الكتابة ابتغاء للسهولة المطلقة ويعنى ذلك ان الشخص يحق له ان يكتب الكلمة كما يتلفظها(Spell- as- you- Please)تلك هى بعض المظاهر التى تطرأ على الانكليزية فى مختلف الاجيال فيترك عليها كل جيل اثرا بشكل من الاشكال. لا يخفى ان لكل لغة من اللغات المعروفة صفات

ميزات اللغة الانكليزية

ومميزات خاصة. فالمعروف عن الفرنسية انها لغة دقيقة قليلة الغموض حلوة على لسان الخطيب، سهلة المنال بيد الكاتب. والالمانية وان كانت غير مستحسن وقعها على السمع لخشونتها فانها من اوسع اللغات مادة ومعنى. اما الايطالية فهى لغة لا استسيغ سماعها سواء سمعتها من لسان رجل او سيدة. واذا ما شملت العربية بهذه المقارنة (فلغتى اشهى سماعى) وخاصة لغة القرآن. وقد سئل الكاتب الانكليزى الشهير (كالزووردى) عن لغته فقال: «اظن انها لغة رخيمة، ممتعة للسمع، متنوعة، مؤثرة، خالية من الاصوات الغريبة، هادئة، ذات جلال وود ولوخيرت فى تفضيل لغة لتكون واسطة للتعبير لما تأخرت عن اختيارها فهى اهل لكل قصد مهما كان ذلك القصد واسعا» هذا هو رأى انكليزى فى لغته ورأيى انا بصفتى اجنبيا ولى بعض الحظ من هذه اللغة هو انها لغة وجدت لتكون لغة عمل لا لغة خيال، فهى فقيرة جدا بالمفردات التى تخص النظريات والامور الخارجة عن نطاق الواقع ولذلك نرى اكثر الاصطلاحات المستعملة فى الانكليزية لهذا القصد مستقاة من لغات اخرى. ثم ان اللغة الانكليزية المصطلح عليها هى فى رأيى لغة سياسية لكثرة ما تحتويه من الاصطلاحات الغامضة التى تترك مجالا للتوفيق والتفاهم. فهناك بعض الاصطلاحات التى يتناولها حديث اقل الناس ثقافة وحصافة مما تعنى التسامح والتساهل. فالانكليزى عندما يريد ان يطلب شيئا لا يفرض طلبه فرضا،

فتراه يكثر من اصطلاحات"Suggest" و "Might" و "Could" و "Would"
وغيرها. والانكليزية يمكن ان تكون لغة واضحة صافية خالية من النواقص
ولكنها فى الوقت عينه لغة مملوءة بالمعانى المستترة وكل ما يمكن السامع
والقارىء ان يسمع او يقرأ بين السطور فهى حقا لغة السياسة والدبلوماسية
بالرغم من تحمس من يتحمس لغيرها من اللغات. فقد قال احد الكتاب «انه
من الصعب قول الصدق فى الفرنسية او الكذب فى الالمانية أما الانكليزية
فبالوسع قول الصدق او الكذب فيها على السواء». ثم ان الانكليزى
نفسه، وهو ذلك الفرد الذى يعبد البساطة فى كل شيء، يميل اليها ايضا فى
كلامه فالانكليزى سواء كتب او تكلم يفضل استعمال الجمل البسيطة والكلمات
الاعتيادية. اما استعمال الكلمات المفخمة غير الدارجة او الكلمات المعجمية
(القاموسية) فيمقتها الانكليزى ويفضل دائما استعمال الكلمة البسيطة جدا
حتى ولو كان لها مترادف اصح منها لغة ومعنى وهو عكس الاجنبى الذى
يتعلم الانكليزية الذى تراه ينبش المعجم فيستعمل افخم الكلمات واغربها
ويحاول ان يكون انكليزيا اكثر من الانكليز انفسهم. ومما ساعد على رياء
الانكليز لغتهم، بما فيها من مطاطية زائدة. فهى غامضة جدا عندما يقصد بها
الانكليزى الغموض وهى واضحة صريحة عندما يعتمد الانكليزى قول الصدق
والصراحة. والانكليزية ايضا تساعد على النكتة بما فيها من تورية وهى، كما
قلت قبلا، لغة دبلوماسية سياسية بطبيعتها وهى آخذة الآن بالنظر الى نفوذ
الانكلوسكسون فى العالم، فى احتلال مكان اللغة الفرنسية وفى نظرى انها
ستصبح اللغة العالمية فى خلال مدة ليست ببعيدة. وقبل ترك الموضوع لا بد
من ان اشير الى فقر الاستعداد الانكليزى الى تعلم اللغات فقد يعزى ذلك،
الى درجة ما، الى شيء من غرورهم فى عدم التنازل الى التكلم بلغة غيرهم اذ
كثيرا ما ترى انكليزيا يرفض التكلم بلسان اجنبى مع انه احيانا يتقنه. ويلاحظ
ان الانكليز سرعان ما يعجبون بالاجنبى الذى يتكلم لغتهم ولو بغير طلاقة.

قابلية الانكليز لتعلم اللغات الاجنبية

وهل هناك اثقل على السمع من انكليزى يتكلم الفرنسية قليلا. على ان بين
الانكليز من اللغويين من يتقنون عدة لغات ويجيدونها ولكنى والحق اقول لم
ار انكليزيا بما قضى من السنين بين العرب، يجيد تقليد اللفظ العربى وقد

تكون لغتنا من اصعب لغات العالم. وقد من الله على العراقى بصورة خاصة باستعداد كبير لتقليد الالسنة الاجنبية فان الطبيعة قد مكنته من تقليد اى لسان اعجمى كما لو كان احد ابنائه.

الشعر

لا شك فى ان لكل امة ماضيا وحاضرا ادبيا اتجه ابناؤها فى مختلف نواحى الحقل الادبى كالشعر والقصص والرواية وما شاكلها. فالشعر قد بز جميع نواحى الادب الانكليزى لان للانكليز انفسهم ولعا خاصا بالشعر فكثير منهم شعراء بالبديهة واغلب الشعب له قدرة عظيمة على تذوق الشعر. ويكفى ان يدرك المرء درجة اهتمام هذا الشعب بالشعر ان وظيفة «شاعر البلاط» التى هى من آثار القرون الوسطى ما زالت تعتبر وظيفة رسمية فى انكلترا يشغلها ابلغ شاعر. (١) ولا مشاحة فان شخصية شكسبير الفذة هى من اهم العوامل التى جعلت للشعر الانكليزى المنزلة التى يحتلها اليوم. وشعراء الانكليز، غير شكسبير، كثيرون عاشوا خلال عصور مختلفة ولهم اليوم ديوان شعر من اغزر دواوين الشعر الشهيرة. فلتشوسر وسبنسر وملتون وتنيسون ووردزورث وسوينبرن وبيرون وشلى وكيتز درر ثمينة فى هذه الدواوين. واذا كان لانكلترا ان تفتخر بهؤلاء الشعراء الذين عاشوا بالامس فلها ايضا ان تفتخر بشعراء يعيشون اليوم، كالفرد هوسمان وتوماس اليوت ووولتر دى لامار وادموند بلاندن وادورد شانكس والسير جون سكواير وجون مانسفيلد وغيرهم.

القصة والرواية

وتحتل القصة (Novel) منزلة ثانية بعد الشعر فى الآداب الانكليزية وعلى ان الفت نظر القارىء الى ضرورة التميز بين القصة الواقعية والقصة الخيالية (Fiction) والشعب الانكليزى بصورة عامة ولوع جدا بقراءة القصص الواقعية ويستدل على ذلك من مقدار الكتب التى تكتب وتنشر سنويا فى انكلترا ومن اهم صفات القصة الانكليزية انها تصور الحياة اليومية الواقعية فهى بعيدة عن عالم الخيال غير الواقعى وتمثل آراء الكاتب السياسية والاجتماعية والاخلاقية ويرى فيها القارىء صور الحياة الواقعة باشكالها المختلفة كالقضايا الاجتماعية والعادات والحوادث اليومية الخ . . .

---

(١) يشغل هذه الوظيفة الآن الشاعر جون مانسفيلد.

وربمـا انفردت القصة الانكليزية بصورة عـامة بهذه الصفة عن القصص الروائية التى كتبت بلغات اخرى ذلك لان الفرد الانكليزى يميل الى الامور الواقعية والحقائق الملموسة لا الى الامور الخيالية التى تخرج عن نطاق تصوره. وهناك ميزة اخرى للقصة الانكليزية هى وضوح الفكرة وصفاء القصد. فقصص ريشـاردسن وديكنز وفيلدنك وثاكـارى وسكوت وجين اوستن وغيرهم من كتاب القصة يمكن اعتبارها شواهد على ذلك. والفرد العادى هو بطل القصة الانكليزية، فالكاتب الانكليزى لا يستسيغ انتقاء ابطال هم خارج نطاق الفرد البشرى العادى. والكاتب يرى فى الفرد العادى الخواص والاستعداد ما يكفيه لجعلـه المحور الـذى تدور حولـه قصتـه وروايته. فليستعرض القارىء فى ذاكرته الروايات التى قرأها لاحد الكتاب الانكليز مثل توماس هاردى، اج. جى. ويلز، جى. بى. بريستلى وكالزورثى او غيرهم فهل ينكر ان احدهم فضل جعل غير الفرد العادى موضوعا لروايته. والغريب ان مختلف الكتاب الانكليز فى عصور متفاوتة قد حافظوا على هذه الروح فى كتابة الرواية او القصة الا النزر القليل منهم الذين خرجوا على هذه السنة كالدوس هاكسلى وبرنارد شو مثلا. ومما يبعث فى الرواية الانكليزية بين حين وآخر روحا جديدة هو ذلك السيل من اقلام الكتاب الاميركيين مما اكسب الرواية الانكليزية شكلا جديدا.

تراجم الحال

وقد نتج من ميل الفرد الانكليزى سواء الكاتب او القارىء الى الامور الواقعية والحقائق الملموسة ان اصبحت التراجم (Biography) من اهم المواضيع فى الادب الانكليزى واوفرها مادة. وبما ان الكاتب الانكليزى يفضل ان يكتب عن الفرد البشرى العادى، على ان يصرف جهده فى الكتابة عن شخصية لا تدركها الحواس وغير مألوفة، اخذ يحصر جهده فى سرد تراجم الاشخاص ذوى المنزلة الممتازة فى البلاد. ولذلك نرى ان اعظم الكتاب قد كتبوا تاريخ حياة كبار الشخصيات البريطانية. والقارىء الانكليزى لمثل هذه الكتب يرى انها تمكنه من ايجاد نوع من العلاقة الشخصية بينه وبين الشخصية التى يتناولها ذلك الكتاب. فلا يموت عظيم فى انكلترا الا ويصدر كتاب فى تاريخ حيـاته فى اول فرصـة ممكنة تخليدا لذكره وتقديرا لعمله فى سبيل وطنه

وبلاده مدبجا بيراع ابرع كتاب العصر. فالمستر تشرشل، وهو كاتب واديب بقدر ما هو زعيم سياسي، كتب تاريخ حياة جده (دوق مارلبورو)، وليتون سترايجي كتب افضل ما كتب عن تاريخ حياة الملكة فكتوريا. والمستر كارفن المحرر السابق لجريدة الاوبزرفر، كتب تاريخ حياة جوزيف تشمبرلين والمستر (باكل) احد محرري التايمس اللندنية كتب تاريخ حياة دزرائيلي وجون مورلي كتب تاريخ حياة كلادستون. والاديب الشهير (جسترتون) كتب تاريخ حياة الشاعرين الكبيرين روبرت براوننك وجارلس ديكنز ولم يقتصر الامر على كتابة سير عظماء الانكليز بل منهم من كتب تاريخ عظماء من غير الانكليز. فالمستر دف كوبر مثلا كتب تاريخ حياة تاليران فوق كتابه عن حياة الارل (هايك) والمستر ليدل هارت كتب كتابا في حياة المارشال فوش والمستر آرمسترونك كتب في حياة آتاتورك وهذا قليل من الامثلة الكثيرة. اما المذكرات التي يكتبها العظام عن حياتهم واعمالهم فهي عادة جارية في انكلترا اكثر من غيرها من البلاد الاخرى. ويكفي ان اورد مثالين على ذلك: مذكرات المستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية اثناء الحرب العظمى الماضية عن الحرب العظمى ومذكرات المستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية اثناء الحرب العظمى الحالية عن الحرب الماضية.

المذكرات

الفنون

لنكتف بهذا القدر من ميدان الآداب من المدنية الانكليزية. ولنبحث الآن في حقل الفنون. المفهوم عن الشعب الانكليزي انه ضعيف بملكاته الفنية اذا ما قورن بالشعوب الاوروبية الاخرى ولذلك قليلا ما انجبت انكلترا من نوابغ الفن. على ان هذا يجب الا يعني ان ليس للفرد الانكليزي ملكة لتقدير الفن. فمن الدلائل على رقي هذه الملكة لديه، اي ملكة تقدير الفن وتذوقه، كثرة الرواد للمعارض الفنية بانواعها من مختلف طبقات الشعب. فكما هو الحال في الآداب الانكليزية، كذلك في الفن الانكليزي، فان كثيرا من صفات الانكليز وميولهم تظهر في آيات فنهم. فانك اذا امعنت النظر فيها ترى ان حب المادة والعزلة وتفضيل البلاد والمواطنين وروح التوفيق والبساطة وغير ذلك من صفات الانكليز تتمثل في كثير من الصور المعروضة في (الناشنال كالري) او (التيت كالري) او (الووليس كولكشن) او غيرها من معارض

الصور. كما ان الانكليزى يفضل من التصاوير ما يمثل الاشخاص (Portraits) على التصاوير التى تمثل المناظر (Landscapes). ومن خصائص الانكليز انهم يفضلون كل شيء انكليزى على اى شيء اجنبى مهما كانت درجة الاثنين. لذلك فان صور الرسامين الانكليز مثل (كينسبوروه) او (هوكارث) او (رومني) او (رينولدز) او (كونستابل) وغيرهم تفضل على صور مشاهير الرسامين غير الانكليز. فاذا ما عرضت هذه التصاوير للبيع فانها تصل الى اثمان اكثر بكثير مما تستحقه فنيا. والغريب ان الاميريكيين اخذوا يقدرون الفن الانكليزى اكثر من الانكليز انفسهم كما يتضح من الاثمان العظيمة التى تدفع فى اميريكا للصور الانكليزية. فكثير من صور مشاهير الرسامين الانكليز الماهرين مثل (اوكستوز جون) و (دانكان كرانت) و (ريشارد سيكرت) و (ويلسن ستير) و (ليوسين بيسارو) (١) وغيرهم صارت تشترى من انكلترا لغرض المتاجرة بها فى اميريكا.

التصوير

وفى فن النحت خاصة لم يبرع الانكليز فهم مدينون لاوروبا بهذا الفن ومعظم التماثيل التى يشاهدها المرء فى انكلترا من نحت ايد اجنبية، ولا سيما ايطالية، على ان لندن لم تحرم من انتاج ابناء التايمس فهناك قطع هى آية فى الفن كتمثال (Physical Energy) لـ «واط». كما انه يعيش اليوم فى بلاد الانكليز اعظم نابغة فى النحت الا وهو (أبشتاين) ولكنه غير انكليزى فى اصله. وله قطع خالدة فى النحت مثل (Lima) و (Genesis) كما ان له عدة قطع من الصور النحاسية. ومع ذلك فلم يحرم الانكليز من نحاتين ماهرين من بنى قومهم وهذه الجمعية الملكية للنحاتين البريطانيين تضم ابرع النحاتين واخص بالذكر رئيسها الحالى المستر (شارلس ويلر). وعلى ذكر الكلام عن النحت تخطر بالبال صناعة الخزف. ففى انكلترا بعض المناطق التى تخصصت بهذا الفن وهواة الخزف يعلمون ان خزف (Wedgwood) و (Worcester) و (Chelsea) لا يقل جمالا وجودة عن الخزف الصينى. وخزف (Bone China) الانكليزى مشهور فى العالم.

النحت

صناعة الخزف

(١) أفرنسى الاصل أقام فى انكلترا وتجنس بالجنسية الانكليزية (توفى والكتاب تحت الطبع).

فن البناء

واانكلترا تفخر حقا بفن بنائها. ولو ان لفرنسا فضلا عظيما على فن البناء الانكليزى فى العصور الحالية الا ان انكلترا قد كونت لها فنا خاصا بها لا يوجد فى اى قطر من الاقطار الاوروبية الاخرى. وصار كل عهد من التاريخ الانكليزى يمتاز بطراز خاص من الريازة فانك ان طفت لندن رأيت فيها مجموعة من مختلف الطرازات فهناك الابنية التى يتصف بها العهد التيودورى وهناك الطراز الجورجى والطراز اليعقوبى والفكتورى. وقد لا ترى الا فى انكلترا ذلك الخليط من الفن الغوطى والفن الذى يسمى بفن عهد النهضة (Renaissance) والطراز المسمى (Baroque) مضافا اليه الطراز الاميريكى الحديث الذى اخذ يحل محل تلك الطرازات القديمة الجميلة. ان الفكرة المعمارية الحديثة فى انكلترا صارت تتوخى الفائدة الاقتصادية والملائمة فى طرز الابنية اكثر من ان تلتمس الفن والجمال لذلك فان الابنية التى وضع تصاميمها المهندس الشهير كريستوفر رين (Wren) وغيره ستحل محلها مع الاسف البنايات الحديثة الحالية من روائع الريازة القديمة.

الموسيقى

وفى اواسط القرن السابع عشر استولت مبادىء المتصوفين (Puritans) على الحياة الانكليزية وتركت تلك المبادىء اثرا بليغا فى الفنون الانكليزية فدب فيها الضعف والتأخر. ومن اكثر الفنون حظا بهذا التأثر هى الموسيقى والتمثيل. ولكن ليس هذا هو السبب الاساسى فى تأخر الانكليز نسبيا فى هذين الفنين اذ فى رأيى ان الشعب الانكليزى بصورة عامة فقير باستعداده الموسيقى فكما ان الشعوب الاوروبية تحسد انكلترا على سياسييها فانكلترا تحسد الشعوب الاوروبية على موسيقييها الافذاذ. فلم تنجب انكلترا فى تاريخها على ما اعلم، موسيقارا يدانى موزارت او شوبرت او شتراوس النمساويين او باخ او بتهوفن او شومن او واكنر الالمانيين او فردى او بوجينى الايطاليين او رافل او دى بوسى الفرنسيين. على انها قد سدت هذا النقص بتبنيها بعض الموسيقيين الذين هم ليس من اصل انكليزى وهيأت لهم الفرص اللازمة للابداع فابدعوا حقا. فان هاندل ودليوس ليسا من اصل انكليزى ومع ذلك فان انكلترا صارت تفاخر بهما وبانتاجهما الفنى وقد شرفت الاول بان دفنته فى كاتدرائية (وستمنستر) بجنب اعظم ابطالها ورجالها. على ان

حرمان انكلترا من الموسيقيين وناظمى الالحان لم يحل دون تمتع الشعب الانكليزى بارقى انواع الموسيقى. فالموسيقى الراقية آخذة بتقدم مستمر وان رجال الفن الموسيقى من الانكليز صاروا يبدعون فى هذا الحقل مما جعل انكلترا فى مركز يمكنها من الاستغناء عن الاقطار الاجنبية الاخرى حتى ان قطع (الكار) (Elgar) الموسيقية مثلا صارت تلاقى اقبالا عظيما فى كثير من الاقطار الاجنبية. كما ان منظومات (فاكان وليمس) صارت تسمع فى جميع صالات الموسيقى ومحطات الاذاعة الانكليزية. وغير (الكار) و (فاكان وليمس) كثيرون من الانكليز الذين يحق لانكلترا ان تفتخر بهم أمثال (وليم وولتن) والسير (كرانفيل بانتوك) و (كونستانت لومبارت) وغيرهم. ومهما كانت درجة الملكة الانكليزية فى نظم القطع الموسيقية فقد برز فى انكلترا من رؤساء الاجواق الموسيقية من فاقوا اشهر المديرين الاجانب مثل (السر توماس بيجام) والسير (هنرى وود)(١) والسير (آدريان بولت) و(هارولد سارجنت) وغيرهم.

الاوبرا

ومن مظاهر الموسيقى الجديدة التى لم تتفق مع الذوق الانكليزى الذى يفضل البساطة والسهولة فى الفن هى الاوبرا. فالاوبرا تعتبر نوع من انواع الموسيقى التى لا يلتذها الا من يفهمها ولذلك بقيت قاصرة على طبقة معينة من الشعب. وهنالك ملايين من الشعب الانكليزى لم يدخلوا (كوفنت كاردن) طول حياتهم. وما يقال عن الاوبرا يصدق على (الباليه) (Ballet).

التمثيل

وان تفوق الانكليز فى شىء فهو التمثيل فبالرغم مما عاناه المسرح فى ايام المتصوفين من المقاومة والاكراه، لم تقض عليه عصبيتهم وبغضهم لهذا الفن الجميل والتى ادت بهم حتى الى غلق المسارح. الا ان التمثيل اخذ يفيق من تلك الصدمة تدريجيا حتى اذا ما حل عهد الاصلاح عاد التمثيل الى تبؤ مركزه فى حياة الانكليز العامة، حتى ليجد الغريب ان لندن قد اصبحت الآن من امتع مدن العالم ان كان هو ولوعا بالتمثيل. ففيها من المسارح بانواعها ما يزيد على مثيله فى اية عاصمة اوروبية. ولهذا العدد العظيم من المسارح الانكليزية مادة غزيرة تغذيها. فالروايات التى كتبت فى القرون الثلاثة الماضية تكفى لهذه التغذية من غير شك. ولكن انتاج الكتاب الانكليز الحاضرين جعل المسرح

(١) توفى والكتاب تحت الطبع.

يستغنى عن انتاج كتاب القرون الماضية الا فى خلال الحرب الحالية اذ تدل الانباء التى نقرؤها على ان الانتعاش الذى اصاب المسرح اثناء الحرب وقلة ما يكتب الآن من الروايات جعل المخرجين يلتجئون الى مكاتبهم فيبعثون روايات (كونكريف) (Congreve) و (شريدان) وغيرهما ويعيدون تمثيلها. وقبل الحرب الحالية كانت المسارح الانكليزية قاصرة تقريبا على روايات شكسبير او ما يقدمه كتاب العصر من المؤلفات المسرحية. ولبرنارد شو القدح المعلى فى هذا المضمار بالرغم من ان برنارد شو ايرلندى الاصل ليس بانكليزى. وغير برنارد شو من كتاب الرواية الذين كانوا يزودون المسرح الانكليزى على الدوام هم السير (جيمس بارى) و (سمرست موكام) و (نوئيل كاوارد) وغيرهم.

وفى فن التمثيل نفسه فان الانكليز، بالرغم من ضعف طبعهم فيه اذا ما قورنوا بالشعوب الاخرى، قد تمكنوا من الاستغناء عن الممثلين الوافدين من الخارج ولو انه كثير ما يشاهد المرء بعض الممثلين والممثلات الاجانب على المسارح الانكليزية. وقبل الحرب كانت اسماء (جارلس لافتون) و (لزلى هاوارد) و (جورج آرليس) و (لزلى هنسون) و (هنرى اينلى) و (جون كيلكود) و (آيفور نوفيللو) تلمع فى سماء المسرح الانكليزى. وقد برزت منذ ان تركت انكلترا اسماء جديدة، وقد تبرز اسماء اخرى كثيرة اذ ان الشهرة المسرحية فى انكلترا تتوقف على النجاح مرة واحدة يحرزه احد الممثلين فى احد مواقفه التمثيلية وهذا النجاح كاف لجعله ليس من مشاهير الممثلين فى انكلترا فحسب بل فى العالم باسره. وبرغم المستوى الذى وصل اليه فن تمثيل الدراما الانكليزى كما هو اليوم وبرغم كثرة الممثلين الذين سطع نجمهم فى عالم التمثيل لا اظنهم قد بلغوا مستوى (ادموند كين) (Edmund Kean) و (وليم كونكريف) وهنرى أيرفنك او على الاقل ليس هناك منهم الا العدد الضئيل حتى من مستوى السير جون هارفى. (١) وقد يكون من الاسباب التى جعلت مستوى هذا النوع من التمثيل على ما هو عليه الآن هو ان اكثرية رواد المسارح لا يهمهم من التمثيل بقدر ما يهمهم اللذة او الانس الذى يجنونه من المسرح او الممثلين. فاصبحت النتيجة ان صار

(١) توفى والكتاب تحت الطبع.

المسرح الانكليزى خليطا من التمثيل والرقص والموسيقى والفكاهة. ولذا نرى ان اكثرية المسارح الانكليزية التى كانت فيما مضى تعرض روايات شكسبير اخذت تعرض الآن هذا النوع من التمثيل وان العلاقة الوحيدة التى بقيت بين شكسبير ومسرح (دروری لين) اقدم مسارح لندن هو تمثال شكسبير القائم فى داخل بنايته.

وهناك مظاهر كثيرة للفن الانكليزى ليس من السهل ايرادها فى هذا الفصل وعلى كل فقد يكون ما اوردته كافيا لاعطاء القارىء فكرة جامعة عن هذه الناحية من المدنية الانكليزية.

المدنية الفكرية الانكليزية

على انى اود ان انتقل الى مظهر آخر قبل ان اختم البحث عن الانكليز ومدنيتهم ذلك المظهر هو المدنية الفكرية الانكليزية.

ان الانكليز من هذه الناحية ليسوا اقل شأنا من سائر امم اوروبا بل نراهم فى بعض الازمنة برزوا عليها فى حقول الفلسفة والسياسة والاقتصاد والدين. ونشأ فى كل دور من تاريخها رجال من دم انكليزى نبغوا فى جميع مناحى الفكر البشرى وقادوا بقية الشعوب فى هذا المضمار ولبوا حاجات الشعب الانكليزى الذهنية والروحية. وقام فى انكلترا فلاسفة وسياسيون ومصلحون ونبغ فيها كثير من العلماء والمخترعين فى مختلف الازمنة والعصور. ولمعت اسماء كثيرة من هؤلاء، منهم (روجربيكون) و (هيوم) و (هوبز) و (وايكليف) و (وزلى) و (نيوتن) وكثيرين غيرهم. وقد انجب القرن السابع عشر بصورة خاصة عددا كبيرا من فطاحل العلم والادب والفن. نعم. انه كان لفرنسا التفوق الفكرى زمنا طويلا ووضع فريق من علمائها ومفكريها امثال (ديكارت) و (مونتسكيو) و (فولتير) و (رينان) حجر الزاوية لكثير من العلوم الفكرية الحديثة. ومع ذلك فان مركز انكلترا لم يقل عن مركز فرنسا شأنا لا بل فاقتها فى بعض الاحيان وفى بعض النواحى. فاما فى الميدان السياسى ولاسيما الحياة الدستورية والبرلمانية، فان انكلترا فاقت سائر الشعوب الاوروبية حتى فرنسا نفسها. ولا يخفى ان فرنسا مثلا اخذت النظام البرلمانى من انكلترا لكنها على ما يظهر نسيت او تناست السؤال

من الانكليز عن كيفية تطبيقه. وقام فى انكلترا فى ذلك العصر بعض النوابغ منهم (لوك) فكتب المجلدات الضخمة عن السياسة والاجتماع والدين والفلسفة واصبحت تآليفه من الكتب الخالدة كما انها فى الوقت عينه اثرت فى المبادىء التى قامت عليها الثورة الفرنسية، و(آدم سميث) مؤلف كتاب ثروة (الامم) الذى ما زال حتى الان يرجع اليه فى حل كثير من المشاكل الاقتصادية، و(برك) العالم السياسى الشهير الذى تعد تآليفه من اشهر وابلغ ما كتب فى السياسة وفلسفتها. وان العالم مدين لـ (جون ستيوارت مل) فهو من النوابغ الذين يحق للانكليز ان يفتخروا بهم ابد الدهر. فان نبوغه الفكرى قد مكنه من البحث فى كل ناحية من النواحى العلمية. فكان فيلسوفا واقتصاديا ومفكرا سياسيا وقد كتب فى القانون والآداب وعلم النفس كما انه لم يفته ان يبحث فى العلوم الاجتماعية. انه هو صاحب الفكرة التى تقول ان بريطانية يجب ان تدخل فى شؤون السياسة الدولية للمحافظة على قضية الحرية. واذا ذكرت اسماء المفكرين الانكليز من مستوى (هاليفاكس) و (بنتلى) و (شافتسبورى) و(بولينكبروك) و(اوجيلفى) فستكون القائمة مطولة. لكنى اود ان اذكر اسماء بعض المفكرين الذين عاشوا فى عصور مختلفة وكل واحد منهم يمكن ان يوضع فى صنف خاص من المفكرين بالنظر الى ما يتصف به ولكنى لا اقصد المقارنة بينهم او وضعهم فى مستوى واحد. فواحد منهم عاش قبل عشرات السنين وهو الدكتور جونسون واخر عاش فى عهد يليه وهو برتراند رسل والثالث فى عصرنـا الحاضر. لكنه ترك بعد وفـاته تراثا ادبيا طالما افتخر فيه بنو قومه وهو (لورنس). والرابع ما زال يغذى النشء الانكليزى بثمار تفكيره السياسى وهو (هارولد لاسكى).

الناحية العلمية

وفى الناحية العلمية ولو ان الانكليز قد يأتون فى الدرجة الثانية للشعوب الاوروبية من ناحية الانتاج العلمى الا انهم لم يعتمدوا اعتمادا كليا على الشعوب الاجنبية فقد انجبت انكلترا علماء كثيرين خدموا العلم فى مختلف طرائقه. فان العلم الحديث مدين لمآثر (بيكون) وهارفى وواط وفارادى وداروين وهـاكسلى وسبنسر وليستر ومن المعـاصرين جينز وماكسويل وادينكتون وغيرهم.

الحظ والطالع

ولى ان اضيف عاملا رابعا الى العوامل الثلاثة التى شرحتها فيما تقدم والتى قلت انها اثرت فى الفرد والشعب الانكليزى كما نراه اليوم. لقد اختص البارى سبحانه وتعالى هؤلاء الجزائريين عن غيرهم من بنى البشر بعلو السعد والحظ والطالع. وسوف لا اتمكن من ان اقول اكثر من ذكر هذه النتيجة اذ ان تفسيرها وشرحها واثباتها هو من خصائص المنجمين اكثر منه من اختصاص كاتب يريد تدوين مطالعات وملاحظات واقعية تدركها الحواس ويقبلها العقل والمنطق.

يدرك القارىء ان استعراض موضوع واسع كهذا يكون عرضة اما لاغفال جانب برمته من جوانب الموضوع واما اغفال بعض التفاصيل المتعلقة بالموضوع ولهذا فانى ارجو القارىء ان يعفينى عن مثل هذه الهفوات.

صفات الفرد وميزاته

الى مثل هذا التاريخ المجيد والى مثل هذه المدنية الغابرة والحاضرة يستند الانكليز كما نراهم اليوم يضاف الى هذين العاملين عوامل المناخ والوضع الجغرافى والحظ. ولاشك فى ان لهذه العوامل جميعها تأثير فى صفات الشعب ومزاياه واقصد بذلك صفات الشعب ومزاياه بوجه عام وصفات الفرد ومزاياه على التخصيص وهذا ما سأحاول بحثه فى الصفحات التالية من هذا الفصل. ان هذا البحث لن يكون منسقا ومتسلسلا بل سنأخذ الصفة تلو الاخرى كلما عنت للبال.

الانكليزى رجل عمل

يمتاز كل شعب او اكثرية افراد ذلك الشعب بصفة بارزة. فان امتاز الفرنسى مثلا بتفكيره والاسبانى بعاطفته والالمانى بشدته وقسوته فالانكليزى فى نظرى يمتاز بانه رجل عمل (Man of Action) فهو لا يتوق الى النظريات والامور الخيالية لا بل ينفر منها ونراه واقعيا فى كل شيء وكل امر يراه بعيدا عن الواقع ينبذه ظهريا. ولهذا السبب كان الفرد الانكليزى اقل درجة من غيره من الشعوب فى المسائل العاطفية وتمركزت فيه خاصة ايثار المنفعة (Utilitarianism) ومع انه عاف التفكير الفلسفى فى اموره اليومية فانه بقى ملزما بفلسفة المعقول ونبذ كل المظاهر التى لا يستفيد منها فائدة مادية. ويرجع تغلغل هذه الفكرة فى نفوس الانكليز الى الفيلسوف المادى الانكليزى (بنثام)

الانكليزى مادى

(Bentham) فى المقام الاول و (جون ستيوارت مل) بعده. فبنثام هو صاحب النظرية القائلة «ان الشيء المفيد هو الشيء الحسن» والتى لها طابع واضح جدا ليس فى تفكير الفرد الانكليزى فحسب بل فى سياسته العامة ايضا. ولذلك نرى المال هو الاساس الذى يقاس عليه كل شيء فى انكلترا. فاكثر الفنانين مثلا ينتجون الفن لان لهم فيه فائدة مادية. فالرسام الذى يبذل الجهد الكبير لرسم صورة زيتية يبتغى الحصول على اكبر قيمة مادية لها والموسيقى او المغنى او الممثل يحاول الابداع لانه يعتقد انه اذا ابدع فى شيء فستكون له منزلة فى عالم الفن وبذلك يستفيد ماديا من تلك المنزلة. على ان القارىء يجب الا يفهم ان المادية الانكليزية هذه هى مادية مطلقة مقياسها الوحيد هو حب المال لاجل المال. فبينما نرى الانكليزى يجد فى طلب المال نراه ينفق المال فى وجوه تنافى تماما ما نفهمه من حب جمع المال. وسأرجع الى الاسهاب فى هذا الموضوع فى مناسبة اخرى.

ثقته بنفسه

ان حب الفرد الانكليزى للعمل وتغلغل النزعة المادية فى عقله قد ولدت فيه صفة الثقة بالنفس (Self — Confidence). وان انماء هذه الصفة فى الفرد الانكليزى هى من اهم اهداف التربية البيتية والتربية الوطنية. ولذلك نرى ان اقل الانكليز طموحا وحتى من اعتزلوا العمل فى الحياة يظهرون او على الاقل يحاولون اظهار شخصيتهم بمظهر الواثق بنفسه. وان درجة وثوق الفرد الانكليزى بنفسه واعتماده على مقدرته الفردية وصلابة عود جنسه قد ولدت فى القوم فكرة عدم الاكتراث للمستقبل وعدم التفكير فيما سيأتى به الغد. فعند الانكليز مثل يقول (لا تعبر الجسر قبل ان تصل اليه) ومعناه واضح. فالانكليزى لا يريد ان يقلق باله بوضع خطط بعيدة المرمى لاموره الوطنية والفردية صغيرة كانت او كبيرة. فهذا يعزى الى قدرته على مجابهة الامور حالما تتصدى له وحلها حلا يرضيه ويتغلب عليها بما يقنعه، وافضل شاهد يؤيد ذلك هو عندما تشترك انكلترا فى حرب من الحروب. لقد اشتركت انكلترة فى عدة حروب فى تاريخها ولم تدخل اكثر هذه الحروب وهى مستعدة استعدادا تاما. ومع ذلك فقد خرجت منها ظافرة. وفى اذهان اكثر القراء حربان من هذه الحروب التى دخلتها انكلترا وهى غير مستعدة كل الاستعداد.

فقد دخلت الحرب الماضية ولم تكن لديها خطط سابقة للدخول فيها سوى انها اعتبرت الاعتداء على احدى الدول المحايدة يهدد سلامتها. اما فى الحرب الحالية فكل المعلومات المتيسرة وكذلك واقع الحال كانت تدل على انها شهرت الحرب ولم تكن مستعدة لها قط فقد كان استعدادها العسكرى فى درجة من الضعف ايام (مونيخ) ان جعلها مضطرة الى الاتفاق مع الدكتاتورين بالرغم مما فى هذا الاتفاق من الحط بكرامتها ومركزها الدولى. وبعد حادثة (دانكرك) عندما كانت الجزر البريطانية مهددة بالغزو بين عشية وضحاها كان استعداد بريطانيا العسكرى من الضعف فى درجة انها اضطرت الى استعمال المدافع التى كانت فى متاحفها وزودت (الحرس الوطنى) الذى قامت بتأليفه للدفاع الوطنى ببنادق الصيد. ومع علمها بهذا الضعف العسكرى عندما شهرت الحرب فانها كانت واثقة من شىء واحد وهو ايمان الشعب وثقته بنفسه. فلم تمر بضع سنين حتى رأينا انكلترا تقلب اتجاه الحرب الحالية رأسا على عقب.

الانكليزى والتفكير بالمستقبل

قلت ان الانكليزى لا يفكر كثيرا فى المستقبل او يضع خططا خيالية للغد او كما يقول المثل «لا يؤرخ صكوكه بتواريخ مقبلة». ولكنه فى الوقت ذاته يفضل تأجيل اتخاذ القرارات الحاسمة فى كل قضية خطيرة تواجهه الا اذا لم يجد مفرا من اتخاذها. فتراه دائما يلجأ الى التأجيل والمماطلة هربا من مواجهة الامر الواقع. فقضية (مونيخ) يمكن ان تؤخذ مثلا على هذا الاتجاه فى الفكر الانكليزى. ففى تلك الاثناء لم يكن الشعب الانكليزى قد اعد فكره لاتخاذ قرار خطير ومهما كان القصد الحقيقى من السياسة التشمبرلينية التى كانت تسير انكلترا آنئذ فان المستر نيفل تشمبرلين ربما كان يمثل رأى اكثرية الشعب بالنزول عند طلب هتلر وموسولينى رغم ما فى ذلك من الضرر المعنوى لبريطانية العظمى.

تردده

ومن النتائج الطبيعية ان الفرد الذى يكون واثقا بنفسه الى هذا الحد ينفر من التردد الذى لا يستند الى مبرر. نعم قد يغير الانكليزى كثيرا من قراراته ولكن لهذا التغيير سببا يعتقد هو انه سبب وجيه. واما التردد الذى لا يستند الى مبرر فهو من اشد صفات الفرد مقتا. ان اتصاف الفرد الانكليزى بهذه الصفات يؤدى بنا الى السؤال التالى : هل ان الفرد الانكليزى متعجرف

أعجابه بنفسه

(Arrogant) ومعجب بنفسه او مغرور؟. هناك اختلاف كبير بين من كتبوا عن الانكليز فى هذه الناحية فمنهم من يميل الى الجواب عن هذا السؤال بالسلب ومنهم من يجيب بالايجاب. فقد روى عن الكاتب الفرنسى الشهير(Froissart) انه قال «ان الانكليز قوم متكبرون حتى انهم لا يعترفون لاى شعب بمآثر الا لشعبهم». وقال دانيال ديفو (Defoe) عن بنى قومه «ان الانكليز هم اكثر الشعوب فظاظة فى نظر الاجانب وكذلك يظن الكثير من الناس ان الانكليزى هو (ابليس بعينه)» وقال الكاتب الانكليزى (كولد سميث) «انهم متغطرسون فى سلوكهم، مستخفون بغيرهم فى نظرتهم». ومن اظرف ما قيل عنهم كلمة الشاعر الشهير ملتون حينما قال «اذا كان لدى الاله عمل شاق جدا فانه يعطيه لشعبه الانكليزى لانجازه». وقال الكاتب الهزلى الاميريكى الشهير (مارك توين) «ان اسم الشعب الانكليزى قد ذكر فى التوراة حيث جاء (ان الودعاء سيرثون الارض)» وهذه العبارة قد تذكر بعض القراء بالمحاورة التى جرت بين احد الانكليز المسمى (المستر كوك) وبين اديب مسلم حينما قال الاديب لذلك الانكليزى ان اسمه قد ورد فى القرآن ولما سأل المستر كوك عن الآية التى تضمنت اسمه قرأ الاديب : «وتر (كوك) قائما . . . .».

غطرسته وكبريائه

وعلى كل فان ما قيل عن غطرسة الانكليز وكبريائهم بالامس لا يصدق عليهم اليوم فاذا استثنينا بعض رجال الطبقة الارستقراطية الذين اتصفوا بهذه الصفة فان الشعب الانكليزى لا يتخلق بها. وقد قال (القس أنج)(١) ان السبب الذى ولد لدى الاجانب فكرة ان الانكليز قوم متكبرون هو اننا «لم نتعود ان يكلمنا الغريب قبل ان يقدم لنا وبالغريزة اننا نرفض اتصاله بنا لصلابة اخلاقنا». اما انا ففى رأيى ان الانكليز شعب متواضع وهذا التواضع يشاهد فى اخلاق الفرد الشخصية وفى الاخلاق العامة. فالفرد الانكليزى متواضع فى كلامه قليل الادعاء اذا ما قام باى عمل مهما كان ذلك العمل موجبا للمباهاة والتبجح. والانكليزى يبغض المبالغة فى الكلام والمغالاة فى التعبير وعنده ان المبالغة تؤدى دائما الى قصد معكوس وحتى العوام منهم يمجون التفاخر والتباهى او ما يسمى بلغتهم الدارجة (Bucking) والانكليز يتفاهمون بعضهم مع بعض

(١) England by Dean Inge

بكلمات مقتضبة وجمل وجيزة وهذه تغنى المتخاطبين عن حشو كثير. وللانكليز قدرة ممتازة لفهم بعضهم بعضا بهذه الطريقة. ولذلك تولدت لدى الانكليز صفة قلة الفضول فى الكلام (Inquisitiveness) فكثيرا ما يوبخ الشخص الذى يكثر من استفهاماته واسئلته وخاصة منها ما يتعلق بالامور الذاتية بانه كثير الاستفهام والسؤال (Inquisitive) فالانكليزى قليل الرغبة فى التدخل الزائد فى شؤون الآخرين الشخصية طالما كانوا هم انفسهم بعيدين عن هذا التدخل فهو يفضل ان يعلم الأمور علما سطحيا على ان يسبر غورها لمدى بعيد فيتدخل فيما لا يعنيه فيلقى ما لا يرضيه. فقلما يشاهد الغريب فى انكلترا شجارا او خصاما بين الناس وكل ما فى الامر انهم (يتفقون على ان يختلفوا) واذا ما رأى الواحد ان الآخر يختلف عنه بالطباع والعواطف فكل ما فى الامر هو انه يتركه وشأنه.

تأدبه

وكل ذلك يعزى الى ان الانكليزى مؤدب بطبيعته(Polite) فهو مؤدب بكلامه وبتصرفاته. ولا اقصد بالادب استعمال الالفاظ المنمقة والمجاملات الزائدة. وفى الواقع انه لا شيء يزعج الانكليزى المؤدب قدر ما تزعجه المجاملة الزائدة والمديح المتكلف. فأدب الانكليز يظهر باعمالهم لا بأقوالهم. ومن المعروف عن الفرنسيين انهم يفيضون ادبا ورقة فى كلامهم ومجاملاتهم ومظهرهم ولكن الادب الانكليزى يختلف عن الادب الفرنسى ففى المجاملة (Courtesy) الانكليزية معنى وقصد معقولان وهى تؤدى فى الظروف والاحوال التى تتطلبها ولا تبدى، كما هو الحال مع الفرنسى مثلا، بشكل المصافحات والانحناءات والتقديم او غير ذلك من مظاهر المجاملة المتكلفة. وبدلا من مثل هذه المظاهر الفارغة فان المجاملة والادب الانكليزيين يأخذان اشكالا اكثر معنى ويتركان فى نفس المخاطب اثرا اعمق من المظاهر المذكورة. وكثيرا ما ترى سيارة تقف الى جانبك وانت تحت المطر فيعرض عليك صاحبها ان ينقذك من المطر الى حيث يسير هو. او ان كنت ترغب فى ان تولع سيكارتك ولم يكن لديك ما ييسر لك ذلك فترى ان الشخص الذى بجانبك يقدم لك ما لديه لذلك الغرض. او اذا كنت قد سألت عابر طريق عن محل ما تراه يصرف معك وقتا طويلا لتزويدك بالايضاحات اللازمة وان اقتضى الامر رافقك

حتى يوصلك الى المحل المقصود. وفى بعض الاحوال تجد ان احد الاشخاص يراك حائرا فى امرك فيقترب منك ويسألك عما اذا كنت تريد ان يدلك على الطريق. والغريب فى انكلترا يصادف مثل هذه الامور يوميا من مختلف الطبقات الانكليزية. اما الذين لم يسعدهم الحظ بزيارة انكلترا فيمكنهم ان يشهدوا مثل هذه المجاملات ومظاهر التأدب من افراد القوات الانكليزية الموجودة فى الاقطار الاجنبية. فالجنود الانكليز يختلفون كل الاختلاف عن جنود الشعوب الاخرى فى معاملاتهم وتصرفاتهم وليس ذلك راجعا الى الانظمة العسكرية الصارمة بقدر ما هو مسبب عما هم مجبولون عليه من اللطف والمجاملة والدعة.

مراعاته لعواطف غيره

وكنتيجة لذلك نرى ان الفرد الانكليزى ينظر دائما الى غيره كما ينظر الى نفسه ويراعى عواطفه وشعوره مراعاة تامة (Considerate) وهو على اتم الاستعداد لفهم وجهة نظره مهما كانت. وهذه الامور تلمس فى كل محل وفى كل مناسبة: ففى الحدائق العامة وفى القطار وفى داخل السينما وحتى اثناء السير فى الشارع، يتوقع الشخص من الآخرين ان يراعوا وجهة نظره وعواطفه وفى الوقت عينه يتوقعون من كل شخص آخر شعورا مقابلا. ومن هذه الاعتبارات

الجنتلمان

نشأت فكرة الجنتلمان. ولهذا الاصطلاح مفهوم خاص لدى الانكليز لا يوجد لدى اى شعب آخر حتى اننا نرى ان اغلب الشعوب قد اخذت تستعمل هذا الاصطلاح للدلالة على الغرض المقصود منه. وان كانت المثل العليا فى الاخلاق تختلف باختلاف الشعوب اذ لكل منها مثله الاعلى وان تعبير (جنتلمان) لدى شعب ما لا يعتبر كذلك لدى شعب آخر، فالجنتلمان الانكليزى يمكن ان يوجد فى مختلف الطبقات سواء اكانت عليا ام سفلى ولكنى اعتقد بان المصدر الاساسى لخلق الجنتلمان الانكليزى الحقيقى هى المدارس العامة (Public Schools) والجامعات الانكليزية القديمة والنوادى. لا اريد ان يفهم القارىء انى اقصد بذلك تأييد فكرة الارستقراطية الانكليزية الممثلة فى هذه المؤسسات ولكنى اعتقد بانها التراث الانكليزى الوحيد الذى يمكن ان يحافظ على المثل الانكليزية العليا وينقلها من السلف الى الخلف. فانا اعتقد، برغم المعارضة التى تبدى الآن فى بعض الاوساط اليسارية فى انكلترا، ان هذه المؤسسات لن يتسرب اليها الكثير

من الافكار التى تقتضيها التطورات الحالية. وسأعالج هذه الناحية فى فصل آخر من الجزء الثانى من هذا الكتاب.

لنعد الآن الى موضوع الجنتلمان. يصعب على ان اوضح مفهوم الجنتلمان لدى الانكليز فهناك عوامل لا تحصى يجب توفرها فى الشخص حتى يعتبر (جنتلمان) فالجنتلمان عدا ما ذكر من الصفات والمميزات وعدا ما سأذكره فيما بعد، يجب الا يؤذى غيره وان يتجنب الخلاف مع سواه والشك فيهم والغضب عليهم. واذا ما اجتمع باى شخص فمن واجبه ان يجعله يشعر بحريته وراحته. والجنتلمان يتجنب التكلم عن نفسه الا اذا اضطر الى ذلك كما يجب الا يتكلم بغطرسة والا يصغى الى الغيبة والتقولات وكلام السوء وان يفسر الامور باوجهها الحسنة لا باوجهها السيئة. والجنتلمان لا يستفيد من ضرر غيره لمنفعته الذاتية ولا يضمر شرا او سوءا لغيره. ويجب كذلك الا يكون سريع تقبل الاساءة لنفسه او يصدر حكما غير عادل لمجرد مطابقة ذلك الحكم مع آرائه الخاصة. وعلى الجنتلمان ان يكون دقيقا فى عمله وقويا فى شخصيته، محبا للنكتة والدعابة ومقدرا للفكاهة البريئة الخ.. والجنتلمان الانكليزى ينبغى ان يكون من هواة الرياضة لان الانكليز يعتقدون ان الرياضة هى من جملة الاسباب التى تقوى الاخلاق فى الفرد، كما انه يجب ان يراعى حرمة القوانين والدين والكيان الاجتماعى المرعى مهما خامره الشك فيه وان يرعى الشرف كما يفهمه مواطنوه وان يكون محبا للانسانية، الى غير ذلك من صفات الكمال التى لا تعد ولا تحصى. وفوق كل ذلك يجب ان يكون مثقفا ثقافة انكليزية صحيحة. لكن (الجنتلمان) يجب ان يراعى مقاييس خاصة لهذه الصفات فان فرط فى احداها خالف مفهوم (الجنتلمان) ولذلك فان الافراط فى (الجنتلمانية) او ما يسمى (Genteelism) هو من ابغض الامور عند الانكليزى ذى التربية الصحيحة وعلى الاجنبى ان يتجنب الظهور بمظهر (Genteel) وعليه ان يعرف ما يجب ان يتجنبه منها قبل معاشرة القوم. فالغلو فى الاحترام والثناء والشكر والغلو فى التقدير والمديح والتمجيد كل هذه تعتبر من مظاهر (الجنتيليزم) وحذار على الغريب ان يحاول التزيى بها.

الجنتلمانية وتجنبها

ومن ابرز الصفات الانكليزية وامتعها هى خفة الروح وحب الفكاهة

خفة الروح وحب النكتة

(Sense of Humour) • ان مفهوم هذه الصفة اوسع جدا مما نفهمه نحن من النكتة لمجرد النكتة، وقد احتلت منزلة عالية فى نفس الشعب حتى انها لتعتبر فلسفة ووجهة نظر خاصة نحو الحياة• ومن اثرها فى تفكير الفرد انها جعلته لا يبالى بالصعوبات والمحن ولذلك ترى الانكليزى وهو فى اسوأ الظروف واشد المحن مرح النفس يكثر من الملح والطرائف والفكاهات• وللفرد الانكليزى، الا ما ندر، ملكة فريدة للفكاهة فهو يبتدعها فى ظروف واحوال لا تخطر على البال وهذه من اهم الاسباب التى تكسب الفكاهة الانكليزية متعة وظرافة• وقد قرأت وسمعت نتفا كثيرة من الفكاهات التى قيلت فى المخابىء اثناء القصف الجوى او فى ساعات الخطر والرعب• وبهذه الروح يتمكن الانكليز من الصمود بوجه الشدائد والتغلب عليها فاصبحت من اهم عناصر حكمة هؤلاء القوم وحصافتهم• والانكليز اكثر الاقوام ضحكا على انفسهم وهم يعتقدون انه ليس من الشهامة والرجولة ان يضحكوا على غيرهم عندما تنتابهم المصائب والمحن•

قلت ان حب النكتة والتمتع بالفكاهة من خواص الجنتلمان والحقيقة انها من خواص اغلب الشعب• ومن فقدت منه هذه الخاصة يجد نفسه خارجا عن المجتمع وتكون حياته شاقة متعبة لان الانكليزيمكنهم ان يغضوا النظر عن كثير من الاخطاء والنواقص الا انهم يرون فى الشخص الذى لا يملك روح الفكاهة والمرح نقصا لا يغتفر ولذلك نرى الخطيب سواء أكان فى قاعة البرلمان ام فى هايد بارك ام فى غرفة الدرس يأتى بين حين وآخر بالطرائف والملح لاستمالة سامعيه والا لما وقع كلامه، مهما كانت قيمته، موقع القبول والرضا عندهم• وكذا الحال مع صاحب المخزن او المستخدم فى الشركة والتاجر او اى صاحب عمل آخر• فهم يعتقدون ان من جملة وسائل النجاح فى عملهم هو ان يكونوا مرحين سريعى النكتة والفكاهة• وهذا يصدق على القاضى والسياسى والشرطى وكل فرد آخر لانهم ان لم يكونوا هازلين ضاحكين فلا ينظر اليهم الناس نظرة جدية• وقد قال المستر تشرشل فى احدى مواقفه الخطابية (١) ان هذه الصفة «مهمة جدا لجميع الافراد وجميع

(١) خطاب المستر تشرشل فى البرلمان فى ٨ ايلول سنة ١٩٤٢ .

الشعوب وخاصة لمشاهير الرجال والزعماء». وقال السير (جارلس ولسن) وهو من ابرز الاطباء فى انكلترا «لو خيرت بين الرياضة وروح المرح كالدواء الوحيد لاطالة العمر لما تأخرت عن القول بان روح المرح والضحك هما ذلك الدواء». والانكليز يضحكون بلا قهقهة وبوقار وهم يعتبرون التشدق بالضحك من الحالات الذميمة حتى ان اللورد جسترفيلد الكاتب السياسى الشهير قال فى (رسائله لولده) «ان الجنتلمان لا يضحك بل يبتسم فقط». وفى الادب الانكليزى كثير من آثار هذه الروح. ففى اشعار وكتب جوسر وسويفت وسترن وديكنز وثاكارى وغيرهم كثير من هذه الدرر وشخصيات مثل (Falstaff) الـذى مثـل الدور الهزلى لبعـض روايـات شكسبير، كثيرة فى الروايات والقطع التمثيلية الانكليزية.

الصحافة الهزلية

اذا قلنا ان الصحافة هى مرآة الشعب فان هذه الناحية اي روح المرح والفكاهة، من حياة الشعب تنعكس تمام الانعكاس فى الصحافة الهزلية. فللجريدة الهزلية (Punch) منزلة لدى سواد الشعب لا يمكن ان تضاهيها منزلة اية جريدة او مجلة اخرى فى انكلترا حتى ان احد الكتاب الانكليز(١) قال عنها انها (من اثمن ما لدينا من التراث الوطنى) ويندر بين الانكليز من لا يقرأ هذه المجلة ساعة صدورها فهى غذاء شهى لقوم يتذوقون الفكاهة ويرون فيها حاجة ضرورية للنفس والروح. وللكتاب الهزليين مكانة ممتازة ولا اخالنى مبالغا اذا قلت ان ما يكتبه المستر (هربرت) يقرؤه اناس يزيد عددهم باضعاف على قراء ما يكتبه الكتاب السياسيون او العسكريون او الاجتماعيون مثل (سيرل فولز) او (ويكام ستيد) و(وليدل هارت) و(جى. بى. بريستلى.) وقد اخذ الهزل التصويرى (Caricature) يشغل مقاما عظيما فى انكلترا فاصبحت كاريكاتورات الرسام الهزلى الشهير دافيد لو (D. Law) من اظرف ما يطلع عليه الشخص فى الصحف الانكليزية وتصوير من تصاويره الهزلية والانتقادية يغنى بمعناه ومغزاه عن مقالة طويلة. وصار هـذا الرسـام يقبض مبـالغ طائلة من اصحاب الجرائد التى تنشر فيهـا كاريكاتوريـاته. ومن المؤكد ان فى البلاد

(١) Dean Inge

الاخرى من هذا الصنف من الرسامين من يفوق (لو) بمقدرته الفنية ولكن ظهوره فى بلد يقدر الفكاهة مثل انكلترا انزله هذه المنزلة السامية.

التفاؤل

ان روح الهزل والفكاهة لم ينل المنزلة التى نالها فى انكلترا لو لم يكن الانكليزى عظيم التفاؤل(Optimist) فالفرد والشعب عامة متفائلون فى نظرتهم الى الحياة والحياة فى نظرهم تستحق الوجود والعيش فيها. ومهما تكن حالة الانكليزى فهو قليل التشكى والتذمر. فهنالك ملايين من الشعب يعيشون فى احوال وظروف لا يتحملها البشر عادة كما هو الحال فى الـ (Slums) والمناطق الفقيرة (Distressed Areas) ومع ذلك فلا تلاحظ فى هؤلاء البؤساء اثرا لليأس والقنوط. وبرغم حالتهم هذه فهم لا يدعون هذه الشرور تتوغل فى اذهانهم فانهم يؤمنون بان نظام الحياة قد جعل البشر (بعضهم فوق بعض درجات) وان الله خلق بين البشر من هم اقدر واكثر حظا من الآخرين ومن نفسه. ولذلك فان فقراء الشعب الانكليزى لا يحملون اى عداء نحو الطبقات العالية بل على العكس من ذلك فهم يتمتعون بما من الله عليهم من الخير والنعمة والمجد. ذكر لى صديق قصة ذلك المهاجر الفرنسى المنفى فى انكلترا والذى كان ذات يوم جالسا فى احدى الحدائق العامة والى جانبه احد البطالين الانكليز واذا بعربة فخمة تجرها جياد مطهمة وعليها آثار الروعة والجلال، تعود الى احد افراد العائلة المالكة الانكليزية تمر امامهما. فالتفت الفرنسى الى صاحبه الانكليزى وقال له «اهكذا يقضى العدل الاجتماعى عندكم؟» انت عاطل وليس لك من حطام الدنيا شىء وهذا النبيل متمتع بهذه النعمة والجلال». فبدلا من ان يتفق معه ذلك الانكليزى فى هذه الملاحظة رد عليه قائلا له : «وما يغنيك من ذلك؟» تقول هذا لانه ليس عندكم فى فرنسا مثلها». انى ارجو من القارىء الا يتهمنى بالرجعية اذا ما دونت مثل هذه الملاحظات فهى حقائق واقعية ليس للعاطفة او الميول الشخصية اى دخل فيها. فقليل جدا من سواد الشعب الانكليزى من يشعر بعدم صلاح نظامهم القائم او يدعو الى الثورة عليه كما هو الحال مع الفرنسيين، فالفرنسى ثوروى بطبيعته غير متفائل فى نظره الى الحياة على عكس الانكليزى تماما.

الاستقلال الشخصى

ولا شيء أعز على الفرد الانكليزى قدر حريته واستقلاله الشخصى (Independence) فهو لا يفتأ يحافظ عليهما مهما كلفه الامر اذا ما اعتدى عليهما معتد سواء اصدر ذلك الاعتداء من مواطنيه ام من الدولة نفسها فالانكليزى قد شب وهو واثق من ان نظامه السياسى وكيانه الاجتماعى قد منحاه حرية فردية تامة فله ان يبدى اى رأى يريده سواء بالكتابة او بالخطابة وله ان يعتنق اى دين يفضله. ولا يمكن لاى بشر ان يتدخل فى شؤونه الشخصية كما انه يشعر بحرية تامة فى حركاته وسكناته دون ان يسمح للدولة بان تفرض اية ارادة عليه وهو لا ينظر الى الدولة كانها السيد الآمر الناهى بل كل ما فى الامر انها تطلب منه التعاون فى سبيل الصالح العام. وقد قيل فى الانكليزى انه يمكن قيادته بمحض ارادته عدة اميال ولكن لا يمكن سوقه خلاف ارادته حتى ولا بوصة واحدة. فان الانكليزى نظريا على الاقل، يمتثل القانون ما دام يرى القانون مستندا الى العدل والانصاف. او انه يدفع الضرائب ما دام يرى انها تصرف فى الجهات التى يوافق ان تصرف فيها. وفى انكلترا بخلاف الدول الاخرى، لا يجوز فرض الخدمة العسكرية الاجبارية على الفرد، الا فى ظروف الحرب طبعا. واذا ما فرضت عليه فانه يشعر ان له الحق فى ان يرفضها وكثيرا ما نقرأ الآن عن هؤلاء الذين يرفضون الخدمة العسكرية والمسمون بالـ (Conscientious objectors) لاعتقادهم بعدم صلاحها. فالانكليزى اذن مطبوع على الحرية ولا يتأخر عن سفك دمه فى سبيل المحافظة عليها ضد كل من يجرؤ على مسها بسوء. واذا سألت اى انكليزى عن الغاية التى يحارب من اجلها الآن فلا اخال جوابه يكون الا انه يحارب للمحافظة على حرياته الاربع: ليعيش كما يريد ويفكر كما يريد ويقول ما يريد ويعبد من يريد. او كما قال شاعرهم (هنلى) ليكون «سيد امره وامير نفسه».

العزم

ومن مزايا الانكليز الممدوحة: قوة العزم (Tenacity) وصلابة الرأى وهذه القوة والصلابة تصل بهم الى اعلى درجات العناد والمكابرة فهو فى الدرجة الاولى لا يعتقد بانه عاجز عن القيام باى عمل مهما كان شاقا فهو يؤمن بمقدرته الفردية واستعداده العنصرى وان ما قاله شاعرهم (ملتون) كما مر «ان كان لدى الاله عمل شاق جدا فانه يعطيه لشعبه الانكليزى لانجازه»

يمثل درجة اعتماد هؤلاء القوم على انفسهم وشدة عزمهم. وفى الحقيقة ان الانكليزى اذا ما اخذ اية مهمة على عاتقه لا يتركها حتى يتمها على الوجه الاكمل. واحسن وصف لهم هو ما قاله اللورد بولدوين (١) « ان الانكليزى اذا ما اعطى اية مهمة او وظيفة فانه يتابعها حتى الموت بكل صبر ومواظبة». فمثله كمثل الفحم الحجرى(Anthracite) فهو بطيء الاشتعال غير انه اذا اشتعل يحترق الى آخر ذرة منه. واحسن شاهد على ذلك هو عندما يكون الانكليز فى حالة حرب. فمن الصعوبة بمكان حمل الشعب الانكليزى، وهو المشهور بحبه للسلم، على الدخول فى الحرب ولكنه اذا ما قرر ذلك ودخل الحرب تنفيذا لقصد من مقاصده تراه يقوم بذلك قياما غير منتظر. فلو فهم اعداء الانكليز هذه الناحية من نفسيتهم لما ظننت انهم كانوا يسرفون فى تلك القنابل والطائرات التى ارسلوها على انكلترا فى سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤١ أو بقنابلهم الطائرة التى يرسلونها الآن بل لكانوا استفادوا منها لغرض آخر غير غرضهم بآمل ارغام الشعب الانكليزى على تغيير قرار كان قد توصل اليه وعقد النية على تنفيذه. وقد اشترك الانكليز وقتئذ فى حروب عدة فما (وهنوا وما ازوروا) من واحدة منها بسبب صدمة اصابتهم او لمعركة خسروها. وانهم وان خسروا كثيرا من معاركهم فانهم قد ربحوا اكثر الحروب التى خاضوها فى الماضى.

ضبط النفس

وللانكليزى قدرة عظيمة على ضبط النفس(Self-Control) فقليلا ما يظهر الانكليزى انفعالاته النفسية مهما كان نوعها. وان كبح العواطف وقلة المبالاة هذه هى من اهم قواعد التربية الانكليزية. فالوالدان يلقنان طفلهما عدم المغالاة بالفرح او الحزن او بالالم او ما شاكل ذلك والفرق بين ضبط العاطفة لدى الانكليز وما يقابلها لدى اهل العراق محسوس جدا ويكفى ان تأخذ شاهدا واحدا على ذلك. وهو فقدان عزيز ما. فقلما يفرط اهل الفقيد من الانكليز بحزنهم ونحيبهم بل يكتمون ذلك فى نفوسهم. ولا حاجة بى الى ان اذكر للقارىء العراقى افراطه وتطرفه اذا ما حلت به مثل هذه المصيبة. ومن الطف ما قيل فى هذا الموضوع ما قرأته عن جرجى

(١) (The Englishman By Earl Baldwin)

الانكليز • فقد قال احد الامريكيين ان الانكليزى المجروح جرحا مميتا يموت بهدوء وسكون كأنما بينه وبين خالقه سر من الاسرار بينما الجرحى من غير الانكليز يبكون وينتحبون اذا ما قيل لهم انهم مشرفون على الموت •

صفة المحافظة

ومن اهم الصفات الوطنية للشعب وابرزها هى صفة المحافظة (Conservatism) وهى صفة الفرد والشعب على السواء • والمحافظة غريزة طبيعية فى الفرد سداها حب كل شىء معلوم ولحمتها الشك فى كل شىء غير معلوم • والمحافظة بمفهومها السياسى غير ما نقصدها فى بحثنا هذا ولو ان فيها تلك العناصر التى تتكون منها المحافظة السياسية • وسبب وجود المحافظة فى الفرد الانكليزى يرجع الى رغبته الزائدة فى الحيطة والتكتم (Reserve) خاصة وان التغيرات الاجتماعية او السياسية التى ترغم على انتزاع هذه الرغبة من نفسه قليلة جدا فى الحياة والتاريخ الانكليزى • وفى الواقع ان الاجيال الانكليزية المتتابعة متصلة بعضها ببعض اتصالا وثيقا فى كل ناحية من نواحى التفكير ولم يحصل ما يقطع هذا الاتصال ولذلك نشأ الولد على سر ابيه والاب على سر جده • وليست المحافظة الانكليزية صفة رجعية ممقوتة كما يظن من يظن • فهذا الانكليزى المحافظ بطبيعته له قدرة التكيف وقوة الحيوية بدرجة لا تخطر على البال • فانك ترى هذا الانكليزى المحافظ سرعان ما اتخذ النظم السياسية او الاجتماعية او غيرها من النظم الحديثة ونبذ القديم البالى ظهريا • ولما رأى ان التطورات العالمية اخذت تقتضى اجراء التحوير فى انظمته ومؤسساته ومظاهر حياته فقد اقبل على هذا التحوير عن طيب خاطر وعن رغبة صادقة • ولذلك نرى ان انكلترا الآن تؤلف اللجان الكثيرة وتعد التقارير المطولة لاصلاح او تغيير هذه الانظمة وهذه المؤسسات التى كان ذلك الانكليزى المحافظ قبل عهد غير بعيد شديد الحرص عليها قليل الرغبة فى القيام باى تغيير فيها سواء أكان ذلك التغيير اساسيا ام سطحيا • ولكن اذا ما قرر القيام بالتغيير والاصلاح فانه يقوم به بكمال واتقان • واحدث الامثال التى يمكننى ان اضربها اثباتا لذلك هو نظام التربية والتعليم فى انكلترا • فقد بقى الانكليز محافظين على هذا النظام سنين طويلة ولكنهم لما شعروا بان التطورات العالمية تقتضى الاصلاح قاموا به • فشكلت لجان لدرس مختلف

نواحي الموضوع ثم قدمت هذه اللجان تقاريرها وسن القانون الاخير الذى وضع التربية والتعليم الانكليزى على احدث الاسس. اما بقاء كثير من آثار الماضى فى الحياة الانكليزية الحالية فلا شك انه مظهر من مظاهر روح المحافظة فيهم ولكن السبب الوحيد الذى يعزى بقاؤها اليه هو لان الانكليزى المحافظ لم ير ما يستوجب تغييرها فابقاها. فمثلا لم ير الانكليز ان ابطال استعمال اللغة الفرنسية فى بعض المراسم المتعلقة بافتتاح المحاكم مسألة مهمة او حيوية ولذلك تركها كما كانت، او انه لم يهتم بتأريخ قوانينه بالتأريخ الميلادى فبقى يعددها بعدد سنى حكم الملك، او ان وظيفة (حارس الموانىء الخمس) (Warden of the Cinque Ports) يجب ان تلغى فبقى هذا الموظف يستقبل الملوك او الامراء الذين يزورون انكلترا بدلا من اقتصار وظيفته على مراقبة الاسطول الحارس لهذه الموانىء المهمة. او ان النائب الذى يريد ان يعتزل الاشتغال فى مجلس العموم سواء عليه اذا استقال بتقديم استقالته او اذا رشح نفسه لوظيفة وكالة مقاطعة جيلترن (Stewardship of the Chiltern Hundreds) ومثل هذه الامثلة لا تدخل تحت حصر.

برودة الطبع

ارى فى الحقيقة صعوبة فى تفضيل بعض المميزات والخواص الانكليزية على بعض. فكلما فضلت واحدة رأيت الاخرى اهم منها. فان اختلف الناس فى بعض هذه الصفات فانهم بلا شك مجمعون على ان الانكليز من ابرد الخلق طبعا. وقد رويت قصص كثيرة عن برودة الدم الانكليزى منها ما هو واقعى ومنها ما هو مبالغ فيه ومنها ما هو مختلق. ان برودة الدم(Sang Froid) والرزانة الفكرية من اهم العوامل التى جعلت هؤلاء القوم فى هذه الدرجة من الحكمة والروية ومما لا شك فيه ان الشعب الذى تكون له المقدرة لتقرير شؤونه بدم بارد ورزانة فكرية يتخذ اصوب القرارات واحكمها ويتمكن من مواجهة اصعب المواقف بكل تؤدة وهدوء. فالشعوب كالافراد لا يظهر جوهرهم الا وقت الملمات وقد ظهر الكثير من مميزات وخواص الانكليز اثناء هذه الحرب. فقد قاس الشعب الانكليزى الامرين خلال السنتين ١٩٤٠ و ١٩٤١ من جراء القصف الجوى واحرقت بيوتهم ودمرت مدنهم ورملت نساءهم وقتلت فلذات اكبادهم ومع ذلك فاظن انهم قابلوا كل ذلك بدم بارد

واعصاب قوية الى ان تغير الوضع العام فصار فى صالحهم. ومن الطرائف التى قيلت عن هدوء اعصاب الانكليز وبرودة دمهم ان من الخطل محاولة اثارة حرب اعصاب ضد الانكليز لان الانكليزى ليست له اعصاب فتار.

البلادة

ان هذه البرودة فى الدم الانكليزى قد جعلت الناس يصفونهم بالبلادة (Dullness) وهذا الاعتقاد فى الانكليز اعتقاد عام شامل حتى ان الانكليز انفسهم يعلمون ذلك. وكثيرا ما سألنى بعض الانكليز عما اذا كنت اظن انهم بلداء. واذا ما اردت ان اجيب جوابا صحيحا دون ما رياء فاشعر بالخجل يدب فى عروقى اذ ان الجواب هو لا شك بالايجاب فاكثر الانكليز بلداء بالمظهر على الاقل. وانت تشعر بهذه الصفة فى هؤلاء القوم لاول وهلة. واذا ما اتصلت بهم يزداد فيك هذا الاعتقاد رسوخا. وترى احيانا ان البلادة تبلغ بهم الى درجة تشعر معها ان التحدث معهم فيما عدا ما يخص الطقس والالعاب الرياضية، ضرب من المستحيل. اما ان هذه البلادة يرجع سببها الى قلة الذكاء الفطرى فانى غير متأكد من ذلك. ولكنى اعتقد ان الشعب الانكليزى اذا ما قورن بالشعوب الجرمانية او اللاتينية فهو اقل منها حدة فى الذكاء. ويخال لى ان الـ (Intelligence Quotient) وهى الوحدة التى يقاس بها ذكاء الشخص، للفرد الانكليزى العادى هى اوطأ مما هى عليه فى الالمانى او الفرنسى او الايطالى. واتذكر انى قرأت للسنيور موسولينى قبل اكثر من عشر سنوات من تورطه بالحرب مع الانكليز انه قال: ان ما يفهمه (Understand) الايطالى فى ساعة يحتاج الانكليزى لادراكه(Grasp) فقط، اسبوعا بكامله. ولا شك انها مبالغة يرجع سببها الى الغيرة والمنافسة. ويجب الا يؤخذ سكان لندن او المدن الانكليزية الكبيرة كبرمنكهام او ليفربول او شيفلد او بريستول مقياسا للشعب الانكليزى فهؤلاء يختلفون بلا شك فى ادراكهم واستعدادهم الفكرى عن سكان القرى والارياف والاماكن النائية التى تكون اكثرية الشعب الانكليزى لان مستوى الذكاء الفطرى فى هؤلاء اوطأ كثيرا من المعدل. وعلى الباحث الذى يريد ان يفهم حقيقة الانكليزى ان يتوغل فى هذه الانحاء من انكلترا حيث يرى العجب العجاب ويحير فى امره كيف ان مثل هؤلاء القوم يمكن ان يديروا العالم ويسودوا البشر.

ان هذا التأخر فى الذكاء لدى اكثرية الشعب قد لافاه نبوغ بعض الافراد فى مختلف ميادين العلم والفكر ولم تبق ناحية من النواحى الفكرية الا وابدع فيها عدد من الانكليز. ولئن تأخر الانكليز فى الادب والشعر فشكسبير قد تلافى ذلك التأخر، او تأخروا فى العلم فنيوتن وفارادى وداروين مثلا قد تلافوا هذا التأخر، وان تاخروا فى علم الحرب والقيادة العسكرية فكرومويل ومالبوروه وولنكتن واللنبى وويفل[١] قد عوضوا عن ذلك، وان اخذت برأى الكاتب العسكرى الشهير (ليدل هارت) فأضيف اليهم اسم (لورنس). ومن نبغ فيهم من الزعماء السياسيين قد عوضوا عن كل ما ينقص سواد الشعب من الادراك او الوعى السياسى، فسلم اليهم مقاليد اموره واطاعهم طاعة عمياء فلم يشأ ان يخرج عن ارادتهم. وهذا هو شأن الشعب البريطانى تجاه قادته وزعمائه فى جميع ادوار تاريخه. فما فعله مع (بت) فعله مع غلادستون وما فعله مع بالمرستون فعله مع لويد جورج وما فعله مع لويد جورج يفعله الان مع ونستون تشرشل.

الانكليز والعبقرى

وللانكليز رأى غريب فى الذكى او العبقرى (Genius) فهم دائما يوجسون منه الريبة والحذر ويفضلون ابعاده والابتعاد عنه. وهذا يصدق على علاقاتهم الخاصة وعلى الامور العامة. فلكلمة (Clever) مفهوم خاص لدى الانكليز والشخص الذى يوصف بهذه الكلمة يكون عرضة للحذر والحيطة فى علاقات الناس معه. اما فى الامور العامة فهذه الخصلة تبرز بأجلى مظاهرها. ففى الظروف الاعتيادية ترى الانكليز يسلمون مقاليد امورهم الى يد اودع ما عندهم من السياسيين والزعماء فهم يشعرون براحة فكرية وطمأنينة اكثر مما لو سلموا شؤونهم الى يد احد عباقرة السياسة. فلنستعرض الرجال الذين كانوا فى رأس الحكم فى انكلترا فى ظروف الحرب والسلم ولنأخذ الحقبة الاخيرة من التاريخ الانكليزى. فبعد ان كسب لويد جورج الحرب الماضية واوصل بريطانية الى اعلى درجات العز والسؤدد نبذه قومه ظهريا وصعب عليه حتى استعادة مقعده الشخصى فى مجلس العموم البريطانى. وفى الفترة بين الحربين تولى شؤون بريطانية زعماء من طراز (بونار لو)

(١) وبالامكان الان اضافة اسم مونتكومرى.

و (بولدوين) و (شمبرلين) حتى اذا ما وجدت بريطانية نفسها متورطة فى الحرب الحالية لجأت الى ونستون تشرشل وسلمته مقاليدها ومقاليد الامبراطورية وهو الذى ابعده قومه عن الحكم طيلة الفترة بين الحربين وهذا هو شأنهم فى جميع ادوار تأريخهم. وتشرشل نفسه اعلم من غيره بطبيعة قومه فقد كتب فى كتابه عن تأريخ حياة جده الدوق مالبوروه بصدد صلح (Ryswick) هذه الكلمات : «وبعد ذلك حلت انكلترا جيوشها واخذت تصب جام غضبها ومصاعبها التى شاهدتها فى غضون الحرب على الرجال الذين قادوها الى النصر» (١)ومن المؤسف حقا ان يعيد التاريخ نفسه فيلقى تشرشل من شعبه ما لاقاه جده قبل قرنين ونصف قرن تقريبا. وغير تشرشل كثير من الرجال الذين يتولون ادارة الامبراطورية من الذين لم يسمع عنهم العالم شيئا قبل الحرب الحالية. فلم نسمع مثلا عن اللورد وولتون الا بما له علاقة بتجارة اللحم ولم نسمع عن ليتلتون الا بقدر ما له علاقة ببعض النواحى التجارية والصناعية وكريبس كان اشبه بالمنبوذين حتى ان الحزب الذى كان ينتمى اليه طرده، ولكن بريطانية عهدت اليه بأهم قضاياها السياسية وادقها وهى ادخال روسيا فى الحرب وحل القضية الهندية. وموريسن وبيفن وبيفربروك والكسندر وسنكلير هم قليل من كثير.

مقدرة الانكليزى على تفهم شؤون البشر

ومهما كانت درجة ذكاء الفرد الانكليزى فهو يمتاز بمقدرة خاصة على تمييز البشر وتفهم شؤونهم. والانكليزى يظهر كأنه اخصائى بعلم الفراسة وعلم النفس والحياة الانكليزية تظهر كأنها مختبر عظيم لعلم النفس العملى وانك تشعر بهذه المقدرة فى مختلف طبقات الشعب سواء الطبقات العليا المثقفة او الطبقات السفلى ذات الثقافة السطحية. فللانكليزى غريزة طبيعية تسمى (Common Sense) ومن الصعب ايجاد ما يقابلها بالعربية وهى عند الانكليز من اهم اركان الطبيعة البشرية وهم يعزون كثيرا من مجدهم الى تشربهم بهذه الخصلة. وقد جعلها الجنتلمان من مثله العليا التى عليه ان يتحلى بها. وكان من نتائج هذه الخصلة ان اصبحت انكلترا بلدا لكل من حبته الطبيعة أية مقدرة او عمل مهما كان نوعه. وقد قللت هذه الخصلة من قيمة الاختصاص فى انكلترا فالشخص ذو

(١) Marlborough, by W. S. Churchill

الباع الطويل فى هذه الغريزة يتمكن من الاشتغال والابداع فى اية ناحية من نواحى الحياة. ولذلك نرى كثيرا من رجال السياسة والادارة فى انكلترا لا يمتون باية صلة الى العمل الذى عهد به اليهم مهما اقتضى ذلك العمل من الاختصاص. فحكام الصلح فى انكلترا مثلا يعينون بعضا من الوجهاء او الملاكين. والوزير يمكن ان يصل الى مركزه دون ان يمر بمراحل الدرس والاختصاص فالمستر (Ben Smith) الوزير البريطانى المقيم فى واشنطن الآن كان فيما مضى سائق سيارة. وفى الوقت ذاته فان الاختصاص لا يعنى شيئا فى الحياة العامة الانكليزية فالمستر ايدن قد اختص فى دراسته العالية باللغات الشرقية وهو الآن يشغل ادق المناصب فى الدولة والمستر آتلى زعيم حزب العمال كان استاذا فى احدى الجامعات والمستر موريسن وزير الداخلية كان مأمور تلفونات وغيرهم من امثالهم.

مقدرته على التنظيم

لنتكلم الآن عن ناحية اخرى من نواحى الحياة الانكليزية وهى المقدرة على التنظيم (Organization) لقد اشتهر العنصر الجرمانى بهذه المقدرة. وهناك من يرى ان الالمان اول الشعوب فى هذا المضمار حتى ان السير نفيل هندرسن فى كتابه (فشل بعثة) (١) قد اطرى الشعب الالمانى وتفوقه فى هذه الناحية ومع انى لست فى موقف تفضيل مقدرة قوم على آخر واذا كان هناك شعب آخر يستحق الدرجة الاولى فى ذلك فان الشعب الانكليزى يستحق الدرجة الثانية بلا منازع ولا شك. ففى الفرد الانكليزى استعداد كبير للتنظيم فلو كانت الطبيعة قد انعمت عليه بذكاء افضل من ذكائه لكان انظم البشر واكفاهم. ان استعداد الانكليز للتنظيم يظهر للعيان فى حياتهم الخاصة وفى امورهم العامة ولذلك يرى المتتبع لشؤون هؤلاء القوم ان حياتهم تجرى كالساعة لا تؤثر فيها العوامل الخارجية الا تأثيرا غير محسوس. فاحسن تشبيه للحياة الانكليزية انها تشبه بجسم من الاجسام الحية تقوم كل حجيرة من حجيراته وكل عضو من اعضائه بواجبه فى سبيل ادامة ذلك الجسم الحى. لقد قرأنا الشىء الكثير عن انكلترا اثناء الحرب كما رأينا كثيرا من التصاوير والافلام عنها ولا شك فى ان اكثرها من وسائل الدعاية التى لا يصح الاستناد اليها فى بحث جدى

(١) Failure of a Mission, By Sir Nevile Henderson

لكننى شاهدت بنفسى اروع ما شاهدت من التنظيم فى حفلات تتويج جلالة الملك جورج السادس سنة ١٩٣٧ . هذا مثل واحد من عدة امثلة يراها زائر انكلترا. ان حب الانكليز للتنظيم ربما يرجع الى ما يسمى بنظام الطبقات (Hierarchy) . ان بعض القراء يفهمون ذلك فيما يتعلق بنظام الكنيسة اى وجود طبقة فوق اخرى من الكهنة والقسس والرهبان الخ . . . ان هذا الحس بالتنظيم قد توغل فى نفس الفرد الانكليزى وصار يطبقه فى جميع نواحى حياته. وابرز مثل على قبوله لهذا المبدأ وخضوعه له هو نظامه الاجتماعى المتباين كل التباين. ومع ذلك فهو لا يبدى اشمئزازا منه ولا يثور لتغييره. ومن الامثلة الاخرى على قبول الانكليز لهذا المبدأ هو نظام (Fagging) الذى تطبقه المدارس الانكليزية بين طلابها وهو يقضى على الطالب الذى ينتمى الى صف اوطأ ان يخدم ويمتثل اوامر الطالب الذى هو اعلى منه صفاء

الفردية

لنتكلم الآن عن صفة الفردية (Individualism) فى الانكليزى وكان يجب ان اتكلم عن هذه الصفة فى اول البحث بالنظر الى اهميتها وسعة البحث عنها. ان الفردية، لغة ومعنى، هى تفضيل النفس على غيرها، وتفضيل الفرد على المجموع والمتصف بها يرى مصلحته قبل كل شىء ويعتقد ان الغاية النهائية التى تعمل من اجلها الدولة هى نفع الفرد. هذا هو المفهوم العام لهذا الاصلاح والآن لنطبقه على نفسية الفرد الانكليزى. قبل كل شىء يعتقد الفرد الانكليزى ان الحياة الاجتماعية التى تحيط به مكونة من مجموعة افراد كل منهم قائم بنفسه وان الحياة تتكون من مجموعة الاعمال التى يقوم بها الاشخاص بصفتهم الفردية. والانكليزى لا يخضع ولا يقبل اى نظام الا اذا كان من وضع يده ومن بنات افكاره. وهو يثور على الضغط والاكراه سواء اكان مصدره فردا آخر ام الدولة نفسها. ولكن هذه الفردية فيه محددة بالتقاليد والعادات التى يخضع لها الانكليزى كل الخضوع. فهو فردى يحب الانفراد ولكن فرديته لا تتطلب منه ان يختلف عن سائر بنى قومه. وان شذ عنهم فانما يكون ذلك على مسؤوليته الخاصة. فالشاعر (سونبيرن) مثلا قد شذ عن قومه باشعاره والكاتب (اوسكار وايلد) قد تبع سونبيرن فى كتاباته وبرنارد شو قد شذ بتفكيره وكتاباته وكل منهم اخذ ما يستحقه جزاء لشذوذه.

فالفردية المتطرفة لا محل لها فى العقلية الانكليزية. واكثر من ذلك فان العقلية الانكليزية قد الفت او بالاحرى استساغت التعاون بين الافراد وقد بلغ هذا الميل فيهم اقصى الحدود. خذ مثلا تعاون الدولة مع الافراد او مع الشركات فان الدولة تعمل لخدمة الافراد والشركات ثم خذ مثلا آخر وهو التعاون بين اللاعبين تجد كيف ان اللاعبين يتكاتفون لخير الفرقة وكيف ان الفرق المختلفة تتكاتف لخير اللعبة.

(الفير بلاى)

فمن هذه الغريزة التى فى نفس الانكليز للتعاون بعضهم مع بعض تولد لديهم اعلى ما يمكن ان يوجد فى بنى البشر من العلاقة وهو ما يسمى (Fair Play) واراني عاجزا ايضا عن ايجاد مرادف فى اللغة العربية لهذا الاصلاح واشك فى وجود مقابل له فى اية لغة اخرى. فهذا الاصطلاح، وكثير من الاصطلاحات الانكليزية الاخرى المشتقة من لغة الرياضة، قد نشأ بادىء ذى بدء كاصطلاح رياضى ثم اخذ الانكليز يستعملونه فى معان واسعة جدا فصار يستعمل عندما يراد التعبير عن المساواة وعدم المحاباة والعدل فى المعاملة وخاصة عند وجود فريقين متنافسين. وكذلك عندما يراد التنويه بعدم التطرف بالعداء والبغضاء بين المتنافسين. ولولا هذه الروح لما نجح النظام البرلمانى المزدوج فى انكلترا. فلعدة قرون خلت يقف الحزبان المتنافسان وجها لوجه فى البرلمان الانكليزى دون ما اخلال فى العلاقة بينهما. ولذلك فمن اصعب الامور عند الانكليز ان يتصلوا او يتعاونوا مع من لا يحمل فى نفسه روح التوفيق. ومن طبيعة الانكليزى — وليفهم ذلك ساسة الغد من العراقيين — انه يمقت استعمال القوة لنيل مقاصده فهو يبذل جهده للاتفاق مع خصمه بكل الطرق الممكنة ما عدا طريق القوة التى ان سلكه فانما هو مكره.

تلك هى اهم المميزات والصفات التى يتصف بها اولئك القوم وهم يفخرون بل يتباهون على الشعوب الاخرى بها. ولكن فى الشعب الانكليزى صفات ذميمة بقدر ما عندهم من صفات محمودة ومن فضائلهم انهم كثيرا ما يعترفون بهذه الصفات الذميمة ويقبلون كل انتقاد يوجهه اليهم الاجانب بشأنها وخاصة اذا علموا ان ذلك الانتقاد برىء.

الرياء والنفاق

لقد تصفحت كتبا عديدة قبل ان اقدم على كتابة هذا الكتاب، منها ما

كتبه الانكليز انفسهم عن قومهم وبلادهم ومنها ما كتبه الاجانب عن انكلترا والشعب الانكليزى ولم ار ولا كتابا واحدا منها لم يتطرق الى صفة الرياء (Hypocrisy) عند الانكليز. فالاجانب يتهمون الانكليز بها وكتاب الانكليز يدافعون عن بنى قومهم ضد هذه التهمة او على الاقل يبررون اتصافهم بها. ولا غرابة اذن ان اسهبت قليلا عند الكلام عن هذه الخصلة الانكليزية الذميمة.

قبل كل شيء اريد ان اوضح للقارىء العربى معنى ما اقصده من الرياء او النفاق. فالرياء والنفاق هو محاولة الشخص الاتصاف بصفات ليست هى فى الحقيقة صفاته او محاولة التظاهر بالشعور او بالعاطفة التى لا يضمرها فى الحقيقة. ومفهومها عندنا هو التظاهر بالورع والتقى والفضيلة دون العمل بها عن عقيدة فى النفس. وفى الحديث ان آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أوتمن خان. اذن فمفهوم الرياء والنفاق عندنا هو اوسع بكثير من المفهوم الدينى فهو يتعدى ذلك الى الاخلاق الاجتماعية الخاصة والعامة. اما عند الانكليز فان الصفة اعم بكثير مما يتصورونه هم انفسهم وان كثيرا من امور حياتهم يمكن ان يفسرها المراقبون الاجانب بانها مظهر من مظاهر الرياء والنفاق. نعم ان الفرد الانكليزى رجل مستقيم ولا غبار على سمعته الادبية ولكن للانكليزى طريقة خاصة للقيام بشؤون حياته. فاذا ما اراد ان يقوم باى عمل فانه ينظر فى الدرجة الاولى الى نتائج اكثر اتفاقا مع مراميه وميوله ومصلحته، بغض النظر عن الاعتبارات الاخرى التى قد تنتج عن ذلك حتى ولو كانت خلافا للمنطق او العدل او السنن الخلقية المقبولة. فتراه يقوم بذلك العمل ما دام قيامه به سهلا وملائما وما دام عمليا وممكنا. واذا ما اصطدم بامر ما بذل الجهود لحل الخلاف بطرق التوفيق والتراضى بصرف النظر عما سيتركه هذا الحل من التأثير المعنوى لدى الغير. وهذا هو فى رأيى السبب الاساسى الذى جعل الاجانب يصمون الانكليز بهذه الخصلة الذميمة وجعلت الانكليز عرضة لهذه الوصمة. حتى ان (الايرل بولدوين) فى بحثه عن الرجل الانكليزى قال : «ان تهمة الرياء التى يسندها الينا الاجانب هى من اشد التهم واصدقها عندهم واكثرها انتشارا». واذا ما اصغيت الى ما يقوله الانكليزى

تلاحظ انه يتكلم دون ما جزم او وضوح حتى تظن انه غير مخلص فى كلامه وانه لا يقصد ما يقول. وفى كثير من الاحيان يقول الانكليزى شيئا بينما هو فى الحقيقة يقصد شيئا آخر وحين يتكلم الانكليزى بجزم وبوضوح فما ذلك الا لاعتقاده ان كلامه هذا فى مصلحته فى تلك الظروف. ومن المفهوم عن الانكليز وخاصة فى معاملاتهم السياسية انهم يعمدون الى الغموض حتى اذا ما رأوا الظروف بجانبهم فسروا ذلك الغموض بما يتفق ومصلحتهم الخاصة. ولذلك كثيرا ما كانت التصريحات والتعهدات الانكليزية موضع الشك وقليلة الثقة.

سبب اتهامهم بذلك

وقد كثر الاخذ والرد فى هذه التهمة وتبريرها كما قلت. كان البروفسور (آيفورايفانس)(١) قد القى محاضرة فى بغداد عن الادب الانكليزى وتأثير الاخلاق الانكليزية فيه وبعد ان عدد كثيرا من صفات قومه قال انا كثيرا ما وصمنا بالرياء والنفاق. ولكنه انحى باللائمة على بعض الكتاب الانكليز احياء وامواتا مثل (كارلايل وديكنز وآلدوس هاكسلى واج. جى. ويلز وكولزورثى وبرنارد شو) وغيرهم لاساءتهم الى سمعة الانكليز. ولا شك فى ان هؤلاء الكتاب هم من ذوى الفكر الحر، وهذه الطلاقة الفكرية جعلتهم يجوبون مختلف نواحى الفكر فلم يتقيدوا بتقليد او بمألوف او بحالة اجتماعية. ولذلك كتبوا كل ما عن لهم وحللوا نفسية قومهم فقالوا الحسن والسيء منها على حد سواء. وبعد مرور بضعة اشهر على خطاب البروفسور ايفانس قرأت خطابا للكاتب الشهير اج. جى. ويلز القاه فى جمعية المؤلفين فى لندن (٢) هاجم فيه الدبلوماسيين الانكليز الذين اعتادوا كتمان الحقائق وقال : «علينا ان نفهم العالم وندع العالم يفهمنا ولا فائدة من ان نغش العالم او ندع العالم يغشنا. فعلينا ان نقول الواقع وان نكون مستقيمين وان تكون تصريحاتنا واضحة جلية» هذا مثال عرضى اوردته للدلالة على ان مفكرى الانكليز انفسهم يدركون هذا النقص الموجود فيهم ولا يضيعون فرصة ما الا وطلبوا اصلاحه.

(١) Prof. Ifor Evans—British Institute Baghdad, January, 8, 1943.
(٢) Speech at the Author's Society, London.

رأى الانكليز بذلك

ذلك ما قاله اج٠جى٠ ويلز ولننظر الى ما قاله انكليزى اخر جاء يرد هذه التهمة عن قومه٠ فقد تساءل (القس أنج) فى كتابه الذى ذكرناه آنفا لماذا وصم قومه بالرياء : (فدبلوماسيتنا كانت على العموم مستقيمة اذا ما قيست بذلك المستوى الواطىء من العلاقات الدولية، ولا يمكن ان تعزى الينا مكيدة ميكيافيلية٠ وفى الحقيقة ان كثرة التغيير فى حكوماتنا جعل رسم سياسة خارجية ثابتة لنا او اتباع السياسة السرية من الامور الصعبة٠ وقد عزا بعض الشعوب نجاحنا هذا الى المكر تحت ستار سلامة النية ولذلك فان هؤلاء الشعوب يظنون ان لهم حجة قوية لاسناد تهمة الرياء الينا)٠ وعندى ان احسن ما كتب عن الانكليز وعقليتهم هو كتاب ويليم ديبليوس (١) فقد حلل هذا الكاتب النفسية الانكليزية الى ابسط عناصرها ولم يفته ان رأى فى هذه العناصر عنصر الرياء فاعترف بوجوده وعزا بعض المظاهر فى الحياة الانكليزية اليه٠ فقد عزا التناقض والشذوذ الموجودين فى الاخلاق الانكليزية الى الرياء والنفاق٠ كما انه قال ان عطف الانكليز على عدو مقهور يجب الا يعتبر رياء فقط اذ كثيرا ما ترى بريطانيا ان ليس من مصلحتها اتباع سياسة الاخضاع القاسية تجاه اعدائها المقهورين بل انها تحاول التوافق معهم الى ابعد ما يمكن٠ كما انه فسر المحاولة التى قامت بها الكنيسة الانكليزية بعد الحرب الماضية لاتحاد الكنائس المختلفة بانها مثل اخر من الرياء الانكليزي٠ ومن جملة المطالعات التى اوردها ديبليوس والتى تستلفت النظر هى انه لا يمكن لاى باحث ان يقبل ادعاء الانكليز فى انهم اكثر الشعوب حبا للحقيقة (Truth) وهو يعتقد ان الاساس وهو احترام الحقيقة مفقود فيهم٠ فان صحة الحقائق وضبطها هو اخر شيء يهتم له الانكليز اذا ما اقتضى الحال التوفيق بين عدة فضائل متضاربة٠

هذا هو رأى اجنبى فيهم اما رأيهم فى انفسهم فيمثل بما قاله الايرل بولدوين فى كتابه عن انكلترا (٢) : «ان قول الحقيقة هو اعظم كنز وطنى عندنا فان معاملاتنا التجارية وتجارتنا الخارجية مع افراد لا نعرفهم ولا يعرفوننا

(١) England by William Dibelius.
(٢) On England by Stanley Baldwin.

يرجع الى استقامتنا. ولكن لماذا تعزا الينا قلة الاستقامة فى الامور السياسية. لقد وصموا ساستنا بالرياء والغش». ثم يتساءل عن الاسباب التى ساءت من اجلها سمعة الشعب البريطانى باسره وقال ان الحرب والدبلوماسية وفن السياسة ونظام الاحزاب هى اهم الاسباب. «فبغية حفظ كيان المملكة اخذ رجال السياسة يبررون اى طريق يسلكونه. وصارت المصلحة الوطنية تفضل على الصدق والاستقامة وتغلغلت المبادىء الميكيافيلية فى نفوسهم».

كنت قد اطلعت صديقا انكليزيا متعلما على هذا الفصل من النسخة الانكليزية وبعد ان قرأه كتب الى يقول بالحرف الواحد: «ان ما ذكرته عن الرياء الانكليزى ممتع جدا وخاصة تحليلك اسباب ذلك. ولكن بريطانية كثيرا ما اظهرت كرما سياسيا فمثلا : لما اعادت جزر الآيونيان الى اليونان كان ذلك بنتيجة استفتاء اشرفت عليه هى بنفسها ولان الشعب البريطانى يكن للشعب اليونانى اعظم التقدير . وكذلك حل قضية جنوب افريقيا على اثر حرب البوير يمكن ان يعتبر حلا كريما ايضا. ومن الناحية الاخرى يمكنك ان تفسر ذلك ايضا بانه مصلحة ذاتية. انى اعتقد بان أبناء قومى الانكليز يودون ان يعتقدوا انهم عملوا ذلك بتأثير المبادىء الخلقية السامية كما يحدث عادة. فانهم يعتبرون الاخلاق القويمة (good character) من باب الشعور الطيب (good sense) ليس الا. ان هذه الاعتبارات فى الشعب البريطانى هى التى تزعج الشعوب الاخرى التى تحاول تقليد مذهب ميكيافيلى فتبحث حتفها بظلفها».

الرياء السياسى الانكليزى

هذا شاهد عرضى على ما يعتقده الانكليز فى انفسهم. واكثرهم لا ينكرون اتصافهم بهذه الصفة ولكنهم كما قلت يحاولون تبريرها. ولئن برز الرياء الانكليزى بمظهر ما فانما هو الرياء السياسى ذلك الرياء الذى برت به انكلترا غيرها من الممالك فى جميع ادوار تاريخها السياسى. وعدا عن ان الولوج فى هذا الحقل وعر المسلك فانه واسع جدا قد يخرج عن نطاق هذا الكتاب ولكنى اكتفى بذكر مثلين فقط من الرياء السياسى الانكليزى تاركا الحكم فيهما للقارىء.

حلفهم مع اليابان

بمناسبة عقد الحلف اليابانى البريطانى فى اوائل هذا القرن كتب كاتب اميركى

(١) يقول «حقا انها مسألة فيها نظر: هل ان تحالف انكلترا الريائى مع هؤلاء الوحوش قد زاد فى تهديد المدنية السكسونية فى اوروبا وفى اميركا اكثر من اى عمل دبلوماسى قامت بها انكلترا منذ عصور».» انى اترك للقارىء ان يرى لنفسه مبلغ صحة ما قاله ذلك الاميركى. ان الانكليز اليوم يحصدون ثمرة مرة لما زرعوه بانفسهم قبل اربعين سنة تقريبا.

ورياؤهم مع العرب

والمثل الثانى من الرياء السياسى قد اقترفه الانكليز تجاهنا نحن العرب. فقد عاون العرب الانكليز فى الحرب الماضية ضد الاتراك ولقاء تلك المعونة وعدهم الانكليز بتأسيس دولة عربية مستقلة تضم الاقطار العربية التى تحررت من الامبراطورية العثمانية، بما فيها فلسطين. وهذه الوعود كان قد صرح بها السير هنرى مكماهون سنة **١٩١٥** عن لسان بريطانيا. وصرح سياسى انكليزى آخر وهو المستر بلفور نيابة عن حكومته تصريحه المشؤوم سنه **١٩١٧** الذى وعد فيه بمساعدة الحكومة البريطانية فى تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين واستعمال نفوذها لتسهيل تنفيذ ذلك. فبدلا من ان تفى انكلترا بوعدها للعرب ائتمرت(٢) ضدهم وانكرت عليهم استقلالهم الموعود به فاتفقت سريا على تقسيم بلادهم بينها وبين فرنسا بمقتضى معاهدة سايكس بيكو كما انها كانت تساعد اليهود على الاستيلاء على فلسطين بعد ان ارسلت ذلك الشيخ الهرم الى منفاه على ظهر طرادة من بحريتها. ليس المقام موآتيا للتوغل فى

---

(١) Price Collier. فى كتابه المسمى England and the English

(٢) أقول «ائتمرت» مستندا الى قول انكليزى صديق مخلص للعرب وهو لورنس. فقد قال فى مقدمة كتابه (اعمدة الحكمة السبعة) «كانت هى حربا عربية اثيرت ودبرت من قبل العرب لمآرب عربية فى بلاد العرب. ان الوزارة الانكليزية حملت العرب لصالحنا بعد ان اعطيناهم عهودا لا تقبل الشك لتأسيس دولة مستقلة بعد الحرب. وكانوا يرون فى وكيلا صريحا للحكومة البريطانية وطلبوا منى تصديق تعهداتها التحريرية ولذلك كان لزاما على ان اشترك (بالائتمار) واكدت للقوم مكافأتهم بقدر ما لكلمتى من قيمة. وفى خلال السنتين التى اشتركنا فيها تحت النار اعتادوا تصديقى وكانوا يظنون ان حكومتى كانت مخلصة مثلى. وفى هذا الاعتقاد قاموا باعمال باهرة ولكنى بدلا من ان افتخر بما قمنا به سوية صرت اخجل على الدوام من ذلك. وقد جازفت فى هذه الخيانة لاعتقادى ان معاونة العرب كانت ضرورية لنصرنا الرخيص السريع فى الشرق وان الاوفق ان نربح الحرب ونكسر كلامنا لا ان نخسر الحرب. ان طرد السير هنرى مكماهون قد اكد اعتقادى فى عدم اخلاصنا».

موضوع سياسى كهذا وما ذكرته يكفى لتعزيز الشاهد الثانى من الشاهدين اللذين اوردتهما وهما على ما اعتقد من اعظم امثلة الرياء السياسى الانكليزى٠

غدر الانكليز

والانكليز وصموا ايضا بالغدر (Perfidy) وان اثنين من ألد اعدائهم قد اتهماهم بذلك٠ فنابليون سمى بريطانية (بانكلترا الغادرة) (Perfide albion) لانها كثيرا ما نكثت بعهودها وانقلبت على اصدقائها٠ وعدوها الآخر، هتلر، تكلم عن الغدر الانكليزى فى كتابه (كفاحى)، ولا غرابة فى ذلك٠ ولئن كان ذلك يصدق على بريطانية السياسية فانه حسب ظنى لا يصدق على الشعب الانكليزى فى انكلترا ومع ذلك فانى غير متأكد من هذه النقطة تمام التأكد ولم ار بين الردود التى قرأتها فى هذا الصدد ومن جملتها رد (القس أنج) ما ازال منى الشك وجلب الى اليقين٠

حقدهم وانتقامهم

وهناك صفة اخرى طالما الصقت بالانكليز وهى الحقد والانتقام (Vindictiveness) ٠ ولكنى شخصيا اميل الى براءة هؤلاء القوم من هذه الرذيلة٠ فالقوم الذين ينظرون مصالحهم المادية قبل كل شىء لا يأبهون الانتقام حبا بالانتقام٠ واصدق شاهد على ذلك يتمثل بالحركات الحربية التى يقوم بها الانكليز٠ فهم لا يقابلون العمل بمثله لمجرد المقابلة بالمثل والاذى كما تفعل بعض الشعوب الاخرى٠ فجل غرض القصف الانكليزى مثلا هو الضرر بهدف عسكرى وكل عمل من اعمالهم تقرره المصلحة والفائدة لا لشفاء غليل النفس ولا لعقاب انتقامى على جرم سابق٠ فالشعب البريطانى لم يتهم حسب ما اعلم، بما اتهم به غيره فى (ليديجة) او بلغراد او وارشو او روتردام او كاتين (اى من قام بها)٠ وتظهر طهارة قلب الانكليزى جلية اذا ما قيس بابن عمه الايرلندى٠ فالايرلنديون قوم حقودون واكثر ضغائنهم الحالية ضد الانكليز سببها وقائع تاريخية ترجع الى عصور قديمة٠ ومن الادلة المشهودة على صفاء سريرة الفرد الانكليزى هو ندرة الاغتيال السياسى الذى يكثر عادة فى الاقطار الاوروبية الاخرى والشرقية٠ فالانكليزى، كما قال الايرل بولدوين، «لا يتمكن ان يفهم الكراهية والعداء الدائم ولا يضمر سوءا فى اعماق قلبه»٠

قساوتهم

ويؤدى بنا هذا البحث الى الكلام عن صفة اخرى طالما كثر الكلام عنها وهى صفة القساوة (Cruelty) • فالشعب الانكليزى من ارق الشعوب عاطفة، واقصد هنا بالعاطفة العاطفة نحو الخير ورقة القلب• لا شىء يثير الشعب الانكليزى اكثر مما تثيره اخبار القسوة والتعدى ولذلك ترى ان اول الشعوب التى تقوم لنصرة قوم اصيبوا بضيم او فئة طغت عليها فئة اخرى، هو الشعب البريطانى• فيعجب المرء كيف ان هذا الشعب المشهور بالبلادة يرغى ويزبد اذا ما سمع باعمال القسوة والجور حتى اذا اصابت اقواما لا تربطه بهم اية رابطة• وسرعان ما يهبون لنصرتهم واسعافهم• والانكليز ينشئون ابناءهم منذ نعومة اظفارهم على الاعمال الانسانية واللطف والرقة• فترى الطفل الانكليزى يبكى لان امه لم تمكنه من اطعام حمام ميدان (الطرف الاغر) او انها تؤنبه لانه قسا على كلبه اوقطته• وجمعيات الرفق بالحيوان هى اكثر الجمعيات الانكليزية نشاطا وكثيرا ما احيل بعض الاشخاص الى المحاكم لقسوتهم نحو الحيوان• والانكليز هم اول الاقوام الذين نادوا بتحريم تشريح الحيوانات الحية (Vivisection) •وربما كان الانكليز فى عصرنا هذا ارق من اسلافهم فى العصور الماضية الذين كانوا يمارسون بعض الاعمال التى تحمل روح القسوة• فيروى ان الانكليز كانوا فى القرن الثامن عشر يقيمون الاجتماعات فى (Newgate) و (Bridewell) ليشاهدوا جلد النساء حتى ان جلد الرجال (Flogging) مازال مقبولا فى انكلترا ومتخذا عقوبة لا للاحداث فحسب بل للرجال ايضا كما سيراه القارىء فى الجزء الثانى• وكان الانكليز يمتعون انفسهم بمشاهدة الحيوانات تقسو بعضها على بعض• فعراك الديكة كان مألوفا لديهم وعذاب الدببة باطلاق الكلاب عليها وهى مقيدة (Bear-Baiting) كان من المناظر التى تجلب السرور لهم• وصادف ان زرت مرة احد المتاحف الصغيرة فى (شارع شافتسبرى) (Shaftsbury Avenue) فلفت نظرى جهاز خشبى فسألت الدليل عنه فاخبرنى ان هذا الجهاز كان يستعمل لمعاقبة الفاسدات من النساء والاحداث وذلك بربطهم بلوحة الجهاز (Ducking Stool) وتغطيسهم فى الماء مدة من الزمن ثم اخراجهم منه وتكرار هذه العملية عدة

مرات. وهذا العذاب فى العقاب كان سائدا فى انكلترا حتى القرن الثامن عشر ثم الغى ولم يبق منه الآن الا آثار ذلك الجهاز.

صداقتهم

وآخر ما اريد الكلام عنه من المميزات والخصال الانكليزية هى صداقتهم. وموضوع الصداقة الانكليزية موضوع يلذ الكلام فيه. فالانكليزى بطىء بتأسيس صداقته ولكنه اذا ما تأسست هذه الصداقة تكون طويلة الامد وقوية وقد تمتد من جيل الى جيل. ومن المعلوم عن الفرنسى انه حالما تبدأ معرفته بجليسه فان تلك المعرفة سرعان ما تصبح وثيقة حتى تشمل اخص الشؤون الشخصية. والانكليزى عكس الفرنسى تماما فهناك مرحلة يجب اجتيازها قبل ان تصبح العلاقة وثيقة. فاذا ما فتح لك الانكليزى قلبه فانه يفتح لك بابه ايضا واذا فعل ذلك كانت الصداقة على اتم واكمل مظاهرها. والانكليزى فى داره جواد كريم يحمله على المبالغة فى الكرم والضيافة رقة قلبه ولطفه الطبيعى. ومع ان الضيافة العربية صارت مضرب الامثال لكنى اعتقد بان الانكليز ليسوا اقل من العرب — ان لم اقل اكثر منهم احيانا — اكراما للضيف. فالانكليز مشهورون بكثرة ضيافاتهم وولائمهم وترى كل واحد منهم يقيم الولائم طالما تسمح به حالته المالية.

ويقول الانكليز انهم مخلصون لاصدقائهم سواء اكانوا افرادا ام شعوبا ويدعون انهم يتذكرون اصدقاءهم وخاصة اولئك الذين يقفون الى جنبهم ساعة الضيق والمحنة. وقد يكون ذلك صحيحا الا انه يجب التمييز بين نوعين من الصداقة الانكليزية : صداقة الانكليزى داخل انكلترا والصداقة السياسية الانكليزية. وما ذكرته سابقا ينطبق كل الانطباق على النوع الاول. اما النوع الثانى اى الصداقة السياسية الانكليزية فهذه مقيدة بعوامل واعتبارات خاصة واهم هذه القيود (المصلحة البريطانية). فالانكليز يفضلون مصلحتهم على الصداقة ويراعون مقتضيات هذه الصداقة ما دامت متفقة ومقتضيات المصلحة البريطانية ولا تعارضها. روى عن بالمرستون السياسى الانكليزى الشهير انه قال : «ليس لبريطانية صداقة ابدية او عداء ابدى بل لها مصالح ابدية» ولهذا فان صداقة انكلترا السياسية لا يصح الاعتماد عليها

فكثير ما هجر الانكليز اصدقاءهم لانهم لم يجدوا فى صداقتهم فائدة لهم.
وبرغم قلة تجاربى الشخصية فى (الصداقة السياسية الانكليزية) اعتقد انه من
الخطل ان يتوقع المرء من صداقته مع (انكلترا السياسية) فائدة شخصية
وخاصة ما له علاقة بالمنافع المادية واذا ما فعل ذلك فانما يفعله تحت خطر الحط
من كرامته وسمعته عندهم. فانت صديق (انكلترا السياسية) ما تماشيت
وسياستها ولكنك اذا ما زللت ولو قليلا، ومهما كان الغرض من ذلك الزلل،
فانك تجعل تلك الصداقة عرضة للتصدع والانهيار.

الفصل الثانى

المرأة الانكليزية

ان ما ذكر فى الفصل المتقدم من الميزات والخصال ينطبق على المرأة الانكليزية بقدر انطباقه على الرجل الانكليزى ولذلك سنتخذ فى هذا الفصل اتجاها فى البحث غير الاتجاه الذى اتبعناه عند بحثنا عن الرجل الانكليزى. وهذا الاتجاه يتناول الادوار التى مرت عليها المرأة الانكليزية فى حياتها الاجتماعية ثم جهودها فى مختلف نواحى الحياة مع المقارنة فى بعض الاحوال بينها وبين اختها المرأة العراقية.

المساواة بين الرجل والمرأة

يرجع تاريخ المساواة الاجتماعية بين المرأة والرجل فى انكلترا الى عهد قديم وبمر السنين اخذت المرأة الانكليزية تتعمق فى تفكيرها وتتوسع فى حق المساواة الاجتماعية حتى شمل هذا الحق المساواة فى الحقوق السياسية. ففى اواخر القرن الثامن عشر لقيت هذه الفكرة رواجا وتأييدا وخاصة من قبل الراديكاليين امثال (بنثام) وغيره ثم ظهر من النساء انفسهن من تزعم للمطالبة بحقوق المرأة مثل (Mary Wollstonecraft) وغيرها وبفضل جهود (المسز بانكهرست) تمكنت المرأة الانكليزية من التصويت فى الانتخابات حتى اذا ما حلت سنة ١٩١٩ تمكنت الليدى آستور من دخول البرلمان الانكليزى وفق احكام القانون المسمى (Sex Disqualification Act) فكانت اول امرأة تشق طريقها الى ويستمنستر. وفى الوقت الحاضر ترى عددا لا يستهان به من النساء تحت قبة البرلمان [١]. ولم يكتفين بالنيابة بل انهن قد ولجن رقم (١٠) داونينك ستريت ايضاء فكانت المس (ماركريت بوندفيلد) وزيرة العمل فى حكومة العمال الاولى اولى وزيرات الجنس اللطيف. وصرن اذا اشتركن فى اية وزارة مهما كانت صبغتها يبدين من النشاط والجهود ما يسجل لهن بمداد الفخر. ولا اظن ان الشعب الانكليزى، بالرغم مما تكنه بعض الاوساط

---

(١) يبلغ عدد النساء بين اعضاء مجلس العموم البريطانى الآن حوالى العشرين.

الانكليزية من الشك فى قابلية المرأة الانكليزية، لا يطمئن اذا ما عهد بمقاليد اموره الى شخصيات مثل (مس الن ويلكنسون) او (مس الينور راثبون) او (الدوقة آثول). وهذه احداهن (المسز كازاليت كير) قد احرجت موقف الوزارة الانكليزية فى البرلمان فى احرج مراحل الحرب اثناء المناقشة على لائحة قانون المعارف. ان ابواب اكثر وظائف الدولة مفتوحة فى الوقت الحاضر للمرأة وللرجل على السواء الا ان هناك بعض وظائف ان لم تدخلها فللتقاليد الاجتماعية لا لمانع قانونى يمنعها عن ذلك كوظائف القضاء والوظائف العسكرية ومع انها لم تشغل وظائف دبلوماسية مهمة فقد اخذت تشغل فى الايام الاخيرة بعض هذه الوظائف. على ان هناك قانونا انكليزيا لا يجيز ابعاد المرأة عن اية وظيفة من وظائف الدولة بسبب كونها امرأة. والانكليز يقرون بمقدرة المرأة على الحكم لانهم شهدوا ان اعظم العهود التى مرت بها انكلترا كانت على ايدى ملكاتها وان حكم الملكة آن والملكة اليزابث والملكة فكتوريا كان من العصور الذهبية لبريطانيا وكثير من الناس يعتقدون ان اعلى ما وصلت اليه الامبراطورية البريطانية فى المجد والقوة والنفوذ كان فى ايام الملكة فكتوريا.

نشاطها فى الاعمال الفكرية والجسمية

لقد اثبتت المرأة الانكليزية انها اهل لكل عمل من الاعمال سواء اكانت فكرية ام جسمية ويندر ان تجد الآن ناحية من نواحي الحياة الانكليزية الا وللمرأة اثر بين فيها. واذا ما استعرضنا هذه النواحي فاول ما يلفت النظر هو مجهودها العظيم فى ادارة الشؤون البلدية فانها قد احرزت نجاحا عظيما فى ادارة مجلس بلدية لندن (L.C.C.) ويمكن ادراك مبلغ هذا النجاح اذا ما علمنا ان هذا المجلس مسؤول عن ادارة سكان يبلغ عددهم ضعف سكان العراق. والانكليز قوم مشهورون بحب تأليف الجمعيات والهيئات لمختلف الاغراض سواء اكانت علمية ام اجتماعية ام انسانية ام دينية ام فنية ام ثقافية. ولست ابالغ ان قلت ان نجاح اغلب هذه الجمعيات يرجع الى مجهود النساء من اعضائها.

المرأة والادب

ثم ان ما انتجته المرأة الانكليزية فى عالم الادب، قديما وحديثا، مما

يستوجب الفخر والاعجاب ولا اظن ان نساء اى شعب من الشعوب الاخرى قد فقن نساء الشعب الانكليزى بكثرة ما كتبنه وجودته. فقد سطعت فى سماء انكلترا اسماء من الكاتبات والمؤلفات ممن سيبقين موضع الفخر والاعجاب مدى الدهر مثل (جين اوستن) و(شارلوت برونتى) واخواتها والكاتبة (جورج اليوت) التى انتحلت لها هذا الاسم المستعار. كما ان الكاتبات الاخريات مثل (آن رادكليف) و (ماركريت اوليفانت) والمسز (ماكسويل) والمسز (ورد) يجب ان يأخذن قسطهن من المديح والثناء. وان افتخرت انكلترا فى الماضى بهؤلاء الكاتبات فانها تفتخر اليوم بكاتبات لسن اقل منهن درجة فى الابداع الادبى مثل (ريبكا وست) و (فيرجينيا وولف) و (كاترين ماسفيلد) و (سارة كراند) والكونتيس (اليزابث راسل) و (ميرى بوردن) و (شايلا سميث) و (ساكفيل ويست) ــ المسز هارولد نيكولسن ــ و (دوروتى سايرس) وغيرهن ممن قد يعجز القارىء عن قراءة قائمة اسمائهن الطويلة. ويدرك القارىء مبلغ نشاط المرأة الانكليزية فى عالم التأليف والكتابة اذا ما علم ان خمسا من جائزات (نوبل) الادبية لسنة ١٩٣٨ حازتها كاتبات انكليزيات.

المرأة والشعر

هذا فى الادب اما فى الشعر فقد برع عدد كبير من النساء الانكليزيات فى الماضى منهن الشاعرة (اليزابث بارت) زوجة الشاعر الانكليزى الشهير (براونتك) و (اليزابث لاندون) والمسز (باربولد) و (المسز نورتن) وغيرهن. اما فى العصر الحاضر فان من الذ ما يقرأه المرء من الاشعار الانكليزية هى من نتاج شاعراته امثال (آنا ويكهام) و (اديث سيتويل) و (راديكليف هول) وغيرهن.

نشاطها فى الحقل الروحى

وما قامت به المرأة الانكليزية فى ناحية الحقل الروحى والدينى لا يقل شأنا عما قامت به فى الحقول الاخرى. ومن المسلم به ان المرأة تستهويها الامور الروحية اكثر من الرجل ويكفى ان اذكر شاهدين تأييدا لما اقول: الاول اغلبية النساء الذين يحضرون الكنائس وسائر المجتمعات الدينية والثانى كثرة النساء فى مواكب جمعية جيش الخلاص (Salvation Army)

وان ما يسمى (Christian Science) قد ابدعته امرأة انكليزية هى المسز (مارى ادى) واكثر من يؤمن به من النساء

المرأة والفنون

والمرأة الانكليزية كالرجل الانكليزى، ولو انها تتمتع بقابلية ممتازة لتقدير الفنون بمختلف اشكالها ولكنها بمواهبها الفنية ليست متفوقة بل متوسطة. وبالرغم من عدم تفوقها هذا فانها لم تسمح لذوقها الفنى ان يسف. فهى قد فضلت الفن البسيط والمعتدل على الفن المعقد او المبذوخ او المبتكر وهذا مما جعل المرأة الانكليزية اذا ما قيست بالمرأة الاوروبية متأخرة فى الاوبرا اوالبالية (Ballet)او انواع الفن المماثلة. ولنستعرض مختلف نواحى هذا الفن ومجهود المرأة الانكليزية فيه.

التمثيل

ففى التمثيل ابدعت المرأة الانكليزية ابداعا ممتازا سواء فى الماضى او فى الحاضر ومنهن من حزن على شهرة عالمية. ولو لم تكن (سارة سيدنز) شخصية بارزة فى الحياة الانكليزية لما امكن اقامة تمثال لها فى كاتدرائية وستمنستر التى خصصت للابطال والعظام. ومنذ ان مثلت على مسرح (درورى لين) الشهير فى اواخر القرن الثامن عشر لم تنافسها اية ممثلة انكليزية اخرى باستثناء (مارى تمبست). وقد اخذت (فانى كمبل) كثيرا من قابلياتها التمثيلية من عمتها المسز (سيدنز). ولم يحرم المسرح الانكليزى من مثل هؤلاء الممثلات فى اى وقت من الاوقات. ان استعراض الادوار التى مر بها المسرح الانكليزى من المباحث الواسعة التى تحتاج الى تتبع كثير ولكنى ساقتصر على ذكر ما يعن لى عن الدور الاخير الذى مر به المسرح الانكليزى وهو اثناء ما وجدت فى انكلترا قبيل الحرب. فبرغم ميل سواد الشعب الانكليزى الى السينما دون المسرح فان الاخير لم يفقد مركزه كما ان ظهور المسارح التى تهتم بابسط انواع التمثيل لم تؤثر فى فن التمثيل الجدى. فما زالت بعض المسارح تعنى عناية خاصة بالدراما ولا سيما تلك التى من وضع شكسبير. والمشاهد الانكليزى لا يهتم بما يتعلمه مما يشاهده على المسرح بقدر ما يهتم بما يتمتع ويلتذ به مما يراه ويسمعه. ولذلك نرى ان ما تعرضه المسارح الانكليزية يلاقى اقبالا واستحسانا اذا ما احتوى على النكتة والفكاهة وخفة الروح وسهولة القصد. وكثيرا ما حدث ان روايات وضعها اشهر

المؤلفين ومثلتها خيرة الممثلات لم تنل استحسان المشاهد الانكليزى فاهملت ولما يمض على عرضها الا ايام معدودات فاذكر رواية (The Boy David) التى هى من وضع الكاتب الشهير (السير جيمس بارى) والتى مثلت فيها الدور الرئيسى الممثلة الشهيرة (اليزابث بيوكنر) لم تنل تقدير المتفرجين فصرف النظر عنها بعد عرضهـا بعدة ايـام. ومع ذلك فكثير من الممثلات قد رفعن الروايات التى مثلنها الى اعلى المنزلات الفنية بما اظهرنه من قابلية ومقدرة. ومن بين هؤلاء الممثلات المسرحيات الشهيرات فى عالم ما قبل الحرب هى (الن ترى) ولكنها تركت المسرح منذ مدة طويلة ولم يسعدنى الحظ بمشاهدة تمثيلها. ولكنى اتذكر ان (بيكى آشكروفت) و(سيبيل ثورندايك) و(جروترود لورانس) و (مارى لور) و (كلاديس كوبر) هن احب الى من غيرهن من ممثلات المسرح الانكليزى. وان انسى لا انسى (باميلا ستانلى) التى جعلت رواية (Victoria Regina) من الطف وامتع الروايـات التمثيلية التى شـاهدتها فى حياتى.

السينما

والكلام عن التمثيل والممثلات يسوقنا الى الكلام عن السينما ونجومها. والتمثيل السينمائى الانكليزى لا يستوى بلا شك مع ما تنتجه استوديوات هوليوود ومع ذلك يرى المشاهد ان (دينهام) و (الزترى) وغيرها من مراكز تمثيل السينما اخذت تجذب الحسان من الفتيات اللواتى يركضن وراء الشهرة والسمعة فصرن فى تزايد مطرد حتى ان محلة (جلسى) وهى محلة الفنانات والفنانين فى لندن اخذت تضيق بهن. ان كثرتهن وسرعة ظهور شهرتهن وسرعة اختفائها جعلت الالمام بهن او حصر اسمائهن امرا ليس ميسورا. فان صح اعتبار (كريسى فيلدس) نجما سينمائيا فهى بلا شك احداهن وان التزم ان اذكر اسماء بعضهن اتماما للفائدة فربما فضلت الذاكرة ذكر اسم (جسى ماثيوس) و (فيفيان لى) و (بياتريس ليلى) و (سيسيلى كورتنج) و (كرير كارسون) ومعذرة ممن خانت الذاكرة فاذهلتنى عن ذكر اسمائهن.

الموسيقى

وقد اسهبت فى البحث فى قابلية الشعب الانكليزى العامة فى الناحية الموسيقية فى الفصل المتقدم واظهرت اعتماده على ما ينظمه الاجانب من آيات اللحن الموسيقى ولكنى لـم اغمط حق من اشتهر من رجـال الانكليز فى

الموسيقى فذكرتهم واطريت واثنيت عليهم. ولكنى ان تمكنت من ذكر اسماء (الكار) و (باتوك) و (وولتون) و (بولت) مثلا فانه يصعب على ان اذكر من الانكليزيات من اشتهرن بهذه القابلية ولعلى استثنى (أثيل سميث) فاذكر اسمها «١».

الفن المنظور

وللانكليزيات فى الفن المنظور (Visual Arts) وخاصة فى الرسم الزيتى (Painting) تفوق خاص يستوجب كل تقدير وثناء. واظن ان الفضل الاكبر فى نجاح هذه المعارض التصويرية العديدة التى تفتح سنويا فى لندن يرجع الى المرأة الانكليزية ويدلك على تفوقها على الرجل فى هذه الناحية هو كثرة عدد النساء المتفرجات او المشتركات فى تقديم التصاوير الى هذه المعارض. ومن الاسماء المشهورة التى لها اتصال وثيق بهذا النوع من الفن هى (لورا نايت) و (دود بروكتور) و (كليف بيل) وقد نالت (آثيل ووكر) اخيرا وسام (D.B.E.) لانها من اعظم الفنانات الانكليزيات.

الرسم

نشاطها الوطنى

ولا اكون مغاليا اذا قلت ان المرأة الانكليزية ربما بزت الرجل فى حقل النشاط الوطنى بمراحل عديدة. ويخيل لى ان النساء الانكليزيات اكثر اقبالا واعظم ميلا الى ادراك حقائق الحياة الوطنية العامة وفهم مقتضياتها من الرجل. ويلاحظ المرء عند ظهور اية فكرة او القيام باية حركة وطنية ان المرأة هى اكثر تحمسا ونشاطا لها وقد ذكرت ان نجاح بعض المؤسسات الوطنية نجاحا بارزا كان لمجرد معاضدة المرأة لها ومن راقب نشاط بعض الاحزاب وبالاحرى المبادىء الجديدة التى تظهر فى انكلترا بين حين وآخر يلاحظ ان اكثر مريديها تحمسا من النساء. وقد راقبت نشاط النساء الانكليزيات عندما رشحت احداهن نفسها لعضوية البرلمان «٢» فقد كانت قوة النساء لنيل الاصوات (Canvassing Power) مما لم نعتد رؤيته فى الانتخابات الاخرى.

اثناء الحرب

ان ما ابدته وتبديه المرأة الانكليزية ابان الحرب الحالية من النشاط

«١» توفيت والكتاب تحت الطبع

(٢) Dr. Edith Summerskill

والتضحية والبطولة والثبات والروح العالية جعلها موضع اعجاب العالم وتقديره. فقد حلت محل الرجل فى تأدية كثير من الوجائب العامة وادتها بمقدرة فائقة. فقد اسست جيشا من النساء(A.T.S.) ولم يكن هذا الجيش اقل نظاما وبأسا من الجيش الاعتيادى. اما عن تضحيتها فحدث ولا حرج. الم تكن الليدى (ماك روبرت) اما عظيمة ؟ لقد فقدت ابناءها الاربعة ثم جادت بمالها لمن كان سببا فى فقدانهم و (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).

وبعد ان يكتب تاريخ هذه الحرب سوف نرى عظم الدور الذى لعبته المرأة الانكليزية وتأثيرها فى نتيجة الحرب. وفى صفحات التاريخ الانكليزى كم وجدت انكلترا نفسها وجها لوجه امام اعظم الاخطار الخارجية او الداخلية ولكنها تمكنت من التغلب عليها بفضل اعتمادها على قوة نسائها وحيويتهن الوطنية ولم يكن ذلك الاعتماد الا محققا لكل ظن حسن.

تلك هى لمحة موجزة فى اهم نواحى نشاط المرأة الانكليزية فى انكلترا ولكن نشاطها لم يقتصر داخل بلادها بل تجاوز الى كل زاوية من زوايا الكرة الارضية وهذا هو شأن امرأة فى امة لها مصلحة فى جميع اطراف المعمورة وفى استعراض نشاطها الخارجى سأقتصر على ذكر من اشتهر منهن وما قمن به من الاعمال فى سبيل خدمة بلادهن.

نشاطها فى الخارج

فقد نشطت المرأة الانكليزية نشاطا ممتازا فى الامور الدولية والعلاقات الخارجية وقد ادركت حالا ضرورة العمل لادامة السلم الدولى وكانت تعتقد ان (عصبة الامم) من اهم الوسائل لهذه الادامة لذلك ناصرتها وشدت ازرها فى داخل انكلترا بشكل يستحق كل تقدير واعجاب ومن راقب مدى نجاح مؤسسة (League of Nations Union) يرى ان اهم العوامل لنجاحها هو جهود المرأة الانكليزية. ولا غرابة فى ذلك فالمرأة الانكليزية تدرك ما يصيبها من التضحية فى عالم بعيد عن خيرات السلم. واذا ما استعرضنا جهودها خارج انكلترا رأينا انها ذات باع طويل. فقد اشتهر اسماء بعضهن فى مختلف اقطار العالم. فكل رواد جنيف من اقطاب السياسة لابد ان تعرفوا

المسز الكس بارتون

بـ«ملكة جنيف» كما كانت تعرف به (المسز آلكس بارتون Mrs. Alix Barton)

حفيدة السر روبرت بيل السياسى الانكليزى المعروف فقد شغفت هذه السيدة بعصبة الامم وكرست حياتها لصالحها حتى فضلت ان تقضى حياتها بجوارها وندر ان يصل مندوب الى عصبة الامم او احد وزراء الخارجية الا وقصد (صالون) المسز بارتون حيث يتصل هناك بما يجرى وراء الستار فى جنيف.

وبالقرب من كنائس روما اقامت سيدة انكليزية اخرى كرست السنين الاخيرة من حياتها فى سبيل تحسين العلاقات بين ايطالية وانكلترا، الا وهى (الليدى تشمبرلين) ارملة السير اوستن تشمبرلين بطل (لوكارنو). وكنا نسمع فى برلين اسم حسناء انكليزية تدعى يونيتى ميتفورد (Unity Mitford) اشتهرت بصداقتها لزعماء الحزب النازى فى المانيا حتى انها كانت تحمل وساما نازيا عاليا كان سببا لتجاوز بعض المتحمسين من الانكليز ذوى الميول اليسارية عندما كانت تزين صدرها الجميل به. ولا بد ان تكشف لنا الايام عما اذا كانت هذه الجميلة قد خدمت بلادها بطريقة من الطرق اثناء تداخلها مع رجال المانيا. وهناك سيدة اخرى جابت اكثر اقطار اوروبا فكتبت المجلدات عنها وهى سيسلى هاملتون (Cicely Hamilton) فكتبت عن «السويد الحديثة» و«فرنسا الحديثة» و«ايطالية الحديثة» و«انكلترا الحديثة» وهى من اغزر الكتب مادة عن هذه الاقطار.

الليدى تشمبرلين

يونيتى ميتفورد

سيسلى هاملتون

وعندنا فى الشرق اشتهرت سيدات انكليزيات فى مختلف النواحى. ففى اوائل القرن التاسع عشر اخذ الخاص والعام فى سوريا وخاصة فى جبل الدروز يتكلم عن سيدة انكليزية فاضلة لها من النفوذ والتأثير فى الناس مالم يبزه تأثير الملوك والسلاطين حتى ان ابراهيم باشا خديوى مصر لم يجرؤ على غزو سوريا قبل ان يتأكد من حيادها. والحق انها كانت دكتاتورا اجنبيا فى بلد اجنبى. تلك هى (الليدى هستر ستانهوب (Lady Hester Stanhope) ابنة الايرل استانهوب وابنة اخ وليم بت السياسى الانكليزى الشهير.

الليدى هستر ستانهوب

وقد اشتهرت عندنا فى العراق سيدتان انكليزيتان احداهما اثناء الحرب العظمى الماضية والاخرى اثناء الحرب العظمى الحاضرة. فالمس (بل) (Gertrude Bell) التى كانت تشغل وظيفة السكرتيرية الشرقية لدار الاعتماد

المس بل

البريطاني في بغداد كانت من اقوى الشخصيات الانكليزية في الشرق الاوسط وكان لرأيها وارادتها تأثير كبير في السياسة الانكليزية في هذه البلاد عقب الاحتلال البريطاني وتتضح سعة اطلاعها بشؤون العراق وشخصياته من كتبها التي كتبتها عن العراق واهمها الكتاب الذي جمع رسائلها لوالدها. وان نذكر هذه السيدة المحترمة بشيء. فانما لاعتنائها الخاص بجمع آثار العراق فهي التي وضعت اسس المتحف العراقي الحالي وما زال تمثالها قائما في مدخل المتحف ينطق بفضلها على جمع ما بقي من تراثنا التاريخي.

المس فرايا ستارك

وفي الحرب الحالية حلت المس فريا ستارك (Miss Freya Stark) محل المس (بل) وهما تختلفان بالنشاط الذي اظهرتاه في حقول مختلفة. فالثانية رحالة مجازفة جابت مجاهل البلاد العربية من حضرموت الى الشام ومن ايران الى الصحراء الغربية وكتبت الكتب الكثيرة عن ذلك آخرها كتابها عن «رسائلها من سوريا» و «شتاء في البلاد العربية». وتمتاز هذه السيدة بعطفها على العرب وأمانيهم كما انها بذلت جهودا مشكورة في سبيل تقوية التفاهم العراقي الانكليزي فاسست لذلك جمعية تدعى «جمعية اخوان الحرية». وكانت دارها مركزا للاتصال بين العراقيين والبريطانيين. وبينما انا اكتب هذه الكلمات نسمع عن هذه السيدة انها تجوب البلاد الامريكية عارضة للدنيا الجديدة شيئا عما تعلمه عن العرب وبلادهم ومطامحهم ومراميهم وغير ذلك والقيام بهذه المهمة في بلد مثل اميركا فيها من اعداء العرب عدد عظيم ليست بالمهمة الهينة فجزاها الله عنا كل خير.

المسز ارسكين

وللعرب نصيرة اخرى في انكلترا كرست معظم اوقاتها في سبيل خدمتهم وخدمة قضيتهم وهي المسز ستوارت ارسكين (Mrs. Steuart Erskine) فان جهودها في مساعدة (المركز العربي) في لندن وتقديم القضية العربية وخاصة القضية الفلسطينية الى الرأي العام البريطاني لمما يستوجب الثناء العاطر (والمسز ارسكين) هي التي كتبت تاريخ حياة المرحوم الملك فيصل الاول وهو من احسن ما كتب عنه.

وهناك كثيرات من الانكليزيات لا يمكن حصر اسمائهن فلو اردت

الكتابة عن امثال (Rosita Forbes) و (Stella Benson) وغيرهما لطال البحث. ولكني وانا فى هذا الصدد ارى لزاما على ان ادون اسمين سطرهما التاريخ فى مداد الفخر والاعجاب للمرأة الانكليزية الا وهما (Florence Nightengale) و (Edith Cavell)

مقارنة بين المرأة الانكليزية والعراقية

وبعد هذه المرحلة اود ان اقول كلمة فى صدد المقارنة بين المرأة الانكليزية والمرأة العراقية وهو قياس مع الفارق. ولو اطلقت لقلمى العنان لكنت قاسيا الى اعلى درجات القساوة مع جنسنا اللطيف لانى يجب ان اقول الحق وفى قول الحق ما يؤلم. لا تصح المقارنة بين العراقية والانكليزية لا من حيث جهودها فى الحقل الوطنى الداخلى ولا من حيث جهودها فى الحقول الخارجية. فقد مر على نهضة العراق الوطنية حوالى ربع قرن ولم تثبت المرأة العراقية انها تماشت مع هذه النهضة فهى - على ما ارى - ما زالت متأخرة وما زالت تتعثر فى مجاهل الظلمات وليس التقدم ولا الرقى فى نظرى هو رفع الحجاب او التشبه بالغرب ومحاولة تقليده والتقليد هو آفة الاخطار الاجتماعية. نعم كانت المرأة العراقية قد ادركت منذ فجر نهضتنا الوطنية ان لها مركزا فى هذا المجتمع الحديث وان عليها وجائب كثيرة ولها حقوقا اكثر وكان المنتظر منها ان توسع ادراكها عن هذا المركز وهذه الوجائب والحقوق لكنها ويا للاسف اهملت ذلك ولم تكتف بهذا الاهمال بل انها حادت عن سبيل الرشاد. فمن المسلم به انها اقبلت على العلم والثقافة بقدر ما سمح لها وضعها الاجتماعي وبقدر ما سمحت به التقاليد الرجعية فى البلاد ولكنها ارادت الطفرة الى الكمال والمجد فعثرت عثرة مميتة وان ما اكتسبته من العلم والثقافة قد اصبح ضررا عليها لان هذا العلم وهذه الثقافة كانا ناقصين والثقافة الناقصة هى اخطر من الجهل المطبق. ولا شك انها لا تتحمل وحدها هذه المسؤولية فالمسؤولية الاساسية تقع على النظم الموضوعة لها من قبل قادة العلم والثقافة فى البلاد. ومن اهم عوامل هذا التأخير فى المرأة العراقية فقدان القيادة عندها فهذا ربع قرن يمر من دون ان تتوحد وتتمركز قيادة المرأة فلم تظهر واحدة منهن تبعث فيهن بعض ما بعثته (Mrs. Pankhurst) فى المرأة الانكليزية او جان دارك او مدام رولان فى المرأة الفرنسية او بنات

(سونك) (١) فى المرأة الصينية او خالدة اديب فى المرأة التركية او هدى شعراوى فى المرأة المصرية وان كن يشكون من فقدان التسهيلات الثقافية لهن فمنهن من تخرجن من اعلى الجامعات الغربية والشرقية وحزن اعلى الشهادات العلمية. وان قلن ان الزعامة هى من خشونة الطبع وان المرأة هى من الجنس اللطيف فاين الابداع الفنى فيهن؟ الم تكن الموسيقى والرسم والتصوير والادب والشعر والتمثيل من الفنون وما هى هذه «الفكرة» التى اوجدتها المرأة العراقية لانماء هذه القابليات الفنية بين بنات جنسها. ثم ان هناك نواحى اجتماعية عديدة تتمكن المرأة من ان تؤدى فيها واجبها الوطنى بمجال اوسع وبحرية اتم فهذه المشاريع الانسانية والخيرية والاجتماعية والثقافية وهى فى كل آن وحين تترقب عطفها عليها ومساهمتها فى سبيل فائدتها وخيرها.

حياة المرأة الانكليزية الخاصة

نعود الآن الى المرأة الانكليزية فنستعرض نشاطها وقابليتها فى حياتها الخاصة. اذا قايسنا المرأة الانكليزية بالمقياس الذى نفهمه نحن الشرقيون نرى انها تتمتع بدرجة من الحرية الفردية. فقد اسهبت فى الفصل المتقدم فى قيمة الحرية والاستقلال الفردى عند الرجل الانكليزى وبطبيعة الحال اخذت المرأة تعطيها تلك القيمة عينها حتى اصبحت قيمتها عند الاثنين متساوية تقريبا ومما ساعد المرأة على ذلك هو التطورات التى حصلت فى انكلترا منذ الحرب الماضية عندما اخذت المرأة تدرك ان فى امكانها القيام بالاعمال التى يقوم بها الرجل وانها لا تقل عنه قابلية لا جسمية ولا فكرية لا بل انها جرفته فى بعض النواحى. وتمركزت هذه الفكرة لديها حتى اخذت تظهر للعيان فى العلاقات العائلية. ففى كثير من الاوساط الانكليزية نرى ان الاستقلال الفردى بين المرأة والرجل بلغ اسمى درجات الاستقلال فلكل عمله الخاص ولكل حسابه الخاص لدى البنك واكثر من ذلك نرى ان الزوجة تعمل ما تشاء وتذهب حيث تشاء دون علم زوجها وكثيرا منهن يذهبن وحدهن لقضاء العطلة فى الريفيرا الايطالية او فى جنوب فرنسا. لا شك ان هذه الحرية التى هى اعلى درجات الحرية الزوجية ليست عامة بين جميع الاوساط الانكليزية اذ بين هذه الاوساط من هم ليسوا اقل تعصبا مما يشاهد فى بعض الاوساط

(١) اى المدام شيان كاى شك واخواتها.

الشرقية. ومما ساعد هذه الاوساط الانكليزية السمحة على سماحتها هو ان الزوج الانكليزى بطبيعته سمح يدرك ويقدر معنى الحرية الفردية كما ان روح الرفقة والتوافق الموجودة بين الزوج والزوجة هى التى اوحت بذلك وازالت الغيرة والشك والريبة من نفوس الاثنين. فالمرأة الانكليزية لا تؤمن ابدا «بان الرجال قوامون على النساء» فلا يخطر ببالها ان تخضع خضوعا مطلقا للزوج ولا يخطر ببال الزوج ان تكون زوجته عبدة خلقت لمتاعه وهو لا ينتظر منها ان تحسب ان ما يقوله قانون وان ما يفرضه قرآن فالوالد الفيكتورى او الزوج الفيكتورى المعتد والآمر الناهى لا محل لهما فى انكلترا اليوم.

عهد الشباب

ولنستعرض حياة المرأة الانكليزية منذ عهد الشباب. فاذا بلغت البنت الانكليزية سن الرشد واتمت دراستها سواء أكان ذلك على يد معلم خاص (Tutor) كما هو الحال لدى بعض العائلات الارستقراطية او فى المدرسة كما هى القاعدة العامة تملكتها فكرة تأسيس العلاقات الغرامية حتى ان هناك من يصف درجة هذه الحالة فى الفتاة الانكليزية بدرجة الجنون (Mania) ولكنى فى الوقت عينه اريد ان اتخذ الحذر والحيطة فيما اقول فلا يفهم القارىء ان ذلك شيء عام لدى الفتيات من جميع الطبقات او فى جميع الاوساط اذ فى بعضها تصل درجة التخدر والحشمة الى الدرجات المألوفة عندنا فى الشرق. وما عدا هذه الطبقات والاوساط فمن الطبيعى للفتاة الانكليزية ان تختلط بالشباب فتصاحبهم وترافقهم حتى انها قد تشعر بامتعاض فيما اذا صرحت بان ليس لها رفيق او حبيب(Boy Friend) وربما انتقد الفتاة الانكليزية والداها او وبخاها اذا اخفقت فى اظهار عواطفها الحارة نحو شخص اظهر لها اعجابه بخلقتها او باخلاقها. واكثر من ذلك فان الوالدين الانكليزيين يؤمنان بان تدخل الفتيات الزائد مع الفتيان (Flirtation) انما يكسبهن حكمة وحنكة بالرجال واخلاقهم فيتمكن الواحد من فهم الآخر فهما حقيقيا حتى اذا ما تأسست بينهما علاقة زوجية كانت تلك العلاقة مستندة الى اساس قويم ومع ان لدى اغلب الانكليز سماحا تجاه هذا التدخل الزائد بين الجنسين فانهم لا يؤيدونه تأييدا مطلقا ولكن ما العمل والفتاة قد اكتسبت هذه الحرية

والاستقلال وليس فى المقدور تحديد حريتها او تضييقها الآن الا ان بعض التقاليد الاجتماعية بقيت الوسيلة الوحيدة لوضع الحد للتفريط فان فى كثير من العوائل الانكليزية مثلا لا يسوغ اختلاط الشاب بالفتاة دون وجود شخص ثالث او ما يسمى(Chaperon) وهذه عادة فكتورية بقي اثرها حتى الآن وسنأتى على تفصيلها فى مناسبة اخرى.

العوانس

وان لم تكن للبنت الانكليزية الوسائل والوسائط الكافية ولم يسعدها الحظ فى تأسيس العلاقة الزوجية وتقدمت فى السن فتبقى حينئذ عانسا (Spinster) اقول يسعدها الحظ لانه حتى اذا اسعدها المال والجاه فذلك لا يكون من جملة الوسائل التى تساعدها على الزواج اذ ان الرجل الانكليزى بعيد جدا عن فكرة الزواج من اجل المال او من اجل الجاه او من اجل اى اعتبارات اخرى كما هو المألوف عندنا فى الشرق ولذلك نرى كثيرا من بنات العوائل الثرية برغم الوسائل المتيسرة لهن لا يمكنهن ايقاع احد فى شرك مالهن او جاههن بينما نرى كثيرات ممن لا مال لهن ولا جاه يتوفقن للزواج حتى من اعلى الطبقات فكم من الارستقراطيين الانكليز او من ذوى المراكز العالية يتزوجون من فتيات من الطبقات السفلى من الشعب كسكرتيراتهم او موظفاتهم او من بنات المسرح (Chorus Girls)

ميل المرأة للعمل

وقبل الحرب كان للفتيات الانكليزيات من مختلف الطبقات ميل شديد الى العمل فكن يتسابقن للحصول على نوع من العمل يتناسب مع صفات كل واحدة منهن وقابليتها ففتيات الطبقات السفلى والوسطى كن يعملن لكسب قوت يومهن واللواتى فضل الله عليهن كن يعملن للهو او على الاقل لنيل ما يحتجن الى صرفه. فكان حوالى (٨٠) بالمائة من الفتيات الانكليزيات قبل الحرب يقمن بنوع من العمل ولا شك ان هذا الرقم قد ارتفع كثيرا فى ايام الحرب. ان فتيات الطبقة السفلى عامة كن يعملن فى المعامل المختلفة وفتيات الطبقات الوسطى كن يقمن بوظائف كتابية والحسان منهن كن يستخدمن فى محلات التجميل والخياطة او نماذج(Mannequins) او مديرات او بائعات (Demonstrators) او باية وظيفة يجلب جمالهن من اجلها النفع للشركات او للمحلات التى تستخدمهن. واما فتيات الطبقات العليا فاكثرهن يستخدمن

فى وظائف السكرتيريات لبعض الشخصيات البارزة او ما شاكل ذلك من الوظائف حتى ان منهن من وجهن اوجههن شطر (Denham) و (Elstree) للاشتغال فى مصلحة السينما او للظهور على مسارح التمثيل فى لندن(١) .

ولنتكلم الآن عن الفتاة الانكليزية وقد اسعدها الحظ فى الزواج . فللزواج عند الانكليز مفهوم خاص يختلف تماما عن مفهومه عندنا فهناك باعث واحد للزواج الا وهو الرفقة والمصاحبة التى تتولد من الزواج الذى لا يتم الا اذا كان مستندا الى الحب الحقيقى والتفاهم التام المتبادل وقد دلت التجارب على ان الزواج الذى يتم من اجل هذا الباعث هو اسعد انواع الزواج بينما الذى يجرى من اجل اعتبارات مالية او سياسية او غيرها وحتى الزواج الذى سببه الحب الخيالى (Romance) كثيرا ما ينتهى بالمشكلات واحيانا بالفواجع . ومنعا من ان يسىء القارىء الفهم فيما اقصده من الحب الخيالى اريد ان اضرب مثلا لذلك ما نسمعه عن زواج ممثلات السينما وممثليه، هذا الزواج الذى لا يستند الا الى الحب الخيالى العارض الذى يزول سريعا وبالسرعة التى وجد بها .

زواجها

والزواج فى انكلترا يجرى اما على اساس دينى واما على اساس مدنى ومع ذلك فبعض الزوقين من الشباب والفتيات يرون فى كلا هذين الاساسين بعض الصعوبات ولذلك تراهم يفرون الى قرية (Gretna Green) وهى قرية صغيرة واقعة قرب الحدود بين اسكوتلندا وانكلترا فيعقدون زواجهم هناك بالنظر الى تسامح القوانين المحلية الخاصة بالزواج فى اسكوتلندا .

انواع الزواج

والزواج المدنى الانكليزى فى نهاية ما يمكن من السهولة والبساطة فلا يتطلب الامر لعقد مثل هذا النوع من الزواج الا حضور الخطيب وخطيبته و (سردوجهما) (Best Man) الى دائرة التسجيل حيث يوقعون السجل ويدفعون رسما لا يتجاوز مائة وخمسين فلسا . اما الزواج الذى يعقد حسب الطقوس الدينية فانه يتطلب نفقات باهظة بالنظر الى المراسم الكثيرة التى يتحتم اتباعها . فعندما يذاع خبر اجراء مراسم الزواج فى كنيسة ما وخاصة فى الكنائس التى جرت العادة ان يجرى فيها زواج الطبقات المتمولة مثل (Brompton Oratory) او غيرها ترى الناس يزدحمون فى مدخل الكنيسة

مراسم الزواج

(١) رأيت الآنسة ديانا تشرشل ابنة المستر تشرشل تمثل على احد مسارح لندن .

لمشاهدة العروسين وتدقيق ما يلبسانه من ثمين اللباس او يحملانه من نفيس الزهر فترى المصورين يتسابقون الى التقاط صورهما كما ان اعمدة الصحف تذكر شيئا عن خبر اعلان الزواج ووصف المراسم التى تجرى فى داخل الكنيسة وفى خارجها ووصف الحفلات والمناسبات التى تجرى على شرف العروسين. اما المراسم التى تجرى فى الكنيسة فتبدأ بحضور العريس وسردوجه اولا ثم تحضر عروسه مصحوبة باحد اقاربها او اقرب اصدقاء العائلة ليعلن خبر تقديمها اليه وبعد ان يتم القسيس اداء فروض عقد الزواج يتسلم العروسان خاتمى الزيجة ثم يذهبان الى الـ (Vestry) يتبعهما بعض الاقرباء المقربين من المدعوين حيث يوقعان فى السجل ويشهد على توقيعهما بعض الحضور. وبعد الانتهاء من هذه المراسيم يخرج العروسان من الكنيسة بموكب الملوك حيث تتأبط العروس ذراع عروسها الايمن وهى حاملة باقة من اجمل انواع الزهور يتبعهما عدد من الاطفال(Bridesmaids) يحملن ذيل فستان العروس. وبينما هم خارجون من الكنيسة ينثر عليهما المعارف والاصدقاء الرزاو (Confetti)وهى عادة مألوفة فى انكلترا. وبعد الانتهاء من هذه المراسم يتوجه العروسان الى بيت والد العروس (الزوجة) حيث تقام حفلة تعارف تضم الاصدقاء والاقارب ومنه يذهبان لقضاء شهر العسل.

الزواج عندنا

هذا ملخص عن الزواج الانكليزى بنوعيه المدنى والدينى. والزواج عندنا ما زال من النوع الثانى وارى ان لا ضير فى ذلك لو لم تقيده بعض التقاليد والعادات الاجتماعية السقيمة فتجعله من اعقد القضايا الاجتماعية التى تتطلب الاعتناء الزائد. الواقع ان حوادث فردية لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة قد قام بها بعض المتبصرين من الشباب والشابات لتسهيل مشاكل الزواج عندنا فكانوا امثلة لذلك ولكن هذه الحوادث كانت، كما قلت، فردية ولم تكن ناتجة عن فكرة عامة سائدة فى المجتمع ولذلك لم يكن لهؤلاء الافراد من القوة والعضد ما يمكنهم من الوقوف فى وجه التيار الاجتماعى وعليه فقد بقى ما كان على ما كان. وقد ادى هذا التيار الفاسد الى نتيجة على جانب عظيم من الاهمية تتعلق بكيان هيئتنا الاجتماعى وهو قلة الزواج وهذه النتيجة

العائلة

فضلا عما تسببه من ترد فى مستوى الاخلاق العامة فانها، كما لا يخفى، تسبب هبوطا فى الولادة وهذا يؤثر اخيرا تأثيرا عظيما فى مستقبل الامة. ونحن امة حديثة نرمى الى الحصول على مركز بين الامم الحية فكيف يمكننا تحقيق هذه المنية ان لم ننظر الى النواة التى تتكون منها الامة الا وهى العائلة. ولنا فى دولة معظمة انهارت باسرع من لمح البصر، عبرة وعظة. فالامة الفرنسية قد اهملت العائلة اهمالا كبيرا فضعف كيان العائلة لقلة اقبال الجيل الجديد على الزواج فهبطت نسبة الولادات الى اوطأ نسبة فى اوروبا يضاف الى ذلك النتيجة الاخرى التى ينتجها قلة الزواج وهى الهبوط العام فى المستوى الاخلاقى وكانت الخاتمة انهيار هذه الامة العظيمة الانهيار الذى رأيناه.

تقاليد الزواج السقيمة عندنا

ان من جملة التقاليد الاجتماعية السقيمة التى تعرقل الزواج فى مجتمعنا هى هذه التكاليف المالية الباهظة التى تقع على عاتق طالب الزواج. اقول باهظة لانها لا تناسب وضعنا الاقتصادى السائد. فقليل من الشباب الذين اذا ما وصلوا الى الدور الذى يدركون فيه ضرورة بناء حياة عائلية مستقرة، لا يمكنهم وضعهم الاقتصادى من تحمل تكاليف الزواج، فالتقليد الاجتماعى السقيم المستند الى الجهل العام والثقافة الناقصة يفرض على الزوج فروضا ما انزل الله بها من سلطان واكثر هذه الفروض لا علاقة لها بالحياة الجديدة للزوجين ولا تتعلق براحتهما او بمستقبلهما وكل ما فى الامر انها فروض ما فرضت الا لاجل التباهى والتبجح. وهذه الفروض ليست واجبة على الزوج فحسب بل انها تشمل الزوجة ايضا فكثير من الناس عندنا قد احجموا عن تزويج بناتهم لانهم لا يتمكنون من الاشتراك ماليا بذلك. لقد قلدنا الغرب تقليدا اعمى بكثير من امورنا والغريب اننا نقلد المظاهر السيئة منه اما الحسنة فننبذها وراءنا ظهريا. فان نحن قلدنا الغرب ببعض المظاهر الخاصة بالزواج كالحرية التى يأخذها العروسان بعد الخطبة وقبل الزواج فلماذا لا نقلده بالمظاهر الحسنة ايضا. فالانكليز مثلا يعتقدون ان كل جيل مسؤول عن نفسه ويجب الا يعتمد الفتى او الفتاة على والديهما ماليا ولذلك قلما يشترك الوالدان بمساعدة البنت المتزوجة ماليا اللهم الا فيما يتعلق بتقديم الهدايا او بعض المصروفات العرضية. وهذه العادة وما متبع لدى اليهود عندنا على طرفى نقيض

اذ تفرض العادات اليهودية على البنت وابويها تقديم «دوطة» الى الزوج بعكس ما هو متبع عند المسلمين. وان كان لعادات المسلمين فى فرض المهر على الزوج بعض الوجه فانى لا ارى اى وجه او تفسير مقبول لعادات اليهود فى فرضه على الزوجة وهى عادة اقل قدرة على توفير المال من الزوج.

المرأة بعد الزواج

لنستأنف البحث فى موضوعنا الاساسى وهو الزواج الانكليزى فكثيرا ما يشكى مفكرو الانكليز من هبوط نسبة الزواج وكانوا دائما يجعلون من فرنسا مثلا يجب تجنبه. ان سبب هذا الهبوط يرجع الى اقدام المرأة الانكليزية على الاشتغال والعمل فى مختلف النواحى ولا يخفى ان المرأة التى وجدت لها عملا تحصل منه على قوت يومها تكون اقل حاجة وتفكيرا فى الزواج. هذا من ناحية ومن الناحية الاخرى فان فى كثير من الوظائف التى تشغلها المرأة ما يحظر عليها الزواج فاذا ما تزوجت تكون عرضة لفقدان وظيفتها ولذلك نرى كثيرات منهن وخاصة ممن حصلن على وظائف ذات مركز ومورد طيب كالمدرسات او الموظفات فى الخدمة المدنية يفضلن الاحتفاظ بوظائفهن على ان يقدمن على الزواج واذا ما اقدمن فعليهن ان يفكرن مليا فى تفضيلهن حياة العمل الحر على الحياة الزوجية. ان الحياة الزوجية المستقرة هى غاية كل انكليزى لان للانكليزى رأيا خاصا نحو البيت والعائلة وبالنسبة اليه فان البيت والعائلة هما جزء اساسى من حياته الطبيعية فيندر ان يتفق انكليزى مع ذلك الامريكى فى جوابه عندما سئل عن المثل الاعلى للعائلة الاميركية فقال ان تكوين عائلة ليس من المثل العليا الاميركية. والانكليزى ايضا ليس كالفرنسى الذى يفضل حياة العزوبة والتهتك على الحياة العائلية وهناك فى فرنسا ما يشجع الناس على هذا النوع من الحياة مما لا وجود له فى انكلترا ليشجع الانكليزى عليها.

العائلة الانكليزية

والعائلة الانكليزية تمتاز ببعض الصفات مما يحسن ذكرها على سبيل المقارنة بالاقوام الاخرى. فهى اشبه شىء بجماعة من الاصدقاء تجمعهم رابطة المصلحة المشتركة. اقول جماعة من الاصدقاء لان العلاقة التى تربط افراد العائلة بعضهم ببعض لا تشبه العلاقة التى تربط افراد العائلة الشرقية بعضهم ببعض. وسبب ذلك يرجع الى طبيعة الانكليزى وقلة عاطفته والى النظم

التربويه التى ينشأ عليها كثير من اولاد الانكليز لان اكثرهم ينشأون بعيدين عن احضان ابويهم فيعيشون ويدرسون فى المدارس الداخلية سنين طويلة وهم فى مقتبل اعمارهم فيكون طبيعيا حينذاك ان تصبح رابطتهم بوالديهم ورابطة الوالدين بهم ضعيفة نوعا ما. فترى ان الانكليزى يقضى حياته فى ناحية نائية من الكرة الارضية وليس له من الاتصال باهله سوى المراسلة بالمقياس الذى يجرى بين صديقين عادة. لهذا اصبح الفرد من العائلة الذى هو بعيد عنها كأنه لا يمت اليها بصلة. ثم ان احد افراد العائلة لا يتأمل ان يعامله بقية افراد العائلة معاملة خاصة لانه واحد منهم فكثيرا ما نرى اخوين او اختين احدهما فى اعلى درجات اليسر والآخر فى اسفل درجات العسر ولا يعين احدهما الاخر، ولكن كثيرا ما يحدث ان يساعد صديق صديقا آخر قلب له الدهر ظهر المجن.

العلاقة بين الزوج والزوجة

وكما ان العلاقة بين الزوج والزوجة تستند الى الرفقة والمصاحبة فكذلك علاقة الام او الاب باولادهما. فانت تشعر بذلك بالطريقة التى تعامل بها الام طفلها وبما يشعر به الطفل نحو امه. فالام لا تطلب من ابنها الامتناع عن عمل ما بل ترجو ان يمتنع عنه والولد لا يفرض رغبته على ابيه ولكنه يرجوه ان ينفذ له تلك الرغبة. وترى الطفل الانكليزى يستميل رأى امه كما يستميل دبلوماسى دبلوماسيا آخر. ويجب الا يفهم ان هذا النوع من العلاقة بين الجيلين كما يظهر للقارىء الشرقى، يختلف عن العلاقة بين الاولاد وآبائهم او امهاتهم عندنا فى الشرق، ويرجع سببه الى وفرة تعلقنا وحناننا نحو اطفالنا وانعدام ذلك عند الانكليز. ولكننا نحن نظهر تعلقا وحنانا نحو اطفالنا اكثر مما تتطلبه العلاقات الابوية والزائد احيانا كالناقص.

الاطفال

والانكليز لا يميزون بين الذكر والانثى من ابنائهم فاذا ما ولد للانكليزى ابنة فلا يسبب هذا الخبر امتعاضا او تألما عند الاب او الام كما هو الحال عند اولى الافكار الرجعية فى الشرق. فالطفلة لها من المؤهلات والقابليات والمستقبل ما للطفل وقد تكلمنا فى اول الفصل عن المساواة بين المرأة والرجل فى الحياة الانكليزية. واما عن معدل عدد الاطفال فى كل عائلة فانه وان لم يكن لدى احصاء دقيق غير انى ارجح ان العدد فى العائلة الانكليزية يتراوح

بين اثنين وثلاثة. كلما استعرضنا عدد الاطفال فى العوائل التى تنتمى الى طبقات اعلى نقص العدد ولهذه الرغبة فى تقليل الولادات عدة اسباب. فبعض الانكليز يقولون ان تقليل نسبة الولادات ضرورى لقطر مزدحم فى السكان مثل انكلترا التى كانت وما زالت تئن من مشكلة البطالة. وبعضهم يدعون انه من الصعب على الابوين ضمان التربية لعدة اطفال والاحسن الاقتصار على عدد قليل منهم لتكون تربيتهم تربية صحية كاملة. وهناك ذلك الفريق من الامهات النزقات اللواتى يزعمن ان الولادة الزائدة تؤثر فى جمالهن وبغية محافظته فان الواجب يدعوهن الى الاقلال منها للاحتفاظ به. وقد يرى بعض الانانيين من الرجال ما تراه هذه الامهات وعندى انه مهما كانت درجة هذه الاعذار من الوجاهة فيجب الا تبشر بها بلاد هى ام لاعظم امبراطورية عرفها التاريخ تحتاج دائما الى زيادة فى النفوس.

حياتها البيتية

ومن اهم ما ترغب المرأة الشرقية فى معرفته عن اختها الانكليزية هو حياتها البيتية. فالمرأة الانكليزية متعلقة ببيتها تعلقا محكما ولكنها اذ ما قورنت بالمرأة الاوروبية كالاسكندنافية او الالمانية مثلا فانما هى تحتل منزلة ثانية من ناحية قابليتها فى ادارة المنزل وتدبيره. فهى ترى فى الاعمال البيتية كالطبخ والخياطة والغسل والكى والعناية بالطفل الخ. . شر واجب حتى اذا ما ساعدتها الظروف المالية تراها تغسل يدها منها حالا وتركن الى الراحة والدعة، وتنصرف الى التمتع بالملذات، وللمرأة الانكليزية بالوسائل الحديثة ما يقلل عنها عناء العمل البيتى الشاق لدرجة كبرى فهى تطبخ بالكهرباء او الغاز وتكنس بمكنسة كهربائية وتكوى بمكوى كهربائى وتدفىء الدار بمدفئة الغاز او الكهرباء ثم ان حاجات البيت تصلها بمجرد اشارة تلفونية مع البقال او غيره والحليب يصلها الى البيت يوميا وبانتظام. ولكنها بالرغم من ذلك لا يستهويها عمل البيت فاذا رأت وضع العائلة المالى يساعدها على استخدام الخدم بانواعهم اكثرت منهم الى درجة كبيرة فقد ذكر احد الاجانب الذين درسوا الحياة الانكليزية درسا دقيقا ان البيت الانكليزى اكثر البيوت استخداما للخدم ومع ذلك فهو اقل البيوت تنظيما وترتيبا. ففى البيت الانكليزى خادمات (Maids) (١)

(١) وهن على عدة انواع (Parlor maid, Kitchen maid, Lady's maid, Housemaid)

ملاك البيت الانكليزى

للتضيف والعمل وفيه مربية (Governess) وظيفتها الاعتناء بالاطفال وهناك (Housekeeper) لادارة شؤون الخدم الباقين وامور البيت الاخرى وهناك الطباخ (Cook) والسفرجى (Butler) والبواب (Porter) والمربى (Tutor) وهذا هو ملاك الخدم فى كثير من بيوت الطبقات الوسطى اما لدى الطبقات العليا فهذا الملاك يتضاعف تقريبا فيضم الخادم الذى يرافق سيده بسيارته (Footman) ويقوم ببعض الخدمات المنزلية والصبى (Valet) المكلف بمراقبة شؤون سيده الخاصة كاللباس وادوات الحلاقة وما شاكل ذلك. وهناك ايضا (Page) وهو غلام لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره يستخدم فى الامور الطفيفة. وان كان لدى العائلة سيارة فلا بد من السائق (Driver) وان كان لديها حديقة فلا مندوحة من البستانى (Gardner) هذا هو ملاك البيت الانكليزى من الخدم فما هو واجب الزوجة اذن ؟ لم يبق لها من العمل سوى واجب الادارة العامة والحكم وقد قال احد الاجانب عن المرأة الانكليزية، انها كالرجل الانكليزى، يظهر انها خلقت لتحكم لا لتخدم.

البيت الانكليزى

والكلمة العليا فى البيت الانكليزى للرجل لا للمرأة ويقال ان البيت الاميريكى على العكس من ذلك فالقول الاول هو للمرأة والبيت يجب ان يتكيف بحسب اهوائها ومشيئتها فيقال ان المرأة الاميريكية تعامل زوجها كما يعامل الشرقيون الرجعيون نساءهم. ويظهر ان بعض ربات بيوتنا يحاولن تقليد اخواتهن الاميريكيات تقليدا اعمى لا عن علم ودراية بل عن جهل وغفلة حتى جعلن البيت جحيما لازواجهن بدلا من ان يجعلنه نعيما لهم. وان ارادت المرأة الشرقية التقليد الغربى فهذه المرأة الانكليزية امامها وهى مثل صالح يجب تقليده بقدر تعلق الامر بمركز الزوج فى البيت. يقوم البيت الانكليزى على اساس واحد الا وهو راحة رب البيت وسعادته والمرأة الانكليزية تدير بيتها على هذا الاساس ولذلك كان الانكليزى اكثر الناس تعلقا ببيته فعنده ان لا ملجأ فى العالم يخلد اليه حيث يجد الراحة والصفاء والسعادة مثل بيته. والبيت ليس ملعبا للاولاد ولا ديوانا او ناديا للزوجة وصديقاتها ولا معهدا لتربية الاطفال وانما هو قلعة الرجل الذى يجد فيه كل ما تصبو اليه نفسه من

مستلزمات الراحة الجسمية والفكرية والحرية والاستقلال الذاتي. ولذا كان الانكليزي اذا اراد وصف الحالة التي يكون فيها الشخص متمتعا بكل حرية يقول (Feel at Home) وقد قيل على سبيل النكتة انك اذا رأيت انكليزيا مسرعا في طريقه فتأكد انه ذاهب الى بيته واذا رأيت اميريكيا مسرعا فتأكد انه ذاهب الى محل عمله.

المرأة الانكليزية مقتصدة

والمرأة الانكليزية مقتصدة مقترة فهي تراعي ظروف زوجها الاقتصادية مراعاة تامة ولا تفرض عليه فروضا ومطاليب تتجاوز حدود قابليته المالية. والتقتير والاقتصاد شيء مألوف عند الانكليز فلا يخجل احد او يحذر من ان يكون حريصا على ماله دقيقا بمصروفاته فالكرم شيء والتبذير في غير محله شيء آخر. افلا تدرك المرأة العراقية ان الصرف لمجرد الصرف ليس من المدنية او التقدم الاجتماعي في شيء وانما هو من مظاهر الجهل والتربية الناقصة وعليها ان تدرك ان عليها بقدر ما على زوجها من الواجب في سبيل ادامة كيان العائلة ورفع مستواها المالي والاجتماعي وعليها ان تقلد اختها الانكليزية بالتقليل في كثير من حوائجها وملذاتها اذا ما شعرت ان وضع العائلة يحتم ذلك. ومن المؤلم ان التهذيب الذي احرزته البنت العراقية كان اكثره تهذيبا ناقصا مبتورا وكما قلت في مكان آخر ان التربية الناقصة هي اكثر خطرا من الجهل المطلق. اريد ان اذكر قصة على سبيل المثال وعسى ان تثير البنت العراقية فتنفي صحتها عمليا او تجعلها نصب عينيها على الاقل. قيل لي ان موظفا ذا مرتب قليل سلم راتبه الشهري الى زوجته وهي بنت قد اكملت دراستها الابتدائية. فقصدت الزوجة المدبرة السوق واشترت بجميع الراتب حاجة ثانوية من حوائج البيت ولما عادت الى بيتها عرضت سلعتها على زوجها ولما سألها الزوج كيف سنعيش خلال الشهر ولم يبق عندنا من الراتب ولا فلس واحد فما كان من البنت المتعلمة (؟) الا ان جلبت شهادتها الابتدائية ورمتها بوجه زوجها قائلة له: لا يحق لك ان تنتقدني لانه ليس لديك واحدة مثل هذه؟ فهذه من نتائج التربية الناقصة يا رجال التربية في العراق. فلتعلم هذه الفتاة حاملة الشهادة ان المرأة الانكليزية تعمل عملها بيدها ان لم تساعد حالة زوجها المالية على استخدام الخدم، ولتعلم كذلك ان المرأة الانكليزية لا تخجل

من اقربائها وصديقاتها ان هى اقتصدت بمصروفات البيت وخاصة الكمالية منها، ولتعلم ان المرأة الانكليزية تنظر بالدرجة الاولى الى ما تتطلبه ثقافة الاطفال وتربيتهم والى حوائج البيت الاساسية قبل البذخ فى الصرف على حوائجها ورغباتها الثانوية واذا ما رأت ان حالة زوجها المالية ضنكة تراها تبادر الى تخفيف وطأة الضنك المالى عنه وذلك اما بمساعدته ماديا واما بايجاد مورد بكدها هى نفسها فتراها تكافح فى سبيل العائلة كما يكافح الحيوان المفترس عندما يتضايق فلا تترك مجالا لعمل لها فيه قدرة الا وقامت به. ولا تقتصر هذه المعاونة بين الزوجة وزوجها على البيت فقط ولكنها تتعداها الى ابعد من ذلك فكم من زوجة قد صحبت زوجها الى اقصى الديار تشاركه فى السراء والضراء ولا شك ان كثيرا من نجاح هؤلاء الانكليز الذين قامت على اكتافهم هذه الامبراطورية الجبارة يرجع الى معاضدة زوجاتهم.

سيئات المرأة الانكليزية

لا يفتكرن القارىء انى جاعل المرأة الانكليزية مثلا اعلى اود ان تقتدى بها جميع النساء. فبقدر ما لها من محاسن لها من السيئات ما قد يبز محاسنها. وحسب ما ارى ان بعض هذه السيئات بحسب مقياسنا الشرقى، يرجع الى شدة نشاطها وميلها الى العمل مهما كان نوعه. فتراها وقد انغمست فى الروح الرياضية حتى اهملت بيتها وزوجها وصارت تقصد اندية الالعاب الرياضية والمسابقات. وتراها، وقد انغمست فى حياة اللهو والمجالسات، صارت تشعر ان اعداد غذاء العائلة فى مطبخ البيت امر مزعج وممل. فصار اكثرهن يصرفن النظر عن مقتضيات الطبخ البيتى ويلتجئن الى المطاعم والاندية لان فيها حياة امتع واقلاقا اقل مما يقتضيه البيت. وقد تعدى مقت المرأة الانكليزية الى وجائب البيت ان نزحت اكثر العوائل الانكليزية الى الفنادق والشقات المستقلة (Flats) فصارت العائلة الانكليزية اقل تمسكا بفكرة البيت (House-Mindedness) مما كانت عليه قبل عشرين سنة تقريبا ولا يعلم تطور هذه الفكرة بعد انتهاء هذه الحرب اهى هجرة عامة من البيت الى الفنادق و (الفلات) ام رجوع عام نحو البيت القديم.

رأى شاب شرقى بجمالها

وقارئة هذا الفصل تتوق الى معرفة رأى شاب شرقى فى المرأة الانكليزية من ناحية الجمال. ان للجمال الانكليزى مميزات خاصة والرجل الانكليزى

قد لا يجذبه الجمال اذا ما قيس بالمقياس الذى يقاس به الجمال فى فرنسا او المانيا او ايطاليا او غيرها من بلاد العالم. من المعلوم ان جمال المرأة الاوروبية والاميريكية يرجع الى براعتها فى طرق التجميل واللباس بينما الانكليزية وهى اقل من اختها الاوروبية او الاميريكية براعة فى ذلك تفوقها فى نظرى من حيث الجاذبية الجنسية. فجمالها طبيعى غير مزيف او مغشوش. والمرأة الانكليزية تدرك انها يجب الا تتبع خطى المرأة الاوروبية لتكون «جميلة» او جذابة والحق اقول فان الجلال والغيرة والرصانة التى تتصف بها المرأة الانكليزية هى التى تزيد فى «جمالها» وجاذبيتها اضعافا مضاعفة وكثيرا ما استهينت المرأة الفرنسية بالنظر الى ضعة علاقاتها الغرامية والجنسية بالرغم من مظهرها الخلاب فتراها سهلة الانقياد رخيصة المعشر ضعيفة فى ضبط النفس وكبح العواطف الجنسية. والجمال الانكليزى لا يقتصر على طبقة اجتماعية دون غيرها لكن الطبقة الارستقراطية تضم بين طياتها جمالا انكليزيا حقيقيا هو المثل الاعلى للجمال. فلوكنت مصورا او كاتبا فنيا لانتقيت نموذجا لى تلك الغادة الشقراء التى هى اقرب الى الطول منها الى القصر، ذات الانف الدقيق (Tipped) والجسم النحيف، القليلة الانغماس بالمجملات (Cosmotics) والتى تأبى التبجح بالثقافة العالية او التظاهر بانها من طبقة اجتماعية عالية، القليلة التغنج والتحبب المفرط،ليس فى لغتها تبجح الارستقراطية ولا فظاظة العوام (Cockney) ، لها ولع بنوع من الفنون الجميلة كالتصوير او الغناء او المسرح وما شاكلها، ولاسيما الالعاب الرياضية النسائية الرقيقة كالتنس او الكروكيت او التزحلق او السباحة او السياقة او ركوب الخيل او غيرها. ولكنى لا احب هذه العادة ان تدخن والتدخين عند الانكليزيات عادة عامة يندر منهن من لا تدخن كما انه يندر منهن من تعتذر عن قبول كأس من مشروب روحى.

الزواج من الانكليزيات

والزواج من الانكليزيات موضوع طالما كثر الاخذ والرد حوله ويحسن بى ان اقول كلمة عنه الآن. تكلمت فى الفصل المتقدم عما يشعر به الانكليزى تجاه الاجنبى وعندما اقول الانكليزى فانما اعنى طبعا الرجل او المرأة. فبالنظر الى ما بسطته من العوامل والاسباب ان التداخل مع الانكليز بالدرجة

التي تؤدي الى الزواج قليل جدا. نعم قد يتداخل بعض الاجانب مع كثير من العوائل الانكليزية وكثيرا ما حصل تزاوج بين الانكليز والاجانب ولكن حسب ما اعلم ان زواج الانكليزيات اللواتي ينتمين الى العائلات الارستقراطية وحتى اللواتي ينتمين الى الطبقات الوسطى بالاجانب قليل جدا اما ما نشاهده او نسمع عنه من زواج الاجانب ببعض الانكليزيات فاظن ان اكثرهن من الطبقات السفلى واللواتي لا ينتمين الى مركز اجتماعي بين. فاكثرية الاجانب الذين يوجدون في انكلترا لا يمكنهم التداخل مع كثير من الطبقات وبحكم عمل اكثرهم فان تداخلهم وتماسهم يكاد يكون محدودا جدا فقليل منهم، كالذين حصلوا على مركز بين الطبقة الارستقراطية بمالهم او بجاههم او اعضاء الهيئات الدبلوماسية الذين تمكنهم مراكزهم الرسمية من التداخل مع الطبقات العليا في الحفلات العامة او الاندية والمجتمعات العامة، هم الذين يتمكنون من الاتصال باعلى طبقات الشعب ونادر منهم من ساعدهم الحظ فتزوجوا من الانكليزيات اذ كلما ارتقى مركز العائلة الاجتماعي اشتد تعصبها بقوميتها وبمثلها العليا و «بانكليزيتها». وهناك ناحية اخرى تستحق الانتباه. يرى الانسان في كل بلد من بلاد الله كثيرا من الاجانب هجروا بلادهم طلبا للرزق فامتهنوا مهنا متنوعة لهذه الغاية منها ما كانت شريفة ومنها ما كانت غير شريفة ففي كل بلد قد يشاهد المرء فرنسية او هنغارية او يونانية او المانية هجرت بلادها الى تلك البلاد فمنهن من تزوجن ومنهن من وجدن لهن مهنة من المهن الشريفة التي يعشن بها ومنهن من امتهن مهنة غير شريفة ويندر جدا ان يجد انكليزية تمتهن مثل هذه المهن وان وجدت واحدة فسرعان ما تبلغ بانه من الافضل لها ان تنزح الى وطنها لتعيش بكد يدها وعرق جبينها.

اسباب فشله

ذكرت ان بعض الاجانب افلح في الزواج من الانكليزيات ورأيي الشخصي في ذلك ان مثل هذا الزواج قليل الامل في النجاح لاني اعتقد ان العائلة التي تتكون من زوجين لا تربطهما روابط العنصرية والثقافة والدين والطباع والتربية والعواطف وغيرها لا تكون مبنية على اساس متين واني اعتقد انه مهما كان الحب الذي ادى الى تكوين هذا الاتحاد بين الزوجين قويا وحقيقيا فلا شك انه لا يدوم الى الابد ولا تبقى الا هذه الروابط التي عددتها

فان تباينت هذه الروابط وخاصة اذا كان التباين بالدرجة التي بين انكليزية وعراقي مثلا، انهد الاتحاد بين الزوجين. اني اعرف كثيرا من قضايا تزوج الاجانب بالانكليزيات وبالرغم من وجود بعض الحالات التي كان فيها الزواج ناجحا الا ان الاكثرية غير ناجحة وان كانت ناجحة لمدة ما فلا اظن نجاحها يدوم الى النهاية «لان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقي التوأمان».

العواطف الجنسية

تكلمت في الفصل المتقدم عن طبيعة الفرد الانكليزي فوصفت الرجل بانه ميال الى كل ما هو عملي وانه لا تستهويه الامور الخيالية او العاطفية. ومن جملة المظاهر التي اثرت فيها طبيعته هذه هي العواطف الجنسية. فالامور الجنسية عند الانكليز لا تشغل المقام الذي تشغله عند الفرنسي لا بل بالعكس فان المجتمع الانكليزي ينظر اليها نظرة خاصة يكتنفها بعض الحذر فاصبح الانكليز يبذلون الهمة لوقاية احداثهم من الانحراف في المفاسد الجنسية فترى أحداثهم منصرفين انصرافا خاصا الى الالعاب الرياضية لان الرياضة تلهي الشباب عن التفكير في الامور الجنسية فتتأخر علائم النضوج الجنسي عند الانكليز، اناثا وذكورا، بضع سنين عن غيرهم من الاقوام بغض النظر عما يتركه المناخ من التأثير. والعاطفة الجنسية عند الذكور من الانكليز اوطأ منها عند غيرهم من الاقوام. فعاطفة الانكليزي الجنسية واطئة بدرجة محسوسة ويمكنني ان اعزو ذلك الى امور ثلاثة: اولا — ان الرجل الانكليزي بطبيعته بارد الطبع قليل الحيوية الجنسية(Undersexed) وثانيا — ان تربيته البيتية وكثرة اتصاله بالجنس الآخر يخفف من غلواء عاطفته الجنسية وثالثا — ان التقاليد والتعاليم الدينية قد اثرت في تفكير الكثيرين منهم فكانت رادعا لهم عن الانغماس في الامور الجنسية. ان هذه العوامل الثلاثة تصدق على المرأة الانكليزية بقدر ما تصدق على الرجل الا ان العامل الاول يمكن استثناؤه عند المرأة الانكليزية اذ المفهوم انها لا تفرق شيئا عن غيرها من النساء بقدر تعلق الامر بالحيوية الجنسية.

تأثيرها على الرأي العام

اذا ما دققنا التأثير الذي تحدثه الامور الجنسية في الحياة الانكليزية رأينا هذا التأثير يكاد يكون غير محسوس فالمستوى الاخلاقي عند الانكليز اعلى منه عند كثير من الشعوب شرقية كانت او غربية ويمكن للباحث ان يستنتج

ذلك بنفسه مما يلاحظه من كتاباتهم او من الفنون المختلفة او نواحى الحياة الاخرى. فالرأى العام البريطانى نبذ اشعار (سوينبرن) ووراءه ظهريا وثار على كتابات (اوسكار وايلد) وهو لا يستسيغ الآن كتابات(W.H. Lawrance) وسرعان ما تثور ثائرته اذا ما ظهر اى كتاب او نشرة فيها ما يخالف مفهومه الاخلاقى ولا تكاد تظهر هذه المطبوعات الا واصدرت المحاكم حكمها بمنعها عن التداول، كما حصل مثلا عندما اصدرت (راديكليف هول) كتابها المسمى (The Well of Loneliness)الذى صورت فيه حالة بنت سحاقة ثارت عليها الصحافة البريطانية فمنع نشر الكتاب ومثل هذه الامثلة كثيرة جدا. وفى انكلترا لا يشاهد المرء مثل ما يراه فى فرنسا او غيرها من البلدان من الصور او المجلات الخليعة التى تتناقلها الايدى بحرية تامة. والمسرح الانكليزى بقى محافظا على وقاره ولم تلوثه آثام المسارح الفرنسية. فلا يمكن لمسارح على شاكلة (Casino de Paris) او (Follies Bergers) الفرنسية ان تعيش فى انكلترا يوما واحدا والمسارح الانكليزية التى من هذا النمط اقل المسارح اقبالا من الجمهور الانكليزى. والانكليز لا يسمحون للعلاقات الجنسية او الغرامية ان تدخل فى مصالحهم ولا فى سياستهم. وما يحدث فى فرنسا من الفضائح التى يرجع سببها الى المرأة نادر الوقوع فى انكلترا. وبعض التنافر والتنافس اللذين سادا زعماء فرنسا فى السنين التى سبقت انهيارها الاخير يرجع الى تنافر وتنافس عشيقات هؤلاء الزعماء اللواتى كن يملأن مقصورات مجلس الامة الفرنسى لا للاستماع الى مجرى المناقشة وعلاقتها بمصلحة فرنسا بل للتباهى بما يسمعنه من اصحابهن. والسياسى الانكليزى يقشعر جسمه لمجرد سماعه ان رئيس وزارة دولة بينها وبين الانهيار قاب قوسين او ادنى قد ربط دائرته وبيت صاحبته بتلفون خاص يستعمله اضعاف ما يستعمل تلفوناته الرسمية. ولم يكن صالون مدام (ريكاميه) قليل التأثير فى نابليون وكم اثرت علاقات نابليون الجنسية فى كثير من علاقاته السياسية حتى روى انه وقف منح استقلال دولة من الدول على تطمين عاطفة جنسية. وتأثير المدام (بومبادور) والمدام (Du Barry) على لويس الخامس عشر اشهر من (قفا نبك).

مستوى الاخلاق العامة

المدرسة القديمة والمرأة

والانكليزى لا يرى دائما ان المرأة هى الواسطة الوحيدة لجلب البهجة والسرور الى نفسه كما هو الحال عند الفرنسى مثلا. فان كانت متعة الفكر والروح عنده لا تتم الا بمجالسة الجنس اللطيف فان الانكليزى كثيرا ما يجد المتعة والراحة التامة ببعده عنها فان كثيرا من الاندية الانكليزية لا تجيز انتساب النساء اليها ولا دخولهن فيها زائرات منعا لاقلاق راحة الاعضاء. والطف ما قرأت عن وجهة نظر اتباع «المدرسة القديمة» من الانكليز عن المرأة هو ما كتبه البروفسور جود فى كتابه «تحت الضلع الخامس» (١) فقال: «يجب الا تجلس النساء مع الرجال حتى على مائدة الطعام لان حضورهن يدمر آداب المحادثة فيجعلها مقتضبة وطفيفة وعرضة للافراط فى التأدب (Genteel) او الافراط فى الذكاء (Clever) ». وكثير من الانكليز يرون كل ما يراه البروفسور (جود) بحق المرأة او بعضه.

البغاء فى انكلترا

ومهما كانت حالة البنت الانكليزية فانها لا تفكر قط فى كسب معاشها بالطرق الدنيئة الرخيصة فتراها تزج بنفسها فى اشق الاعمال ولا تعيش عيشة مريبة. والانكلوسكسون لم يعترفوا قط بالبغاء ضمن نظامهم الاجتماعى ولذلك لا وجود للمتاجرة بالعرض فى انكلترا وان القوانين المحلية صارمة تجاه من تسول لهن انفسهن امتهان المهن الرذيلة فترى البوليس الانكليزى يهاجم المحلات المشبوهة ويسوق من يعثر عليهن فيها الى المحاكم لنيل العقاب. على ان اغلب «الباحثات عن الذهب» ممن يتجولن فى شوارع (بيكادلى) ومنعطفات (سوهو) ومواخير (مى فير) هن من الاجانب. ولكن بالرغم من المراقبة الشديدة فان (هايد بارك) وغيرها من الحدائق العامة تصبح ليلا مرتعا لاولئك الذين لم يسعدهم الحظ للتمتع بملذاتهم فى ظروف اوفق وأستر.

---

(١) Under the Fifth Rib — By Prof. E.A. Joad.

الفصل الثالث

حياتهم السياسية

الدستور الانكليزي

تستند الحياة السياسية فى انكلترا الى الدستور الانكليزى وهذا الدستور لا يشبه دساتير الدول الاخرى فهو غير مسطور يرجع اليه عند الاقتضاء لكنه عبارة عن مجموعة من التقاليد والعرف السياسى والقوانين العامة التى أقرتها الضرورة السياسية انى اقتضت وحيثما وجدت. فبحسب العرف الدستورى فى انكلترا لا يصح ان يقال عن عمل ما انه غير دستورى اذ ان الدستور لا يحرم القيام باى عمل مهما كان نوعه ولكنه يصح أن يقال أن العمل الفلانى كان مخالفا للقانون لان القانون الثابت والمسطور شىء والدستور غير الثابت وغير المسطور شىء آخر. لا يعلم بالضبط ما يضمه الدستور الانكليزى من الاحكام والنصوص واذا ارتأى البرلمان ان يغير اى حكم من هذه الاحكام والنصوص فبوسعه ان يفعل ذلك بمجرد اصدار قرار منه ولا ينتظر ان يصطدم او ان يتعارض هذا القرار مع صلب الدستور ولذلك فقد قيل عن الدستور الانكليزى بانه مرن (Flexible) يمتاز عن الدساتير الاخرى التى تعرف بالدساتير الصلبة (Rigid) كدستور الولايات المتحدة الاميركية او الدستور العراقى قبل التعديل الاخير الذى قلل من صلابة الدستور القديم لدرجة محسوسة. ان شكل الدستور الانكليزى كما نراه اليوم يتفق كل الاتفاق وطبيعة القوم ومزاجهم فللانكليز مقدرة عظمى للمحافظة على الموازنة السياسية. فامورهم السياسية تجرى كما لو كان دستورهم مكتوبا او صلبا أذ قلما يحدث ان تفرط احدى السلطات بحقوقها او تصطدم بسلطة اخرى متذرعة بفقدان دستور ثابت. ويكفى لتغيير اى حكم من احكام الدستور الانكليزى ان يصدر البرلمان نفسه قرارا بالتغيير او ان تفسر محكمة من المحاكم المختصة حكما من احكامه تفسيرا جديدا او

ان تجرى سابقة ما وهذه السابقة متى ما أقرت دون اعتراض فأنها تعتبر كما لو صدر بها حكم دستورى جديد، ولذلك فقد وصف بعض علماء التشريع الدستور الانكليزى بالفوضوية. لكن هناك من يذهب الى القول ان الدساتير المكتوبة هى من آثار القرون الماضية وان فى الدستور غير المكتوب حرمة وجلالا اكثر من الدساتير المكتوبة، أذ ان الدساتير المكتوبة لا يمكن ان تطبق ما لم تستعن بقوانين اخرى تفسرها وتشرح احكامها.

الملك

الواقع أن الملك هو ذروة الهيكل الدستوري الانكليزى ومنذ ان صدر قانون ويستمنستر سنة **١٩٣١** اصبح الملك رمز الاتحاد الامبراطورى وأصبحت أنكلترا وبقية اجزاء الامبراطورية مرتبطة بعضها ببعض بواسطة التاج. وملك الانكليز يسود(Reign) ولا يحكم(Govern) والملوك المستبدون قد انتهى حكمهم منذ القرن السابع عشر عندما مل الشعب عنت ملوك (الستيورت). وعلى اثر ثورة سنة **١٨٦٦** أنتقلت لاول مرة السلطة الحقيقية من يد الملك الى ايدى الطبقات الحاكمة حتى أن الملك، بعد ان كان يرأس اجتماعات الوزارة، تنحى عن ذلك عندما شغل عرش بريطانية ملوك آل هنوفر الاجانب. وملك انكلترا اليوم مقيد بقرارات البرلمان ومشورة وزرائه فلا ينتظر منه ان يقوم باى عمل خلافا لذلك. وكل ما يقوم به الملك من اعمال، مصيبة كانت او خاطئة، والملك بعرف الدستور الانكليزى معصوم من الخطأ، فأنما يقوم بها بناء على مشورة وزرائه. ولملك الانكليز ثلاثة حقوق لا يمكن ان تنافسه فيها اية سلطة فى الدولة: وهى اولا الحق فى المشورة: اى على جميع الوزراء ان يشاوروا الملك فى امور الدولة لكنهم غير مقيدين بمشورته وثانيا الحق فى لفت نظرهم الى اى عمل يعتقد بانه لا يتفق وصالح الدولة غير انهم فى الوقت ذاته ليسوا مرغمين على تنفيذ رغبته تنفيذا مطلقا. والحق الثالث هو حق تشجيع وزرائه على اى عمل يعتقد انهم قاموا به لصالح المملكة. هذه هى الحقوق التى منحها الشعب الانكليزى لملوكه منذ أن عرض العرش على الملك وليم والملكة مارى سنة **١٦٨٨** بموجب (عهد الحقوق) (Bill of Rights). ومع ان الانكليز اكثر الناس تعلقا بالنظام الملكى فانهم لم يسلموا للملك سلطة الحل والعقد ولم يفرطوا فى اعطاء الحقوق له كما

فعلت بعض الممالك الحديثة التي ترغب في السير على مبادىء الدستور الانكليزي اذ جهلت هذه الممالك ان الدستور الانكليزي كما هو اليوم لم يسلم للملوك ما اخذه الشعب منهم بالامس .

ومع ان السلطة الحقيقية في انكلترا بيد البرلمان فليس من الصحيح ان نقول ان ملك الانكليز ما هو الا اداة بيد وزرائه، يوقع كل ما يعرضون عليه ويمشي الى حيث يقتادونه . اذ قد ظهر من بين ملوك الانكليز ما كان لهم شأنا كبير في ادارة المملكة بالنظر الى ما لشخصيتهم من القوة والنفوذ . فقد كان الملك وليم الثالث رئيس الوزراء ووزيرا للخارجية يدير شؤون المملكة الداخلية والخارجية بنفسه . والملكة فكتوريا فرضت كثيرا من ارادتها على وزرائها وكانت تود ان تستشار بكل صغيرة وكبيرة من شؤون المملكة . وكان للملك ادوار السابع، الملك الدبلوماسي، باع طويل في سياسة انكلترا الخارجية والحلف الفرنسي الانكليزي كان من نتيجة جهوده في هذا الحقل . وقد بذل الملك جورج الخامس جهودا كبيرة في السياسة الداخلية وخاصة عندما اقتضت مصلحة البلاد التوفيق بين الاحزاب القائمة وقتئذ فنجح في حمل المستر بولدوين زعيم المحافظين على الاشتراك مع المستر ماكدونالد زعيم العمال في وزارة واحدة . واما الملك ادورد الثامن فقد وجه جهوده لتحسين حالة العمال فكم بذل في هذا السبيل من جهود كان من نتيجتها ان اصطدم بالطبقات الاخرى التي كانت لها الكلمة المسموعة في ادارة شؤون الدولة مما ادى الى تنازله عن العرش .

ويجمل في هذا البحث التميز بين «الملك» و «التاج» (Crown). فالاصطلاح الثاني واسع المعنى يضم كثيرا من الحقوق (Rights) والمزايا (Prerogatives) والسلطات (Powers) التي يتمتع بها الجالس على العرش . ان استعمال ملوك الانكليز هذه الحقوق والسلطات قد حددت كما قلنا . فلم يعد ملك الانكليز يطالب بالحق الآلهي الذي كان يتمتع به الملوك الاقدمون حتى ان حق رفض القوانين (Veto) الذي كان من اهم حقوق الملك قد ابطل لانه لم يستعمله الملوك منذ ايام الملكة (آن) . وان كانت قد حددت سلطات الملك وصلاحياته في بعض النواحي بيد انه لم يعتورها اي خلل في

نواح اخرى. ذلك ان الملك فى انكلترا ما زال «منبع الشرف» فمنه تدفق الالقاب ودرجات الشرف سنويا على ابناء الشعب. وليست الطبقة الارستقراطية وحدها تشعر بان الملك هو حامى حماها وانما الشعب الانكليزى على اختلاف طبقاته متعلق بالملكية ومظاهرها تعلقا شديدا وأنك تلاحظ ذلك فى كل مظهر وناحية من مظاهر الحياة العامة ونواحيها. فالحكومة تسمى حكومة جلالته (His Majesty's Govt.) وسفن الاسطول هى سفن جلالته (H.M.S.) والبريد الرسمى هو لخدمة جلالته (O.H.M.S.) والطريق العام هو طريق الملك (King's Road) واللغة الصحيحة المألوفة هى لغة الملك (King's English). ثم انك ترى المحلات التجارية على اختلاف أنواعها ودرجاتها تتنافس فى سبيل الحصول على وعد من الملك أو من احد أفراد العائلة المالكة ليكونوا المجهزين الخاصين لهم ويشرفوا اسماء محلاتهم بكلمتى (By Appointment). ويظهر مبلغ تعلق الانكليز بالبيت المالك مما يشاهد من القلق الذى يبدو على وجه كل فرد من افراد الشعب عندما يصاب احد اعضاء ذلك البيت بمكروه او بمرض. وحتى فى علاقاتهم بالشعوب الاجنبية تراهم يعطفون على الدول ذات النظام الملكى اكثر من عطفهم على الدول ذات النظام الجمهورى او الدكتاتورى. ويلاحظ هذا التعلق ايضا فى مبادىء الاحزاب الانكليزية فاذا استثنينا الحزب الشيوعى نرى ان جميع الاحزاب على اختلاف نزعاتها هى ملكية النزعة ومهما كانت مبادئها تدعو الى احداث تغييرات اساسية فى الانظمة السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية القائمة فانها لا تفكر فى مناواة الملكية او الاقلال من شأنها. ولما تنازل الملك ادورد الثامن عن العرش، وتنازل ملك انكليزى عن عرشه ليس بالامر الهين لدى العقلية الانكليزية، لوحظ ان مختلف الاوساط الشعبية من تقدمية ورجعية ابدت تألمها على ذلك.

تعلق الشعب بالملوكية

ان تعلق الشعب الانكليزى بالبيت المالك اخذ يزداد على مر السنين بالنظر الى الاتصال الزائد والوثيق بين العائلة المالكة والرعية. ولا شك فى ان مثل هذا الاتصال يصبح اوثق عندما يرى الشعب ان ملكه او ملكته او بقية اعضاء الاسرة المالكة يشاركونه فى السراء والضراء ويتحملون المشاق

والمحن التى يتحملها. وهل هناك اوثق من ان تعلم العائلة الانكليزية التى تسكن الحى الشرقى فى لندن بان بيتها وبيت الملك قد لقيا مصيرا واحدا وقصفا بغارة جوية واحدة. ولقاء هذا التعلق الشديد الذى يعلقه الشعب الانكليزى بعائلته المالكة كان على كل فرد من افرادها من ملك او ملكة او امير او اميرة او دوق او دوقة ان يبرز هذا التعلق ويطمنه فهو ينتظر منهم ان يشتركوا فى مختلف الحفلات العامة وان يساهموا فى كثير من المشروعات الاجتماعية بشخصهم. وعندما يذهب الملك الى البرلمان او الى حى (السبق) او للاشتراك بحفلة افتتاح معرض او مستشفى او ما شاكل ذلك ترى الشوارع مكتظة بالناس وترى كل منهم يتطلع بلهفة وشوق ليلقى نظرة على الملك او على المهرجان الملكى. وجاء الى انكلترا فى حفلات تتويج الملك جورج السادس انكليز كانوا يسكنون فى ابعد الاقطار النائية وذلك لمجرد حضور هذه المناسبة التاريخية. والانكليزى يفتخر اذا ما قص لولده او لحفيده انه شاهد مهرجان تتويج الملك الفلانى او الفلانى. ويراقب الشعب حركات العائلة المالكة وسكناتها مراقبة دقيقة فأصبح من الصعب ان يتمكن الملك من الانزواء او الاختلاء حتى ان بيت الملك نفسه وغرفه الخاصة قد فتحت لابناء الشعب يزورونها عندما ينزح عنها الملك كما هو الحال فى قصر (وندسور). وعلى الملك ان يشترك فى كثير من المناسبات العامة كحضور الاجتماعات والحفلات كافتتاح المعارض والمستشفيات والمبانى والمحلات الجديدة وانزال البوارج والبواخر الى البحر وغير ذلك وعليه ان يقيم بين حين وآخر دعوات فى قصره يشترك فيها بنفسه او هو والملكة. ان الاشتراك فى مثل هذه المناسبات وما تتطلبه من عناء فكرى وجسمى ليس بالامر الهين بالنظر الى المراسيم الكثيرة الواجب مراعاتها من قبله. فليتصور القارىء ان على الملك مثلا ان يستقبل خمسمائة او اكثر من الضيوف وكبار القوم واعضاء الهيئات السياسية عدة مرات فى السنة وعليه فى كل مرة ان يقف ليرد التحية للمتشرفين بحضرته بانحنائه لهم وقد تستغرق هذه المراسيم عدة ساعات. وفضلا عن هذه الوجائب عليه ان يؤدى وجائب الدولة فيوقع على الاوراق الرسمية ويقابل الوزراء والسفراء ويحضر اجتماعات المجلس الخاص ويذيع الخطب

بالراديو على شعبه وعلى الامبراطورية. وتزداد هذه الوجائب فى ظروف الحرب بالتفتيش على القوات المسلحة وميادين القتال وحضور حفلات تقليد الاوسمة وزيارة الجرحى وغير ذلك.

المجلس الخاص

قلت ان من وجائب الملك حضور المجلس الخاص (Privy Council) وهذا المجلس هو هيئة استشارية للملك. ومنذ نشوئه حتى بلغ الوضع الحاضر مر بعدة ادوار. فقد نشأ هذا المجلس على اثر المنافسة بين الملك والبرلمان حول صلاحية اصدار القوانين وتنفيذها. وكان من نتيجة هذه المنافسة ان اضطر الملك الى ايجاد هيئة تقدم له الاستشارة اللازمة السديدة فاحدث هذا المجلس وتوسعت عضويته بمرور الزمن وتقسمت صلاحيته بين لجانه الكثيرة. وأمر الملك تشارلس الثانى بتشكيل لجنة صغيرة من اقدم اعضاء المجلس لارشاده فى القضايا المهمة والسرية وسميت هذه اللجنة(Cabal) وتتكون الكلمة من الاحرف الاولى لاسماء خمسة من هؤلاء الاعضاء. (١) ثم تطور الوضع الى ايجاد لجنة اوسع وذات اختصاص اعم وصلاحية اكبر وهذه اللجنة تطورت فاصبحت الوزارة كما نراها فى حالها الحاضر. ويتكون المجلس الخاص الحاضر من اعضاء يقرب عددهم من (٤٠٠) بينهم جميع اعضاء الوزارة، والوزير يصبح عضوا فى هذا المجلس بعد استيزاره بطبيعة الحال ولكنه لا يفقد عضويته فيه اذا سقط من عضوية الوزارة بل يحتفظ بعضويته حتى الوفاة. والمجلس يضم ايضا الشخصيات البارزة من مختلف نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ففيه بعض اعضاء الاسرة المالكة ورئيسا اساقفة كانتربرى ويورك ورئيس مجلس العموم وقاضى القضاة فى انكلترا، ونائب الملك فى الهند والسفراء. ومن حق العضو فى هذا المجلس ان يضيف حرفى(P.C.) بعد اسمه للدلالة على انه عضو فيه Privy Councellor) ولا يدعى هذا المجلس للاجتماع الا فى ظروف خاصة لان وظائفه غير معينة تماما. وقد سمعت مرة من اللورد (صاموئيل) فى مناقشة بالراديو يقول «لقد كنت عضوا فى هذا المجلس لثلاثين سنة مضت ولكن لا اتمكن من ان اقول بالضبط ما هى وظائف هذا المجلس». على انه من جملة

(١) The Governments of Europe by W.B. Munro

ما يقوم به من الاعمال هو اعلان اعتلاء ملك جديد على العرش والنظر فى القضايا التى ترفع اليه من الممتلكات والمستعمرات بصفته محكمة تميز عليا. وقد دعى هذا المجلس بكامله للاجتماع بعد تنازل الملك ادورد الثامن واعتلاء الملك الحالى عرش انكلترا.

ان القرارات التى يصدرها المجلس الخاص (Orders-in-Council) ما هى الا قرارات الوزارة نفسها تصدر باسم الملك. واذا ما ارادت الوزارة احداث دائرة مهمة فى الدولة فانها تطلب تشكيل لجنة من المجلس الخاص وهذه اللجنة اذا ما تشكلت اصبحت هى الدائرة او الوزارة المختصة الجديدة كما حصل فى بدء تشكيل وزارة المعارف ووزارة الزراعة وغيرهما. ويرأس المجلس الخاص (Lord President of the Council) وهو عضو من اعضاء الوزارة القائمة ووظيفته الوحيدة هى ترؤس اجتماعات هذا المجلس ويعين عادة من شخصيات الوزارة القوية وليس له عمل فى الوزارة غير هذا.

الوزارة

ذكرت ان احدى لجان المجلس الخاص قد تطورت واصبحت الوزارة (Cabinet) كما نراها اليوم. واذا رجعت الى الدستور الانكليزى لا ترى للوزارة اى مستند قانونى تستمد منه سلطتها وصلاحيتها ومع ذلك فانها الاداة القوية الوحيدة التى تسير الدولة وهى كما قال غلادستون «دعامة ذات ثلاث حلقات تصلها الواحدة بالملك والثانية بمجلس اللوردات والثالثة بمجلس العموم» وقد حافظت الوزارة على التوازن بين هذه القوى الثلاث بشكل لم يسبق له مثيل فى الدول الدستورية خاصة اذا ما علمنا انه لا يوجد اى قانون او دستور مكتوب يحدد صلاحية كل واحدة من هذه القوى وسلطتها.

نشأت الوزارة عندما اخذ الملوك ينتخبون مستشاريهم من بين اعضاء المجلس الخاص للمذاكرة معهم بشؤون الدولة دون الالتجاء الى مجلس العموم ومذاكراته واعتراضاته انما لا يعلم بالضبط متى بدأ تعين هؤلاء المستشارين لكنى قد بينت فيما سبق ان الملك تشارلس الثانى قد الف لجنة (Cabal) وقد تكون هذه اللجنة هى منشأ الوزارة كما نراها اليوم ولكن مجلس العموم لم يشأ ان يترك الملك يختار من يريد من مستشاريه فاستعمل حقه هذا عندما قرر اتهام (Impeachment) احد المستشارين الذين اختارهم الملك تشارلس

الثانى وهو الارل دانبى(The Earl of Danby)غير ان الملك امر بحل المجلس واجراء انتخابات جديدة لكن المجلس الجديد اتخذ نفس القرار الذى اتخذه المجلس السابق وامر بحبس مستشار الملك فى برج لندن برغم دفاعه ان كل ما قام به كان بناء على مشورة الملك والملك معصوم من الخطأ. ومن هذه الحادثة وضعت قاعدة فى الدستور الانكليزى ان الوزير او رئيس الوزارة لا يمكن ان يلجأ الى الملك لتبرير اعماله وانه مسؤول اخيرا أمام مجلس العموم. ولاجل تحاشى الاصطدام بين الملك ومجلس العموم قبل الملوك مبدأ اختيار مستشاريهم من بين الاشخاص الذين يثق بهم مجلس العموم وهكذا نشأت العلاقة بين الوزارة والمجلس. وبعد نشؤ الاحزاب تقيد اختيار الملك لمستشاريه من بين هؤلاء الاحزاب مراعيا بذلك عدد اعضاء كل حزب وقوته. ولكن ذلك لم يكن عمليا بالنظر الى الخلاف المستمر وعدم الاتفاق بين هؤلاء المستشارين ولاجل ايجاد حل لذلك تقرر اختيار جميع هؤلاء المستشارين من الحزب الذى يتمتع بالاكثرية فى مجلس العموم فتشكلت اول وزارة على هذا الاساس من المحافظين سنة ١٦٩٧ وبقيت هذه القاعدة متبعة الى الآن حتى ولو كان الملك يعطف شخصيا على الحزب الذى ليست له الاكثرية فى المجلس. والاستثناء الوحيد لذلك هو عندما تقضى مصلحة البلاد بتأليف وزارة ائتلافية لاتقاء خطر داخلى او خارجى كما حصل عند ائتلاف وزارة العمال والمحافظين فى زمن ماكدونالد وبولدوين وكما هو الآن فى وزارة المستر تشرشل الحالية.

* * *

تتألف الوزارة من اعضاء من مجلس اللوردات واعضاء من مجلس العموم ولكن عدد اعضاء المجلس الاول يجب ان يكون ثابتا لا يمكن تجاوزه وقد يحدث ان احد الوزراء يرث لقب اللوردية بوفاة والده اثناء وجوده فى الوزارة فيصبح لوردا وفى هذه الحالة عليه ان يستقيل من الوزارة كما حصل عندما اصبح المستر (اورمسبى كور) لوردا بعد وفاة والده (Lord Harlech) واعضاء الوزارة سواء اكانوا نوابا ام لوردات هم على صنفين صنف بدرجة وزراء وزارة (Cabinet Minister) وصنف بدرجة وزراء

الوزراء

ولكنهم ليسوا بدرجة وزراء وزارة. فعدد الوزراء من الصنف الاول فى آخر وزارة فى زمن السلم وهى وزارة المرحوم المستر تشمبرلين كان واحدا وعشرين وزيرا. والوزراء من الصنف الثانى كانوا اربعين وزيرا وهذا الصنف يشمل نواب الوزراء البرلمانيين ووزراء البلاط السياسيين (Royal Household) واغلب الوزراء من الصنف الاول لهم وزارة يديرون شؤونها عدا حامل الاختام(Lord Privy Seal) ورئيس المجلس الخاص (Lord President of the Council) ومستشار مقاطعة لانكستر (Chancellor of the Duchy of Lancaster) وبعض الوزراء بلا وزارة الذين احدثت مناصبهم بمناسبة الحرب. وقد اقتضت ظروف الحرب احداث وزارات جديدة لم يسبق لها وجود فى زمن السلم كوزارة الاستعلامات ووزارة الطعام ووزارة انتاج الطيارات ووزارة الاقتصاد الحربى ووزارة التموين ووزارة اعادة الانشاء وغيرها من الوزارات التى تحدث كلما مست الحاجة اليها. وقد تطلبت الحرب احداث هيئة وزارية مكونة من اربعة اعضاء او خمسة من اكبر الاعضاء نفوذا وتسمى بهيئة الوزارة الحربية (War Cabinet) ووظيفتها ادارة دفة الحرب والغرض من ايجادها هو سرعة البت فى القضايا المهمة والمستعجلة والاقلال من المذاكرات الكثيرة وتحاشى الاختلافات التى قد تحصل فى وزارة مكونة من عدة اشخاص واحزاب. وكان المستر لويد جورج قد احدث مثل هذه الوزارة فى الحرب الماضية وهنالك ايضا هيئة مماثلة فى الوقت الحاضر لادارة دفة الحرب الحالية.

رئيس الوزراء

ان رئيس الوزارة هو العماد الذى ترتكز عليه الوزارة فهو الشخص الوحيد المسؤول امام الملك والبرلمان والشعب وله صلاحية واسعة وبوسعه ان يعمل كل ما يتراءى له انه من مصلحة البلاد بشرط ان يلاقى تأييدا من مجلس العموم. فكان قد اقترض دزرائيلى مثلا مبلغ اربعة ملايين باون من عائلة (روتشيلد) لشراء حصص قناة السويس عندما عرضها خديوى مصر للبيع ولم يكن مجلس العموم مجتمعا آنئذ ليأخذ موافقته على الشراء لكنه اقترض المبلغ بعد ان اعطى للدائن تعهدا شفهيا وهو «الحكومة البريطانية» ولما اجتمع المجلس ايد عمل رئيس الوزراء ووافق على تخصيص المبلغ.

يشرف رئيس الوزراء على زملائه الوزراء ويراقب اعمالهم وعليه ان ينبههم اذا ما بدر منهم ما يستوجب التنبيه. فقد وصمت الصحافة الانكليزية المستر بولدوين بالضعف وعدم الهيمنة على زملائه عندما صرح احدهم مرة ان حدود انكلترا هى الراين وذلك فى موقف الدفاع ضد التوسع الالمانى فى الظروف التى كان الشعب الانكليزى يتجنب التصادم مع الالمان. ومن وجائبه انه يكون حكما بين زملائه الوزراء اذا ما حصل اى خلاف فى الرأى بينهم واذا كان هذا الخلاف بينه وبين احد من الوزراء فعلى الوزير ان ينسحب من الوزارة كما حصل مثلا عندما اختلف المستر ايدن والمستر (دف كوبر) مع المستر تشمبرلين فى سياسته الخارجية. ويتوقف استعمال حقوقه على مشورة رئيس الوزراء فاذا كان رئيس الوزراء قويا وعلى اتفاق تام مع ملكه يمكنه الاستفادة من استعمال الملك حقوقه الى اقصى درجات الاستفادة. بيد انه لا يحق لرئيس الوزارة من الوجهة النظرية على الاقل ان يلفت نظر وزيره الى تصرفاته ضمن دائرة اختصاصه لكنه يمكنه التخلص منه بالاقتراح على الملك ان يستخلفه بوزير غيره. وعلى كل فدرجة التمتع بالصلاحية تتوقف على شخص رئيس الوزراء وعلى الظروف المحيطة به فاذا كانت رئاسة الوزارة بيد شخص مثل وولبول او بت او بيل او دزرائيلى او بالمرستون او غلادستون او تشرشل يمكنهم ان يكونوا بمنزلة دكتاتورين فى بلادهم اما اذا كانوا ضعيفى الشخصية وقليلى المقدرة بالنسبة الى وزرائهم او الى الظروف المحيطة بهم فان سلطة منصبهم تتأثر تبعا لذلك كما كان الحال مع رؤساء وزارات من طراز ليفربول او ملبورن او بونارلو او بولدوين او تشمبرلين.

وقد سئل (بت) الصغير مرة عن الصفات التى يجب ان يتحلى بها رئيس الوزراء فى انكلترا فاجاب انها اربعة : اولا الطلاقة فى الكلام وثانيا العلم وثالثا العناء واخيرا الصبر. ولا شك فى ان هذه الصفات ليست واجبة التوفر فى اولى الامر عند الانكليز بل انها من متطلبات الحكم عند العالم اجمع. والواقع ان هناك عوامل اخرى لها اهميتها الخاصة لمن يصل الى منصب رئيس الوزراء فى انكلترا. ولو ان هذا المنصب ليس وراثيا لكن للوراثة تأثيرا كبيرا

فى انتقاء الشخص الذى يشغله. فقد احصى احد المتتبعين اكثر من ثلاثة ارباع الذين شغلوا هذا المنصب كان آباؤهم اعضاء فى مجلس العموم واكثر من نصفهم كانوا احفاد جدود كانوا اعضاء فى هذا المجلس واكثر من ثلثهم كانوا يمتون بوشائج القرابة او الزواج الى رؤساء وزارات آخرين. وعلى العموم فان رئيس الوزراء يجب ان يكون منحدرا من اصل عريق، وذا سعة وثقافة وقد اشتغل بالسياسة من مقتبل عمره وجعلها مهنة له. والقانون الانكليزى يسيغ لكل فرد بريطانى الجنسية ان يكون رئيسا للوزارة. فسبعة وعشرون رئيسا كانوا انكليز بالولادة وستة كانوا اسكوتلنديين وثلاثة ايرلنديين وواحد (لويد جورج) من ويلز وواحد كندى وواحد (دزرائيلى) كان من اصل يهودى الا انه انكليزى بالولادة.

ان منصب رئيس الوزارة لم يكن قديما فى النظام الدستورى فى انكلترا فالمنصب بالمعنى الذى نفهمه اليوم قد احدث لاول مرة عندما شغله (السير روبرت وولبول). وكيفية ذلك انه فى اواخر القرن الثامن عشر اعتلى عرش انكلترا ملوك من الاجانب ومن هؤلاء الملوك، مثل جورج الاول من لم يتكلموا حتى ولم يفهموا لغة البلاد فلم يشاءوا ان يترأسوا هيئة وزرائهم ومستشاريهم بل انتدبوا عنهم اكثرهم ثقة واعتمادا ليقوموا مقامهم وهو رئيس الوزراء ولكنه كان يشغل هذا المنصب باسم (اللورد الاول للخزينة) وبقى كذلك الى ايام دزرائيلى الذى اجرى لاول مرة بعض التغيير بالاسم ذلك انه عندما وقع معاهدة برلين سمى نفسه (اللورد الاول لخزينة جلالتها البريطانية ورئيس وزراء انكلترا). ثم صدر فى سنة ١٩٠٥ مرسوم ملكى عين فيه قدم (Precedence) رئيس الوزراء وكان ذلك اعترافا دستوريا بهذا المنصب لاول مرة. وقبل سنة ١٩٣٧ لم يكن لرئيس الوزراء راتب بهذه الصفة بل كان يتقاضى راتبه بصفته اللورد الاول للخزينة وفى سنة ١٩٣٧ قدمت وزارة المستر بولدوين قانونا الى البرلمان حدد بموجبه لرئيس الوزراء مرتبا سنويا قدره ١٠،٠٠٠ باون ولكل من الوزراء عدا رئيس مجلس اللوردات (Lord Chancellor) الذى يتقاضى مرتبا يعادل مرتب الرئيس، خمسة آلاف باونا سنويا. وقد خصص فى ذلك القانون رواتب تقاعدية قدرها

٢٠٠٠ باون لرؤساء الوزراء السابقين ولزعيم المعارضة فى البرلمان.

علاقة رئيس الوزراء بالملك

ذكرت فيما مر كلمة عن علاقة رئيس الوزراء بالملك. ان هذه العلاقة قد اصبحت شكلية بمر السنين وبتمركز السلطة بيد مجلس العموم. اذ ان اول ما يجب ان يتمتع به رئيس الوزراء هو ثقة مجلس العموم لا ثقة الملك. ان هذه القاعدة وكثيرا من القواعد الدستورية المتعلقة بشؤون الوزارة وضعت على عهد (وولبول) ولا غرابة فى ذلك اذ انه شغل منصب رياسة الوزارة لمدة عشرين سنة. وبما انه كان زعيما للاكثرية فى مجلس العموم فقد اصبحت القاعدة فيما بعد ان كل من يتزعم الاكثرية فى المجلس يجب على الملك ان يعهد اليه بتأليف الوزارة وصار لزاما على الملك انه ينوط تأليف الوزارة بمن يتمتع بالاكثرية سواء اكان يتمتع بثقته ام لا ولم يعارض ملوك انكلترا ممن خلفوا جورج الثالث هذه القاعدة ولو ان هذا الملك راعاها لحد ما وذلك بتأليف حزب ملكي فى المجلس وعن طريق هذا الحزب ابتغى الحصول على الاكثرية التى تعضد رئيس الوزارة الذى يختاره هو ممن ينفذون رغباته وآرائه. وبالنظر الى هذه القاعدة الدستورية لم تر الملكة فكتوريا مندوحة من دعوة غلادستون واسناد مهام الوزارة اليه لكونه زعيم الاكثرية بالرغم من انها لم تكن توده بشخصياً.

ومهما كانت درجة عطف الملك على رئيس الوزراء او درجة ثقة البرلمان التى يتمتع بها ذلك الرئيس يجب عليه ان يحوز ثقة الناخبين المنتسبين الى الحزب الذى يستند اليه. وتجتمع الاحزاب والناخبون سنويا لبحث السياسة التى تنتهجها الوزارة القائمة او رئيس الوزراء فتنتقد هذه السياسة او تمتدحها وتقدم الاقتراحات لارشاد الوزارة او لفت نظرها الى تهاون او خطل فى ناحية من نواحى سياستها داخلية كانت ام خارجية مالية كانت ام ثقافية. وكان المستر تشمبرلين يتمتع بثقة الملك وبثقة الاكثرية فى مجلس العموم حيث كان زعيما لها ولكنه بعد السنة الاولى من الحرب وجد نفسه امام رأى عام صاخب يطلب حزما اكثر فى ادارة دفة الحرب فاذعن اولا بادخال بعض العناصر المشهورة بشدة بأسها كالمستر تشرشل ثم وجد نفسه مضطرا حتى امام انصاره ان يتنحى من الوزارة فتنحى لوزارة ائتلافية يؤلفها

تشرشل.

صنوف الوزراء ودرجاتهم

كنت قد تكلمت عن كيفية نشوء وتطور (الوزارة) ومنصب رئيس الوزراء وبينت انه لا يوجد دستور او قانون يعين وجائب وصلاحية الوزارة او رئيسها، وعلى ذلك الاساس. لا يوجد دستور او قانون يعين بقية اعضاء الوزارة ولا صلاحية كل منهم فكانت الوزارة تضم سكرتيرى الدولة الخمسة (وهم سكرتير الدولة للشؤون الخارجية وسكرتير الدولة للشؤون الداخلية وسكرتير الدولة للمستعمرات وسكرتير الدولة لوزارة الحرب وسكرتير الدولة للهند) ووزير المالية (Chancellor of the Exchequer) واللورد الاول للاميرالية وسكرتير اسكوتلندا ورئيس لجنة التجارة ورئيس لجنة المعارف ووزراء الصحة والزراعة وصيد الاسماك ومفوض الاشغال والمدعى العام ومدير البريد العام ووزير الطيران وكل هؤلاء هم اعضاء دستوريين فى الوزارة يحضرون اجتماعاتها ولهم دوائر يشرفون عليها ولكن هناك قسما من اعضاء الوزارة ليس لهم دوائر يشرفون عليها ومناصبهم شكلية فقط مثل وزير الاختام (Lord Privy Seal) ورئيس المجلس (Lord President of the Council) ورئيس مقاطعة لانكستر ويظهر للقارىء مدى عدم تعيين صلاحية الوزارة والوزراء الانكليز عندما يستعرض التباين الموجود فى صلاحياتهم. فهناك قسم من الوزراء تمتد صلاحيتهم الى جميع اقسام الامبراطورية مثل وزير الخارجية واللورد الاول للاميرالية ووزير الحربية ووزير الطيران وغيرهم من الوزراء الذين هم بحكم عملهم فى سبيل خدمة الامبراطورية عليهم ان يعملوا لصالح جميع اقسام الامبراطورية. وهناك قسم من الوزراء تقتصر صلاحيتهم على انكلترا وارلندا الشمالية مثل وزراء التجارة والزراعة وصيد الاسماك، ومنهم من تقتصر صلاحيتهم على انكلترا وويلس فقط مثل رئيس لجنة المعارف (وزير المعارف)(١) وهناك وزير لا شأن له سوى النظر فى مصالح اسكوتلندا وآخر لا شأن له سوى النظر فى مصالح مقاطعة صغيرة من انكلترا مثل مقاطعة لانكستر بينما زميله فى الوزارة ينظر فى

---

(١) بعد صدور قانون المعارف الجديد تغير اسم رئيس لجنة المعارف بوزير المعارف.

مصالح احدى اقسام الامبراطورية كالهند. ومع وجود هذا التباين العظيم فى الصلاحيات بين الوزراء وعدم تثبيتها بقانون مكتوب نرى ان ماكنة الوزارة البريطانية تسير سيرا متقنا لا يضاهيها سير ماكنة الوزارة فى اى بلد دستورى مهما كانت انظمته الدستورية مقيدة بالقوانين.

سكرتير الوزارة

ويدير شؤون مجلس الوزراء موظف يسمى سكرتير الوزارة ومنصب السكرتير هذا من اهم الوظائف فى الدولة وكان السير موريس هانكى يشغل هذا المنصب الخطير منذ نشوب الحرب الماضية حتى تعيينه عضوا فى مجلس اللوردات وقد وصف السير موريس مرة بانه الشخص الذى يعرف خبايا السياسة البريطانية اكثر من اى فرد انكليزى آخر. ولا غرابة فى ذلك فهو الذى اشرف على سياسة انكلترا ربع قرن اشرافا مستمرا ومن اجدر من شخص كهذا بان ينال جزاء لخدماته الجليلة فيمنح لقب اللوردية ويصبح عضوا فى مجلس اللوردات ! يتضح للقارىء مبلغ اهمية هذه الوظيفة اذا ما علم انه ليس لمجلس الوزراء البريطانى منهج ولا يضبط محضر رسمى لاجتماع المجلس كما ان الوزراء غير مخولين ان يدونوا ما يقولون وان الوزير الذى يستعمل اية ورقة يدون فيها ما يجرى فى الجلسة يعتبر خارجا على العرف المألوف. ولذلك كان على سكرتير المجلس ان يعد بنفسه لرئيس الوزراء محضرا بما قيل او جرى فى المجلس. ولم يذكر تاريخ مجلس الوزراء البريطانى ان اعترض وزير على مثل هذا المحضر ولم هذا الاعتراض وليس المحضر سوى رؤوس اقلام تعد لرئيس الوزراء ليرفعها الى مولاه الملك فهو المسؤول وحده عما جرى فى جلسات المجلس وهو المسؤول شخصيا عن رفع ذلك الى السدة الملكية.

وتجتمع الوزارة اما فى غرفة رئيس الوزراء فى مجلس العموم واما فى (صالون الوزارة) فى الدار التى يسكنها رئيس الوزراء الواقعة فى داوننك ستريت وهو شارع صغير يتفرع من شارع البرلمان ليس فيه سوى دارين احداهما لرئيس الوزراء والثانية لوزير المالية وفيه ايضا مدخل وزارة الخارجية البريطانية. والدار بسيطة جدا فى داخليتها وابسط من ذلك فى مظهرها الخارجى ويستبعد الاجنبى ان تكون مثل هذه الدار البسيطة مسكنا لرئيس وزارة

اغنى دولة فى العالم.

وزير المالية

واهم الوزراء فى الوزارة الانكليزية، بعد رئيس الوزراء، هو وزير المالية (Chancellor of the Exchequer) وتسميته بهذا الاسم من غرائب العقلية الانكليزية فمنشؤه يرجع الى ايام العصور الخالية عندما كانت تجمع الضرائب من الشعب وتوضع على مائدة كبيرة مغطاة بقطعة من القماش على شكل مربعات اشبه شيء بلوحة الشطرنج ثم تفرز المسكوكات وتوضع كل فئة منها على مربع من هذه المربعات. ويجلس حول هذه الطاولة البارونات ويرأسهم الشخص المسؤول عن الواردات. ولذلك سمى باسمه هذا. ووزارة المالية الانكليزية (Treasury) كانت تديرها قديما لجنة مكونة من سبعة لوردات : اللورد الاول هو فى الواقع رئيس الوزراء واللورد الثانى هو وزير المالية وثلاثة من اللوردات (Junior Lords) وهؤلاء من زعماء الحزب الذى ينتمى اليه رئيس الوزراء وتدفع الدولة رواتبهم ومن جملتهم الـ (Whips) للحزب وهم مراقبو الحزب الذى يديرون شؤونه فى فى البرلمان ويضمنون للوزارة الاكثرية المطلوبة كما سنرى وكان رئيس الوزراء يوكل ترؤس هذه اللجنة الى مساعده الذى كان يسمى (Under Treasurer) ثم اصبح هذا وزيرا للمالية وهذه اللجنة لم تجتمع فى الماضى وربما لن تجتمع فى المستقبل. ولها سكرتير دائم تعادل وظيفته وظيفة مدير المالية العام وهو فى الوقت ذاته رئيس الخدمة المدنية فى الدولة. قلت ان اهم الوزراء بعد رئيس الوزارة هو وزير المالية ولم تكن اهميته بهذه الدرجة لو لم تكن الدائرة التى يترأسها كبيرة والصلاحية التى يتمتع بها عظيمة فلذا كان كل من يشغل هذا المنصب مرشحا اكيدا لرئاسة الوزارة فاذا لاحظنا اسماء الذين شغلوه خلال المائة عام المنصرمة نرى ان جميعهم ما عدا القليل جدا قد تسنم منصب رياسة الوزارة مثل : دزرائيلى وغلادستون وراندولف تشرشل (جد المستر تشرشل ولم يصل الى مقام رياسة الوزارة) واسكويث ولويد جورج وبونارلو وبولدوين وونستون تشرشل ونفيل تشمبرلين. وليس لوزير المالية هذا سوى ان يغير اسمه ويحول منزله من رقم ١١ داوننك ستريت الى رقم ١٠ ليصبح رئيسا للوزارة. ويظهر ان هذا

التعامل كان قد اختل قليلا فى الحقبة الاخيرة من التاريخ الانكليزى فمنذ ان تخلى المستر تشمبرلين عن وزارة المالية ليصبح رئيسا للوزارة لم يشغل ذلك المنصب وزراء من الطراز الذى يصح ان يكون رئيسا للوزارة فى المستقبل. فقد خلف السير (كينكزلى وود) المستر تشمبرلين فى وزارة المالية ولم يكن من الشخصيات التى يمكن ان تتولى الزعامة السياسية فى انكلترا. وبعد وفاته فى السنة الماضية خلفه السير جون اندرسون وهو من طراز سلفه فى المنزلة السياسية ولذلك عندما اصيب المستر تشرشل بمرضه الاخير لم يذكر اسم السير جون خلفا له بل ذكر اسم المستر ايدن وزير الخارجية.

ووزير المالية الانكليزية كغيره من وزراء المالية فى الدول الاخرى هو المسؤول عن سياسة الدولة المالية تجاه مجلس العموم وهذا المجلس وحده هو الذى يشرف على سياسة الدولة المالية. فاما مجلس اللوردات فليس له ان يتعرض لاية لائحة ذات صبغة مالية ولهذا يجب بحكم الضرورة ان يكون وزير المالية عضوا فى مجلس العموم برغم انه يتسنى لغيره من الوزراء مهما كانت منزلتهم ان يكونوا اعضاء فى مجلس اللوردات. ويقدم وزير المالية ميزانيته الى المجلس بخطاب طويل ممل وهذا الخطاب هو اصعب مهمة لوزير المالية فى انكلترا اذ يتطرق عادة الى السياسة المالية للحكومة للسنة المقبلة وقد يتضمن احداث بعض الضرائب فينتظر والحالة هذه ان يتلقى الوزير كثيرا من الاعتراضات والانتقادات من اعضاء المجلس. من اجل ذلك عليه ان يكون لبقا مفوها قوى الحجة حاد الذكاء ليتمكن من الدفاع عن نفسه وعن سياسة وزارته وهذه الصفات هى اكثر ضرورة له من ان يكون اخصائيا فى المال والاقتصاد لان الاختصاص يمكن ان يؤمنه بالاسترشاد بمعاونيه ومستشاريه. ويحضر الوزير مجلس العموم فى يوم معين ويجب ان يكون يوم ثلاثاء من شهر نيسان حاملا صندوقا صغيرا وهذا الصندوق يسمى (Budget) وفى داخله خطابه وميزانيته الجديدة. ولهذا الصندوق مفتاحان احدهما يحفظ فى وزارة المالية والاخر يبقى لدى الوزير ليفتحه به. ومن هذه التسمية نشأ اصطلاح (Budget) اى الميزانية. والقصد من كل هذه التدابير هو المحافظة على اسرار الميزانية وقد حدث فى السنة ١٩٣٧ ان اعتبر حديث احد

الميزانية

الوزراء المسؤولين وهو المستر (J. H. Thomas) مع احد اصدقائه عن الميزانية بمثابة افشاء بعض اسرارها الامر الذى حدا بوزير المالية ان يقتصر اثناء اعداد ميزانية على مذاكرة رئيس الوزراء دون هيئة الوزارة الباقين وذلك كتمانا للسر ولست متأكدا ما اذا كانت هذه الاصول قد بقيت الى الآن او انها تغيرت بظروف الحرب.

ان الميزانية البريطانية لا تشمل مفردات الفصول والابواب المختلفة بل تشمل ارقاما عامة للواردات والمصروفات واما التفاصيل المتعلقة بها فانها تعرض على المجلس فى الخطاب الذى يلقيه الوزير. وعندما تعرض الميزانية على المجلس لا يكون مجتمعا بصفة مجلس عموم بل بصفة لجنة تسمى (Committee of Ways and Means)ولهذه اللجنة التى تضم جميع اعضاء المجلس ما عدا الرئيس، رئيسها الخاص هو غير رئيس مجلس العموم والسبب فى ذلك هو ان هذا الرئيس يعتبر مبعوثا او بكلمة اخرى جاسوسا للملك فى المجلس ولذلك فان حضوره عندما يدرس المجلس شؤون الدولة المالية غير مرغوب فيه.

سلك الخدمة المدنية

قلت ان السكرتير الدائم لوزارة المالية هو رئيس سلك الخدمة المدنية فى انكلترا ويحسن فى اثناء الكلام عن وزارة المالية ان نقل كلمة عن هذا السلك. قبل كل شىء يشترط للانتماء الى سلك الخدمة المدنية فى انكلترا ان يقدم المرشح امتحانا جديا تحت اشراف لجنة الخدمة المدنية (Civil Service Commission) وهى مكونة من اعضاء محايدين لا يتأثرون لا باعتبارات حزبية ولا شخصية ثم على المرشح ان ينجح فى الفحص الطبى وان يكون من ذوى الاخلاق الطيبة والسمعة الحسنة. واذا ما تعين الموظف فان حقوقه اصبحت مضمونة فهو لا يكون عرضة لاهواء الرؤساء يقررون مصيره بجرة قلم ولذلك يشعر الموظف الانكليزى باستقلال واخلاص بعمله فيعمل بكل نشاط وتضحية وقد انتمت الى هذا المسلك طبقة من طامحى الشباب حتى ان بعضهم وصل الى اعلى مناصب الدولة كما هو الحال مع السير جيمس كريك وزير الحربية الحالى. ويتمتع موظفو الخدمة المدنية الانكليزية بعطف الشعب وثقته وتقديره لما هم عليه من حب للعمل واخلاص للوظيفة ومراعاة للوجدان

ومحافظة على مقتضيات الواجب. ومن الناحية الاخرى فان الفرد الانكليزى ليس كالشعوب الاوربية او الشرقية لا يستهوى التوظف فى وظائف الدولة وبالرغم مما لموظفى الدولة من المنزلة فان الموظف، عدا من تخولهم مراكزهم المالية او العائلية او الرسمية التمتع بمراكز اجتماعية ذات امتياز، لا ينظر اليه الا نظرة اعتيادية خلافا لما هو معلوم عندنا فى العراق من ان موظفى الدولة هم من اعلى الطبقات الاجتماعية فى البلد بينما غير الموظف، مهما كانت ميزاته الاخرى، لا ينظر اليه تلك النظرة وكذا الحال فى كثير من البلدان الشرقية.

وقبل ان اترك البحث عن وزير المالية اود ان اشير الى ان كثيرا من الناس لا يميزون بين وزير المالية (Chancellor of the Exchequer) ورئيس مجلس اللوردات (Lord Chancellor) ورئيس المجلس الخاص (Lord President of the Council) وحامل الاختام(Lord Privy Seal) ولكل من هؤلاء وظيفة خاصة وعلى القارىء العربى الا يقع فى خطأ الخلط بينهم. ولا اقصد ان اشرح وظائف وصلاحية كل وزير ووزارة انكليزية لان ذلك يخرج عن نطاق كتاب مقتضب كهذا ولكنى اود ان اقتصر على ذكر الاهم منها.

وزير الداخلية

ومن الشخصيات المهمة فى الوزارة هى شخصية وزير الداخلية ومع ان الاعمال التى يقوم بها هذا الوزير محدودة الا ان العادة الدستورية اقتضت ان يشغل هذا المنصب وزير من الوزراء المهمين. اقول ان اعماله محدودة لانها لا تشبه الاعمال التى يقوم بها وزراء الداخلية فى الدول الاخرى حتى انه يشبه احيانا (بوزير شرطة لندن) لان اهم وجائبه هى الاشراف على شرطة العاصمة (Metropolitan Police) فقط لا على جميع دوائر الشرطة فى انكلترا لان الشرطة فى كل لواء يديرها المجلس المحلى لذلك اللواء. اما صلاحيته من الوجهة الدستورية فيمكن ان تعرف بانه هو الواسطة لنقل رغبات الملك الى الشعب وانه واسطة الاتصال بينهما وهو المكلف بحفظ الامن وتطبيق القوانين للمحافظة على راحة الشعب وسعادته كما انه يمارس حقوق اصدار العفو. وقد نيطت به بعض الاعمال الاخرى ضمن نطاق هذه الواجبات الدستورية كقضايا الهجرة والتجنس والسموم والمخدرات والحريق والسجون وتضاعفت واجباته

اثناء الحرب اذ تبدل عنوان منصبه فاصبح (Home Secretary and minister for home Security) وشملت واجباته اعمال الوقاية ضد الغارات الجوية ومراقبة الجاسوسية والرتل الخامس وغيرها من الوجائب التى اقتضتها ظروف الحرب. ويشغل هذا المنصب الان المستر هربرت موريسن وهو من المع الشخصيات فى عالم السياسة الانكليزية. اما بشأن وزارة العدلية الانكليزية فلا يمكن ان نجد بين وزراء الانكليز ما يقابل وزير العدلية عندنا اذ قد اقتسم اربعة وزراء الاعمال التى يقوم بها وزير العدلية عندنا فيقوم رئيس مجلس اللوردات بقسم منها ووزير الداخلية بقسم اخر (وهو ما يتعلق بقضايا العفو وما شاكل) ويقوم بالباقى المدعى العام (Attorney General) والوكيل العام (Solicitor General) . وسنأتى على وظائف هؤلاء الوزراء بالتفصيل عند البحث عن النظام القضائى فى انكلترا.

والسكرتير الثانى للدولة هو وزير الخارجية وسأرجىء الكلام عنه وعن وزارته الى نهاية هذا البحث لانى اريد الاسهاب فى هذه الناحية المهمة من نواحى الموضوع.

والسكرتير الثالث هو سكرتير المستعمرات وهو المسؤول عن ادارة شؤون المستعمرات البريطانية عدا الهند وكانت (الدومنيونات) تحت اشراف هذا الوزير ففصلت عنه حينما احدث منصب سكرتير للدومنيونات. والسكرتير الرابع هو سكرتير الهند ووزارته تسمى وزارة الهند (India Office) ويشغلها الان المستر ايمرى وهو من اقطاب رجال السياسة الانكليز فى الايام الحاضرة. والخامس هو سكرتير وزارة الحربية. ان هذه السكرتيريات الخمس متفرعة من الوجهة النظرية من وظيفة واحدة وهى وظيفة (Secretary of State) وهو الوزير الاول الذى كان الملك يعتمد على مشورته. ومما يؤيد ذلك ان كل واحد من هؤلاء الوزراء الخمسة يمكنه دستوريا ونظريا على الاقل ان يقوم بعمل اى زميل من زملائه كما لو كان هو بنفسه غير ان هذه العادة لم تستعمل ولا يستبعد انها ستهمل بمرور الزمن. وكانت قد احدثت فى سنة ١٨٨٥ وظيفة سكرتير لشؤون اسكوتلندا وفى سنة ١٩١٨ وظيفة سكرتير الطيران (وزير الطيران). وهناك وزير

البحرية ويسمى (اللورد الاول للاميرالية) وقد اطلقت عليه هذه التسمية لان شؤون هذه الوزارة تديرها لجنة من اللوردات برياسة احدهم وهو وزير البحرية ووظيفته سياسية بحتة اى ان الاختصاص فيها غير ضرورى ويديرها الان المستر (A. V. Alexander) وهو من شخصيات حزب العمال البريطانى البارزين. وينبغى التميز بين اللورد الاول للاميرالية (First Lord of the Admiralty) واللورد البحرى الاول (First Sea Lord) وهذا الاخير هو اكبر شخصية بحرية فى الدولة ويشغلها الان السير اندرو كاننكهام بطل معركتى (ماتابان) و (تورانتو) البحريتين والانزال فى شمال افريقيا وقد شغل هذا المنصب بعد وفاة السير (Sir Dudley Pound) مؤخرا.

وزير الخارجية

لنعد الان الى موضوع وزير الخارجية ووزارته. وان انا اسهبت فى هذا الموضوع فذلك لما له من اهمية، خاصة وانى اود ان يحيط القارىء العربى بمظاهر السياسة الخارجية الانكليزية وخباياها والهيئة التى تدار هذه السياسة على يدها.

نشأت وظيفة وزير الخارجية الحالية بعد حصول بعض التطورات والتغيرات الدستورية عليها. ففى القرون الماضية كان ملوك الانكليز يقسمون ادارة الشؤون الخارجية بين اثنين من مستشاريهم يكون احدهما مقبولا (Persona Grata) لدى الدول الكاثوليكية والاخر لدى الدول البروتستانية وذلك عندما كان الدين هو العامل المهم الذى تتوقف عليه علاقات الدول بعضها ببعض وبمرّ السنين اخذ تأثير هذا العامل يقل ولذلك لم يبق لزوم لهذا التقسيم بين ادارة الشؤون الخارجية فضمت صلاحية الوزيرين الى وزير واحد وبذلك اصبح اسمه (Principal Secretary of State for Foreign Affairs) ومنذ ذلك الحين صار هذا المنصب يودع الى شخصية مهمة من شخصيات الوزارة حتى صار كثير من رؤساء الوزارات يحتفظون بمنصب وزارة الخارجية اضافة الى منصبهم وذلك بالنظر الى اهميته. وهكذا اعتادت وزارة الخارجية البريطانية ان ترى على رأسها اكبر الشخصيات السياسية التى انجبتها انكلترا. ففى خلال المائة سنة الماضية شغل المنصب وزراء من طراز (Castlereagh) واللورد (Chatham) و (سرانفورد

كاننك) و (بالمرستون) و اللورد راسيل واللورد (سالسبورى) واللورد (روسبرى) و (لانسداون) والسير (ادورد غراى) واللورد (كرزن) والسير (اوستن تشمبرلين) والسير (آرثر هندرسون) والسير (جون سايمون) والسير (صموئيل هور) واللورد (هاليفاكس) ويشغله الان المستر ايدن. ولا شك فى ان هذه الشخصيات من ابرع الشخصيات التى انجبتها السياسة كل فى العهد الذى عاش فيه.

هيئة الموظفين

ووزارة يرأسها واحد من هؤلاء الفطاحل ومهمتها ادارة شؤون السياسة الخارجية لاغنى واعظم امبراطورية فى العالم يجب ان تستند الى نظام قويم وتضم عناصر يمكن الاطمئنان اليها لرعاية هذه الناحية المهمة من نواحى شؤون الامبراطورية. ان الموظفين الدائمين فى وزارة الخارجية البريطانية هم القوة الفعالة فى تسيير السياسة الخارجية والوزير ما هو الا اللسان المتكلم لهم وطبعا هذا لا يعنى انه عدم التأثير على سير السياسة لا بالعكس فكثيرا ما تأثرت السياسة الخارجية البريطانية بنفوذ خارجى كنفوذ الملوك مثلا كما كان الحال فى ايام الملكة فكتوريا وابنها الملك ادورد السابع او بنفوذ بعض اعضاء الوزراء غير رئيسها ووزير الخارجية كما كان الحال فى ايام جوزيف تشمبرلين الذى شغل منصب وزير المستعمرات وفى ايام ابنه نيفيل عندما كان يشغل منصب وزير المالية فى وزارة المستر بولدوين. ولا يقتصر الامر على ذلك بل كثيرا ما تأثرت السياسة الخارجية باشخاص من خارج البلاط او الوزارة كما هو الحال فى تأثير عائلة روتشيلد اليهودية فى سياسة انكلترا فى قضية الصهيونية او تأثير اقطاب الصحافة فيها كما هو الحال فى عهد اللورد (نورثكليف) واللورد روذمير او اللورد بيفربروك وقد تتأثر السياسة بنفوذ غير هؤلاء، كما كانت تتأثر بزمرة (Clivedon Set) التى كانت تنهج سياسة خاصة تتقرر فى قصر الليدى (آستور). والغريب ان مجلس العموم البريطانى بقدر ما له من الصلاحيات الواسعة وبقدر اشرافه على كل ناحية من نواحى الدولة، فان تدخله تدخلا مستمرا فى السياسة الخارجية يكاد يكون اقل من تدخل برلمانات الدول الاخرى فيها والدليل على ذلك انه ليس فى مجلس العموم البريطانى لجنة للشؤون الخارجية مثلا وعندما تعقد الحكومة البريطانية معاهدة مع دولة اخرى

تقوم الوزارة بهذه المهمة ثم توضع المعاهدة على طاولة المجلس ومتى ما مر عليها وقت معين دون يبدى المجلس اعتراضا شديدا عليها اصبحت مبرمة. حتى ان امر اعلان الحرب تقرره الوزارة ثم تخبر المجلس بالامر الواقع. وقد تم دخول انكلترا فى الحرب الماضية بدون علم البرلمان كما ان الاتفاق العسكرى السرى الذى تم بين انكلترا وفرنسة سنة ١٩٠٦ اخفى خبره عنه.

الوكيل الدائم

يرأس الموظفين الدائمين فى وزارة الخارجية البريطانية الوكيل الدائم للوزارة (Permanent Under Secretary of State) ومنصبه هذا يعادل منصب المدير العام فى الدول الاخرى أو منصب مساعد وزير الخارجية (Assistant Secretary of State) فى الولايات المتحدة. ولهذا الوكيل صلاحيات واسعة جدا ولا يمكن لوزير الخارجية ان يغفل آراءه وارشاداته وهو الدماغ المفكر والعنصر المستقر الدائم فى مقر الوزارة. وقبل الحرب كان المنصب بعهدة السير روبرت فانسيتارت وعند نقله الى وظيفة المستشار الدبلوماسى للحكومة البريطانية على اثر اصطدام سياسته بسياسة الحكومة التشمبرلينية اسند المنصب الى السير الكساندر كادوكان. ويتضح مبلغ اهمية هذا المنصب عندما نرى ان السير الكساندر كادوكان اصطحب المستر تشرشل والمستر ايدن لحضور اكثر الاجتماعات والمؤتمرات التى اشتركت فيها انكلترا خلال الحرب الحالية. ويساعد السكرتير الدائم لوزارة الخارجية عدد من المساعدين (Assistant Undersecretaries) كل منهم يرأس دائرة خاصة من دوائر الوزارة. والوزارة مقسمة الى عدة دوائر دائرة سياسية ودوائر غير سياسية. فهناك شعبة المعاهدات (Treaty Department) واسمها لا يتفق مع عملها فهى تقوم بشؤون التشريفات علاوة على قيامها بشؤون المعاهدات وعقدها. ويرأس هذه الشعبة موظف يسمى (Vice Marshall of the Diplomatic Corps) وهو يقابل مدير البروتوكول (التشريفات) فى الحكومات الاخرى . ويشغل المنصب الان وقد شغله منذ سنة ١٩٢٠، السير جون مونك، الذى كان من الشخصيات المحبوبة لدى الهيئة السياسية الاجنبية فى انكلترا. وهناك دائرة رئيس الكتاب (Clerk Department) ولهذا الموظف صلاحية واسعة فى ادارة شؤون

شعب الوزارة

موظفى السلك الخارجى الانكليزى. وهناك ايضا شعبة المشاور القانونى وشعبة عصبة الامم وشعبة الاوراق وشعبة المكتبة وتعهد الشعبة الاخيرة لموظف خبير بالتاريخ السياسى ويكلف عادة احضار ملخص تاريخى عن اية قضية تعهد اليه ويشغلها الان السير استيفن كازيلى. وقد احدثت ما بعد الحرب الماضية دائرة خاصة لتزويد الصحف المحلية بالاخبار التى لها مساس بالسياسة الخارجية وكان فيما مضى بعض الصحف المهمة فقط تتمكن من التقاط الاخبار باتصال محرريها اتصالا شخصيا بالموظفين المختصين. اما الان فقد نظمت هذه الدائرة على مقياس واسع حتى اصبحت اكثر فائدة للصحف عامة وللوزارة نفسها. فعين الملحقون الصحفيون فى كثير من المؤسسات السياسية البريطانية فى الخارج وكذلك عينوا ملحقين للعلاقات العامة وهى وظائف احدث اكثرها فى زمن الحرب واهم مهامها اقتباس الاخبار وتزويد الصحف بها وكذلك القيام ببعض الدعاية. والانكليز يعتقدون ان الدعاية هى ضرورة حربية ليس الا. وفى كثير من الاحيان لا تؤثر فيهم ولا تغنيهم فتيلا. فبالرغم من المطالبة التى قامت بها الاوساط الانكليزية لاحداث وزارة الاستعلامات فان المستر تشمبرلين لم يوافق على احداثها فى زمن السلم. وحتى اسم هذه الدائرة يظهر مبلغ مقت الانكليز لكلمة «دعاية». قلت انهم يعتقدون انها ضرورة حربية لانى اعتقد ان كثيرا من المؤسسات التى احدثت اثناء الحرب فى كثير من البلاد التى لها علاقة بانكلترا سوف تغلق ابوابها حالما تضع الحرب اوزارها ولا تبقى للانكليز ثمة حاجة لصداقة الاقوام اللذين كانوا يبذلون الجهد والمال لاكتسابها او على الاقل لادامتها والمحافظة عليها. وهذه ظاهرة مؤسفة حقا تبدو من الانكليز تجاه الشعوب الاخرى فهم يتقربون اليهم ويستميلون صداقتهم ما داموا فى حاجة اليهم ولكن اذا ما زالت تلك الحاجة فانهم يتركون كل شىء الى القدر. وانى آمل ان تكون علاقة الانكليز بغيرهم من الشعوب مستندة الى اسس من التفاهم اكثر قوة ودواما مما كانت عليه. والامل معقود على ما يقوم به «المجلس الثقافى البريطانى» من تنمية روح التفاهم المستند على اسس ثقافية بالدرجة الاولى.

الشعب البريطانى والدعاية

هيئة السلك الخارجي

تدير شؤون السياسة الخارجية البريطانية هيئة السلك الخارجي. وبالنظر

الى ما يعلقه الانكليز من الاهمية على الاداة التى تدير شؤونهم الخارجية فقد بذلوا اعتناء خاصا لجعل هذه الاداة اداة صالحة تمتاز بكفايتها ولياقتها. فكان اكثر الموظفين الذين ينتسبون الى السلك الخارجى البريطانى ينحدرون من العوائل العريقة والموسرة وكان الموظف يعين فى السلك بمجرد تقديمه كتاب توصية من احدى الشخصيات البارزة فى البلد الى وزير الخارجية بعد ان يثبت حصوله على ايراد سنوى لا يقل عن ٤٠٠ باون ثم اقتصر السلك على ابناء الطبقة الارستقراطية الذين درسوا فى احدى المدارس العامة كايتون وهارو ووينجستر وراكبى ومارلبوروه او الذين اكملوا دراستهم فى احدى الجامعات القديمة كاكسفورد وكمبريج. وبقى الحال حتى الحرب العظمى الماضية حين تألفت لجنة برياسة اللورد (Mac Donell) فقدمت هذه اللجنة تقريرها سنة ١٩١٨ لاصلاح سلك الخدمة الخارجية وأهم الاصلاحات التى اقترحتها هذه اللجنة كان الغاء القيود المالية بشأن الموظفين الذين يرغبون فى الانتماء الى هذا السلك وكذلك الغاء الترتيب الذى كان متبعا فى الماضى من لزوم ابقاء الموظف تحت التجربة بصفة ملحق فخرى لمدة سنتين وبعد اثبات مقدرته يعين براتب سنوى قدره ١٥٠ باونا. ان الغاء هذه القيود كان سببه الرغبة فى عدم جعل السلك مقتصرا على ابناء الطبقة الموسرة بل جعله مفتوحا لطبقة اوسع من ابناء البلاد. وفى السنة الماضية (١٩٤٣) تشكلت لجنة برياسة السير مالكولم روبرتسن رئيس المجلس الثقافى البريطانى وهو سفير سابق ذو خبرة كبيرة بالسلك الخارجى وقدمت هذه اللجنة (كتابا ابيض) الى البرلمان تضمن اقتراحاتها للاصلاح. لقد كانت الحاجة ماسة للقيام باصلاح الاداة التى تدير شؤون المملكة الخارجية وكان بعضهم يعتقد ان سبب فشل السياسة الانكليزية خلال الفترة التى سبقت اعلان الحرب يعزى الى عدم اصلاح هيئة السلك الخارجى وقلة كفايتها. وقد توخت الاصلاحات الاخيرة رفع مستوى الكفاية لموظفى السلك وكذلك جعله اكثر ديمقراطية حتى يتسنى لاى فرد من ابناء الشعب، بغض النظر عن اى اعتبار من الاعتبارات الاجتماعية او المالية، ان ينتمى الى السلك الخارجى. وتضمنت الاصلاحات الجديدة ثلاث نقاط مهمة : النقطة الاولى توحيد ملاك هيئة المركز مع سلك الخدمة

اصلاحات السلك الخارجى

الدبلوماسية وسلك الخدمة القنصلية وكانت هذه الهيئات الثلاث مستقلة بعضها عن بعض فى الماضى. ان توحيد الملاك هذا يؤدى الى اكمال النقص الذى فى المسلك الواحد بما يتوفر لدى المسلك الآخر من الكفايات. فكان السلك الدبلوماسى يضم ذوى اليسر والثقافة العالية والتربية العائلية الممتازة والسلك القنصلى يضم ابناء الطبقات الاخرى الذين مكنتهم كفاياتهم وذكاؤهم من الدخول الى الوظيفة وليس اية اعتبارات اخرى. والنقطة الثانية التى تضمنتها الاصلاحات الجديدة هى رفع كفاية الموظفين عموما. فقد وضعت قاعدة جديدة للدخول ذلك ان المرشح الذى اجتاز امتحان الدخول يجب ان يقضى مدة ١٨ شهرا فى البلدان الخارجية لغرض فهم اللغات الاجنبية والتاريخ والعلوم الاقتصادية والاطلاع على احوال تلك البلاد وذلك على نفقة الدولة وبعد انتهاء هذه المدة عليه ان يؤدى امتحانا بالموضوعات التى درسها خلال تلك المدة فاذا اجتاز هذا الامتحان يعين تحت التجربة لمدة سنة واحدة يقضى نصفها فى مركز الوزارة والنصف الثانى فى الدوائر الاخرى التى لها علاقة باعمال موظفى السلك الخارجى وبعد انتهاء هذه المدة يعين الموظف لاحدى المؤسسات فى الخارج.

واما النقطة الثالثة من الاقتراحات الجديدة فانها تخص الفحوص. وهناك طريقتان لذلك : فالطريقة الاولى تقضى على المرشح ان يجتاز مسابقة فحص بموضوعات معينة ثم يمنح الناجح مخصصات للقيام باسفار الى الخارج لتعلم اللغات الاجنبية وموضوعات اخرى ثم يؤدى امتحانا ثانيا والطريقة الثانية هى انه خلال مدة تجريبية قدرها عشر سنوات يختار لربع الوظائف الشاغرة سنويا موظفون يثبتون لياقتهم بحسب سجلاتهم وذلك بعد نجاحهم فى امتحان مقابلة وامتحان تحريرى فى العلوم التالية (اللغة الانكليزية وانشائها، مبادىء العلوم الاقتصادية، التاريخ، القانون، الفلسفة، مبادىء العلوم السياسية، الرياضيات، العلوم الطبيعية، اللغات الاجنبية والمعلومات المدنية).

والنقطة الاخيرة من الاصلاحات المقترحة هى استثناء المرأة من الانخراط فى السلك الخارجى. وكما سبق ان ذكرت فى مكان اخر من هذا الكتاب ان القانون الانكليزى لا يمنع دخول المرأة فى اية وظيفة بسبب كونها

امرأة ولكن يظهر ان استثناءها من الدخول الى السلك الخارجي قد لاقى تأييدا من كثير من الاوساط . ولما عرض الكتاب الابيض الذى تضمن هذه الاصلاحات على مجلس العموم البريطانى تكلم المستر هارولد نيكلسن وهو من اعلام الدبلوماسية والمؤلفين فيها (١) مؤيدا عدم اشراك النساء فى الوظائف الدبلوماسية فقال ان فضائل النساء الخاصة لا تتفق مع ما تتطلبه الدبلوماسية . ومن هذه الفضائل فضيلتان الاولى هى ميل المرأة للبداهة واخذ الامور على علاتها واسناد الاستنتاجات الى الحقائق الظاهرية (Intuition) والثانية هى العطف الزائد (Sympathy) ومن يتصف بهذه الصفة يكون عرضة لتأثير الاشخاص او الامور التى له عطف خاص نحوها . وربما كان الذين يؤيدون هذا الرأى قد اعتدوا على الجنس اللطيف لان الرجل عرضة للاتصاف بهذه الصفات بقدر تعرض المرأة لها . اذ لو صح ذلك لما رأينا بعض الدول الاخرى تعهد تمثيلها السياسى للنساء كما هو الحال فى روسيا والولايات المتحدة مثلا وقد تمر عشرات بل مئات من السنين قبل ان نرى سيدة بدرجة وزير مفوض او سفير تمثل حكومة جلالته البريطانية لدى الدول الاجنبية .

دبلوماسية الانكليز

ان هذا الاعتناء الزائد فى انتقاء موظفى السلك الخارجي البريطانى قد اوجد لانكلترا احسن مجموعة من الدبلوماسيين يضاف الى ذلك كفاية الانكليزى الطبيعية ان يكون دبلوماسيا وقد سبق لى ان تطرقت الى هذه الناحية فى الفصل الاول . فقد اجمع الناس على ان دبلوماسيى الانكليز هم ابرع الدبلوماسيين واحذقهم وابعدهم نظرا ولو ان بعضهم ومنهم (اللورد هالدين) يقولون ان دبلوماسيى الفرنسيين هم اكثر حذقا وبراعة من اخوانهم الانكليز . لقد اشتركت بريطانيا فى حروب كثيرة فى تاريخها ولم تنتصر فى تلك الحروب بفضل عبقرية قوادها العسكريين والبحريين فقط بل بفضل ما يقوم به رجال الدبلوماسية والسياسة فيما وراء الستار من الاعمال الجبارة التى تؤدى الى النصر . ولم يكن لانكلترا قبل اربعين سنة سياسة معينة فى اية قضية بل كانت تعمل من (يدها لفمها) كما كان يقول اللورد «ساندرسن»

---

(١) وهو مؤلف كتاب (Diplomacy By Harold Nicholson)

(Lord Sanderson) احد وكلاء وزارة الخارجية البريطانية(١)• فانها بعد ذلك التاريخ صارت تتبع سياسة بعيدة النظر وهناك عدة شواهد حديثة على ذلك• فاللورد لوثيان واللورد هاليفاكس كسبا الولايات المتحدة قبل حادثة (ميناء اللؤلؤ) وستافورد كريبس مهد السبل للحلف الروسى البريطانى قبل الهجوم الالمانى فى حزيران ١٩٤١ والسير هيو ناجبول هيوكسون كسب الصين عندما كان سفيرا فيها• والسر برسى لورين حصل على صداقة تركيا قبل عقد الحلف البريطانى التركى فى سنة ١٩٣٩ بعدة سنوات وقبل ان يربحها هيو كسون فى آب ١٩٤٤ وربحت انكلترا «معركة مصر» قبل معركة العلمين بست سنوات على يد السير مايلز لامبسون الذى نجح بعقد المعاهدة المصرية الانكليزية سنة ١٩٣٦ • وسجلت الدبلوماسية الانكليزية نصرا سياسيا مبينا لها فى العراق سنة ١٩٣٠ على يد السير (فرانسيس هامفريز) بعقد المعاهدة العراقية البريطانية فى تلك السنة•

لنتكلم الان عن سياسة انكلترا الخارجية وهو موضوع وعر المسالك واسع الارجاء معقد التفاصيل مملوء بالمخاطر والاشواك ولا اظن فى امكانى الخروج منه دون ما هفوة او عثرة وقانى الله شرها• كما انى لا ارى فى نفسى تلك المقدرة التى تمكننى من الاحاطة بموضوع اعجز الكثيرين ممن هم اكثر توفرا منى على درسه وفهمه وعسانى اوفق الى تقديم ملخص عام عنه دون التعرض للتفاصيل التى هى من اختصاص التاريخ السياسى فى الدرجة الاولى•

اسس السياسة الخارجية

تستند السياسة الخارجية البريطانية التقليدية الى عمادين لا ثالث لهما : الاول التوازن الدولى (Balance of Power) والثانى سيادة البحار (Supremacy of the Seas) • وهذه السياسة التقليدية تقررت منذ ان اصبحت بريطانيا دولة عالمية عظمى وصارت تنتقل من جيل الى اخر واخذ يتقيد بها كل سياسى انكليزى دون استثناء• كانت بريطانية، بغية ادامة التوازن الدولى فى الوضع الذى يكفل لها سيادتها على الدول الاخرى، تقاوم بالقوة

التوازن الدولى

او بالسياسة كل دولة تحاول ان تنازعها هذه السيادة او تهدد حريتها او

(١) كان اللورد ساندرسن الوكيل الدائم لوزارة الخارجية من سنة ١٨٩٤ الى سنة ١٩٠٥

سلامتها او سلامة ممتلكاتها فيما وراء البحار . وكانت اكثر الحروب التى دخلتها بريطانيا للمحافظة على هذا التوازن والوقوف فى وجه اية دولة اوروبية تحاول الاخلال به او انتزاع الميزان من يدها ، ومن اجل ضمان الحرية التامة لها فى ادارة هذا الميزان لجأت الى سياسة التحالف تلك السياسة التى خلفت سياسة العزلة (Isolation) التى كان اللورد سالسبرى وزير الخارجية البريطانية فى ختام القرن الماضى ، اخر من دعا اليها وحبذها . وفى خلال هذا القرن اخذت سياسة التحالف (Alliances) تحتل المنزلة العليا فى ادمغة ساسة الانكليز رغم وجود فريق منهم لم يفقه ما تنطوى عليه هذه السياسة من الفائدة وما تجره عليهم سياسة العزلة من الخيبة والفشل . فبدأت سياسة التحالف فى اوائل القرن الحالى عندما عقدت بريطانيا تحالفها مع اليابان سنة ١٩٠٢ ثم تبعه (التحالف الودى) مع فرانسة سنة ١٩٠٤ الذى جنت انكلترا ثماره عندما اندلعت الحرب العظمى الماضية ومنذ ذلك الحين علمت ان مثل هذه المحالفات ضرورية جدا للمحافظة على مركزها وسيادتها ، وقد وجدت فى عصبة الامم وسياسة الضمانة الاجماعية (Collective Security) ما يساعدها على تنفيذ هذه السياسة بيد انها على اثر الصدمة التى لاقتها العصبة بسبب قضية العقوبات (Sanctions) ضد ايطاليا نفضت يدها من العصبة ومركزت جهودها لكسب الحلفاء عن طريق الدبلوماسية البريطانية وهذه الطريقة قد سببت فشل السياسة الخارجية البريطانية فشلا ذريعا فى السنوات القلائل التى سبقت الحرب الحالية . لقد عقدت انكلترا المحالفات مع دول كثيرة واعطت تلك الدول تعهدات واسعة ليس فى امكانها تنفيذها او تحقيقها عسكريا فادى هذا الى تصدع نفوذها لدى تلك الدول واخيرا الى فقده فى اوروبا خلال الحرب فقدانا تاما ، ولم تحن سنة ١٩٣٩ الا ورأينا انكلترا مرتبطة بتعهدات ومحالفات مع عدد عظيم من الدول الغربية والشرقية فارتبطت ببولندا ورومانيا واليونان علاوة على ارتباطها بفرنسا وبلجيكا بتعهدات عسكرية وكانت مرتبطة بالعراق ومصر بمعاهدات حلف وصداقة وفى السنة ١٩٣٩ عقدت معاهدة حلف مع تركيا ، فما هو القصد الحقيقى من هذه المحالفات والارتباطات ؟ ، هذا ما اريد ان ابحثه الان . ان القصد الحقيقى من كل هذه المحالفات هو

حفظ ما يسمى (بالتوازن الدولى) وهو العماد الاساسى الدائم الذى تتوقف عليه حياة بريطانية وامبراطوريتها وكيانهما وهى الفكرة التى تسود جميع معتقداتهم الوطنية والسياسية. وهناك من يعتقد بانه اذا زال ادراك الشعب الانكليزى اهمية هذه الفكرة على كيانه الوطنى فان عظمة بريطانيا لا محالة زائلة.

ان التوازن الدولى اسطورة قديمة لازمت التاريخ السياسى والدبلوماسى لبريطانيا منذ عدة قرون وهى وسيلة للدفاع عن النفس اولا وضمان التفوق والسيادة ثانيا. فما هو هذا التوازن وما هى طرق تحقيقه ؟. فاذا عرفناه وفهمنا ماكنته وكيف تدور وما هى العوامل التى تسيرها او التى توقفها امكننا حينذاك ان نعلم اتجاه السياسة والدبلوماسية الانكليزية على نور ذلك.

ان التوازن الدولى هذا معناه ايجاد وضع دولى فى اوروبا يكون فيه للامبراطورية البريطانية رجحان على اية دولة او مجموعة من الدول الاوروبية لان اية دولة تسود وتطغى على اوروبا تصبح خطرا على الجزر البريطانية وتهدد الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وطرق المواصلات البريطانية ذلك فضلا عن تقييد حرية بريطانيا فيما يتعلق بسياستها فى اوروبا. هذا هو الاساس الذى تستند اليه السياسة البريطانية فى اوروبا وكل حركة سياسية او دبلوماسية تقوم بها يجب ان تفسر على هذا الاساس.

التوازن الدولى فى اوروبا

قال اللورد بالمرستون السياسى الانكليزى الحكيم : «ليس لبريطانيا عداوة دائمة او صداقة دائمة بل لها مصالح دائمة» وهو قول ملؤه الحكمة والصواب فليس لانكلترا عدو دائم معين فى اوروبا والعدو الوحيد لها هى تلك الدولة التى تحاول السيطرة على اوروبا ولذلك كثيرا ما كان عدو بريطانيا بالامس صديقها اليوم وعدوها اليوم صديقها غدا. وقد رأينا كيف ان فرنسا اصبحت عدوة بريطانيا عندما حاول نابليون ان يسود اوروبا فحالفت المانيا ضد فرنسا. ثم لما زال خطر نابليون وزاد خطر المانيا وقفت للقيصر بالمرصاد فحالفت فرنسا ضد المانيا فى الحرب الماضية واعاد التاريخ نفسه فى الحرب الحالية. انى اشك ان بريطانيا حاربت المانيا مرتين فى جيل واحد لان الشعب الانكليزى يكره الشعب الالمانى او لان بين الشعبين غضاضة

او عداوة تاريخية . ان اتجاه السياسة البريطانية يختلف باختلاف مصالحها فكلما اختلفت هذه المصالح كلما اختلف الاعداء والاصدقاء فالمصلحة وحدها هى الدائمة وليست العداوة او الصداقة .

ان نظرية التوازن هذه هى عبارة عن معادلة رياضية بسيطة ، وهى ان قوة بريطانيا وقوة اجزاء الامبراطورية مضافا الى ذلك قوى الحلفاء الذين تكسبهم الدبلوماسية البريطانية يجب ان يعادل هذا المجموع قوة اية دولة او مجموعة من الدول الاوروبية . فكلما بقيت هذه المعادلة محافظة على طرفيها فان اوروبا تتمتع بسلم وطيد واذا ما اختل توازن الطرفين اضطربت اوروبا وتأججت فيها نار حرب ضروس . فبمقتضى هذه المعادلة يمكن استطلاع اى وضع يسود فى اوروبا ويمكن توقع اتجاه التطورات المقبلة . فهذه حقيقة من الحقائق الطبيعية ولا يمكن للتدابير والاحتياطات التى تبتكر بين حين واخر ان تغير هذه الحقيقة فلا عصبة الامم ولا نزع السلاح ولا سياسة الضمانة الاجماعية يمكن ان تغيرها ولذلك اذا ما بدأ هذا التوازن ان يختل فان نظام التعاون المشترك بين الدول يأخذ بالانهيار وعلى بريطانيا حينئذ ان تكافح بنفسها وتستعين بحلفائها للوقوف فى سبيل ذلك حفظا لكيانها .

ولنسأل الان ما هى الغاية التى اثارت المانيا من اجلها هذه الحرب . يخال الى ان المانيا ارادت ان توجد لها فى اوروبا مكانة ممتازة وبعد الحصول على هذه المكانة تقدم على استعمار روسيا كما دلت عليه سياستها المسماة سياسة التوجه نحو الشرق (Drung Nach Osten) وكانت تتمنى لو انها هى وبريطانيا اقتسمتا النفوذ والسيطرة على العالم . ولكن هل ان مثل هذا الوضع يمكن ان ترتاح اليه بريطانيا؟ كلا . لانها سوف تبقى حينئذ دائما تحت رحمة المانيا التى سيكون لديها من الموارد الطبيعية التى ستستولى عليها فى اوروبا وفى روسيا بصورة خاصة ما لا يمكن للامبراطورية البريطانية حتى ولو اضيفت اليها موارد الولايات المتحدة الاميركية ان تعادلها . وعدا عن الموارد الاقتصادية فستهدد المانيا حينئذ جميع المواصلات البريطانية بين اوروبا وسائر اجزاء الامبراطورية وتقيد حريتها فى كل عمل من اعمالها وحركة من حركاتها السياسية . ولا علاقة للاعتبارات السياسية ولا للميول الحزبية او الشخصية

فى محافظة هذا التوازن فسواء اكان على رأس الحكم فيها شخص مثل (موزلى) الفاشستى او (ماكدونالد) العامل او (لويد جورج) من الاحرار او (شمبرلين) المحافظ فالقصد لا يتغير والكل يدركون ان لا حياة لبريطانيا فى عالم لا تملك فيه سلطة الموازنة ووسائل التفوق. هذا من ناحية بريطانيا نفسها اما من ناحية الدول الاخرى فليس لنظمها السياسية ايضا اى دخل او تأثير على حقيقة الموضوع فسواء عندها أكانت تلك الدول دكتاتورية او ديمقراطية فهى تحاربها ان وجست منها خيفة للاخلال بالتوازن. يخال الى ان الوضع الاوروبى الحالى سوف لا يتغير ان غيرت المانيا نظامها السياسى فجأة طالما بقى الجهاز العسكرى الالمانى على وضعه. وما لم يقلص هذا الجهاز وتستأصل اخطاره لعدة اجيال فى المستقبل ويعود التوازن الى سابق عهده فلا يهدأ لبريطانيا بال. والان لنوضح قصدنا من «تقليص الجهاز الحربى الالمانى» وهل ذلك يعنى ان المانيا يجب ان تزول زوالا تاما كقوة اوروبية وهل ان ذلك هو الغرض الاساسى الذى ترمى اليه بريطانيا الان. انى اعتقد ان بريطانيا لا تقصد افناء المانيا فناء تاما بعد دحرها فى هذه الحرب كما انها لا تضمر سوءا للشعب الالمانى وما لنا وما يقوله المتطرفون من الانكليز كاللورد (فانسيتارت) ومن على شاكلته. والحقيقة انها تريد ان تراها ضعيفة بالنسبة الى قوة الامبراطورية البريطانية. قلنا ان الامر المهم فى الوضع الدولى فى اوروبا هو ازالة خطر المانيا كقوة تخل بالتوازن الدولى ولكن بعد زوال هذا الخطر ماذا سيكون الوضع. يتطلب الامر توحيد الدول الاوروبية الاخرى واستخدامها كواسطة لحفظ التوازن الجديد. ان اولى هذه الدول اهمية فى نظر بريطانيا هى فرنسا. لقد انكسرت شوكة فرنسا انكسارا قطعيا ولا ينتظر ان ينشلها من كبوتها الحاضرة الا نابليون اخر ويستبعد ان تحتل مركزها السابق بين الدول الاوروبية الا بعد اجيال كثيرة وجهود جبارة. وفرنسا كدولة قوية ضرورية جدا لبريطانيا ولحياتها فكل واحدة منهما تعتبر مكملة للثانية فالاثنتان قد ارتبطتا منذ اوائل القرن الحالى بمصير واحد. ولذلك فان اهم ما ترمى اليه السياسة البريطانية فى اوروبا هى ان تعود فرنسا قوية ومتحدة ومخلصة بتحالفها معها وان لا تكون اوضاعها السياسية الداخلية سببا لتفككها وانحلالها كما حصل

فعلا قبيل الحرب الحالية. اما المانيا فبعد اندحارها المحتم فى هذه الحرب سوف لا تعود خطرا جديدا على السلم الاوروبى والعالم وان الشعوب المتحدة ستكفل هذه النتيجة بما تتخذه الان من تدابير. ولكن ليس الوضع الالمانى وحده هو الذى سيقرر مصير اوروبا ومستقبلها انما يقرر ذلك اتجاه التكتل الاوروبى وتأثير هذا التكتل على التوازن العام. فهناك كتلة دول اوروبا الوسطى والشرقية والكتلة الروسية. ان الدول الاوروبية الواقعة بين البلقان والبلطيق لها منافع مشتركة وكلها مرتبطة بمصير واحد وهى تنهض وتهوى فى وقت واحد عليها ان توجد لها اتحادا يضمن مستقبلها السياسى والاقتصادى والعسكرى لتتمكن من الوقوف فى وجه الدول الطامعة فيها التى ان استولت احداها على هذه المنطقة فانها حتما ستصبح خطرا على اوروبا باجمعها. ولهذا اصبحت هذه المنطقة اى المنطقة الواقعة بين بحر ايجه وبين بحر البلطيق قبلة الانظار لان بريطانيا تعلم انها يجب ان تثبت نفوذها فى هذه المنطقة وانها ان ابعدت عنها فانها ستبعد حتما عن جميع اوروبا وعن الشرقين الادنى والاوسط والمناطق المؤدية اليهما وعن حوض الابيض المتوسط. فهذا هو هم السياسة البريطانية الان لان المنطقة التى اشرنا اليها هى من اهم مناطق اوروبا ففيها حوالى مائة مليون نسمة وتضم اراضى واسعة فيها من الموارد الطبيعية والمراكز الصناعية والايدى العاملة والاسواق التجارية والمؤهلات الاخرى ما يجعلها اهم مناطق اوروبا على الاطلاق. فان نفضت انكلترا يدها من هذه المنطقة وتركتها ضمن منطقة نفوذ دولة اخرى فان التوازن الذى نحن بصدده والذى عانت بريطانيا الامرين لمحافظته سيختل من جديد.

التوازن الدولى خارج اوربا

والان فلنستعرض الحقل الثانى للسياسة الخارجية البريطانية وهو الحقل الذى له مساس بسياستها فيما وراء البحار اى خارج القارة الاوروبية. ويمكن تقسيم هذا الحقل الى قسمين اساسيين الاول سياستها تجاه الولايات المتحدة الاميركية والثانى سياستها فيما يخص ضمان طرق مواصلاتها مع بقية اجزاء الامبراطورية. لا يخفى ان علاقات بريطانية بالولايات المتحدة الاميركية هى فريدة فى بابها لا تشبه علاقاتها مع اية دولة من الدول العالمية الاخرى فهى

ترتبط واياها بروابط التقاليد واللغة والشعور والمثل العليا وكثير من الروابط الاخرى. وقد وضعت هذه العلاقات على اساس امتن بعد الحرب العالمية الماضية عندما عقدت معاهدة واشنطن سنة ١٩٢٢ التى تعتبر بمثابة حلف بين المملكتين تم بمقتضاها التفاهم التام بينهما حول سياستهما خصوصا فى الشرق الاقصى. ومنذ ذلك الحين ادركت بريطانيا انها لا يمكنها ان تقدم على حرب كبرى ما لم تضمن حياد الولايات المتحدة على الاقل. ولكن بريطانيا لا تكتفى عادة بهذا الحياد فقد رأينا كيف ان اميركا دخلت حربين خلال ربع قرن ولم يكن لها فى اثارة هاتين الحربين ناقة ولا جمل. وعندما اشتركت الولايات المتحدة فى الحرب الحالية وقف المستر تشرشل فى مجلس العموم البريطانى وقال: «ان هذا ما كنت احلم به وما بذلت الجهود لتحقيقه». ومع ذلك فان حاجة بريطانية الى اميركا وحاجة اميركا الى بريطانيا هى حاجات متبادلة ومتداخلة اذ ان ضمان طرق المحيط الاطلسى التى تربط المملكتين هو امر حيوى لكل منهما. ولا يقتصر الامر على المحيط الاطلسى فقط بل ان تعاونهما المشترك ضرورى فيما يتعلق بضمان مصالحهما فى المحيط الهادى والشرق الاقصى ايضا وسنرى بعد انتهاء هذه الحرب فى الميدان الاوروبى كيف ان الدولتين ستتعاونان تعاونا وثيقا لازالة النفوذ اليابانى من الشرق الاقصى واستعادة نفوذهما فيه. والشرق الاقصى هى المنطقة الوحيدة التى كانت لبريطانيا والولايات المتحدة فيها مصالح متداخلة مشتركة. وبغية ضمان مصالحهما فى الشرق الاقصى عقدت بريطانيا فى مستهل هذا القرن حلفا عسكريا مع اليابان وقد قلنا فى الفصل الاول ان هذا الحلف هو احد امثلة الرياء السياسى الانكليزى البارزة. اذ لا يمكن ان يستند حلف مثل هذا الى اسس سليمة وقويمة بالنظر للتباين الموجود بين بريطانيا واليابان فى كل شيء. وان كانت انكلترا قد جنت ثمرة حلوة من حلفها هذا فى الحرب الماضية فانها كما قلنا تجنى الان ثمارا دونها العلقم مرارة. فما الموقف الذى تعانيه اليوم فى الشرق الاقصى الا نتيجة لذلك الحلف. وعندما عقدت مع الولايات المتحدة معاهدة واشنطن سنة ١٩٢٢ بدأت تنفض يدها من حلفها مع اليابان واستبدلته بالحلف الاميركى الذى لم يظهر بمظهره الحقيقى كحلف

سياسى عسكرى الا بعد حادثة ميناء اللؤلؤ عندما هاجمت اليابان الولايات المتحدة غدراء وبعد الحرب الحاضرة سيبقى هذا الحلف الاداة الوحيدة لضمان نفوذ الدولتين المشترك فى الشرق الاقصى.

ولنعد الان الى القسم الثانى من السياسة البريطانية لما وراء البحار اى خارج القارة الاوروبية وهذا هو القسم الذى يخص ضمان طرق المواصلات بين بريطانيا وسائر اجزاء الامبراطورية. يستند ضمان هذه الطرق الى قاعدة اساسية من قواعد السياسة البريطانية فكما ان الركن الاساسى لسياستها فى القارة الاوروبية هو محافظة التوازن الدولى فيها فان الركن الاساسى لسياستها خارج القارة هو التفوق البحرى وسيادة البحار. فهذان الركنان كانا وما زالا وسيبقيان الى ما شاء الله الهدف الاساسى الذى يرسم اتجاهات السياسة البريطانية فهى بمثابة مفتاح تحل بموجبه كل مشاكلها واتجاهاتها السياسية.

قال هاليفاكس احد مفكرى الانكليز فى القرن السابع عشر : ان اول فقرة من المبادىء السياسية لاى سياسى انكليزى يجب ان تكون «الايمان بالبحر». حقا لقد كان هذا الايمان المبدأ الذى سار عليه كل سياسى انكليزى من العصور السالفة حتى العصر الحاضر وسيبقى كذلك ما دامت بريطانيا تسكن جزرا يحيطها البحر. انه لمن الطبيعى لكل دولة تتكون بلادها من جزر ان تعتمد على قوتها البحرية فى سبيل المحافظة على كيانها وعلى حياتها. غير ان هناك اسبابا اخرى انفردت بها بريطانية دون غيرها من الدول البحرية فى ايجاد القوة البحرية. منها ان الجزر البريطانية تعيل (٤٧) مليون نسمة وهى ليست من السعة والخصوبة بحيث تتمكن من اعالة هذا العدد العظيم من البشر فكان الانكليز يعتمدون دوما على العالم الخارجى فى تموينهم. وبالنظر لهذا الاعتماد الكلى على الخارج اصبحت قضية ايجاد القوة البحرية التى تضمن ايصال هذه المواد الى الجزر قضية حياة وممات لامة باسرها. والسبب الاخر هو ان بريطانيا اصبحت بعد الثورة الصناعية دولة صناعية تجارية فصارت اكثر احتياجا للمواد الاولية وبنفس الوقت لزم عليها ان تضمن ايصال سلعها التجارية ومنتوجاتها الصناعية الى الاسواق العالمية. والسبب الثالث هو ان بريطانيا قد انشأت امبراطورية واسعة الارجاء تتكون

من اقطار يبعد الواحد منها عن الاخر وعن مركز الامبراطورية الوفا من الاميال ولا بد من ايجاد واسطة يمكن بها ضمان هذا الاتصال وسلامة الطرق الموصلة بينها ولا واسطة خير من اسطول جبار يسود البحار السبع. والسبب الاخير وهو نتيجة من نتائج الحرب الحالية. ان هذه الحرب قد كلفت بريطانيا اكثر من طاقتها فقد بذلت كل ما لديها فى سبيل كسبها. وبالنهاية سترى نفسها افقر دول الثالوث الدولى المكون منها ومن الولايات المتحدة وروسيا السوفياتية والذى سيقرر اتجاه السياسة العالمية المقبلة وفى مثل هذه الحالة وبغية محافظة هيبتها ونفوذها ستكون حاجتها الى القوة البحرية التى تضمن اتصالها مع بقية اجزاء الامبراطورية التى تعتمد عليها كل الاعتماد فيما يتعلق بالموارد الاقتصادية، اكثر من اى دور مضى.

تلك هى العوامل الاساسية الاستراتيجية التى حتمت على بريطانيا ان تبنى لها اسطولا من اعظم اساطيل العالم. وهناك بعض الاعتبارات التى جعلتها تؤمن بان الاساطيل افضل الوسائط التى تكفل النصر والسيطرة للدول. فقد رأى الانكليز فى الحروب التى اشتركوا فيها كلها ان القوة البحرية كانت العامل الرئيسى فى تقرير مصير تلك الحروب. وقد لا يطرأ تغير اساسى على هذه القاعدة عند تقرير مصير الحرب الحالية لولا ظهور خطر جديد هدد سيادة القوة البحرية الا وهو خطر القوة الجوية. والانكليز يدركون ادراكا تاما تأثير القوة البحرية فى اى حرب من الحروب اذا ما قيس ذلك التأثير بتأثير الجيوش البرية. فلو قارنا نتائج الحروب البرية والبحرية بعضها ببعض نرى الجيوش البرية مثلا تخسر الملايين من الارواح فى معاركها التى تؤدى حتما الى تدمير مناطق واسعة من البلاد التى تقع المعارك فيها. ناهيك بالتأثيرات المعنوية التى تتركها فى نفوس الشعب المتحارب وكذلك شل الحركة الصناعية والتجارية وغيرها من نواحى الحياة العامة عدا ما تتركه ويلات الحرب من التأثير فى الاخلاق. ولنقارن بين هذه النتائج والنتائج التى تحصل عند اشتراك دولة بحرية فى الحرب فنرى مثلا ان الاساطيل البحرية تقوم بمعاركها فى عرض البحار ولا تمس اهوالها الا المشتركين فيها فعلا. وبينما تتغلغل الروح العسكرية فى كل ناحية من نواحى حياة البلاد التى تعتمد على الجيوش البرية،

فان رجال البحرية يعملون بهدوء وسكون بعيدين عن العالم ولا يشعر بهم الا سكان الموانى عندما تلجأ سفنهم اليها. كما ان نتائج اعمال القوة البحرية ابعد مدى من نتائج اعمال القوة البرية ففى الوقت الذى تتمكن الجيوش البرية من ابادة منطقة صغيرة من البلاد المتحاربة او القضاء على بعض الالوف من جيوش العدو نرى أن الاسطول يتمكن من القضاء على شعب بأسره او يجعل قارة بأسرها تئن تحت اعباء الجوع والبؤس والفاقة ولهذه الاسباب يعلم الانكليز قبل غيرهم من الشعوب ان الدولة التى تسود البحار هى الدولة التى تسود العالم.

هذه هى العوامل الاساسية التى جعلت الساسة الانكليز يؤمنون بالبحر ويضمنوا ايجاد اسطول جبار ويبذلون النفس والنفيس لاعلاء شأنه والحيلولة دون ان ينافسه اسطول دولة اخرى. وعليه فان تساهلت بريطانية بأى شىء مع الدول الاخرى فانها لا يمكن ان تتساهل مع دولة تبغى منافستها فى السيطرة البحرية. واذا ما شعرت ان احدى الدول قد استفحلت قوتها البحرية واصبحت خطرا عليها فهى تنتحل الوسائل والحجج لايقاف الخطر عند حده. ويعلم العالم ان من جملة الاسباب التى دخلت من اجلها بريطانيا الحرب الماضية هو توسع البحرية الالمانية الى درجة الخطر. وعلى هذا لم تجرأ اية دولة اوروبية على منافسة بريطانيا بحريا فالاسطول الفرنسى على عظمته كان يشغل مقاما ثانيا بالنسبة للاسطول البريطانى اما الان وقد اصابه ما اصابه فى داكار ووهران وطولون فلا ينتظر ان يظهر اسطول فرنسى فخم لعدة اجيال مقبلة. والدولة الاوروبية البحرية الاخرى كانت ايطاليا اما الان فبعدما اصاب اسطولها من الضربات فى معارك تورانتو وماتابان استسلم الباقى الى الحلفاء فتمزق شر ممزق. لذا فقد بقى الاسطول البريطانى وحده سيد البحار الاوروبية ما عدا البحر الاسود وبحر البلطيق. وستبذل بريطانيا جهدها فى سبيل المحافظة على هذه السيادة فى المستقبل وان هى توجس خيفة ما فانما من الاسطول الروسى اذا ما وجد له طريقا الى البحر الابيض المتوسط لكن الدبلوماسية الانكليزية قد كفلت ذلك ولو مؤقتا على الاقل.

السياسة تجاه الولايات المتحدة

اما فى خارج المياه الاوروبية فان الولايات المتحدة واليابان كانتا الدولتين

البحريتين الوحيدتين اللتين كانت بريطانيا تحاذر شرهما • فلو ارادت الولايات المتحدة منافسة بريطانية فى القوة البحرية لامكنها التفوق عليها بالنظر لثروتها الطائلة ومواردها الطبيعية الهائلة لكن بريطانيا لم تعط مجالا لمثل هذه المنافسة • فوجدت نفسها بعد الحرب الماضية امام شقين يجب عليها اختيار احدهما وهما اما قبول مبدأ حرية البحار واما قبول المساواة البحرية مع اميركا وقد رأت ان الشق الثانى هو اهون الشرين لانها ان لم تقبل بهذه المساواة وتركت الامر للمنافسة فالنصر يكون للولايات المتحدة حتما وهكذا فقد ضحت بموجب معاهدة واشنطن سنة ١٩٢٢ بانفرادها بالسيطرة على البحار وسمحت لاميركا بمشاركتها فى هذه السيطرة وبذلك امنت شر منافستها البحرية•وان قبلت بريطانيا بمشاركة الولايات المتحدة للسيطرة البحرية فانها لن تتساهل مطلقا فيما يتعلق بتخفيض نسبة قوتها البحرية عن الحد التى تراه لازما لسلامتها وسلامة الامبراطورية• فلما تقدمت الولايات المتحدة بمشروعها لنزع السلاح فى مؤتمر نزع السلاح الذى عقد فى جنيف سنة ١٩٣٢ والذى كان يقضى بتخفيض حمولة اساطيل جميع الدول البحرية بنسبة الثلث وقف الممثل البريطانى وقال : «اننا لانقبل بالتخفيض البحرى وان مستوى قوتنا البحرية ليس له علاقة بمستوى اية دولة اخرى انما تقرره حاجتنا المطلقة للمحافظة على طرقنا التجارية واننا غير مستعدين للتخفيض حتى ولو قبلت به اميركا واليابان»• (١)

سياستها تجاه اليابان

وليست الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى تتمكن من منافسة بريطانية بالقوة البحرية وان قبلت الامبراطورية البريطانية بالمساواة معها فانما لانهما ترتبطان بروابط العنصر واللغة والثقافة والعادات وغيرها لكنها لن تتساهل مع اليابان وبينهما اختلافات اساسية وجوهرية فى كل ناحية من هذه النواحى اذ يعز على بريطانيا ان ترى اليابان تنافسها فى السيادة البحرية• وبغية الاقلال من شرها فانها كانت قد ربطتها وقتئذ بمعاهدة واشنطن التى اشرنا اليها وحملتها على قبول نسبة ٥ : ٥ : ٣ اى ان تصبح قوة اليابان البحرية اقل من قوة كل من بريطانيا والولايات المتحدة ولكن اليابان اخذت تخرج

(١ Diplomat Between Wars By Hugh Wilson

عن تلك المعاهدة شيئا فشيئا حتى اذا ما دخلت الحرب الحالية كانت لها السيادة المطلقة فى مياه الشرق الأقصى فتمكنت من القضاء على نفوذ اميركا وانكلترا فى بضعة اشهر•

ان محافظة الطرق التجارية بواسطة الاساطيل البحرية تتطلب ايجاد قواعد بحرية وجوية فى مختلف ارجاء الكرة الارضية كما يقتضى بسط النفوذ الانكليزى على المناطق التى تعتبر ضرورية لمحافظة الطرق وتأمين القواعد فى ظروف السلم والحرب• وهذه الحاجة تؤثر تأثيرا عظيما على توجيه السياسة الخارجية البريطانية واليها يرجع منشأ كثير من مشاكل بريطانيا الماضية والحالية والمقبلة• لقد نفضت بريطانيا يدها من نصف الكرة الغربى منذ ان تنازلت عن حقوق السيطرة على قناة بناما ١٩٠١ بموجب معاهدات (Hay-Pauncefote) وبذلك فانها استغنت عن كثير من الملابسات والمشاكل التى قد تحدث فى نصف الكرة الغربى كما انها اجرت فى اوائل هذه الحرب كثيرا من قواعدها وجزرها الواقعة على الطرق المؤدية الى تلك المنطقة للولايات المتحدة الاميركية وبذلك تخلصت من مسؤوليات كبيرة واعباء ثقيلة• ولكن مصالح بريطانيا قد انحصرت فى القارات الاخرى وهى افريقيا وآسيا واوستراليسيا• ولضمان الطرق الموصلة بين هذه القارات وحفظ السيادة البحرية على البحار المحيطة بها فقد استولت بريطانيا على اهم المواقع الاستراتيجية وجعلت المحافظة عليها من اهم دعامات سياستها الخارجية• تبدأ سلسلة هذه المواقع الاستراتيجية بجبل طارق وهو مفتاح الابيض المتوسط واهميته لا تنحصر فى ظروف الحرب فقط بل فى ظروف السلم ايضا• لقد استولت بريطانيا على جبل طارق فى اوائل القرن الثامن عشر وعضت عليه بانيابها• وسلامة هذه الصخرة هى التى وجهت سياستها فى شبه جزيرة ايبريا وشمالى غرب افريقيا فحافظت على حلفها التاريخى مع البرتغال ولم تشأ ان تعكر صفو علاقاتها مع اسبانيا وكانت تقف منها دائما موقف الصديق المتفرج كما رأينا اثناء الحرب الاهلية الاسبانية التى وقعت قبل الحرب الحاضرة• والقاعدة الاستراتيجية الثانية هى مالطة وهى من اهم المواقع الاستراتيجية فى الابيض المتوسط وقد ظهرت اهميتها فى الحرب الحالية اذ لو خسرت

بريطانيا مالطة لكانت خسرت نفوذها فى الابيض المتوسط ولما تمكنت من ضمان نجاح الانزال فى صقليا. وفى رأيى ان بريطانيا سوف لا تتنازل عن جزيرة بانتيلاريا الايطالية عند عقد الصلح بالنظر لوقوعها فى منتصف طريقها البحرى. ثم هناك قبرص واهميتها الاستراتيجية محصورة فى شرق الابيض المتوسط وكقاعدة تستعمل عند الحاجة ضد تركيا. ولعل قناة السويس اهم الطرق البحرية الحيوية للمواصلات البريطانية فهى بمثابة الشريان الابهر الذى يربط القلب بالجهاز الدموى ولم تكن لها هذه الاهمية العظمى لولا وقوعها على طريق الهند الحيوى. والمحافظة على قناة السويس هو الهدف الاساسى للسياسة البريطانية فى الابيض المتوسط والشرق الاوسط. لا شك أن القارىء يدرك اهمية هذه القناة لبريطانيا ومع ذلك اود ان اورد بعض الشواهد التى تؤيد هذه الاهمية. لما اشتركت بريطانيا فى ميثاق كيلوغ لنبذ الحرب صرح وزير الخارجية يومئذ بان حكومته تحتفظ لنفسها بحرية العمل اى الدخول فى الحرب فى بعض المناطق (كمصر وقناة السويس). ولما اعلنت بريطانيا قبل الحرب الحالية الاسباب التى تدخل من اجلها الحرب كان من جملتها اى تعد يقع على مصر. ثم فى السنة ١٩٤٠ لما كان الوضع العسكرى فى بريطانيا على اسوأ حال والجزر البريطانية مهددة بالغزو فى كل ساعة، اقنع المستر ايدن وكان وزير الحربية يومئذ، الوزارة الانكليزية بضرورة ارسال الجيوش والمعدات اللازمة من بريطانيا الى مصر مع انها كانت فى امس الحاجة اليها لانه قدر الاهمية الكبرى التى لمصر وقناة السويس على بريطانيا وبالتالى على الامبراطورية البريطانية. وفى السنة ١٩٤١ قال المستر تشرشل «اننا ندافع عن مصر (قناة السويس) كما لو كانت قطعة من الجزر البريطانية». يتضح من هذه الشواهد مبلغ اهمية مصر وقناة السويس لبريطانيا ويمكن ان نستنتج منها اتجاهات السياسة البريطانية فى هذا القسم من العالم. ثم هناك عدن ومضيق باب المندب والجزر المنتشرة فى المحيط الهندى. لا شك ان القارىء يتذكر العمليات الحربية التى وقعت فى مدغشقر واستيلاء الجيوش البريطانية عليها وانى اميل الى الاعتقاد انها ستبقى تحت النفوذ البريطانى بعد الحرب. وغير هذا فهناك قواعد جوية وموانى بحرية كثيرة تشرف على الطرق

البحرية مما يضيق بنا المقام على تعدادها. هذا فيما يتعلق بافريقيا اما آسيا واوستراليا فالمحافظة على سلامة الطرق الامبراطورية قد حصرت بنقطة واحدة وهي أهم نقطة استراتيجية في جميع الامبراطورية على الاطلاق الا وهي سنغافورة. فقد اعتبرت بريطانيا سنغافورة المفتاح الوحيد بين الشرق والغرب وانفقت الملايين على تحصينها وجعلها من اكبر المواقع البحرية في العالم وامنعها. ولما سقطت بيد اليابان في السنة الاولى من الحرب اليابانية تداعت اركان الدفاع في جميع انحاء الشرق الاقصى والجزائر الشرقية واصبحت اوستراليا في خطر مداهم. ولما اعلن المستر تشرشل خبر سقوطها قال «ان هذه الخسارة هي اكبر خسارة استراتيجية تكبدها الامبراطورية منذ دخولها الحرب». ثم هناك جزيرة (هونكونك) وخسارة بريطانيا لها قد سبب فقد سيطرتها في بحر الصين ومناطق الشرق الاقصى الاخرى.



السلطة التشريعية

تكلمنا الى الان عن سلطتين من السلطات الثلاث التي تتكون منها الدولة البريطانية وهي العرش والسلطة التنفيذية وسنتكلم الان عن السلطة الثالثة وهي السلطة التشريعية. تنحصر السلطة التشريعية في انكلترا بيد البرلمان الذي يتكون بمقتضى الدستور الانكليزي من مجلسين: مجلس اعلى يسمى مجلس اللوردات وهو يقابل مجلس الشيوخ (الاعيان) في الدول الدستورية الاخرى. ومجلس العموم وهو ما يقابل مجلس النواب.

مجلس اللوردات

ان مجلس اللوردات اقدم المجلسين عهدا ولكنه بوضعه الحاضر اقلهما نفوذا من الناحية التشريعية. وكان عند تأسيسه الهيأة الوحيدة التي تحكم البلاد بمعاونة الملك الذي كان بيده وحده تعيين اعضائه من النبلاء ورجال الدين والملاكين والزراع وغيرهم من ذوي المكانة والنفوذ في البلاد وكانت القاعدة التي تتبع يومئذ في تعيين مثل هذه الشخصيات هي القاعدة المشهورة بان «الذي يملك الارض يجب ان يحكمها» وبانتقال السلطات من يد الملوك الى الشعب اخذت قوة هذا المجلس تتضاءل رويدارويدا وطغت عليها قوة المجلس الثاني الذي يتكون من اعضاء ينتخبهم الشعب. ان مجلس اللوردات

قديم جدا يرجع تاريخه الى عشرة قرون بقى خلالها يزاول سلطته التشريعية بدرجات متفاوتة تتراوح بين زوال وجوده بتاتا — كما حصل حينما اقدم الـ (Puritans) على الغائه لمدة موقتة — وبين محاولته السيطرة التامة على تلك السلطة كما حصل حينما اخذ يتنافس مع مجلس العموم فى سلطاته. وقد وصلت المنافسة بينهما اشدها فى السنة ١٩١١ عندما رفض مجلس اللوردات اللائحة المالية التى قدمها المستر لويد جورج وكان آنئذ وزيرا للمالية بعد ان اقرها مجلس العموم. وعلى اثر ذلك رأى مجلس العموم وهو المجلس الذى أنتخبه الشعب أن يضع حدا لمعارضة مجلس اللوردات، وهو المجلس المكون اغلبيته بالوراثة. فوضع قانون البرلمان (Parliament Act) الذى حصر السلطة التشريعية المطلقة بيده وحرم على المجلس الاعلى معارضة اللوائح المالية. وقد مر هذا القانون من مجلس اللوردات نفسه بعد ان ادرك بصراحة انه أن عارضه فسيمكن القضاء على معارضته بتعيين اعضاء جدد يمكن بهم ان تضمن الاكثرية التى توافق على القانون. ومنذ ذلك الحين اختلت الموازنة التشريعية بين المجلسين فاصبح مجلس العموم هو الكل فى الكل بينما حددت صلاحية مجلس اللوردات تحديدا تاما بمقتضى قانون البرلمان الذى ينص على ان اللوائح المالية التى يصادق عليها مجلس العموم يجب ان تصبح قانونا بعد مرور شهر واحد على تاريخ مصادقته عليها حتى ولو لم يوافق عليها مجلس اللوردات بالتصويت وكذلك عرف القانون المذكور اللوائح المالية وجعل شهادة رئيس مجلس العموم بكون اللائحة مالية، كافية لاعتبارها كذلك. هذا فيما يخص اللوائح المالية اما اللوائح غير المالية فقد حددت ايضا صلاحية مجلس اللوردات باجراء تغييرات طفيفة جدا فيها على الا تمس هذه التغييرات والتعديلات جوهر اللائحة ويقتصر رفض مجلس اللوردات مثل هذه اللوائح على تأجيل اقرارها لمدة سنتين تصبح بعد انتهائها قانونا كما لو اقرها المجلس المذكور بالتصويت. وفى غير هذه الحالة اذا مرت لائحة ما من مجلس العموم بعد القراءة الثالثة وكانت المدة بين القراءة الاولى والاخيرة سنتين على الاقل فان اللائحة تصبح قانونا بعد صدور الارادة الملكية بها بدون موافقة مجلس اللوردات عليها.

وجائب مجلس اللوردات

ومنذ صدور ذلك القانون حتى الان اخذ مجلس اللوردات يعرف قدره

فلم تبدر منه اية بادرة يشم منها رائحة المنافسة او الاصطدام بمجلس العموم او بالحكومة القائمة لانه يعلم انه لو بدر منه شيء من ذلك فانما هو يعرض نفسه لخطر فقدان نفوذه او كمن يسعى الى حتفه بظلفه. فكثير ما كان موضوع اصلاح هذا المجلس عرضة للمناقشات فى كثير من الادوار ولو انه لم يجرأ اى حزب سياسى على القيام باية خطوة نحو الاصلاح. فالحزب المحافظ لم يقصد الاصلاح وهو الحزب الوحيد الذى يتمكن من القيام باى شيء فى هذا المضمار لانه الحزب الذى ينتمى اليه اكثرية الاعضاء فى مجلس اللوردات. والاحزاب الاخرى كحزبى العمال والاحرار لم يتفقوا على نوع الاصلاح المطلوب ودرجته ومنهم من يتصور ان اجراء اى اصلاح فيه قد يؤدى الى تقويته ومثل هذه التقوية ربما كانت على حساب مجلس العموم. وكثيرا ما قيل ان مجلس اللوردات يستمد قوته من ضعفه لانه لو اصبح اكثر قوة مما هو عليه الان لزالت قوته ووجوده زوالا تاما لاحتمال اصطدامه حينئذ بمجلس العموم. ولذا فكلما تسلم حزب جديد مقاليد الحكم فى انكلترا ادخل الى مجلس اللوردات عناصر جديدة من انصاره. فبعد ان كان مقتصرا على الاعضاء المحافظين من ممثلى الطبقة الارستقراطية صار يضم الان عناصر من مختلف الميول السياسية والطبقات الاجتماعية. ففيه من الاحرار وفيه من العمال وفيه ممن يمتون الى الطبقات الوسطى وحتى الطبقات السفلى من الشعب لانهم قاموا بخدمات جليلة فى مختلف نواحى الحياة العامة فكوفئوا عليها بان عينوا اعضاء فى هذا المجلس.

انتقادات مجلس اللوردات

قد لا تتفق مؤسسة سياسية مثل مجلس اللوردات تستند الى اعتبارات وراثية مع المبادىء الديمقراطية وخاصة فى عصرنا الحاضر وقد يكون بعض الوجه لما تدعيه العناصر الثورية او ان شئت فسميها بالتقدمية، من عدم ملاءمة الاسس التى بنيت عليها مثل هذه المؤسسات مع تطورات العصر الحاضر ولكن مجرد وجود هذه المؤسسات وتأديتها وجائبها بهذا الشكل ما هو الا دليل على اتفاقها مع الروح الديمقراطية كما يفهمها الانكليز. لا يفتكرن احد ان انكلترا هى مهد الديمقراطية ولا يتسنى فرض اى نظام فيها لا يتفق ورأى الشعب وميوله ومصلحته. فلو كان وجود هيئة مثل مجلس اللوردات ضمن

نظام الدولة السياسى مما لا يتفق والآراء العامة فيستبعد ان يبقى يوما واحدا فى قيد الحياة• لقد اثبتت التجارب ان الاعمال التى يقوم بها مجلس اللوردات تتفق والصالح العام اتفاقا كبيرا فمنها مثلا انه يدرس اللوائح التى تمر من مجلس العموم ومع انه لا يجرى عليها تغييرات او تعديلات اساسية فان المذاكرة على هذه اللوائح، التى ربما كانت قد مرت من مجلس العموم بدافع السرعة او تمشية اللوائح الكثيرة المتراكمة، قد تشبعها درسا وتمحيصا وتكشف عن كثير من النقاط التى ربما اغفلت عند المذاكرة فيها فى مجلس العموم• ثم ان صلاحية مجلس اللوردات فى تأخير اللوائح القانونية قد تعطى فرصة اكثر للرأى العام او للصحافة لدرس اللوائح وابداء آرائها بشأنها قبل ان تصبح قانونا ذلك فضلا عن ان مجلسا مكونا من اعضاء متقدمين فى السن لا بد ان يكون عرضة للتأثر بالعواطف اقل بكثير من مجلس يضم عددا كبيرا ممن يجرى فى عروقهم دم الشباب•

وجائب اخرى

وغير هذه الوجائب فلمجلس اللوردات سلطات خاصة به لا يشاركه او يزاحمه فيها مجلس العموم• فهو المحكمة الخاصة التى تحاكم اعضاءه فيما لو بدرت منهم مخالفة سواء اكانت داخل المجلس او خارجه وهو كذلك محكمة تميز عليا لرؤية الدعاوى الجزائية او المدنية التى ترفع اليه• وسنفصل ذلك عند بحثنا عن القضاء الانكليزى• وهناك واجب اخر اهمل استعماله بمرور الزمن وهو واجب النظر فى دعاوى الادانة (Impeachment) التى يرفعها مجلس العموم ضد احد موظفى الدولة او احد الوزراء وقد انتقلت صلاحية رؤية هذه الدعاوى بمرور الزمن الى المحاكم الاعتيادية او المحاكم الخاصة التى تتألف خصيصا لهذا الغرض•

اعضاؤه

يتكون مجلس اللوردات من عدد غير معين من الاعضاء فهو يزداد بتعيين اعضاء جدد من قبل الملك وينقص بوفاة الاعضاء الذين لا وارث لهم• وكان عدد الاعضاء قبل الحرب الحالية (٧٧٥) عضوا يمكن تصنيفهم الى صنفين: الاعضاء الروحانيون (Lords Spiritual) وهم ستة وعشرون فى ضمنهم رئيس اساقفة كنتربرى ويورك واساقفة لندن ودرهام ووينجستر• وعضوية هؤلاء تتوقف على وجودهم بمناصبهم الدينية فاذا تنحى احدهم من منصبه الدينى او

احيل الى التقاعد فانه يفقد مقعده فى مجلس اللوردات(١). والصنف الثانى من الاعضاء هم الاعضاء الزمنيون(Lords Temporal) وهؤلاء هم الاعضاء الذين يرثون ويورثون عضويتهم التى اكتسبوها من الملك ويشملون جميع لوردات انكلترا وخمسة عشر لوردا من ايرلندا الشمالية وستة عشر لوردا من اسكوتلندا. وغير هؤلاء فالمجلس يضم ستة اعضاء من بين اكبر الحكام فى البلاد وهم (Law Lords) او (Lords of Appeal in Ordinary) وعضوية هؤلاء غير موروثة بل تنتهى بموتهم وتختلف عن عضوية الاعضاء الباقين بانهم يقبضون رواتب سنوية من الخزينة لقاء ما يقومون به من الوجائب بصفتهم اعضاء محكمة. وكما اسلفنا فان مجلس اللوردات فى الوقت عينه محكمة تميز عليا.

كيفية تعيين اللوردات

قلت ان الاعضاء الزمنيون يرثون ويورثون عضويتهم التى اكتسبوها من الملك. والملك لا يمنح عضوية اللوردات من تلقاء نفسه بل تمنح عادة بناء على اقتراح رئيس الوزراء ولذلك فان قائمة منح الالقاب السنوية (Honours List) تسمى (Prime Minister's List)ووظيفة الملك مقيدة حتى انه لا يتمكن من جعل رئيس وزرائه لوردا ما لم يتم اقتراح رئيس الوزراء الجديد بمنحه هذا اللقب. فمثلا ان لويد جورج لم يصبح لوردا لان خلفه لم يقترح تعينه لوردا ولكن المستر تشمبرلين اقترح على الملك تعين المستر بولدوين لوردا (ايرل) عندما ترك الاخير رئاسة الوزارة، واذا اريد منح المستر تشرشل لقب اللوردية فيتوقف ذلك على اقتراح رئيس الوزراء الذى يخلفه الا اذا اراد الملك ان يشذ عن القاعدة المتبعة فيعينه لوردا عند اعتزاله رياسة الوزارة. ففى رأس كل سنة او بمناسبة ولادة الملك تصدر قائمة بمنح اشخاص من مختلف نواحى الحياة القابا من ضمنهم اللوردات. وهم يعينون اما لاسباب حزبية او يعينون تقديرا لاعمالهم فى مصلحة

---

(١) لما استقال الدكتور (كوزمو لانك)(Dr. Cosmo Lang) رئيس اساقفة كنتربرى من هذه الوظيفة مؤخرا فقد حقه فى عضوية مجلس اللوردات بصفته الدينية ولكنه منح لقب (بارون لا مبيث) وهو الآن عضو فى المجلس المذكور بهذه الصفة وليس بصفته رئيسا سابقا لاساقفة كنتربرى.

الوطن والامبراطورية ومثل هؤلاء الاشخاص لو لم يتم تعيينهم فى السلطة التشريعية على هذا الوجه لحرمت البلاد من مواهبهم وتجاربهم لان كثيرا منهم قد لا ينجحون فى اقناع المنتخبين بانتخابهم. وبينهم من فطاحل السياسة والقانون والاقتصاد والمال والصحافة والفن والادب والصناعة والطب والعسكرية وكل ناحية من نواحى الحياة العامة.

ومجلس يضم بين اعضائه سياسيين مثل لورد (بولدوين)و(هاليفاكس) ودبلوماسيين مثل لورد (بيرث) ولورد (فانسيتارت) وامبرالية مثل لورد (كيز) ورجال طيران مثل (هيو دودنك) وعسكريين مثل (ويفل) و (جاتفيلد) ومحامين مثل لورد (سايمن) واقتصاديين مثل لورد (Keynes) وماليين مثل لورد (روسجايلد) وصناعيين مثل لورد (نافلد) وصحافيين مثل لورد (بيفربروك) ولورد (كامروز) واطباء مثل لورد (هوردر) ولورد (داوسن اوف بين) وموظفين مدنيين مثل لورد (هانكى) ورجال دين مثل (دكتور تمبل)(١) ودكتور (كاربوت)، لو اقتصرت على ذكر هؤلاء فقط، فانه لا يكون ممثلا لجميع طبقات الامة فحسب ولكنه يكون مجلسا ذا تجربة قيمة واطلاع واسع فى كل ما يعرض عليه من الامور. فأن قيل ان كاتدرائية ويستمنستر هى مقبرة العظماء من الاموات فان قصر ويستمنستر (البرلمان) هو ندوة العظماء من الاحياء.

اسباب وعوامل تعيينهم

اما الاسباب الحزبية التى تستوجب تعيين اللوردات فهى كثيرة فقسم من اعضاء مجلس العموم ممن سئموا الاشتغال بالسياسة العامة يفضلون الابتعاد عنها ولكنه ليس ابتعادا كليا، فانهم يكافئون على خدمتهم هذه بتعيينهم فى مجلس اللوردات ليتسنى لهم الاشتراك فى السياسة العامة عن غير طريق مجلس العموم. ومنهم من يعينون فى مجلس اللوردات خلافا لرغبتهم وذلك لان الحكومة القائمة ترغب فى اسكاتهم والتخلص منهم ومن انتقاداتهم المستمرة فى مجلس العموم(٢). ومنهم من تعينهم الحكومة بقصد تقوية حزبها فى مجلس اللوردات كما حصل فى وزارة العمال عندما عينت عددا عظيما من اللوردات من حزب العمال. وقد لا يوجد بين اعضاء المجلس ممن لهم

(١) وهو رئيس اساقفة كنتربرى وقد توفى والكتاب تحت الطبع.
(٢) كما حصل فى تعيين الكولونيل (ويجوود) عضوا فى اللوردات.

المقدرة السياسية لدعم الحكومة واسنادها فيه، وتكون الحكومة مضطرة حينئذ الى ايجاد عدد من الوزراء فى المجلس المذكور.

واذا ما اصبح الشخص لوردا فلا يمكنه رفض هذا الشرف ولا التخلى عنه. فعلى من يرث لقب اللوردية ان يقبل به مهما كان ذلك خلافا لرغبته او مبادئه. فاذا كان قاصرا (دون الحادية والعشرين من عمره) فلا يمكنه حضور المجلس ولكن له ان يحضر متى بلغ السن القانونية وله ان يغيب عنه مدى العمر. وكثيرا ما كانت وراثة (اللوردية) عقبة كأداء فى سبيل اولى الطموح السياسى لان الطموح السياسى لا يأتى عن طريق مجلس اللوردات بل عن طريق مجلس العموم. وكثير ممن كانت وفاة مورثيهم سببا للقضاء على مستقبلهم السياسى.

عضوية النساء

ومجلس اللوردات خلافا لمجلس العموم لا يضم نساء بين اعضائه ولو ان النساء يرثن الالقاب مثل الرجال. وبالرغم من المحاولات التى قامت بها الليدى (Rhondda) لحضور جلسات مجلس اللوردات، لان لها الحق فى ذلك باعتبارها الوريثة الشرعية لاحد اللوردات، لكنها لم تتمكن من ذلك اذ رفض مجلس اللوردات عريضتها وبذلك اعتبرت القضية دستورية ومنع اشتراك النساء فى هذا المجلس.

تقاليد المجلس

ان مجلس اللوردات وجلساته وكل ما يتعلق به هو مجموعة من التقاليد الانكليزية والانكليز كما سبق القول فى محل اخر قوم يعبدون التقاليد ويتمسكون بها كل التمسك. فمحل الاجتماع هو احدى صالات قصر ويستمنستر وتسمى بالقاعة الحمراء وهى صالة جميلة يزيد فى جمالها نوافذها ذات الزجاج الملون ومقاعدها الوثيرة ذات اللون الاحمر والقاعة على العموم فيها كثير من البهاء والحشمة والبذخ خلافا لصالة مجلس العموم. وتبدأ جلسة المجلس عندما يعتلى الرئيس (Lord Chancellor) منصة الرياسة وهذه هى ايضا اثر من آثار التقاليد القديمة. فهى تسمى (Woolsack) اى كيس الصوف وسبب تسميتها بذلك يرجع الى ايام الملكة اليزابيث عندما صدر قانون يمنع تصدير الصوف الانكليزى الى الخارج. فبغية تأييد هذا التشريع وتشجيع تجارة الصوف المحلية قرر اعضاء المجلس حشو منصة الرياسة به.

وبين حين واخر تجرى عملية استبدال الصوف القديم بصوف جديد. ان رئيس مجلس اللوردات لا يشبه رؤساء المجالس التشريعية الاخرى من حيث الصلاحية فى ادارة الجلسة. فليست له صلاحية ضبط الاعضاء عند خروجهم عن حدود النظام الداخلى للمجلس وليس له حق لفت نظر احد الاعضاء عند تجاوزه حدود موضوع المناقشة وحتى اذا قام عضوان للكلام فى آن واحد فليس له ان يطلب سكوت احدهما بل ذلك من حقوق المجلس وليس من حق الرئيس كما ان انظمة مجلس اللوردات لا تشبه انظمة مجلس العموم من حيث الدقة والتنفيذ فليست هناك انظمة صارمة فيما يتعلق بكيفية بدء المناقشات او اثارة الكلام عن اى موضوع كان فلكل عضو ان يطلب المناقشة فى اى موضوع بان «يطلب الاوراق» (Moving for papers) ومعنى ذلك انه يقدم اقتراحا بعرض بعض الاوراق الرسمية على المجلس للمذاكرة فيها. ومذاكرات مجلس اللوردات ذات قيمة كبيرة لان اللوائح التى تجرى المذاكرة حولها يشبعها فحصا وتدقيقا اعضاء لهم خبرة واختصاص قلما نراهم فى مجلس العموم. وهناك اعتبارات اخرى تجعل مذاكرات هذا المجلس ذات قيمة ذلك ان اعضاءه لا يخضعون لتأثرات يخضع لها اعضاء مجلس العموم فهم لا يتقصدون الابداع بصناعة الكلام والخطابة ارضاء لمنتخبيهم او للحصول على مديح الصحافة او المستمعين كما انه لا يوجد مراقب (Whip) يراقب حركاتهم وسكناتهم ودوامهم او غيابهم كما هو الحال مع اعضاء مجلس العموم. فهم لا يخافون حل المجلس الذى قد يؤدى الى فقدانهم مقاعدهم عند الانتخابات. ولذلك كان لاعضاء هذا المجلس حرية كبيرة لا تضاهيها حرية اخوانهم النواب فى المواظبة والدوام حتى ان النصاب فى مجلس اللوردات قد اقتصر على ثلاثة اعضاء فقط لعقد الجلسة ولو ان حضور ثلاثين عضوا هو ضرورى للتصويت على لائحة قانونية. ان عددا عظيما من اعضاء المجلس لا يحضرون جلساته وحتى ان قسما منهم لم يدخل قصر ويستمنستر طول حياته. ويقتصر الحضور بانتظام على الاعضاء الذين يتشوقون الى الخطابة والمناقشة وكذلك الاعضاء الذين جعلوا السياسة مهنة لهم.

اجتماعاته — يجتمع مجلس اللوردات فى الايام التى يجتمع فيها مجلس العموم

وتبدأ الجلسة فى ساعة معينة من بعد ظهر كل يوم من ايام الاسبوع عدا ايام الجمعة والسبت والاحد. لكن اجتماع مجلس اللوردات يتأخر عن اجتماع مجلس العموم بساعة واحدة اذ لا يوجد فى مجلس اللوردات وقت مخصص للاسئلة كما هو الحال فى مجلس العموم. والمجلسان ينفضان وينعقدان فى وقت واحد كما هو الحال فى البرلمانات الاخرى.

مجلس العموم

ومجلس العموم بين السلطات الثلاث المتقدمة الذكر اقواهم نفوذا واكبرهم سلطة فهو الحاكم المطلق للبلاد وبيده ادارة مقدراتها وتشريع قوانينها. فهو فريد بين جميع مجالس العالم التشريعية بتاريخه المجيد وبسلطته الواسعة وبتقاليده التاريخية وهو بنفسه الينبوع الحقيقى للدستور الانكليزى الذى تستند اليه البلاد اذ لا دستور مكتوبا فى انكلترا كما اسلفنا القول وكل ما يقرره مجلس العموم هو الدستور بعينه ولذلك كانت سلطته تشريع القوانين وادارة موارد الدولة والاشراف على اعمال العرش واعمال الحكومة. وحقا لئن افتخر الانكليز بشىء امام العالم فانما يفتخرون بهذه المؤسسة التى تستمد منها جميع النظم البرلمانية فى العالم روحها ومثلها. فلم يصبح مجلس العموم البريطانى موضع اهتمام وعناية انكلترا فحسب بل موضع اهتمام وعناية جميع العالم. وما يقال او يتقرر بين جدرانه يتردد صداه فى كل بلد وصوب من انحاء المعمورة فهو المثل الاعلى للهيئات التشريعية فى العالم، والقدوة التى يجب ان تحذو حذوها جميع الدول ذوات النظم الديمقراطية البرلمانية.

بنايته

يعقد مجلس العموم جلساته فى قصر (وستمنستر) وهو البناية التى تضم مجلس اللوردات والبناية بحد ذاتها آية من آيات الفن (القوطى) يرجع تاريخ انشائها الى اواسط القرن التاسع عشر ولا اتذكر انى شعرت بلذة الاكتشاف مثلما شعرت بها عندما ساقتنى المصادفة الى اكتشاف بناية البرلمان الجميلة وانا سائر اليها عن غير ما قصد او دليل. فهى، ماعدا الفن المعمارى الذى تنفرد به، ذات موقع ممتاز على نهر التيمس ولا ادرى لماذا اقيم تمثال الدكتاتور (كرومويل) امام بناية مجلس هو كعبة النظم الديمقراطية فربما كان ذلك لتذكير رجال الحكم من الانكليز به وتحذيرهم من اقتفاء اثره والبناية كبيرة جدا فهى تتكون من قاعة وسطى كبيرة وهذه غير صالة الاجتماع

التى تسمى (بالقاعة الخضراء) (١) وحول هاتين القاعتين ممرات وايوانات (Lobbies) وعدد كبير من الغرف (٢) التى تستخدم لاغراض شتى وفى بناية المجلس مكتبة عظيمة ومطعم وغرف للتدخين واخرى للاستراحة. وهناك جناح خاص لسكنى بعض موظفى المجلس كالرئيس والكاتب والعريف.

قاعة الاجتماع

واما قاعة الاجتماع فهى صالة مستطيلة الشكل مظلمة لا يضيئها الا ما يدخلها من النور من نوافذها العالية. فهى تشبه بعض الشبه صالة مجلس النواب العراقى يخترقها ممر طويل يوصل المدخل بمقام الرياسة وتقع مقاعد النواب على طرفى هذا الممر وعند مدخل القاعة توجد موانع من قضبان نحاسية لا يمكن الا للاعضاء ان يتجاوزوها. ومقام الرياسة يتكون من كرسى كبير عال وامام الكرسى طاولة ضخمة يجلس حولها كاتب المجلس والعريف وهؤلاء مثل الرئيس يرتدون لباسا خاصا يشبه لباس الممثلين فى روايات شكسبير. وعلى هذه الطاولة وضعت مجلدات كبيرة من الكتب والمراجع وعليها ايضا صندوقان صغيران يتكىء عليهما الخطباء واحد لجهة الحكومة والاخر لجهة المعارضة. وعندما تبدأ جلسة المجلس ويأخذ الرئيس مكانه يوضع الصولجان (Mace) على الطاولة وهذا اشعار بعقد المجلس جلسته النظامية وعند انتهاء الجلسة النظامية او انعقاد المجلس بصفة لجنة يرفع هذا الصولجان من على المنضدة ويخفى تحتها. والى يمين مقام الرياسة يجلس الوزراء واعضاء حزب الحكومة والى يساره يجلس اعضاء حزب المعارضة. ومقاعد المجلس طويلة تمتد على طول القاعة بالتدرج وهى مغطاة بقماش اخضر اللون ولذلك سميت القاعة «بالقاعة الخضراء» وليس امام المقاعد مناضد يتكىء عليها الخطباء اثناء الكلام او يضعون عليها اوراقهم كما هو الحال فى اكثر المجالس. والمقعد الامامى من مقاعد الجهة الحكومية يسمى مقعد الخزينة (Treasury Bench) او المقعد الامامى (Front Bench) وهذه المقاعد هى المخصصة للوزراء فقط

---

(١) لقد هدمت هذه القاعة بالغارات الجوية وصار مجلس العموم يعقد اجتماعاته فى قاعة مجلس اللوردات.

(٢) تحوى بناية البرلمان ١١٠٠ غرفة وتشغل مساحة من الارض تبلغ ثمانية (اكرات).

وهى لا تكفى لجلوس جميع الوزراء فيضطر حينئذ الوزراء ذوى المراكز الثانوية للجلوس على المقاعد الخلفية. والجلوس على المقاعد الخلفية محصور بالنواب الذين لا شأن لهم من حيث مركزهم الحزبى او قوتهم فى الخطابة ويوصف الواحد منهم بانه(Back Bencher) اى الذين هم من ذوى المنزلة الثانية.

وعلاوة على هيئة الوزراء هناك عضوان من اعضاء المجلس ممن اكسبتهم التقاليد القديمة حق الجلوس على مقاعد (الخزينة) اسوة بالوزراء وهم أثنان من نواب مدينة لندن القديمة ولكن جلوسهما على هذه المقاعد يقتصر على الجلسة الافتتاحية للمجلس الجديد ولبضع دقائق فقط لكى لا يتنازلوا عن حقوقهم التقليدية فى ذلك.

ويقابل مقاعد الجهة الحكومية مقاعد المعارضة. وهكذا فان النظام الحزبى المزدوج قد حتم وجود جهتين فقط فى البرلمان. الجهة التى تستند اليها الحكومة والجهة التى تعارضها وفى جميع ادوار حياة البرلمان الانكليزى كانت المعارضة تستند الى حزب واحد او على الاقل الى حزب يمثل الاكثرية المعارضة. فكانت المعارضة تتنقل بين حزبى الاحرار والمحافظين ولما ضعف شأن الاحرار حل محلهم العمال ومع ذلك فجهة المعارضة تضم جميع احزاب المعارضة ولـكن المقعـد الامـامى لجهـة المعـارضة (Opposition Bench) مخصص لزعيم حزب الاكثرية من المعـارضة وهو وحده يسمى الاشخـاص الذين يجلسون الى جنبه على هذا المقعد ولا يتجاسر احد من المعارضة مهما كانت منزلتـه الحزبيـة ان يجلس عليـه من غير ان يـدعوه زعيم المعـارضة. وخلافا لمقاعد الجهة الحكومية فان لمقاعد المعارضة متكأ يتكىء عليه الخطيب وهو بمثابة المنبر الخطابى المستعمل فى بعض المجالس التشريعية الاخرى.

وعلى يمين منصة الرياسة مقصورة خاصة يجلس فيها موظفو الوزارات المختصة الذين تقضى مذاكرات المجلس حضورهم للجلسة لغرض ارشاد الوزير عن النقاط او الاستفسارات التى يوجهها اليه اعضاء المجلس وهذه المقصورة تسمى (The Official Pew) وهناك غير هذه المقصورة مقصورات

علیا مخصص بعضها بالضيوف الممتازين واعضاء السلك السياسى الاجنبى وبعضها لرجال الصحافة.

رئيس المجلس

هذا وصف مجمل لبناية المجلس ولنتكلم الآن عن هيئات المجلس وشخصياته فنبدأ بالرئيس. ان رئيس مجلس العموم يدعى بالمتكلم (Speaker) وهذا الاسم كما يلاحظ القارىء يختلف عن اسم رئيس مجلس اللوردات الذى قلنا انه يدعى (Lord Chancellor) . وهذه التسمية، ككثير من مظاهر المجلس الاخرى، اثر من آثار التقاليد البالية. ذلك ان مجلس العموم كان فيما مضى ينتدب احد اعضائه ليرفع العرائض والقرارات التى يرغب فى عرضها على الملك وهذا العضو هو الشخص الوحيد الذى يحق له التكلم مع الملك باسم المجلس ولذلك سمى «بالمتكلم» فبقى الاسم يطلق على رئيس المجلس.

انتخابه

يجرى انتخاب الرئيس واعتلاؤه منصة الرياسة بمقتضى تقاليد اقل ما يقال فيها انها غريبة ومضحكة. فاذا ما شغرت رياسة المجلس اما بموت الرئيس او باعتزاله الخدمة، اذ جرت العادة ان يعاد انتخاب الرئيس نفسه فى كل دورة الى ان يموت او يعتزل، يرشح رئيس الوزارة احد اعضاء المجلس لهذا المنصب ويفضل ان يكون العضو المرشح نائب الرئيس، بعد ان يتأكد من ان المرشح يتمتع بثقة المجلس والعرش واحترامهما. وتجرى عملية الانتخاب تحت مراسم خاصة اذا كان المجلس يجتمع لاول مرة بعد انتخابات عامة. ذلك ان رئيس مجلس اللوردات يذيع باسم الملك انه على مجلس العموم ان ينتخبوا رئيسا لهم. وكيفية ذلك انه يرسل رسوله الذى يسمى (Black rod) الى مجلس العموم فيخبرهم بلزوم الحضور الى مجلس اللوردات وعند ما يتم حضورهم يعلن رئيس اللوردات رغبة الملك بالقيام بالانتخاب وبعد ذلك يعود النواب الى مجلسهم يتقدمهم كاتب المجلس. وحينما يرشح رئيس الوزارة رئيس المجلس الجديد يقوم اثنان من اعضاء المجلس الذين لا علاقة لهم بالحكومة فيثنون على الترشيح للدلالة على ان الترشيح لم يكن برأى الحكومة فقط بل بموافقة المجلس ايضا وبذلك يكون انتخاب الرئيس قد تم وعلى المجلس والملك ان يوافقا على هذا المرشح لان

رفض ذلك يعنى عدم الثقة بالوزارة الامر الذى يتطلب استقالتها. ان الترشيح والتثنية يجريان بمقتضى مراسم اشبه بالتمثيل الروائى. اذ يتقدم كاتب المجلس دون ان ينبس ببنت شفة، لان التقاليد تحرم عليه الكلام، فيومى، باصبعه الى احد الاعضاء الذى كان قد كلف قبلا بان يقدم اقتراحا بانتخاب الرئيس وتسمية اسم المرشح الذى اراده رئيس الوزراء. ثم يتجه الكاتب نحو جبهة المعارضة فيومى. ايضا الى احد الاعضاء الذى كان قد كلف ايضا بتثنية الاقتراح وبعدما يتم ذلك تكون عملية الانتخاب قد تمت اى ان المجلس جميعه لا يشترك بانتخاب الرئيس كما هى العادة المعروفة عند انتخاب رؤساء الهيئات او المجالس. ثم يبدأ الفصل الآخر من هذه الرواية التمثيلية ذلك ان اثنين من الاعضاء يتقدمان نحو الرئيس الجديد فيمسكان بذراعيه ويقودانه باكراه نحو مقام الرياسة وهو يظهر تمنعاء وفى بعض الاحيان يكون هذا التمنع شديدا، الى ان يتغلب عليه العضوان ويسحبانه من محله الى منصة الرياسة وعندما يعتليها يضج المجلس بالتصفيق والهتاف. ان تمنع الرئيس الجديد هذا يرجع سببه الى تقاليد قديمة اذ ان الرؤساء الاقدمين كانوا عرضة لغضب الملوك الامر الذى جعل مهنتهم شاقة مضنية حتى ان منهم من ضحى بحياته فى سبيل هذا المنصب ولذلك جرت العادة ان يحجم الرئيس الجديد عن قبول هذا المنصب ولكنه يذعن لارادة المجلس فيقبل به.

اهمية منصبه

ان منصب رئيس المجلس منصب خطير وذو اهمية كبيرة فى الحياة البرلمانية. فيجب قبل كل شيء ان يتصف الرئيس بصفات شخصية خاصة، فعليه ان يكون مستقيما فى عمله بعيدا كل البعد عن التيارات الحزبية ناهيك بالميول الشخصية. وان يظهر حياده التام فى كل قضية تعرض عليه فهو الحكم العادل فى الاختلافات التى تحصل بين الاعضاء او بين المجلس والوزارة وقوله هو الفصل فيما يخص تفسير النظام الداخلى. وقد يسترشد الرئيس بخبرة كاتب المجلس الذى يعتبر اكبر الثقات فى الامور البرلمانية. وفى بعض الاحيان يحيل الرئيس بعض المسائل الى المجلس ليقرر ما ينسبه حولها وعلى كل فله ملء الحق فى اصدار اى قرار من تلقاء نفسه من غير ان يكون هذا القرار تابعا للتغيير او التبديل من قبل اية سلطة اخرى. ويتمتع الرئيس

بصلاحيات واسعة وسلطات انضباطية صارمة تجاه الاعضاء. فاذا ما خرج احد الاعضاء عن الاصول المرعية سواء بكلامه او بحركاته او باية بادرة تبدر منه مما لا تتفق وحرمة المجلس فانه يستحق العقاب؛ ويكون عقابه بان يقف رئيس المجلس ويمد يده نحو العضو المقصر الذى عليه حينئذ ان يسكت ويجلس فى محله حالا لان تقاليد المجلس تقضى بان يجلس جميع الاعضاء عندما يكون الرئيس واقفا على ان هذا النوع من العقاب قليل الاستعمال لان الرئيس يكتفى عادة بان يلفت نظر العضو الذى يخرج عن الاصول شفهيا واذا ما تمادى فى غية فيطلب منه الرئيس مغادرة القاعة فاذا ما استمر العضو فى نشوزه يكون عرضة لاقسى انواع العقاب الا وهو عقاب التسمية ومعنى ذلك ان الرئيس يسمى هذا العضو باسمه اذ انه يخاطب الاعضاء عادة بهذا الشكل (The right Honorable member for so and so) وفى حالة فرض العقاب عليه يقول (I name Mr. So and so to the House) واذا ما لفظ الرئيس هذه الجملة فهنا الطامة الكبرى على العضو اذ يتبع ذلك صدور قرار من المجلس بفصل العضو حالا للمدة الباقية من الدورة. وقد شغل رياسة المجلس فى القرن الحالى ثلاثة رؤساء. فبعد وفاة المستر (وايتلى) فى ١٩٢٨ اخلفه الكابتن (Fitzroy) الذى بقى فى منصبه حتى السنة الماضية وانتخب بعد وفاته الكابتن (Brown).

ان استئناف الرئيس اعماله يجب ان يسبقه فريضة تأدية الصلاة. فيدخل المجلس بموكب ذى حشمة وجلال يرافقه القس (Chaplain) ومعهما العريف (Sergeant-at-arms) حاملا سيفه. فيبدأ القس الصلاة بقراءة آية معينة من الكتاب المقدس وفى اثناء ذلك يجب ان تكون الشرفات خالية من المستمعين واذا وجد بعض الاعضاء داخل القاعة فعليهم ان يوجهوا وجوههم نحو جدران القاعة وظهورهم نحو القس وهذه كما يرى القارىء عادة غريبة لم اتمكن من الوصول الى منشئها او القصد منها.

افتتاح المجلس

وفى يوم افتتاح دورة المجلس الجديد تجرى عملية تفتيش المجلس وهى عادة كغيرها من العادات والتقاليد الغريبة. ففى الصباح الباكر ليوم الافتتاح يأتى فصيل من حرس قلعة لندن(Yoemen of the Tower of London)

الذين يسمونهم العوام (Beefeaters) اى آكلة لحوم البقر الى مجلس العموم مرتدين البسة من آثار القرون الماضية ويحمل كل منهم فانوساً ويدخل الحرس تحت قيادة رئيس التشريفات لقصر ويستمنستر (Lord Great Chamberlain) الى داخل المجلس فيفتشون كل غرفة من غرفه وكل زاوية من زواياه حتى المواقد والمداخن والانابيب وما شاكل. وبعد الانتهاء من عملية التفتيش هذه يقدم الحرس تقريرا الى العرش عن نتيجة مهمتهم وعن خلو بناية المجلس من كل عدو او كل خطر.

لبس البرانيط

ومن العادات الاخرى المتبعة فى مجلس العموم عادة لبس البرانيط اثناء انعقاد الجلسة والاتيكيت المتعلق بها. ان عادة لبس البرانيط داخل المجلس عادة قديمة جدا ولكنها اخذت تزول بمر السنين وفى السنين التى سبقت الحرب كان قليل جدا من اعضاء المجلس من حافظ على هذا التقليد بدقة وانتظام وبعد وفاة السير اوستن تشمبرلين الذى حافظ على تقليد لبس البرنيطة العالية (Top Hat) عند حضوره جلسات المجلس لم ار احد غيره من اعضاء المجلس من تمسك بهذا التقليد كما تمسك به السير اوستن. ولو ان التقاليد كانت تقضى بلبس اعضاء مجلس العموم البريطانية وحسر اعضاء مجلس اللوردات رءوسهم الا ان هذا التقليد اخذ ينعكس فى السنين الاخيرة فصار اعضاء المجلس الاول يهملون لبسها واعضاء المجلس الثانى يلبسونها. غريب والله امر هؤلاء القوم فلا تدرى كيف يحافظون على بعض التقاليد ولا تدرى كيف يغيرون بعضها الاخر وكل ذلك يجرى ولا يعلم الواحد كيف ولماذا جرى. ان لبس البرنيطة داخل قاعة المجلس تابع لاصول وقواعد معينة. فتقضى هذه القواعد والاصول بان يرتدى العضو برنيطة (ان كانت لديه برنيطة) ما دام جالسا فى محله اما اذا قام ليتكلم او اذا اراد ان ينتقل من مكان الى اخر فعليه ان يرفعها (عدا النساء طبعا) وحتى اذا اراد ان يكلم زميلا بجنبه فعليه ان يرفعها ايضا. ولكن من الناحية الاخرى اذا اراد العضو ان يعترض على مخالفة للنظام الداخلى اثناء اجراء عملية التصويت يجب ان يفعل ذلك وهو جالس وعلى رأسه برنيطة ويظهر أن هذه العادة قد اهملت الان. وهناك عادة اخرى ترتبط باستعمال البرنيطة ذلك ان الوزير الذى قدم لائحة

الى المجلس وتمت المذاكرة فيها يشير الى الرئيس برفع برنيطته دليلا على ان المذاكرة عن اللائحة قد تمت وللرئيس ان يعرضهـا الان للتصويت. ورئيس المجلس يحمل بيده قبعة غريبة الشكل ذات نتوءات ثلاثة وعندما يعتلي منصة الرياسة يضعها الى جنبه وعندما يغادر المجلس يأخذها معه وهو لا يرتديها ابدا.

المقاعد

ولا تنتهي تقاليد مجلس العموم وعاداته القديمة بالبرنيطة فكل حركة او بادرة مقيدة كما قلنا بعادات وتقاليد. ومن هذه كيفية جلوس النواب على مقاعدهم. قلنا ان المقاعد الامامية (Front Bench) محجوزة لاعضاء الوزارة فهم لا يحتاجون الى التسابق والمنافسة على حجز مقاعدهم واما بقية الاعضاء فانهم يضطرون الى حجز مقاعدهم قبل عدة ساعات من انعقاد الجلسة خاصة فى الجلسات الخطيرة التى يحتمل حضور عدد كبير من النواب فيها. ومقاعد المجلس كما تقدم ذكره لا تكفي الا لجلوس اكثر من نصف عدد النواب بقليل فيضطر العضو الذى لم يحجز مقعده ان يبقى واقفا فى الممر او بقرب المدخل. وحجز المقعد يكون اما بوضع النائب برنيطته عليه واما بوضع بطاقته الشخصية. وقد عين نظام خاص كيفية حجز المقاعد بواسطة البرانيط وهذا النظام كان قد وضع على اثر حادثة جرت فى المجلس عندما ادخل احد النواب عددا عظيما من البرانيط الى المجلس وحجز بها عدة مقاعد لاعضاء حزبه الامر الذى حتم النظام ان البرنيطة التى تستعمل لحجز المقعد يجب ان تكون برنيطة العضو نفسه التى يرتديها عادة. ومن الظرائف التى جرت فى المجلس عن البرنيطة هى صادف ان جلس احد الاعضاء على برنيطته على غير علم منه فقام عضو مرح الروح فقال للرئيس : «يا حضرة الرئيس نشكر الله تعالى لان رأس العضو لم يكن فى البرنيطة عندما جلس عليها».

حمل السلاح

ولا يجوز حمل اى نوع من السلاح فى قاعة الاجتماع وقد تقرر ذلك عندما كثرت فى العصور الماضية حوادث المبارزة (Duels) اثناء الجلسات. وبغية منع اشتباك النواب بعضهم ببعض بسبب المناقشات الحادة قرر المجلس رسم خط فى وسط الممر الكبير الذى يفصل بين مقاعد جهتي المجلس ومنع الاعضاء من اجتياز هذا الخط من جهة الى اخرى اثناء المناقشة وان فعل احدهم

ذلك يكون قد ارتكب مخالفة ضد النظام الداخلي.

انظمة المجلس الداخلية

كل ذلك يجري من غير ان يكون للمجلس انظمة واصول ثابتة ومحصورة ولذلك فان الاحاطة بجميع هذه الاصول والتقاليد تتطلب وقتا وتجربة طويلين. يروى ان احد الاعضاء الجدد راجع كاتب المجلس طالبا تزويده بنسخة من نظام المجلس الذي يظم جميع الاصول والتقاليد المطلوب من العضو مراعاتها، فاجابه الكاتب بعدم وجود مثل هذا النظام ولما سأله العضو «اذن كيف سأتعلم هذه القواعد والاصول». اجابه الكاتب «بخرقها يا سيدي» وربما كانت هذه الرواية موضوعة لان هناك مجموعة مطبوعة للانظمة الداخلية المستعملة في المجلس والتي تسمى (Standing Orders) ولو انها لا تضم جميع القواعد والاصول الواجبة الاتباع. وقد يحتاج العضو الى سنين طويلة للاحاطة بهذه القواعد والاصول واتقانها. اقول سنين طويلة لان بعضهم قد بقي اكثر من عشرين سنة ولم يتقنها. سمعت مرة الليدي (استور)، وقد دخلت البرلمان لاول مرة سنة ١٩١٩، ترغد وتزبد لانها كانت قد سألت وزير الخارجية سؤالا كان جوابه عليه «لا. يا سيدي» فاحتجت النائبة لانها كانت تأمل منه ان يقول «لا سيدتي». فكان حكم الرئيس ان الاسئلة والاجوبة توجه عن طريق الرئيس ولذلك فجواب الوزير كان للرئيس وليس «للعضوة النبيلة».

ان القسم الاعظم من نظام المجلس الداخلي يتعلق بتعيين الوقت لمختلف وظائف المجلس. فاللوائح التي تقدمها الوزارة لها وقت خاص والاقتراحات والتعديلات لها وقت خاص ومنهاج الجلسة الاعتيادي (Orders of the day) له وقت خاص واللوائح المقدمة من اعضاء بصفتهم الشخصية (Private Members Bills) لها وقت خاص. وهناك وقت خاص لاسئلة النواب واجوبة الحكومة عليها وهذا القسم من الجلسات امتع شيء في المجلس اذ يسمع الزائر انواعا من الاسئلة التي يستبعد توجيهها في اي مجلس آخر من مجالس العالم. ان لكل عضو من الاعضاء الحق في توجيه اربعة اسئلة في الجلسة الواحدة ولذلك فان مجموع الاسئلة التي توجه في كل جلسة يتراوح بين ٥٠ و ٢٠٠ سؤالا. وهذه الاسئلة توجه عادة قبل الجلسة بيوم واحد ثم تطبع

الاسئلة

فى منهاج الجلسة تحت عنوان (Questions for Oral Answers) وتوزع على الاعضاء وعلى الزائرين ولاطلاع القارىء على طبيعة هذه الاسئلة انقل اليه مقتطفا من الـ (١٠٥) اسئلة المدونة فى احدى مناهج الجلسات التى حضرتها:

نموذج منها

الثلاثاء ـ ٤ ايار ١٩٣٧

اسئلة للاجابة عنها شفهيا

سؤال رقم ٣ ـ المستر آمون ـ يسأل وزير الدومنيونات عما اذا كان قانون الصيانة لرودوسيا الجنوبية الذى وضع ضد الاذاعة والنشر الذى يسبب الكراهيـة ضد الاوربيين يضم نصوصا تمنع الاذاعة والنشر الذى يسبب الكراهية ضد سكان البلاد الحقيقين ايضا ؟.

سؤال رقم ٣٧ ـ المستر أيد ـ يسأل وزير الحربية عن الجهة التى سمحت بوضع احجار كبيرة فى بعض الطرق فى مقاطعة (سارى) وما هى التدابير التى ينوى اتخاذها لازالة الازعاج والخطر الذى تسببه هذه الاحجار للسكان وللخيل ؟.

سؤال رقم ٤٦ ـ المستر بوثبى ـ يسأل رئيس الوزراء عما اذا كانت حكومة جلالته تنوى الدخول فى مفاوضات مع حكومة الولايات المتحدة لعقد اتفاقية اقتصادية تشمل نواحى اوسع من اتفاقية النقد الجديدة ؟.

سؤال رقم ٤٧ ـ المستر سورنس ـ يسأل رئيس الوزراء عما اذا كان فى امكانه بيان نية الحكومة بخصوص المساعدات التى ستقدمها للائحة الزواج ؟

سؤال رقم ٥٠ ـ المستر ثورن ـ يسأل رئيس المجلس عما اذا كان فى امكانه الادلاء عن الجهة التى اصدرت الامر بان الذكور من المتفرجين (على مراسيم تتويج جلالة الملك جورج السادس) الذين حجزوا مقاعد حول تمثال الملكة فكتوريا لا يسمح لهم باقتعادها ما لم يكونوا لابسين بدلة الفراك او البونجور ؟.

سؤال رقم ٥٢ ـ المستر آكلاند ـ ترويت ـ يسأل وزير المالية عما اذا كان يعلم ان رسوما باهظة تدفع الى الخزينة عند منح الالقاب والاوسمة من قبل العرش وعما اذا كان يرى ضرورة الغاء هذه الرسوم ؟.

سؤال رقم ٩٩ ـ المستر ماندر ـ يسأل وزير الخارجية عما كان لديه

بيان يدليه حول الوضع الحاضر فى (ميمل) وعما اذا كان قد اطلق سراح الذين القى القبض عليهم بمناسبة محاكمات سنة ١٩٣٤ ؟.

يتضح للقارىء من صيغة الاسئلة انهاتقتصر على طلب العضو ايضاحات من الوزير المختص عن الامور المعينة فى السؤال ويلاحظ القارىء ايضا ان الاسئلة بعيدة كل البعد عن روح الجدل والمهاترة والاتهام الموهوم والاستنباطات التى لا تستند الى الحقيقة كما انهابعيدة عن ذكر الشخصيات والمس بكرامة الوزراء او التهكم بهم او استهجان اعمالهم. اذ من صلاحية رئيس المجلس اذا ماشعر ان احد الاسئلة يتضمن بعض هذه الامور ان يهمله. فهل لحضرات النواب فى مجالسنا النيابية ان يلاحظوا الميزات التى يجب ان تتوفر فى السؤال الموجه الى الوزير المختص او اثناء المناقشة فى الامور العامة ؟ اذ يظهر ان بعضهم يجوز لنفسه الكلام او التصدى لكل ما يمكن ان يفوه به فمه. ان للمناقشات البرلمانية حدودا من اللياقة وآداب الكلام والحرمة يجب الا يتعداها العضو مهما كانت درجة معارضته وحرصه على المصلحة العامة !

ومن الاصول المرعية فى توجيه الاسئلة فى البرلمان الانكليزى ان للوزير المختص الا يجيب على السؤال اذا ما اعتقد انه يتعلق بسياسة الدولة الخارجية او الداخلية مما تقضى المصلحة العامة بعدم التطرق اليه فى جلسات المجلس العلنية. وقد تقع كثير من الاستفهامات والتعليقات على الاسئلة والاجوبة بين النواب والوزراء ولكن الاصول يقضى بعدم تطور هذا الاخذ والرد الى مناقشة اصولية. وهذه التعليقات والاستفهامات هى غير ما نسميه نحن بالاستيضاح (Interpallations) فالاستيضاح هو سؤال يقدم الى الوزير وكثيرا ما يؤدى الى مناقشة اصولية يشترك فيها المجلس وقد تؤول الى التصويت بطلب الثقة بالوزير او بالوزارة كلها. ولكن الاصول المتبعة فى مجلس العموم بطلب فتح باب المناقشة فتحا اصوليا حول جواب الوزير المختص عن هذه الاسئلة تقضى بان يتقدم عند ختام وقت الاسئلة اربعون عضوا على الاقل باقتراح يسمى اقتراح التأجيل(Motion to adjourn) فاذا رأى الرئيس ان هذا الاقتراح مطابق للنظام الداخلى قرر الدخول فى المناقشة فى اليوم ذاته وقد تؤدى هذه المناقشة الى التصويت (Vote)

التصويت

ويجرى التصويت وفق ترتيب خاص. ذلك ان الرئيس يأمر بالانقسام (Division) فيذهب الاعضاء الى اواوين الانقسام (Division Lobbies) فالمؤيدين (اى الذين يصوتون ''Aye'' اى نعم) يصطفون الى اليمين والمخالفون (اى الذين يصوتون لا ''No'') يصطفون الى اليسار. وفى هذه الاثناء تدق الاجراس فى جميع انحاء المجلس ايذانا بجريان عملية التصويت وهنا يظهر المراقبون (Whips) نشاطهم ولبقاتهم فى جمع الاعضاء اثناء القيام بعملية التصويت اذ ان عدم اشتراك اكثرية الاعضاء بسبب الانخذال الذى كثيرا ما ادى الى سقوط الوزارة. وبعد مرور ست دقائق على دق الاجراس تغلق ابواب الاواوين. فيتقدم كل عضو من الاعضاء نحو صندوق الاقتراع ويسجل صوته اما بالرفض واما بالقبول.

التأجيل

وهناك عادة غريبة اخرى. وهى عند انتهاء جلسة المجلس وبدء الاعضاء بمغادرة القاعة تسمع فراشى المجلس ينادون باروقته «فى الوقت المعين غدا» (The Usual Time Tomorrow) «فى الوقت المعين غدا يا سيدى» ومعنى ذلك ان الجلسة القادمة ستبدأ فى الوقت المعين اى فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين بعد الظهر وهذا الوقت معين فى النظام الداخلى للمجلس لكن التقاليد هى التى توجب المناداة بذلك اذ لم يكن فى الماضى لا نظام داخلى مطبوع ولا صحف يومية ولا محطات اذاعة تذيع موعد التئام الجلسة فبقيت هذه العادة حتى هذا اليوم.

الاستقالة

وقد يستغرب القارىء اذا ما علم ان النائب الانكليزى لا يتمكن ان يستقيل من عضوية المجلس حتى يكمل الدورة النيابية مهما كان سبب الاستقالة. وسبب هذه الصرامة ضد الاستقالة يرجع الى الايام التى كانت النيابة فيها عبئا ثقيلا على الشخص بالنظر الى الصعوبات والعراقيل التى كان النواب يجابهونها من الملوك فوضعت قيود ثقيلة على الذين ينتهزون أول فرصة للتخلى عن هذه الواجبات. ولتلافى ذلك وضع قانون ينص على ان كل عضو يقبل وظيفة ذات مرتب من الخزينة الخاصة يفقد وظيفته النيابية لان الملوك كانوا يشترون بعض الاعضاء بمنحهم رواتب من خزائنهم قصد التأثير فى المجلس بواسطة هؤلاء الاعضاء. فكيف تتم عملية استقالة العضو اذن ؟.

توجد ثلاث مقاطعات ملكية فى منطقة (Buckinghamshire) تسمى (Chiltern Hundreds) وكان الملك يعين امينا لهذه المقاطعات يدفع له راتبا من الخزينة الخاصة وبالرغم من زوال الوظيفة التى كان يقوم بها هذا الامين بقى المنصب اسميا كمخرج للاعضاء الذين يرغبون فى الاستقالة من مجلس العموم. فاذا رغب العضو فى الاستقالة فانه يقدم عريضة الى وزير المالية يطلب فيها تعينه لهذا المنصب الاسمى. فتصدر الموافقة حتما وتنشر فى الجريدة الرسمية وحينما يطلع عليها رئيس المجلس يعلن ان العضو اصبح غير اهل للعضوية لانه قبل وظيفة يقبض اجرها من الملك. واذا اراد عضو آخر ان يستقيل بعد مدة فانه يتبع هذه الطريقة عينها ويحل محل العضو الذى كان يشغل المنصب نفسه. وفى حالة استقالة عدة اعضاء فى وقت واحد اتخذت احتياطات اخرى وذلك بتعيين الاعضاء الى امانة بعض القصور الملكية مثل (Manors of Northstead or Poynings) وهذه الطريقة لم تتبع الا فيما ندر.

وهناك غريبة اخرى من غرائب ابى المجالس النيابية فى العالم. قلت ان المجلس يعقد جلسته من الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين بعد الظهر وتستمر الجلسة الى الليل وكثيرا ما استمرت الجلسة يومين متواليين واحيانا ينتهى المجلس من اعماله قبل منتصف الليل وعندما تنهى الجلسة يذاع خبر تأجيلها بان يتقدم بواب المجلس الى الاروقة ويصيح «من يذهب الى البيت» (Who Goes Home) فيردد صداه جميع فراشى المجلس من جميع الاروقة والزوايا «من يذهب الى البيت» فعندئذ يبدأ الاعضاء بمغادرة المجلس ويذهبون الى بيوتهم.

حل المجلس

وحل المجلس يجرى ايضا بطريقة شاذة. فعندما يتقرر الحل يرسل الملك ارادته الى لجنة مكونة من خمسة اعضاء من مجلس اللوردات تحت رياسة الرئيس. فتدعو هذه اللجنة اعضاء مجلس العموم الى قاعة مجلس اللوردات ويقوم الرئيس فيقرأ عليهم ارادة الحل. وبعد استماعهم الارادة يغادر اعضاء مجلس العموم القاعة الى قاعتهم فيأخذ كل منهم محله. وبعد ذلك يقوم الرئيس من منصته ويتقدم بضع خطوات عنها وينحنى لكرسى الرياسة

ثم يغادر القاعة يتبعه العريف حاملا الصولجان. فيغادر الوزراء والاعضاء القاعة الى الخارج وهنا ايضا ينادى الفراشون باعلى اصواتهم «من يذهب الى البيت» وهكذا يذهب نواب الامة الى بيوتهم استعدادا للمعركة الانتخابية المقبلة.

تصرفات الاعضاء

وهنا اود ان اختم الكلام عن مجلس العموم بكلمة عامة عن سير الجلسات وتصرفات الاعضاء. فقد امتاز مجلس العموم البريطانى بين مجالس العالم بما يظهره من وقار وسكينة وضبط النفس. ولا شك ان كل مجلس يعتبر مرآة تعكس مزايا وخلق الشعب الذى يمثله فكم بالاحرى ان يكون مجلس العموم البريطانى مرآة تعكس اخلاق الشعب الانكليزى، ذلك الشعب الذى امتاز بضبط النفس والعواطف وقلة التأثر وعدم التطرف بالمدح او القدح. فيندر ان تحصل فيه من الحوادث التى تجرى عادة فى المجالس الاخرى كالمهاترة بين الاعضاء او التراشق بالالفاظ او المس بالشخصيات او (ضرب الراشديات) او ما شاكل ذلك. وان حصل شيء من ذلك فقد تعتبر من الحوادث التى يسجلها تاريخ المجلس(١).

لهجة المناقشة

على كل عضو من اعضاء مجلس العموم ان يتقن لغة المناقشة التقليدية فيجب عليه ان يتكلم بكل هدوء وتؤدة ورزانة وان يتجنب اللغز والمغالاة والمغالطة والا يتحامل على خصومه بلغة جارحة بذيئة. فالصراخ او الاشارات اليدوية او الحركات الجسمية يجب تجنبها اثناء الكلام وخاصة اذا ما علم العضو ان مثل هذه الامور لا تزيد فى التأثير الذى يتركه فى نفوس سامعيه. ولا يجوز التصفيق فى مجلس العموم البريطانى كأشارة للاستحسان او التقدير واذا ما اريد اظهار شيء من ذلك فانه يجرى بطريقة اخرى اذ يصيح العضو الذى اعجبه قول او عمل «اسمع : اسمع»(hear, hear) وقد تستعمل هذه الكلمات فى باب التهكم. وغير هاتين الكلمتين يسمع الشخص كلمات اخرى بين حين وآخر «النظام : النظام» او «الاستقالة : الاستقالة» او بعض الفكاهات والردود القصيرة التى تتطاير من فم ممثلى شعب يعبد النكات والملح.

(١) ان حادثة تجاوز المستر شنويل احد اعضاء حزب العمال على الكومندار باور احد اعضاء حزب المحافظين وصفعه على وجهه بسبب ملاحظة ابداها الثانى نحو الاول اعتبرها اهانة شخصية كانت من الحوادث النادرة جدا فى مجلس العموم. وقد وقعت هذه الحادثة فى سنة ١٩٣٧ على ما اتذكر.

ولا شك ان هذه الردود والنكات يجب ان تكون ضمن نطاق حدود اللياقة والمجاملة والتقاليد. وصادف ان اراد احد الاعضاء النكتة فقصد طاولة المجلس وحمل الصولجان واخذ يديره بيده فى الفضاء فقامت قيامة المجلس ومن ورائه الرأى العام واعتبروا حركة العضو خارجة عن حدود اللياقة والادب (bad form)

ويجب ان اذكر بهذه المناسبة ان قراءة الخطابات غير مسموح بها فى مجلس العموم فعدا اجوبة الاسئلة لا يمكن للعضو ان يقرأ خطاباته حرفيا ولذلك اصبحت المقدرة الخطابية للعضو اول الملكات التى يجب ان يتصف بها قبل ترشيح نفسه للنيابة ومن باب اولى يجب توفرها فيمن يطمح الى الوزارة.

المحاضر

ان محاضر المجلس تجمعها وتنشرها شركة خاصة تحت اشراف المجلس وتسمى مجموعة محاضر المجلس بـ(Hansard)وهو اسم الشركة التى تصدرها. وبالرغم من المحاولات التى جرت لاذاعة بعض الخطب الخطيرة التى تلقى فى المجلس وخاصة خطب رئيس الوزراء فقد فضل مجلس العموم عدم السماح للطرق العلمية الحديثة بالتسلل بين آثار المجلس التقليدية.

الانتخابات

هذا هو مجلس العموم البريطانى وما يتعلق به من حيث التشكيلات الداخلية والاصول التى تسير بموجبها جلسات المجلس. ولنستعرض الان كيفية انتخاب اعضاء هذا المجلس. ان انتخاب اعضاء مجلس العموم والحقوق والواجبات المتعلقة باستعمال هذا الحق هى الروح التى يستند اليها النظام الديمقراطى الانكليزى. وربما كان كثير من الدول ذات النظام الديمقراطى تشابه انكلترا من ناحية نظمها السياسية او من ناحية تمتع الفرد بالحرية الكاملة لاستعمال حقوقه، لكن النظم السياسية وحريات الفرد ليست كافية لنجاح النظم الديمقراطية. وان نجحت الديمقراطية فى انكلترا بالشكل الذى نراه فانما ذلك يتوقف على عامل اخر غير العاملين اللذين ذكرناهما. فالشعب البريطانى كما قلنا فى الفصل الاول يتحلى ببعض الصفات التى ينفرد بها عن بقية الشعوب وهذه الصفات هى التى ادت الى نجاح النظام الديمقراطى فى انكلترا. فلنقارن مثلا بين الشعب الفرنسى او العراقى من جهة وبين الشعب

البريطاني من جهة ثانية، وهذه الشعوب الثلاثة شعوب ديمقراطية سواء أكان من ناحية شكل حكمها او ناحية طبيعة افرادها، نرى مثلا ان الشعب البريطاني عموما يتصف بالرقة والعطف والتسامح. فالكراهية او الغدر او الانتقام او الحسد او ما شاكلها قلما يكون لها اثر فى علاقات الافراد بعضهم ببعض. اضف الى ذلك الادراك العام انه لا بد ان تحصل فى كل هيئة اجتماعية اقلية واكثرية وذلك بسبب تباين الميول والاعتبارات والمصالح بين مختلف الهيئات الاجتماعية وان للاقلية حقوقا وواجبات بقدر ما للاكثرية فيها فان ادرك كل فرد من المجموع هذه الحقيقة فان النظام الديمقراطى فى تلك الهيئة لا محالة ناجح. تلك هى العوامل الاساسية الثلاثة التى ضمنت نجاح النظام الديمقراطى فى انكلترا فمن الخطل ان يحاول اى شعب لا توفر فيه جميع هذه الصفات تقليد النظام الانكليزى بحذافيره ذلك النظام الذى اصبح جزءا لا يتجزأ من طبيعة القوم ونفسيتهم. وقبل تطبيق النظم الانكليزية فى اية مملكة يجب على تلك المملكة ان تبنى كيانها الوطنى على اسس تشبه الاسس الانكليزية فالتربية والتهذيب والنشأة العائلية والمحيط الخاص الذى ينشأ فيه الفرد والنظام السائد والعادات والتقاليد الوطنية وغير ذلك كل هذه العوامل يجب توفرها فى البلاد التى ترغب فى تقليد النظم الانكليزية قبل الاقدام على تطبيقها على النمط الانكليزى اذ فيما عدا ذلك قد يؤدى التقليد الى نتيجة معكوسة.

المناطق الانتخابية

لقد قسمت انكلترا للاغراض الانتخابية الى مناطق انتخابية معينة (Constituencies) ولم يجر هذا التقسيم بمقتضى اى اساس او قاعدة فبعض هذه المناطق تتكون من مدينة باسرها وبعضها من جزء من مدينة كبيرة وبعضها يتكون من منطقة تضم عدة مدن وقرى. ويمثل جميع هذه المناطق الانتخابية (٦١٥) عضوا على اساس عضو واحد لكل (٧٥،٠٠٠) نسمة. وتستثنى من ذلك الجامعات اذ ان الجامعات الانكليزية لها عدد مقطوع من الممثلين كان فيما مضى (١٥) ثم انزل الى (١٢) عندما استقلت ايرلندا الحرة بهيئتها التشريعية. ويمثل هذا العدد من النواب جامعات انكلترا وجامعات اسكوتلندا وجامعة ويلز وجامعة بلفاست فى ايرلندا الشمالية. وكل بريطاني حصل على شهادة عالية من احدى هذه الجامعات يتمتع بصوت اضافى فى

التصويت بالنظر الى ما لهذه الطبقة من الشعب من المنزلة الثقافية. وأراه امتيازا حسنا حبذا لو اقتدينا به نحن فى العراق عند تعديل قانون الانتخاب. اذ مما لا شك فيه ان اعطاء ذوى الثقافة العالية هذا الامتياز فى الانتخاب له فوائده الكثيرة وفى الامكان حتى منح خريجى الدراسات الثانوية مثل هذا الامتياز فى محيط مثل العراق تقل فيه نسبة المتعلمين الى درجة كبيرة.

مواعيد الانتخابات

تجرى الانتخابات العامة فى انكلترا مرة فى كل خمس سنوات الا اذا حل المجلس قبل انتهاء دورته الاعتيادية. واذا انتهت دورة المجلس فى ظروف استثنائية ففى امكانه تمديد حياته بنفسه وذلك باصدار قرار منه بالتمديد لمدة سنة اخرى قابلة للتمديد حتى زوال تلك الظروف. وقد صادف ان انتهت دورة مجلس العموم اثناء الحرب الماضية فمددت دورته عدة مرات. وكان المجلس الحالى قد انتخب فى سنة ١٩٣٥ ولما بدأت الحرب كادت الدورة تنتهى فاخذ المجلس فى كل سنة يمدد دورته حتى اصبحت دورة هذا المجلس من اطول دورات المجالس النيابية فى تاريخ انكلترا.(١) وهذه هى احدى الشواهد على مرونة الدستور الانكليزى وقابليته للتطور والتكيف بحسب الظروف ومقتضياتها اذ ان فرض الانتخابات العامة على البلاد وهى منغمسة فى الحرب وقد كرست كل نشاطها فى سبيل المجهود الحربى مما قد لا يخلو من نكبات وطنية.

ظروف حل المجلس

ان حل المجلس فى انكلترا ليس بالامر الهين كما تتصوره بعض الدول الحديثة فى الحياة البرلمانية. فهناك عوامل كثيرة يجب ضمانها قبل الاقدام على الحل. فعلى الوزارة القائمة ان تنتهز الوقت الملائم للحل وذلك عندما تتأكد ان الرأى العام بجانبها كما عليها ان تختار موضوعا معينا ليكون الاساس الذى يجرى بموجبه ترشيح الاعضاء. فاذا كان هذا الموضوع قد استهوى الناخبين واتفق مع حالتهم الفكرية آنئذ فان مجرد اختيار ذلك الموضوع يكون كافيا لضمان النجاح فى الانتخابات. ان الناخب الانكليزى لا يهتم ان صوت لهذا الحزب السياسى او لذلك ويدلك على ذلك الذين يصوتون لمختلف الاحزاب

(١) يكون عمر المجلس الحالى فى شهر تشرين الثانى ٩٤٤ عشر سنوات وهى اطول دورة لمجلس منذ ١٦٦١

بمختلف الانتخابات فهؤلاء يزيدون اضعافا مضاعفة على الذين يتمسكون بالتصويت لحزب واحد. ان الفريق الاول من بين هذين الفريقين هو الذى يحسب له الحساب الخاص فى الانتخاب والذى يعول عليه للحصول على اكثرية الاصوات ولذلك فان الحزب او المرشح الذى يتمكن من جذب هذا الفريق هو الفائز. فاذا راقت دعاية مرشح محافظ لمنتخب من منتسبى حزب العمال تراه يصوت له فى الانتخاب والعكس بالعكس وسرعان ما تنعكس الحالة فى انتخاب مقبل فترى العامل يصوت للمحافظ اذا ما هوى الموضوع الذى اختاره ذلك المحافظ ليكون اساسا للانتخاب. فالتصويت يكون لشخص المرشح بالدرجة الاولى وللموضوع الذى اختاره المرشح بالدرجة الثانية ومهما كانت هذه الموضوعات غريبة او سخيفة فانها هى التى تقرر مصير مجلس العموم الجديد وبالتالى تؤثر فى سياسة البلاد العامة. وصفوة القول ان العوامل التى تؤثر فى الناخبين عوامل موقتة طارئة لا علاقة لها بالمبادىء الحزبية الثابتة وكان من نتيجة ذلك ان اصبح التنبؤ بفوز هذا المرشح او ذلك الحزب فى الانتخابات عسيرا وصار الناس يقامرون على المرشحين كما يقامرون على خيول السباق واصبحت العادة دارجة فى انكلترا فيبلغ الربح والخسارة فى كل انتخاب الوفا من الباونات.

الترشيح

ان ترشيح اعضاء المجلس يجرى وفق طريقة خاصة. فيقدم الشخص الذى يرى فى نفسه الكفاءة واللياقة للعضوية عريضة الى مأمور الانتخابات (Returning Officer) بعد ان يوقع على العريضة عشرة على الاقل من الناخبين وفى بعض الاحيان يبلغ عددهم المئات أو الالوف ولكن كثرة هذه التوقيعات لا تؤثر فى نتيجة الترشيح. ومأمورو الانتخابات هؤلاء هم اما رؤساء البلديات (Mayors) واما الشرفاء (Sheriffs). وعلى المرشح ان يقدم مبلغا قدره (١٥٠) باونا تأمينات تعاد اليه اذا ما حصل على ثمن ⅛ مجموع الاصوات للمنطقة الانتخابية واذا لم يحصل على ذلك خسر التأمينات وأرى هذا التدبير مستحبا وغرضه الحيلولة دون ترشيح الذين يطمحون الى رؤية اسمائهم فى قائمة المرشحين دون ان تكون لهم منزلة معتبرة وحبذا لو روعيت هذه الناحية ايضا عند تعديل قانون الانتخاب عندنا.

شروط العضوية

وهناك شروط كثيرة يجب توفرها فى العضو قبل اقدامه على الترشيح. فقد عين القانون بعض الشروط التى من اهمها ان المرشح يجب ألا يكون (لوردا) او من طبقة الرهبان او ساقطا من الحقوق المدنية. ثم ان المرشح يجب ان يؤيده احد الاحزاب اذ لو لا هذا التأيد لضعف امله بالنجاح ضعفا شديدا كما يتضح من قلة عدد النواب المستقلين فى مجلس العموم البريطانى. ولا يشترط فى الترشيح اقامة المرشح فى المنطقة الانتخابية التى يرشح منها فكثيرا ما يحدث ان انتخب احد الاعضاء من منطقة لا علاقة له بها ولكن لباقته ومقدرته قد مكنتاه من اقناع سكان تلك المنطقة بانتخابه.

قلت ان على رئيس الوزارة القائمة ان يعلن اجراء الانتخابات فى الظروف التى يراها مناسبة وعندما يرى الرأى العام بجانبه، اذ ليس بعد اعلان ذلك متسع من الوقت لحزب الحكومة ان يقوم بالدعاية اللازمة لمرشحيه لان الترشيحات يجب ان تجرى بعد مرور ثمانية ايام على اذاعة الارادة الملكية باجراء الانتخابات وبعد مرور تسعة ايام من يوم الترشيحات تبدأ الانتخابات فتجرى فى جميع انحاء البلاد فى يوم واحد وفى ساعات معينة تبدأ من الساعة الثامنة صباحا وتنتهى فى الساعة الثامنة مساء.

يوم الانتخاب

وعندما يحل موعد الانتخاب يتقاطر الناس على المحلات التى يجرى فيها الانتخاب (Polling Places) وكل واحد منهم مؤمن بانه سيستعمل ذلك الحق المقدس الذى ضمنته له القوانين دون ما ضغط او اكراه. فيأخذ ورقته ويدون فيها اسم الشخص الذى صمم على ان ينتخبه ثم يضعها فى صندوق الانتخاب وهو واثق من سلامتها. وبعد ان يتم التصويت وينتهى الوقت المعين تغلق صناديق الاقتراع بحضور ممثل عن المرشح ومأمورى الانتخاب او من يمثلهم وتجمع جميع صناديق المناطق الانتخابية فى مركز ادارة المنطقة الكبرى حيث تفتح الصناديق وتخلط الاوراق كلها ثم تصنف بعد مطابقتها بقوائم الانتخابات فاذا ما وجدت مطابقة تذاع نتائج الانتخابات قبل منتصف ليلة الانتخاب والكل يتلهف الى معرفة النتيجة.

الحملات الانتخابية

والحملات الانتخابية شىء ممتع فى انكلترا. والاشتراك فيها يتطلب

جهدا ومالا (١) سواء أبذلتهما الاحزاب السياسية ولجانها المنتشرة فى مختلف انحاءالبلاد ام المرشحون انفسهم. وتقوم اللجان المحلية لكل حزب بترشيح من تثق بهم من بين سكان المنطقة ثم تعرض اسماؤهم على اللجنة المركزية للحزب وعلى هذه اللجنة اما ان تؤيد هذا الترشيح واما ان تنسب ترشيح غيرهم. وبعد ما يتم الترشيح يبدأ المرشحون بالدعاية لانفسهم بطرق مختلفة ومبتكرة. فمنهم من يخطب فى الناخبين محاولا اقناعهم اما ببراعته الخطابية او بقوة حجته او بوجاهة الموضوع الذى يدافع عنه. ومنهم من ينشر منهاجه السياسى فى الصحف ويدعو له بالمقالات والاعلانات الطويلة او بالكاريكاتورات. وكثيرا ما يستعمل الراديو واسطة للدعاية ايضا. حتى ان الطيارات استعملت لهذا الغرض عدا السيارات الكبيرة التى تطوف المناطق الانتخابية وعليها الالواح والاعلانات الكبيرة او مكبرات الصوت او الاجواق الموسيقية او ما شاكلها. وانت ترى بين حين وآخر ما يسمونه (بالسندويج) وهؤلاء هم اشخاص يعلقون على صدورهم وعلى ظهورهم اعلانات كبيرة فيها عبارات الدعاية للمرشح. كما ان طبع النشرات وتوزيعها بين الناس من الوسائل المألوفة. والقانون يسمح لكل مرشح بان يرسل هذه النشرات التى تتضمن منهاجه السياسى بالبريد الرسمى بدون اجرة. وغير هذه فينتظر من المرشح ان يقوم بامور اخرى سواء قبل ترشيحه ام بعده. فبغية كسب رضى الناخبين عليه ان يكثر من التبرعات للمشاريع الخيرية المحلية ويشترك فى جميع الامور العامة كحضور المسابقات والدعوات مثلا وخاصة اذا كان هو نفسه من هواة الرياضة والالعاب والبارزين فيها فان كان واحدا من (Blues) اى الذين برزوا فى حياة الجامعة فى الرياضة فقد يكون ذلك كافيا لفوزه فى الانتخاب على جميع خصومه مهما كانت منزلتهم السياسية والاجتماعية. ويجب ان يكون للمرشح اتصال وعلاقة وعطف نحو كل فرد من سكان المنطقة. ويروى عن غلادستون انه طاف بنفسه على الفى دار فى منطقته الانتخابية للحصول على اصوات

(١) يمنع القانون صرف المال لكسب الاصوات بطريقة غير مشروعة فقد حتم على كل مرشح أن يعين مأمورا يمسك دفترا بكل ما يصرف المرشح من المال فى سبيل الانتخابات والدفتر يضم حتى مصاريف المرشح الشخصية وكان ما سمح للمرشح صرفه لا يزيد على ٢٥ فلسا عن كل منتخب.

الناخبين. ولا يقتصر الامر على الجهد الشخصى بل يجب ان يكون للمرشح اصدقاء واعوان ومريدون يبثون له الدعوة والتأييد بين الناخبين.

الحوار والجدل

ومما يجعل هذه الحملات الانتخابية ممتعة هو الحوار والجدل الذى يجرى بين المرشح والناس. فما يكاد يعتلى منصة الخطابة الا وتقاطرت عليه الاسئلة المحرجة من كل حدب وصوب وهذه الاسئلة المحرجة او الاعتراضات التى تسمى (Heckling) هى احسن محك لبراعة الشخص الخطابية وسرعة خاطره وقوة حجته ورحابة صدره وخفة روحه. كنت اقضى ساعات طويلة فى مثل هذه المجتمعات استمع الى مثل هذه المحاورات التى كثيرا ما تتطاير منها امتع النكت والطرائف. اكثر مرة احد هؤلاء المستمعين الاسئلة المحرجة والاعتراضات على خطيب اعتلى منبر الخطابة فى احدى منعطفات الشوارع وكان هذا المستمع اصلع فالتفت اليه الخطيب وقال له: وانت ايها الاصلع اراك قد اكثرت من المطالعات. فهل تجيبنى على سؤال واحد ؟ ماذا جرى لشعر رأسك يا ترى ؟ فاجابه المستمع وسط عاصفة من الضحك «الا تعلم ان العشب لا ينمو فى الشارع المزدحم» (١). كانت احدى السيدات ممن رشحن انفسهن للنيابة تخطب وتدعو لنفسها. فانبرى من بين المستمعين احد الاشخاص وسألها: ايتها السيدة: الا تتمنين فى بعض الاوقات لوكنت رجلا؟. فاجابته السيدة حالا «طبعا انى اتمنى ذلك. أولا تتمنى انت ايضا لوكنت رجلا؟». مثل هذه النتف والفكاهات كثيرة فى كل مجتمع من هذه المجتمعات. وكنت دائما اسأل نفسى عما اذا كانت مثل هذه الرحابة فى الصدر تتوفر لدى الشعوب الاخرى. اذ من المؤكد انه لو جرى بعض ما يجرى من مثل هذه الاسئلة والاعتراضات فى مجتمع عراقى او حتى فرنسى مماثل باغراضه لهذا المجتمع الانكليزى لانقلب ذلك المجتمع الى معركة دامية باسرع من لمح البصر.

هكذا يدخل النائب مجلس العموم البريطانى فلا للالتزام ولا

---

(١) قد تفقد الفكاهة الانكليزية مغزاها اذا ما ترجمت الى العربية. يعنى الرجل بذلك انه رجل كثير التفكير وكثير الاشغال ومن كثرة تفكيره واشغاله لا ينمو الشعر على رأسه، مع العلم بانه كان من العمال العاطلين.

للمحسوبية ولا للانتساب دخل او تأثير فى انتخابه وهو ان دخل هذه الندوة العظيمة فانما يدخلها ممثلا بكل ما تضمنه كلمة التمثيل من معنى. وهو ان تكلم فانما يتكلم باسم الشعب باسره فلا فضل لاحد عليه غير فضل الشعب وثقته به. وبعد كل ذلك افلا يحق له اذا ما تاه افتخارا عندما يضيف حرفى (M.P) اى (عضو مجلس العموم) الى اسمه. فمهما وصل اليه الانكليزى من مناصب عالية ومهما حاز عليه من درجات علمية او اوسمة رفيعة فلا شيء يفضل كونه (عضوا فى مجلس العموم) ونعته بذلك له الاسبقية على كل نعت آخر.

الاحزاب السياسية

وقبل التوغل فى البحث فى الاحزاب السياسية الممثلة فى مجلس العموم البريطانى يحسن بى ان اقول كلمة عامة عن علاقة هذه الاحزاب بالنظم البرلمانية. لقد ألف الشعب الانكليزى النظام الحزبى منذ عدة قرون حينما بدأ شأن مجلس العموم يتعاظم فكانت الحياة السياسية فى البلاد عبارة عن نضال مستمر بين الاحزاب فيوم بين حزبى سكان مقاطعتى لانكستر ويورك ويوم بين حزب الفرسان اى الحزب الملكى وحزب ذوى الرؤوس المستديرة وهما الحزبان اللذان اوجدتهما ظروف الحرب الاهلية. ويوم آخر نضال بين حزب حملة الورد الاحمر وحزب حملة الورد الابيض. وفى القرون المتأخرة انجر ذلك النضال الى حزبين هما الحزب المحافظ وحزب الاحرار وفى القرن الحالى اقتصر على المحافظين والعمال. ومن جراء هذا النضال المستمر بين حزبين على الاغلب اصبحت الاحزاب السياسية جزءا لا يتجزأ من النظم الديمقراطية البرلمانية. فكما ان العرش والبرلمان والوزارة اداة اساسية فى هذه النظم اصبحت الاحزاب السياسية اداة اساسية مثلها. فاصبح نفوذها اكثر من ان يكون شكليا او ظاهريا اذ تجاوز ذلك النفوذ الى التدخل الفعلى فى السلطتين التشريعية والتنفيذية وذلك لان مرشحى هذه الاحزاب هم الذين يكونون الهيئة التشريعية يضاف الى ذلك ان الاحزاب فى انكلترا هى التى تضع المناهج وترسم الخطط التى تسير بمقتضاها الهيئة التنفيذية عندما تأتى الى الحكم. وبفضل هذه المنزلة صار على كل فرد من افراد الشعب ان يختار له حزبا ينضم تحت لوائه وصار يعير الحياة الحزبية اهتماما جديا كما

يتضح من عدد الذين يشتركون فى الانتخابات. وكان من نتيجة ذلك ان نضجت الحياة الحزبية فى انكلترا نضجا فريدا ومما ساعد على هذا النضج هى التشكيلات الحزبية فلكل حزب هيئة وتشكيلات دائمة سواء أكان فى دست الحكم ام خارجه. ففى الحالة الاولى عليه ان يناصر الحكومة ويشد ازرها فى داخل البرلمان أو خارجه وفى الحالة الثانية عليه ان يبذل الجهود لكسب الانصار والمريدين والحيلولة دون انخراط الاتباع فى الاحزاب الاخرى. وذلك لغرض الوصول الى الحكم اما عن طريق معارضة الحزب الحكومي وانتقاده او عن طريق اقناع الرأى العام بصحة مبادئه وحسن نيته نحو الصالح العام. ولهـذه الاسباب كـانت جميع الاحزاب الانكليزيـة فى مختلف الظروف والاحوال نشيطة واعية الا اذا اقتضت بعض الظروف القهارة كظروف الحرب مثلا اعلان المهادنة الوقتية بينها. (١) وعند زوال هذه الظروف الاستثنائية سرعان ما يعود الكفاح الحزبى الى حدته الاولى. ان هذا التوازن بين الاحزاب وشكل توحيد جهودها لغرض الصالح العام ونبذ الفروق والمطامع والخلافات الشخصية لمن ابرزما يمتازبه الخلق السياسى الانكليزى. ومن مظاهر توازن هذا الخلق السياسى ان القوانين الانكليزية تجيز لكل فرد ان يؤلف حزبا او جمعية لنفسه ومع ذلك نرى ان عدد الاحزاب وخاصة السياسية منها تكاد لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة وهذا هو الفرق بين ديمقراطية من الطابع الانكليزى والديمقراطية الافرنسية. فيصعب حصر عدد الاحزاب التى تظهر وتختفى فى فرنسا وليست الاحاطة بمناهجها من الامور السهلة على العكس من الحالة فى انكلترا حيث حتم النظام الحزبى المزدوج وجود حزبين رئيسين يمكن معرفة قوتهمـا فى البرلمـان بمجرد القـاء نظرة على مقاعد جبهتى المجلس. وهذا هو السبب الاساسى فى استقرار الحالة السياسية فى انكلترا وتوازنها. فبينما نرى تأليف الوزارة وسقوطها فى فرنسا يكاد يجرى فى كل يوم واحيانا فى خلال ساعات، نرى الوزارة الانكليزية كثيرا ما تعمر عمر المجلس.

ان جميع الاحزاب السياسية الانكليزية ممثلة فى مجلس العموم، عدا

(١) كما هو الحال الان.

الحزب الفاشستى الذى من مبادئه عدم الاعتراف بالنظم البرلمانية الديمقراطية. اما المجلس الحالى فكان قد انتخب سنة **١٩٣٥** وهو مؤلف من **(٦١٥)** عضوا يمثلون انكلترا واسكوتلندا وويلز ومانموث وايرلندا الشمالية. ومنذ الانتخابات العامة لم تطرأ على الاحزاب الممثلة فيه تغييرات اساسية فيما يتعلق بقوتها وعدد اعضائها اللهم الا التغييرات التى تسببها الانتخابات الفرعية وهذه لا تؤثر فى وضع الاحزاب تأثيرا جديا فالزيادة فى عدد اعضاء الحزب الواحد والنقصان الذى يصيب الحزب الآخر لم يغير من موازنة الاحزاب داخل المجلس. فمثلا كان عدد اعضاء حزب المحافظين **(٣٨٧)** سنة **١٩٣٥** فاصبح عددهم **(٣٦٠)** فى هذه السنة (كانون الثانى **١٩٤٤**) بينما كان عدد اعضاء حزب العمال **(١٥٤)** فى تلك السنة فاصبح الآن **(١٦٥)** ويعزى سبب هذه الزيادة والنقصان الى تأثر الرأى العام اثناء الانتخابات الفرعية بالقضايا التى تجرى تلك الانتخابات على أساسها. وقد خسر حزب المحافظين كثيرا فى هذه الانتخابات خلال الحرب برغم نشاط اقطاب الحزب وقيامهم بمختلف الوسائل لفوز مرشحيهم حتى ان زعيم الحزب نفسه كان يوجه النداءات الحارة الى المنتخبين لتأييد مرشحى حزبه ومع ذلك كثيرا ما فشل اولئك المرشحون. (١)

الحزب المحافظ

ويتمتع حزب المحافظين بالاكثرية فى مجلس العموم. ولو ان هذا الحزب يعرف عادة بحزب المحافظين (Conservative Party) الا ان الاسم الدستورى المعترف به فى البرلمان هو حزب الاتحاديين (Unionists) ففى ضبط المجلس يذكر امام اسم العضو انه اتحادى او من العمال او من الاحرار أما فى المناسبات الاخرى فقد جرت العادة ان يعرف العضو المحافظ بهذه الصفة. ويرجع تاريخ تسمية الحزب المحافظ بالحزب الاتحادى الى الربع الاخير من القرن الماضى حينما انشق حزب الاحرار على نفسه من جراء القضية الايرلندية. فلما تقدم غلادستون رئيس وزارة الاحرار آنئذ

---

(١) شاهد حديث على ذلك هى الانتخابات الفرعية التى جرت مؤخرا فى منطقة (Skipton) حيث فاز مرشح المعارضة بالرغم من النداءات الحارة التى وجهها المستر تشرشل نفسه لتأييد مرشح الحكومة.

بمشروعه الذى منحت بموجبه ايرلندا الجنوبية حكما ذاتيا عارضه حزب المحافظين وفريق كبير من حزبه فانشقوا عليه وانضموا الى صفوف المحافظين فكون الحزبان اتحادا حزبيا (Union) فصار كل عضو من اعضاء الاتحاد الجديد يسمى بالاتحادى وبقى هذا الاسم يطلق على حزب المحافظين. وللمحافظين اسم آخر وهو (Tories) يستعمل على الاكثر تهكما للدلالة على تمسك بعض اعضاء هذا الحزب بالتقاليد القديمة البالية تمسكا شديدا. والكلمة بحد ذاتها معناها قطاع الطرق او الذين يعيشون على النهب والسلب وقد اطلقت لاول مرة على الحزب الذى عارض اللائحة التى قدمت الى البرلمان فى السنة ١٦٧٩ لحرمان دوق اوف يورك من وراثة العرش.

روح المحافظة

كنت قد المعت فى الفصل الاول الى روح المحافظة التى يتصف بها الفرد الانكليزى. والمحافظة هى طبيعة من الطبائع اكثر منها مبدأ او مذهب سياسى وسبب التوافق الذى بين هذا النوع من الطبائع وبين منهج الحزب الذى يدعو الى تأييد النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية القائمة اصبح الاصطلاحان متداخلان من حيث مفهومهما. ومن المسلم به انه كثير ما تؤثر طبيعة الشخص فى انتسابه الى الحزب السياسى. فالذين يفضلون سنة التطور التدريجى على التغيرات الفجائية والثورية او بكلمة اخرى ان ذوى المزاج المحافظ لا بد ان يميلوا الى الانتساب الى الحزب الذى يسلك مذهب التطور والتدرج فى معالجة الامور العامة. وكثيرا ما اتهم الحزب المحافظ، بسبب سلوكه هذا المسلك، انه حزب رجعى بافكاره لا تتفق اعماله وسنن التقدم التى توحيها الظروف وفى هذه التهمة افك وبهتان عظيمان والذى أراه ان لهذا الحزب مقدرة عظيمة على التكيف بحسب ما تقتضيه الظروف والاحوال وان عدم انقياده الى النظم النظرية التى طالما تقيدت بها الاحزاب الاخرى، هو من اهم دواعى نجاحه وتقدمه. ولا حق لمن يصم هذا الحزب بانه يدعو الى ابقاء ما كان على ما كان وانه قليل الميل الى القيام بالاصلاحات. «فالمحافظون» كما قال اللورد هيو سيسل (Hugh Cecil) (١) «مصلحون ولكنهم يقومون باصلاحاتهم برزانة وحذر».

(١) Conservatism by Hugh Cecil

اعضاء الحزب

ولهذه النزعة فى العمل والتفكير بين صفوف هذا الحزب بعض العوامل والاسباب. منها ان اغلب اتباعه من الطبقات العليا التى تضم النبلاء والاشراف والملاكين واعيان الارياف والعمد وقسم كبير من الطبقات الوسطى بينهم رجال الدين والمال والقضاء والثقافة والصناعة والتجارة والقوات المسلحة حتى ان طبقة الفلاحين واصحاب المهن والحرف بين صفوفها طائفة عظيمة ممن يرون فى الحزب المحافظ ما يلائم طباعهم ويحمى مصالحهم. وللجامعتين القديمتين (اوكسفورد وكمبردج) فضل عظيم على هذا الحزب فهما ينبوع مستديم لمده بالمريدين والانصار اذ ان معظم الذين يدخلون فى هاتين الجامعتين هم من عوائل اعتادت مبايعة الحزب المحافظ واغلب هؤلاء يخرجون من الجامعة كما دخلوها من ناحية الاخلاص لهذا الحزب ولسان حالهم يقول: «انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون». وكثيرا ما يتحمس هؤلاء الطلبة فى حياتهم الجامعية الى بعض المبادىء الثورية ولكنهم سرعان ما يستقربهم الحال عند الحزب المحافظ بعد ما يتركون الجامعة، متأثرين بتقاليد آبائهم، وبالبيئة الاجتماعية التى وجدوا وترعرعوا فيها. انه لمن الخطل ان يقال ان الحزب المحافظ يدعو الى ادامة التقاليد البالية او العادات الرجعية على علاتها.

تجدد الحزب المحافظ

نعم ان مراعاة القديم ومحافظة الوضع الراهن هما من اعراض ذوى التفكير المحافظ ولكن يجب الا يفهم من ذلك ان الحزب المحافظ يقول ان القديم والوضع الراهن يجب ان يبقيا على حالهما مهما كان القديم باليا والوضع الراهن بعيدا عن مقتضيات الزمان والمكان. فكثيرا ما قام هذا الحزب بخطوات اصلاحية جريئة هى والمحافظة المطلقة على طرفى نقيض حتى بعضها اصطدم بمعارضة الاحزاب ذوى المبادىء المعروف عنها انها اكثر حرية وتقدما. ويكفى ان اورد بعض الامثلة على ذلك : الاول تعديل قوانين الحبوب (Corn Laws) على عهد السير روبرت بيل التى رفعت بموجبها الضرائب عن الحبوب الواردة الى انكلترا وبذلك اقر الحزب المحافظ سياسة التجارة الحرة التى كان يدعو الى مناهضتها قبلا. والمثل الثانى هو اصلاح الانتخابات على عهد دزرائيلى ذلك الاصلاح الذى عارضه الاحرار انفسهم. وكان الحزب المحافظ يدعو دائما الى سياسة حازمة تجاه القضية الايرلندية ولكنه هو الذى قام بعدئذ

بادخال اصلاحات بعيدة المدى فى ايرلندا اذ وافق على منح الشعب الايرلندى الحقوق الديمقراطية سنة ١٨٩٧ . وابرز الامثلة الحديثة هو وضع المناجم تحت ادارة الدولة تلك الخطوة التى عجزت حكومة العمال نفسها عن اتخاذها عندما تسنمت دست الحكم. هذا قليل من كثير مما قام به هذا الحزب فى الماضى. وللتوسع فيها ينبغى للقارىء ان يراجع المصادر التاريخية. ولكن اذا استعرضنا سائر اعمال هذا الحزب فى السنوات الاخيرة وخاصة الاصلاحات التى تجرى الآن فى الحياة العامة والخطط التى توضع لما بعد الحرب يتضح لنا مدى قدرة هـذا الحزب واتباعه على التكيف والتطور بحسب الظروف والاحوال.

مبدأ الحزب المحافظ

ان المحافظ الانكليزى يهتدى بمبدأ واحد، وهو الاساسى الذى تستند اليه سياسة الحزب وهذا المبدأ يقضى بان سياسة الحزب المحافظ يجب ان تقرها وتوجهها الظروف السائدة وألا تتقيد باية نظرية معينة او اى مذهب ثابت. فالسياسى المحافظ يؤمن بان المذاهب السياسية اذا ما وزنت بالموازين الحديثة تظهر بالية سقيمة لانه لا يمكن لاى مذهب سياسى او هيئة اجتماعية الا ان تخضع لنواميس التطور التى تصدق عليها كما تصدق على كل مظهر من المظاهر الطبيعية الاخرى. وهو يتطلع دائما الى مستقبل كل امر من الامور التى يعتقد انها ستجابهه فيضع خططه وحلوله العملية الملائمة لمعالجتها لا تقيده فى ذلك نظرية سياسية او مبدأ حزبى مكتوب. فالواقع والتجربة هما رائده فى كل عمل من اعماله. هذا هو الفرق الاساسى بين سياسى محافظ النزعة وآخر يسارى الميل والمبدأ. فالاول يسلم لمقتضيات الظروف والاحوال التى يعتقد انها ستتصدى له فى المستقبل فيرسم خططه بموجبها والثانى تقيده نظريات ومبادىء تضمنتها كتب المبادىء السياسية والمناهج الحزبية الخلابة.

قابلية الحزب للتكييف

وهذه اقوال وافعال ساسة الحزب المحافظ المعاصرين كلها تشهد كيف ان هذا الحزب يلبس لكل حال لبوسها فبعد ان كان الحزب يدعو فى الماضى الى مناصرة الوطنية الاقتصادية ويؤيد الاستقلال الاقتصادى بين الدول صار يدرك الآن اخطار الوطنية الاقتصادية ويدعو الى التعاون الاقتصادى والسياسى

بين الدول. وقد صرح احد اقطاب الحزب (١) «أن العظة التى فرضها قرن العشرين هى اعتماد الشعوب بعضها على بعض اعتمادا كليا وما هذه الشعوب الا عالم واحد مصغر يصغر شيئا فشيئا يوما بعد يوم». هذا فيما يتعلق بوجهة نظر الحزب تجاه الشعوب الاخرى اما فيما يخص وجهة نظره تجاه القضايا الداخلية فان ما قام به من اصلاحات وتغييرات اقتضتها الظروف السائدة قد فاقت كل حدس وامل.

فانكلترا الرأسمالية قد انقلبت الى دولة شبيهة بالاشتراكية فى ساعات قلائل على يد برلمان تطغى عليه اكثرية محافظة عندما اقرت قوانين الطوارىء التى منحت الدولة صلاحيات واسعة فى ادارة المشروعات العامة وفى التدخل الفعلى فى كل ناحية من النواحى الوطنية. فالامور الاقتصادية قد اصبحت تحت تأثير الدولة المباشر عن طريق الخزينة العامة وبنك انكلترا واغلب المرافق العامة كالمواصلات وبعض وسائل الانتاج والخدمات العامة كالاذاعة ومشروعات الكهرباء وما شاكل ذلك صارت كلها رهن اشارة الدولة، كما ان احتكار الرأسمالية والملكية الخاصة لما بقى من المشروعات العامة ووسائل الانتاج اخذ يخف عما كان عليه قبلا نتيجة لادراك الفكر المحافظ ضرورة التوفيق بين الاحتكار والملكية الخاصة وبين لزوم استيلاء الدولة على مرافق الانتاج والمشروعات العامة لغرض النفع العام. وما زال الحزب المحافظ متمسكا بعقيدته ان الثروة والمال وطرق استثمارها وضمان حقوق الفرد فى تملكها هى من اهم اسس ودعائم النظام الاقتصادى القائم ومع ذلك فان تمسكه بهذا المبدأ لم يبق على علاته كما اخذه من العصر الماضى فهو لا يفتأ يسترشد بالتطورات المالية والاقتصادية الحديثة ويستنير بما يتوصل اليه علم الاقتصاد الحديث من التجارب والنتائج. ومع ان الحزب المحافظ يسلم بان النفع الفردى ليس هو المقياس الصحيح للنفع العام فهو ما زال يعتقد بان النفع العام لا يمكن ان يتحقق ما لم يتحقق النفع الفردى اولا.

الحزب المحافظ والمحافظون هم اكثر الاحزاب تعلقا بالعرش. وبالنظام الملكى والحكم والعرش الدستورى وحماية نظام الطبقات بشكله الحالى وهم يعتبرون انفسهم رعاة

(١) المستر ايدن فى خطاب القاه فى ١ تموز سنة ١٩٤٣.

الكنيسة وحماة حقوق التملك الفردى وهم اكثر الاحزاب تمسكا بمبدأ الاستعمار والتوسع البريطانى على حساب الشعوب الاخرى واندفاعهم فى ذلك قد ولد الشىء الكثير من التزاحم بين بريطانية والشعوب الكبيرة والنفرة والبغضاء بينها وبين الشعوب الصغيرة التى كانت ضحية لهذا الاستعمار. والمحافظون هم حماة الحقوق التى خلفتها التقاليد وبهذا الاعتبار يختلفون اختلافا اساسيا عن بقية الاحزاب التى قطع اكثرها صلته وعلاقته بالماضى وباثاره.

وبرغم تمسك هذا الحزب وتعلقه بالمظاهر التقليدية فانه اذعن لحد ما لقبول بعض التعديلات التى طرأت عليها. فالعرش حددت سلطاته وانتقلت اكثرها الى الشعب والفروق بين الطبقات الارستقراطية، التى هى قلعة الحزب الحصينة، وغيرها من الطبقات اصبحت اقل وضوحا من قبل حتى اعتورها شىء كثير من الضعف فتنازلت عن كثير من امتيازاتها وضحت بكثير من منافعها الخاصة فى سبيل نفع الطبقات الاخرى كما يتضح ذلك من نسبة الضرائب التى تدفعها الطبقات المتمولة لبيت المال. فضريبة الدخل مثلا كانت اقل من واحد بالمائة عندما فرضت لاول مرة ثم تصاعدت حتى اصبحت (٥٠) بالمائة واكثر بكثير فى بعض الحالات واذا ما اضيفت اليها ضريبة الارباح المفرطة فانها تصل الى (٩٥) بالمائة تقريبا. ومثل آخر هو ضريبة الارث. فالوارثون يدفعون حوالى (٥٠) بالمائة من الارث ضريبة لخزينة الدولة واذا صادف ان توفى وارث ورث ارثا حديثا فان الوريث يدفع نصف الارث الحقيقى الى بيت المال وهكذا يتحول الارث فى ظرف مدة وجيزة من الملك الخاص الى بيت المال. فهل لاى نظام اقتصادى او اجتماعى آخر ان يعتبر هذا النظام نظاما شاذا خارجا عن مقتضيات الزمان ؟. وغير هذا فقد شرعت خلال هذا القرن وخاصة خلال سنى الحرب، قوانين لضمان الخير العام وتوزيع الثروة وتحسين احوال الشعب ورفع مستواه الصحى والاقتصادى والثقافى حتى ان كثيرا من هذه اعتبرت اشتراكية النزعة وكان اغلبها من وضع وزارات محافظة او وزراء محافظين. وقد عبر حقا زعيمهم الحالى المستر تشرشل عن رأى الاوساط المحافظة عندما قال (ان واجب كل دولة حديثة يجب ان يكون

العمل المتواصل لتحسين احوال الشعب الاقتصادية). فلم يبق والحالة هذه مجال لتبجح الاحزاب الاخرى من انها هى وحدها التى تضع نصب عينها رفاه الشعب ورفع مستواه وهذا هو الواجب المفروض على كل حزب سياسى مهما كانت نزعته وميوله. فما تقرير (بيفريج) الذى اقره الحزب المحافظ ووضع بناء على ايعاز وزارة يرأسها زعيم المحافظين الا احدى الوسائل للوصول الى تلك الغاية. وهذا قانون المعارف الجديد، وهو ثمرة مجهود وزير محافظ، قد قلب النظام التعليمى فى انكلترا رأسا على عقب وادخل اصلاحات عجزت عنها حتى وزارات الاحرار والعمال. وفى السياسة الخارجية، ارتبطت انكلترا عسكريا وسياسيا بفضل وزراء محافظين بدولة يختلف نظامها الاجتماعى والاقتصادى اختلافا اساسيا مع النظام الذى تقوم عليه الدولة البريطانية. وبشهادة المستر موريسن احد اقطاب حزب العمال «ان حزب المحافظين قد قام بأصلاحات اشتراكية، سبق ان قاومها من قبل، اكثر من حزب العمال الذى كان يبشر بها دوما»(١).

زعماء الحزب الاقدمون

وان امتاز الحزب المحافظ بشىء او ان افتخر بما قدمه من خدمات فى سبيل بريطانيا والامبراطورية فانما يمتاز ويفتخر بما انجبه من ساسة وزعماء دهاقنة فى فن السياسة والحكم. فلو وضع جميع زعماء الاحزاب الانكليزية فى الميزان لكانت كفة المحافظين هى الراجحة حتما. فعبقرية (بت)ما زالت مضرب الامثال وقيادة الشعب البريطانى، وهو الشعب الذى يكن احتراما خاصا للسن والتجربة، من قبل شاب فى الخامسة والعشرين من عمره فى ظروف حرجة وفى اعظم ثورة عرفها التاريخ تستعر على عتبة بريطانيا هى لعمرى فلتة من فلتات الطبيعة. وشخصيات مثل فوكس وكاسلريه وكاننك وآدينكتون وبورتلاند برسيفال وليفربول وروبرت پيل ودار بى وسالسبرى وغيرهم من ساسة العصر الماضى قد اشبعت بطون كتب التاريخ السياسى الانكليزى بمآثرها الخالدة، ناهيك برجال العلم والفكر امثال (برك) و(بولنبروك) وغيرهم من علماء الفكر السياسى.

---

(١) من خطاب للمستر موريسن القاه فى شهر مارت ١٩٤٤ فى كلية (مارو) ـ واضاف الى ما ذكرناه اعلاه : «ان هذه هى من سخريات السياسة الانكليزية التى لا يفهمها الا الانكليزى حتى وان كثيرا من الانكليز انفسهم لا يفهمونها».

دزرائيلي

وان اسبغت آيات التقدير والاعجاب على بنيامين دزرائيل (Lord Beaconsfield) فلانه بلا مراء من اعظم من تزعم الحزب المحافظ من يوم ان وجد هذا الحزب حتى الان. ولدزرائيلي ان يختال فخرا وتيها يوم الحساب على اقرانه من الساسة بان كان له القدح المعلى فى خدمة بريطانيا والامبراطورية. فقد اجمع هذا اليهودى العبقرى بين حكة الشرق وهمة الغرب ودهاء اليهود ورياء الانكليز. فهو اول من توقع قيام امبراطورية بريطانية تضم بين احضانها امصار بعضها، كالهند مثلا، اهم من الجزر البريطانية نفسها فضمن بفضل كياسته اتصالا قريبا بين بريطانيا والهند باستيلائه على قناة السويس بقوة المال لا بقوة الرجال بشرائه اسهم الخديوى. وهو اول من حقق سيادة انكلترا العالمية تعينه فى ذلك ملكة حكيمة. وقد سئل دزرائيلي مرة كيف تمكنت من كسب رضاء وتعاون مولاتك الملكة فى كل ما تعرضه عليها من الامور فاجاب «لانى لا انفى ولا انقض ما تقول واتظاهر احيانا بالنسيان». ولعل الدم السامى الذى يجرى فى عروق هذا اليهودى اهاب به للتحمس للناحية الشرقية خاصة من السياسة البريطانية. فقد عاد من مؤتمر برلين حاملا (سلما شريفا) بعد ان توفق فى ابعاد نفوذ روسيا من آسيا الصغرى. وباستيلائه على قناة السويس ابعد فى الوقت عينه نفوذ فرانسا من مصر وثبت كذلك النفوذ الانكليزى فى افريقيا وفى قسم كبير من آسيا. ولو لا بعد نظره لبقى الحزب المحافظ معتمدا بقوته ونفوذه على الطبقات العليا من الشعب الانكليزى ولكنه بفضل ما قام به من اصلاحات على النظم الانتخابية سمح لجذور هذا الحزب ان تنفذ الى الطبقات الوسطى والدنيا مما خلد له اسمى الذكريات فى تاريخ الحزب.

زعماء الحزب فى القرن الحالى

ولما حل القرن الحاضر كان بين صفوف المحافظين عدد من الشخصيات البارزة منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر امثال اللورد بالفور ولانسداون وجوزيف تشمبرلين واللورد كرزن واللورد بركنهيد وبونارلو واوستن تشمبرلين واخيه نفيل واستانلى بولدوين ونستن تشرشل وكثيرين غيرهم. فللتاريخ ان يقول كلمته عن الاموات منهم ولنا ان نقول كلمة عن الاحياء. ولو انى الان فى صدد البحث عن الحزب المحافظ بقدر علاقته بمجلس

العموم ولكنى أريد ان اقول كلمة عن شخصية سياسية حية ولكنها ميتة بنت مجدها السياسى عن طريق مجلس العموم ولكنها اعتكفت الان عن السياسة الفعلية وقبعت بين جدران مجلس اللوردات. تلك هى شخصية ستانلى بولدوين (Mr. S. Baldwin). لا شك ان المستر بولدوين كان من اهم الشخصيات التى ظهرت على مسرح السياسة البريطانية خلال الفترة التى مرت بين الحربين الماضية والحاضرة. فقد سطع نجمه السياسى فى سنة ١٩٢١ فوصل منصب الوزارة وسرعان ما علا شأنه حتى تمكن من قلب وزارة لويد جورج ودخل وزيرا للمالية تحت رياسة (بونارلو) وفى السنة ١٩٢٣ الف وزارته الاولى التى لم تدم اكثر من سنة. ولما استقالت وزارة العمال على اثر حادثة مكتوب (زينوفييف) الشهيرة الف وزارته الثانية التى بقيت فى دست الحكم حتى السنة ١٩٢٩ وألف وزارته الثالثة فى السنة ١٩٣٥ وبقى رئيسا لها الى ان تنحى فخلفه المستر نفيل تشمبرلين فى السنة ١٩٣٧ بعد ان وقف وقفته المعهودة فى قضية زواج الملك ادوارد الثامن وتنازله عن العرش. والمستر بولدوين هو النموذج الحقيقى للشخصية السياسية الانكليزية التى تروق النفسية الانكليزية فى الظروف الاعتيادية. وفيما ارى ان الرجل لم يمتز امتيازا خاصا عن كثير من اقرانه وربما كان للحظ قسط كبير فى رفع شأنه. فالمستر بولدوين ينتمى الى احدى العوائل التى لم يكن لها ماضى سياسى مجيد فوالده كان احد اعضاء مجلس العموم وللعائلة علاقات تجارية باحدى شركات الفولاذ. وتربية بولدوين كتربية كثيرين من ابناء الذوات درس فى (كلية هارو) واتم دراسته فى جامعة كمبردج ولم يكن ليمتاز على اقرانه لا بمقدرة عقلية(١) ولا بغيرها ولم يصل منصب الوزارة لجدارة خاصة او لمنزلة ممتازة حصل عليها فى مجلس العموم ولما الف بونار لو وزارته لم يجد بين صفوف المحافظين من يسند اليه منصب وزارة المالية فاوصاه احد اصدقائه بان يأتى بالمستر بولدوين ولما استقال بونار لو لم يرشح احدا خلفا له ولم يكن اليق من اللورد كرزن لرياسة الوزارة حينئذ. ولكن الظروف

المستر بولدوين

(١) ان الانتاج الادبى للمستر بولدوين لا يعتد به فله كتابان او ثلاثة اهمها مجموعة خطابات القاها فى فرص مختلفة ضمت بكتاب اسمه ("On England")

كانت تقضى بان يكون رئيس الوزارة عضوا فى مجلس العموم بالنظر الى اشتداد حركة العمال فى ذلك الوقت فاستدعى بولدوين وعهد اليه بتأليف الوزارة. والمستر بولدوين يمثل الاخلاق والطباع الانكليزية بكثير من مظاهرها فكان قليل النشاط خامل الهمة بطيء الذكاء تعوزه صناعة الكلام والخطابة يحب المسالمة والموادعة فى سلوكه السياسى. كان يحوز ثقة الشعب البريطانى ويتكلم بلسان اكثر الطبقات كما حدث اثناء قضية تنازل الملك ادورد الثامن عن العرش. فالطبقة الارستقراطية والطبقة الوسطى والكنيسة كانت ترى فى المستر بولدوين لسانها الناطق والوكيل المعتمد لحل المشكلة واظن مركز المستر بولدوين طيلة حياته السياسية لم يصل الى مقام اعلى من المركز الذى وصله اثناء تلك الازمة. ولو ان الملك ادورد الثامن كان محبوبا جدا من قبل طبقات العمال التى لم تأبه لذلك النوع من الزواج ولكن الطبقات الاخرى وجدت فيه مغايرة عظمى للمبادىء الاخلاقية وللتقاليد المرعية ولتعاليم الدين وكان بولدوين يمثل وجهة نظر اكثرية الشعب فى هذه القضية. ومن اعظم ما ارتكبه بولدوين من الاخطاء السياسية التى سيسجلها عليه التاريخ هو تهاونه فى تسليح بريطانيا فى الوقت الذى كانت الدول الدكتاتورية فى اوربا وخاصة المانيا تفضل (المدفع على الزبد) ولما وجدت بريطانيا نفسها وجها لوجه من جحيم الحرب كانت متأخرة جدا فى تسليحها وقد اعترف بولدوين نفسه بخطئه قبيل تنحيه ولكن (سبق السيف العذل). وبعد ان اتم بولدوين بعثته واجلس جورج السادس على عرش اخيه المتنازل منح لقب (ايرل) واصبح عضوا فى مجلس اللوردات قابعا فيه منتظرا يومه.

المستر شرشل

وان كان دزرائيلى محور الحزب المحافظ فى القرن الماضى فان ونستن تشرشل (Winston Churchill) محوره فى القرن الحالى. ان عبقرية تشرشل وحيويته ابت عليه الجمود السياسى فهو مثل دزرائيلى نشأ ثائر الروح حر الفكر ولما رأى ان برامج قادة الحزب لا تتفق مع آرائه نشز على الحزب وتعاليمه وانضم الى حزب الاحرار الذى وجد فيه ضالته ولو الى حين. وتتوفر فى تشرشل كل الصفات والمزايا التى تتطلبها زعامة الحزب المحافظ. فاصله اصل كريم فهو ابن اللورد راندولف تشرشل ومن احفاد الدوق

مالبوروه وتربيته هي المثل الاعلى لكل انكليزي يرى فى هارو او ايتون او كمبردج او اوكسفورد خير وسيلة للمحافظة على التراث الانكليزى الصحيح. وقد نشأ تشرشل محبا للمجازفة وركوب الاخطار فحارب فى حروب (البوير) وفر مخاطرا بحياته واشترك فى حروب الهند الشمالية. دخل البرلمان حديث السن فمشى على خطى فوكس وبت وبيل فاظهر براعة فائقة فى الكلام ولباقة نادرة فى فن الخطابة وسرعان ما برز فى مجلس العموم فاسندت اليه المناصب الخطيرة فى مختلف الظروف والاحوال واشترك اشتراكا فعليا فى الحربين العالميتين وهذا من نوادر التاريخ. وفوق كل ذلك فان تشرشل اديب مفكر ومؤلف قدير، واذا لم يكن منكبا على كتابة مؤلف تراه يتحف الصحف بمقالات ملؤها الحكمة والخبرة وبعد النظر.

قلت فى مناسبة سابقة ان طبيعة الانكليز تحملهم على الابتعاد عن العباقرة والدهاة فى ايام نعمتهم اما فى ايام محنهم فيتوسلون اليهم ويسلمونهم الحل والعقد والقيادة والحكم وهكذا فعلوا مع تشرشل. فقد نبذوه منذ ان تبددت غيوم الحرب الماضية وبقى بعيدا عن الحكم حتى بعد اندلاع نيران الحرب الحالية وفى اثناء ذلك بقى الاتصال الوحيد بين تشرشل والشعب البريطانى ما يقوله فى ويستمنستر وما يكتبه فى الصحف وما يصدره من المؤلفات وفى الوقت الذى كانت فيه السياسة الشمبرلينية تتعثر تحت غطرسة الدكتاتوريين كان تشرشل الشخص الوحيد الذى اماط اللثام عما يخبؤه المستقبل للشعب البريطانى مستنيرا بدروس الماضى وعبر التاريخ. وهذه تحذيراته خلال السنين القلائل التى سبقت الحرب ضم بعضها كتابه (خطوة فخطوة) (١) وبعضها الآخر ملأ اعمدة طويلة من (هانسارد)(٢). ولما عاد المرحوم تشمبرلين غفر الله ذنوبه، متأبطا شر (مونيخ) واتباعه يحتفلون بعيد نصرهم هذا وقف تشرشل فى مجلس العموم وقال (لقد اصيبت بريطانيا بخذلان دون ان تدخل حرب. وما هذه الوثيقة الا اول جرعة من كأس العلقم سيقدم الينا رويدا رويدا) وما ان حلت سنة ١٩٤٠ الا وارغمت بريطانيا على تجرع كؤوس

(١) (Step By Step)

(٢) المجموعة التى تضم مناقشات مجلس العموم البريطاني.

عديدة دونها العلقم مرارة. فاستدعى الشعب البريطانى تشرشل واوكل اليه رتق الفتق وانتشاله من الهوة السحيقة التى كان منها قاب قوسين او ادنى. فانى له ان يرتق فتقا واسعا كهذا وبريطانيا اصبحت وحيدة فريدة هائمة على وجه البحر لا تدرى ماذا يخبؤ لها الغد فاخذ بيده دفة السفينة فقادها امهر قيادة فى الايام التى كان العالم يظن ما ظنه بعض قادة فرانسا المنهارة من ان (رقبة بريطانيا ستكسر كما تكسر رقبة فرخ الدجاجة) فقاد السفينة الى شاطىء السلامة. وبفضل صلابة عوده وقوة حجته وطلاقة لسانه حمل الشعب البريطانى على الا يثنى عوده وان يتطلع الى المستقبل بعين الامل واعدا اياه (بالدم والدموع والعرق والعناء) فقط. ولا اريد الاطالة فى الكلام عن الرجل وهو حى يشغل اعلى منصب فى دولته فالتاريخ وحده هو الذى سيقول كلمة الحق فيه وفى فضله على الامبراطورية ومستقبلها.

المستر ايدن

وخليفة المستر تشرشل فى زعامة الحزب المحافظ هو المستر ايدن (Mr. A. Eden) ولا اظن بين صفوف المحافظين من ينافسه فى هذه الزعامة فهو فضلا عن كونه وزيرا للخارجية زعيم مجلس العموم Leader of the House of Commons وهذه المهمة كانت يعهد بها عادة الى رئيس الوزارة ورئيس حزب الاكثرية فى المجلس لكنه بالنظر الى كثرة اشغاله له ان يعهد بها الى اهم شخصية فى الوزارة. وفى السنوات الاخيرة شغلها مرة السير ستافورد كريبس عندما سطع نجمه بعد عودته من سفارة موسكو، ولما افل نجمه عهد بهذه المهمة الى المستر ايدن. ولا شك فى تولية المستر ايدن منصب رياسة الوزارة بعد المستر تشرشل لانه الشخص الوحيد الذى رشح لها حينما اصيب رئيس الوزارة بمرض الزمه الفراش ولم ينافسه مرشح غيره.

نشأ المستر ايدن على غرارة اسلافه من عباقرة السياسة فهو مثل فوكس وبث وبيل وتشرشل، دخل البرلمان فى السادسة والعشرين من عمره وبلغ منصب الوزارة فى السابعة والثلاثين. وهو الان فى السادسة والاربعين يدير السياسة الخارجية للامبراطورية البريطانية فى اعظم حرب شهدتها فى تاريخها وفى احرج ملابسات السياسة العالمية الخارجية.

ينحدر المستر ايدن من عائلة عريقة فى المجد والمحتد فهو الابن الثالث للسير وليم ايدن من اغنى نبلاء الانكليز وبعض اجداده امثال اللورد (بالتيمور)(Baltimore) واللورد (اوكلاند)(Aukland) لعبوا دورا مهما فى الحياة السياسية فى انكلترا خلال القرون الخمسة الماضية. توفر لانطونى ايدن كل ما يجب توفره فى السياسى الارستقراطى كالجاه والمال والتربية نشأ فى بيت ضم كل معالم الحياة الارستقراطية ودرس فى كلية ايتون، موئل ابناء الذوات، ثم دخل جامعة اوكسفورد بعد انتهائه من الخدمة العسكرية فى الحرب العظمى الماضية واختص باللغات الشرقية فتمكن من العربية والتركية وبرع خاصة بالفارسية وآدابها وتفهم الفلسفة الشرقية وعجب بنتاج الفكر الشرقى اعجابا تاما. وبعد اكمال دراسته الجامعية دخل الحياة العامة فانتخب فى السنة ١٩٢٣ نائبا فى مجلس العموم عن مقاطعة (وورريك وليمنكتون). فلما رأى فيه المرحوم السير اوستن تشمبرلين وزير الخارجية آنئذ لباقة ومقدرة اختاره سكرتيرا برلمانيا له وبقى يتنقل بين المناصب الوزارية الثانوية الى ان عين فى سنة ١٩٣٤ حاملا للاختام فصار يشغل المنصب الخطير تلو الاخر. وفى ظنى ان عوامل كثيرة دفعته الى التقدم السريع هذا. منها انه حظى بعطف المستر بولدوين عندما كان هذا الاخير يصول ويجول فى الحياة العامة فى انكلترا. والعامل الاخر هو جريدة التايمس اللندنية، فهذه الجريدة هى لسان حال الطبقة الحاكمة ولها كل قيمة واثر. فلما رأت فيه مثلا اعلى للشباب الارستقراطى النابغ وتوسمت فيه الزعامة الانكليزية الحقيقية صارت تعبد امامه طرق الزعامة. وهناك عامل اخر يجب الا يبخس اثره فى نظر القارىء العربى الا وهو التدخل الزائد مع الطبقات الارستقراطية بفضل ما لزوجه من المركز البارز بين هذه الطبقة. فهى من اغنى واجمل السيدات الارستقراطيات وقد مكنتها هاتان المزيتان من اكتساب احترام وتقدير كل من يتصل بها وبزوجها. وللحياة الاجتماعية فى انكلترا تأثير كبير فى الحياة السياسية، والشخصية التى توجد لها مركزا فى الحياة الاولى لابد ان يكون لها شأن بين فى الحياة الثانية. يضاف الى تلك العوامل ما للمستر ايدن نفسه من ذكاء فطرى واخلاق رضية فهو مشهور فى بلاده بذوقه وباناقته

وبحسن منظره فكثيرا ما يكون مضرب الامثال فى اناقة الملبس . وقد وصفه موسوليني يوما من الايام بانه (اكثر مجانين اوربا اناقة فى الملبس !) .

وقد ظهر بعد نظر المستر ايدن وحصافته السياسية عندما انشق فى اوائل سنة ١٩٣٨ على المستر تشمبرلين وثار على سياسة التهدئة التى كان يسلكها مع دكتاتوري اوربا اذ كان المستر ايدن يدعو الى لزوم وقفهما عند حدهما قبل ان يتفاقم شرهما فاستقال من وزارة الخارجية على اثر تدخل رئيسه تدخلا مباشرا فى السياسة الخارجية . ولما الف المستر تشرشل وزارته فى ايار سنة ١٩٤٠ عهد اليه بمنصب وزير الحربية وعندما شغر منصب وزارة الخارجية فى السنة نفسها بتعيين اللورد هاليفاكس سفيرا فى واشنطن اعيد المستر ايدن الى المنصب الذى كان يتوق اليـه . ومنذ رجوعـه الى وزارة الخارجية ثابر فى تحقيق سياسته الخاصة بتعاون روسيا وبريطانيا وهو من المحافظين القلائل الذين يقولون بامكان التوفيق بين روسية الشيوعية وبريطانيا الرأسمالية وقد ذاق الامرين فى اقناع صفوف حزبه بصواب وجهة نظره . فبقى مناضلا ومثابرا فى سياسته حتى تمكن من عقد المعاهدة الروسية البريطانية فى سنة ١٩٤٢ وهى المعاهدة التى وضعت اسس الصداقة الروسية البريطانية لمدة عشرين سنة . وفى خلال السنتين الماضيتين اظهر ايدن من الحنكة والكياسة وخاصة فى الادوار التى لعبها فى مؤتمرات موسكو وطهران والقاهرة ما يسجل له اروع الصفحات . فهو ان لم يصب بانتكاس سياسى غير منتظر فلا شك فى انه سيكون الخليفة الوحيد لزعامة الحزب المحافظ .

اعضاء الحزب الآخرين

ان نواب الحزب المحافظ فى الوقت الحاضر يمكن تصنيفهم الى ثلاثة اصناف فالصنف الاول يضم تشرشل وايدن وليس فى استطاعتى ان اضيف اليهما ثالثا . واما الصنف الثانى فيضم اعضاء الحزب الذين يتمتعون بمنزلة حزبية بارزة . واما الصنف الثالث فيضم بقية الاعضاء من (Back Benchers) الذين ليس لهم شأن بارز فى الحياة الحزبية . ولا اريد ان اتطرق الى شخصيات الصنف الثالث لكنى اود ان اعرف القارىء ببعض شخصيات الصنف الثانى البارزة من التى ظهرت على المسرح السياسى فى خلال السنوات التى وجدت فيها فى انكلترا او فى خلال سنى الحرب الحالية .

السير جون آندرسن

فوزير المالية الحالى السير جون اندرسون (Sir John Anderson) من نواب المحافظين الذين اسندت اليهم مناصب وزارية خطيرة اثناء الحرب فقد عهد اليه المستر تشرشل بوزارة الداخلية وصار يتقلب من منصب الى اخر حتى استقر به النوى فى وزارة المالية بعد وفاة السير كينكزلى وود قبل بضعة اشهر. ولو ان هذا الاخير قد شغل وزارة المالية منذ ان تخلى عنها المستر تشمبرلين فى سنة ١٩٣٧ فهو ليس من صنف اولئك الذين جرت العادة ان يتبوءوا هذا المنصب.

المستر ايمرى

ووزير الهند المستر ايمرى (Mr. L. S. Amery) محافظ استعمارى عتيد امتاز من بين ساسة الانكليز بسياسته الاستعمارية. وهو شخصية بارزة ليس فى الاوساط السياسية فحسب بل فى الاوساط المالية فما يدخله من الوارد من ادارة مختلف الشركات والمصالح التجارية يفوق مرتبه الوزارى بكثير. وقد اشتغل المستر ايمرى فى تحرير جريدة التايمس مدة من الزمن وللرجل مؤلفات كثيرة فى موضوعات مختلفة واشتهر خاصة باسفاره الواسعة ومعلوماته عن العالم الخارجى مما كان سببا فى اسناد مناصب وزارة المستعمرات والدومنيونات والهند اليه.

عائلة داربى

ولعائلة داربى (Derby) الشهيرة اخلاص تقليدى للحزب المحافظ واتصال وثيق بالحياة السياسية والاجتماعية فى انكلترا. فرب العائلة (ايرل داربى السابع عشر) كان عضوا فى مجلس اللوردات وولداه اللورد ستانلى والكولونيل اوليفر ستانلى (Col. Oliver Stanley) عضوان فى مجلس العموم ولم تخل وزارة من الوزارات المحافظة التى تألفت خلال السنوات العشرين الماضية من واحد من عائلة داربى. والصغير هو الان وزير للمستعمرات.

المستر دف كوبر

ومن الذين ثاروا على سياسة التهدئة التشمبرلينية من المحافظين هو المستر الفريد دف كوبر (Mr. Duff Cooper) . فكان وزيرا للبحرية وعندما رأى ان ضميره السياسى يحتم عليه ان يتنحى عن منصب خطير مثل هذا فلا يلوث تاريخه السياسى بآثام سياسة رئيسة قدم استقالته وبررها امام مجلس العموم بخطاب كان ابلغ ما سمعت. والمستر كوبر هو اديب قدير

بقدر ما هو سياسى فله عدة مؤلفات قيمة فى التاريخ والادب اهمها كتاباه عن تاريخ حياة السياسى الفرنسى الشهير (تاليران) والقائد الانكليزى (الايرل هايك)، وعائلة كوبر معروفة ايضا فى الاوساط الاجتماعية لما لليدى ديانا كوبر من الشهرة والمنزلة بينها والمعروف عنها كليدى (ديانا مانرس) (Lady Diana Manners) انها كانت من اجمل سيدات الطبقة الارستقراطية فى انكلترا، وهى من صديقات العائلة المالكة، وقد اسند الى المستر دف كوبر منصب وزير شؤون الشرق الاقصى وعلى اثر الانتكاسات التى عانتها بريطانيا فى حربها مع اليابان عين وزيرا لمقاطعة لانكستر، ثم عين قبل مدة ممثلا لبريطانيا لدى الفرنسيين فى شمالى افريقيا وهو الان سفيرا فى باريس.

الفايكونت كرانبورن

والثالث ممن ثاروا على سياسة المستر تشمبرلين من شباب الحزب المحافظ هو الفايكونت كرانبورن (Viscount Cranborne) فكان هذا سكرتيرا برلمانيا للمستر ايدن فاستقال تضامنا معه، وعندما عاد المستر ايدن الى الوزارة عاد كرانبورن معه بمنصب ارفع، وقد حرم مجلس العموم من مواهبه بعد وفاة والده (ماركيز سالسبرى الرابع) اذ ورث لقبه ففقد مقعده فى مجلس العموم واصبح عضوا فى مجلس اللوردات وهو الان زعيم حزب الحكومة فيه.

ومن الذين فقدوا مقاعدهم فى مجلس العموم بهذه الطريقة واصبحت وراثة اللقب سية عليهم هو المستر اورمسبى غور (Mr. Ormsby-Gore) الذى كان وزيرا للمستعمرات مع المستر تشمبرلين فبوفاة والده (اللورد هارليخ) انتقل اللقب اليه ففارق مجلس العموم مكرها لا بطلا، وهكذا اختفى اسمه من مرسح السياسة الفعلية بعد ان كان يطمح الى الوصول الى اسمى الدرجات.

السير صموئيل هور

ولو ان السير صموئيل هور(Sir Samuel Hoare) بعيد الآن عن مرسح السياسة الحزبية لكن له من ماضيه المجيد ما يجعله فى عداد الرعيل الاول من رجال الحزب المحافظ، فقد شغل اهم الوزارات فى مختلف الظروف كوزارة الطيران ووزارة الهند ووزارة الداخلية ووزارة الخارجية، ولما كان وزيرا للهند وضع لائحة قانون الهند وهى من اهم اللوائح التشريعية التى عرضت على مجلس العموم البريطانى، ويروى عن السير صموئيل انه اجاب

عن (١٥) الف سؤال وجه اليه حول اللائحة والقى (٦٠٠) خطاب لتأييدها واشترك فى مناقشتها التى دامت سبع سنوات ونصف سنة. ولما كان وزيرا للخارجية فى سنة ١٩٣٥ وضع بالاتفاق مع المسيو لافال المشروع المعروف باسميهما لحل المسألة الحبشية ولكن الرأى العام البريطانى ثار عليه فاضطره الى الاستقالة. ولما اثبتت الظروف بعدئذ ان الرجل كان بعيد النظر اعيد الى الوزارة. ولم يدخل السير صموئيل فى وزارة المستر تشرشل ولكنه عهد اليه بمهمة خطيرة اخرى اذ عينه سفيرا لدى اسبانيا فى اشد ظروف الحرب حراجة لابعاد اسبانيا عن الحرب فنجح فى مهمته نجاحا تاما (١)

المستر والتر أليوت

والمستر (ولتر اليوت) (Walter Elliot) هو من المحافظين المعروفين بعلمهم وثقافتهم الواسعة فهو يحمل اعلى الشهادات العلمية. وقد بدأ حياته السياسية اشتراكيا فى جمعية (الفابيان) ولكنه انقلب بعدئذ الى محافظ عنيد كما هى الحال فى كثير من ساسة المحافظين القدماء وله كتاب قيم عن (المحافظين والقرن العشرين)، يعد خير ما كتب عن المحافظين. وقد شغل الميجر اليوت مناصب مختلفة فى وزارات قبل الحرب ولكنه لم يشترك فى وزارة المستر تشرشل الحالية. وقد نجح وهو وزير للزراعة نجاحا ممتازا.

المستر وليم موريسن

وقد خلفه فى وزارة الزراعة المستر وليم مورسن (W. S. Morrison) وهو غير المستر هربرت مورسن وزير الداخلية الحالى. وهو من شباب الحزب المحافظ الذين نجحوا فى كثير من المهام التى عهدت اليهم ويشغل الآن وظيفة لها اهميتها فى عالم بعد الحرب وهى وزارة تنظيم المدن والقرى.

الشخصيات الاخرى

وقد خسر الحزب المحافظ خلال دورة المجلس الحالى عددا كبيرا من اعضائه البارزين، ولاسيما الخسارة التى سببتها وفاة السير اوستن تشمبرلين بطل لوكارنو ثم وفاة اخيه نفيل. وقبيل الحرب توفى السير فيليب ساسون (Sir Philip Sassoon) الذى كان وزيرا للاشغال فى وزارة المستر تشمبرلين. والسير فيليب ينتمى الى عائلة ساسون البغدادية. وكان من الشخصيات المشهورة بذوقها الفنى وبمركزها فى الاوساط الاجتماعية.

---

(١) فى شهر تموز ١٩٤٤ منح السير صموئيل هور رتبة فايكونت فاصبح اسمه الآن (Lord Templewood)

وقد اختطفت الحرب بعض شخصيات الحزب اهمها السير ارنولد ويلسون (Sir Arnold Wilson) • ونحن فى العراق نعرف ويلسون عندما كان حاكما ملكيا فى بغداد عقب الاحتلال • وبعد خدمات ممتازة فى الادارة الملكية رشح نفسه لعضوية مجلس العموم وكان من النواب البارزين • وقبل الحرب اثار حملة شعواء على حكومة المستر تشمبرلين لحملها على اقرار الخدمة الالزامية فى زمن السلم • ولما نشبت الحرب الحاضرة انخرط هذا النائب فى سلك الطيران فصار مدفعيا طيارا فذهب فى غارة على المانية ولم يعد •

ان التطوع فى الخدمة العسكرية شىء مألوف بين اعضاء مجلس العموم فهم لا يرون ان نياباتهم يجب ان تحول دون اشتراكهم اشتراكا فعليا فى خدمة امتهم فكثيرا ما سمعنا خلال الحرب عن اشتراك اعضاء من مجلس العموم فى مختلف الميادين الحربية • فمن بين نواب المحافظين يمكن ان نستشهد بالكبتن (سمرست ده شير) (Capt. Somerset de Chair) الذى اشترك فى الحركات العسكرية التى جرت فى العراق فى ايار سنة ١٩٤١ وكتب كتابه المسمى (البساط الذهبى)(١) وهذا المستر (ماكلين) (Maclean) يدير الحركات العسكرية فى يوغوسلافيا مع المارشال (تيتو)، والكبتن (كازاليت)(Cazalet) الذى فقد حياته مع الجنرال سكورسكى فى حادثة اصطدام الطيارة التى اقلتهم من تفتيش بعض ميادين القتال • وقد بلغ مجموع اعضاء مجلس العموم المشتركين فى القوات المحاربة حتى الآن (اى ١٩٤٤) ٦٤ عضوا(٢) •

لست ابغى الكلام عن كل عضو من اعضاء مجلس العموم من المحافظين ولعلى اكتفى بما ذكرت عن بعضهم واعتذر عمن شذ الفكر عن ذكرهم • وقبل ان انتقل من الكلام عن الحزب المحافظ الى حزب العمال اود ان اسجل اسمى شخصين من اعضاء الحزب المحافظ ممن عرفا بصداقتهما للشرق العربى وعطفهما عليه وهما (الايرل وينترتون) (Earl Winterton) و (الميجر آستور) احد اصحاب جريدة التايمس اللندنية •

---

(١) (The golden Carpet)

(٢) من هؤلاء (٤٦) فى الجيش و (٩) فى البحرية و (٩) فى القوة الجوية •

حزب العمال

ويلى الحزب المحافظ من ناحية عدد الاعضاء فى مجلس العموم الحالى حزب العمال فعدد اعضاء هذا الحزب كان (١٥٤) عضوا فى سنة ١٩٣٨ ولم يتغير العدد تغيرا كبيرا، مما يدل على ان الحزب ومبادئه بقيت فى حالة ثابتة دون ان تجد لها مناصرة جديدة لدى الشعب البريطانى وفى الوقت ذاته لم يصبه انتكاس جوهرى فى الحقل السياسى. وبتأليف وزارة المستر تشرشل انضم حزب العمال اليها بعد أن امتنع عن معاضدة المستر تشمبرلين عندما اراد توحيد صفوف الاحزاب السياسية سنة ١٩٤٠ فحزب العمال اليوم مشترك فى الوزارة اشتراكا فعليا ومع ذلك ما زالت فى مجلس العموم جبهة معارضة تمثل الحزب المذكور اذ ان النظام المزدوج يقضى بقيام جبهة معارضة حتى فى حالة ائتلاف الاحزاب جميعها فى وزارة قومية.

نشوءه

واكمالا للفائدة المتوخاة من استعراض الاحزاب السياسية فى مجلس العموم يحسن بنا ان نلقى نظرة على تاريخ حزب العمال وكيفية نشوئه. اخذ فجر حزب العمال بالبزوغ ببزوغ فجر العصر الحالى ولم يتبلور مركزه السياسى بين الاحزاب الاخرى الا فى سنة ١٩٠٦، مع ان البرلمان الانكليزى كان يضم اعضاء يمثلون العمال منذ سنة ١٨٧٤ ولكن هؤلاء الاعضاء، الذين لم يتجاوز عددهم الاثنين، لم يكونوا ممثلين لحزب ذى مبادىء معينة بل كانوا يمثلون العمال الذين انتخبوهم. وكانت مبادئهم مبادىء حزب الاحرار تقريبا. وافاقت نقابات العمال الانكليزية من غفوتها السياسية وصارت تدرك ضرورة القيام بخطوات تؤدى الى تحسين اوضاع العمال ورفع مستوى معيشتهم فقرر مؤتمر نقابات العمال فى سنة ١٨٩٩ تأليف لجنة للنظر فى توحيد النقابات والجمعيات التعاونية وغيرها من المؤسسات التى تهتم بشؤون العمال. وهذه المنظمات كانت كثيرة العدد منها ما كان يدعو الى مبادىء اشتراكية او يسارية منذ اواخر القرن الماضى واهمها جمعية (الفابيان) التى تأسست سنة ١٨٨٣ والتى كانت تضم بعض المفكرين من الطبقات الوسطى ومن اتباع مذهب (جون ستيورت ميل). فاعضاء هذه الجمعية هم من المؤمنين بمبادئ كارل ماكس ولكنهم لم يأخذوها على علاتها بل كسوها رداءا انكليزى الصبغة. وهم لا يدينون بالمبادىء الثورية او النظرية ولا يتخذونها واسطة

لتحقيق اهدافهم كما يتضح من كتابات اقطاب الجمعية من الاحياء كبرنارد شو واچ. جي. ويلز وقد كان لبعض المنظمات الدينية امثال (جمعية الاخوان) (Quakers) و (الميثوديست) بعض الاثر فى انعاش الوعى الاجتماعى والسياسى. ومن نتيجة الفكرة التى تولدت لدى نقابات العمال من لزوم التدخل الفعلى فى السياسة نشأ حزب العمال المستقل بزعامة (كير هاردى) (Keir Hardie) وهو من اقدم نواب العمال فى مجلس العموم. وفى الوقت الذى تأسس فيه هذا الحزب توحدت جهود الهيئات الاشتراكية فى انكلترا تحت لواء (الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى). ثم بدأ نشاط (سيدنى وبياتريس وب) فى اثارة وعى العمال وتنظيم نقاباتهم وبث الدعوة لاحداث نظام اجتماعى واقتصادى جديد. وفى سنة ١٩١٠ توحدت جميع هذه المنظمات وتألفت (لجنة تمثيل العمال) التى اصبحت فى سنة ١٩٠٦ حزب العمال كما هو اليوم.

اصبح حزب العمال ثالث الاحزاب الانكليزية المعترف بها واخذ يجد له من بين طبقات العمال واصحاب المهن مريدين وانصارا اخذ عددهم يتضاعف بمر الايام والاشهر. ولكن برغم الاقبال الزائد الذى لاقاه هذا الحزب الجديد بين صفوف الشعب لم يتمكن من الحصول على اكثرية فى مجلس العموم تمكنه من تنفيذ مبادئه. فوحد جهوده مع حزب الاحرار وصار الحزبان يكافحان معا. ولما حلت الحرب الماضية خف التطاحن الحزبى فتألفت وزارة ائتلافية واعلنت المهادنة الوقتية بين الاحزاب. وعلى اثر انتهاء الحرب كان اتجاه الرأى العام البريطانى نحو احزاب اليمين التى هى اقرب الى تحقيق رغبات شعب خارج من حرب طويلة وسلوك سياسة هادئة وتجنب كل خطوة عنيفة. فازداد نفوذ المحافظين وضعف نفوذ الاحرار الامر الذى حمل العمال على الانفصال من الوزارة القائمة بعد ان كانوا ممثلين فيها بعدد ضئيل من الوزراء. وفى الانتخابات التى جرت سنة ١٩٢٢ فاز حزب المحافظين بالاكثرية وفى الوقت ذاته تضاعف عدد نواب العمال فاصبح حزبهم ثانى الاحزاب قوة فى المجلس. واجتمع المجلس الجديد فوجد حزب العمال نفسه امام وزارة ضعيفة من ناحية الاشخاص عاجزة عن معالجة القضايا

الداخلية والخارجية واهمها مشكلة البطالة. وبغية حلها تقرر اجراء انتخابات عامة لعرض الامر على الشعب وكانت نتيجة الانتخابات ضد سياسة الحزب المحافظ ولكن فى الوقت عينه لم يحصل حزب العمال على اكثرية مطلقة تمكنه من تنفيذ ما ربه وحيداه ولما اجتمع المجلس تقدم رئيس الحزب المستر ماكدونالد باقتراح نزع الثقة من الوزارة فانضم اليه الاحرار وآل الامر الى استقالة وزارة المحافظين. فاستدعى زعيم الحزب المعارض وكلف تأليف وزارة من العمال.ولم تتمكن هذه الوزارة من تحقيق شيء من المبادىء التى كانت تدعو اليها وبرغم وجود اقطاب المبدأ الاشتراكى فيها لم تتمكن من ادخال اى مبدأ من المبادىء الاشتراكية فى النظام الرأسمالى القائم فاضطر اكثرهم الى تغيير الآراء السياسية التى كانوا يعتنقونها قبل مجيئهم الى الحكم كما هى العادة الجارية عند كثير من الساسة. فلم تدم هذه الحالة طويلا اذ فاز المحافظون فى انتخابات سنة ١٩٢٤ باكثرية مطلقة بعد ان فضحوا مفاوضات العمال مع روسيا واتهموهم بالميل الى الشيوعية.

مركزه فى السياسة الانكليزية

وفى انتخابات سنة ١٩٢٩ استعاد حزب العمال مركزه السابق بل اكثر منه، فحصل على مقاعد تقرب من عدد مقاعد المحافظين وبمساندة الاحرار تمكن من تأليف وزارة اخرى برياسة رمزى ماكدونالد وهذه الوزارة كالوزارة السابقة لم تتمتع باكثرية مطلقة تمكنها من تنفيذ مبادئها كما صادف حصول ازمات اقتصادية عجزت عن حلها جميع الاحزاب حينما حاول كل حزب ان يعالجها على انفراده. فاقترح الملك جورج الخامس تأليف وزارة تضم زعماء الاحزاب الثلاثة برياسة المستر ماكدونالد. فانشق على اثر ذلك كثيرون من حزب العمال على رئيسهم. فتقدمت هذه الوزارة الائتلافية الى الشعب بانتخابات سنة ١٩٣١ وكانت النتيجة بجانب الجبهة الائتلافية وبقى ماكدونالد رئيسا للوزارة حتى سنة ١٩٣٥ ولكن ذلك ليس بفضل قوة حزبه بل بفضل حزب المحافظين ومن ايده من الاحرار. فاستقال فى تلك السنة بحجة اعتلال صحته. وفى انتخابات سنة ١٩٣٥ حصل المحافظون أيضا على الاكثرية يساندهم العمال الوطنيون والاحرار الوطنيون ولكن حزب العمال الاصلى بقى فى المعارضة الى ان اشترك فى الحكم عند

تأليف وزارة المستر تشرشل الحالية.

مبادؤه

ان المبدأ الاساسي لحزب العمال البريطاني هو تأسيس دولة اشتراكية في انكلترا تحل محل الدولة الرأسمالية القائمة وهذه الدولة الاشتراكية تستولى على جميع وسائل الانتاج والمرافق العامة بعد ان تدفع لاصحابها تعويضا مناسبا. ولا تعترف هذه الدولة بالنظام الطبقي المستند الى تملك وسائل الانتاج كما هو الحال في النظام القائم. وبكلمة اخرى ان هذا الحزب يدعو الى الاستعاضة بالاستثمار المشترك الذي تقوم به الدولة عن الاستثمار الفردي الذي يقوم به الافراد او الشركات الرأسمالية. وبغية تحقيق هذا المبدأ الاساسي يرى الحزب ان يبذل جهده للحصول على اغلبية برلمانية تمكنه من القيام بتحقيق مقاصد الحزب وغاياته وفي الوقت ذاته تحول دون تمكين الاحزاب الاخرى من ان تقوم باى عمل يؤدى الى الاجحاف السياسي او الاقتصادي بطبقة العمال. والحزب يؤمن ان دور الانتقال من النظام الحالي الى النظام الجديد يجب ان يتم بطرق دستورية ديمقراطية وتدريجية لا بطرق ثورية عنيفة. ولذلك فهو لم يدع ولا يدعو ابدا الى النضال الطبقي الذي تدعو اليه الاحزاب الاشتراكية المتطرفة وهذا السبب من اهم الاسباب التي فرقت بين حزب العمال البريطاني والحزب الشيوعي حتى رفض الاول رفضا باتا اندماج الثاني به فاقتصر على معاونة نقابات العمال والجمعيات التعاونية ومساندتها.

سياسته الخارجية

اما في السياسة الخارجية فان الحزب يدعو الى لزوم تفاهم بريطانيا مع الدول الاخرى بالطرق السلمية والابتعاد عن سياسة التعدي واذا ما ظهر للحزب ان اية حكومة انكليزية خالفت هذا المبدأ فانه يقاومها بكل قوة ويعمل على اسقاطها. وحزب العمال من اكثر الاحزاب البريطانية اخلاصا لعصبة الامم وسياسة الضمانة الاجماعية وكان يدعو دوما الى القول بان اهم أسباب الحروب اسباب اقتصادية فاذا عولجت هذه الاسباب الاقتصادية يمكن تجنب الحروب في المستقبل. واما تجاه الامبراطورية فانه يرى انها يجب ان تكون من دولة تضم دولا مستقلة ضمن نطاق عصبة الامم. وتجاه الشعوب الاخرى التي تحكمها بريطانيا فان الحزب اكثر تسامحا من غيره من الاحزاب الانكليزية

ففى رأيه ان هذه الشعوب يجب ان تمنح حكما ذاتيا لتحكم نفسها بنفسها والا تكون خاضعة خضوعا تاما لاستغلال الدول القوية الطامعة. ولذلك كان كلما اتى حزب العمال الى دست الحكم تفاءلت هذه الشعوب خيرا.

حزب العمال والشعب العربى

ولكن مما يؤسف له حقا ان يحيد هذا الحزب عن مبادئه النبيلة فيسيء الى الشعب العربى متأثرا بدعاة الصهيونية فى انكلترا فيتخذ فى مؤتمره السنوى الذى عقد فى هذه السنة (١٩٤٤) قرارا لا يتفق مع ما يقتضيه العدل والانصاف ومراعاة حقوق الامم الضعيفة. فقد قرر مؤتمر الحزب فتح باب الهجرة الى فلسطين وجعلها فى النهاية دولة يهودية وابعاد اصحاب البلاد الشرعيين ليحل محلهم متشردو الصهيونيـة من شـذاذ الآفاق. ان هذا القرار سيبقى وصمة فى جبين الحزب ولطخة عار بين مبادئه الانسانية. والعرب يأملون من مفكرى الحزب وزعمائه ان يعيدوا النظر فى قرارهم هذا واضعين نصب اعينهم حقوق الشعوب الضعيفة ومبادىء ميثاق الاطلنتيك السامية التى تطالب الان بعض الاوساط المفكرة فى الحزب تطبيقها حتى على المانية بعد اندحارها. فكيف على الشعب العربى الذى وقف الى جانب الشعب البريطانى فى اشد ساعات محنته.

ويدعو الحزب الى مصادرة الاراضى الصـالحة للانتاج بعـد تعويض اصحابها تعويضا عادلا وبحسب تقدير معين ثم تأسيس منظمات زراعية تقوم باستثمار هذه الاراضى بارشاد الحكومة وتحسين الزراعة بالطرق العلمية الحديثة ورفع مستوى الفلاح بزيادة اجوره وتوفير وسائل الراحة له.

اما فى الحقل الصناعى فان الحزب يرى لزوم وضع جميع المرافق الاقتصادية تحت سيطرة الدولة وادارتها وكان اهم ما ينوى الحزب القيام به هو وضع مناجم الفحم تحت سيطرة الدولة لكنه لم يتمكن من ذلك رغم وجوده فى دست الحكم سنين عديدة ولم تتحقق هذه الخطوة الا اثناء الحرب الحالية عندما نجحت وزارة المستر تشرشل فى ذلك. والحزب يدعو ايضا الى السيطرة على جميع مرافق الصناعة التى لها فائدة عامة كالمعامل ومولدات الكهرباء والغاز والماء وما شاكلها كما انه يدعو الى اشتراك الدولة فى تنظيم وسائط النقل المختلفة من برية وجوية وبحرية. واهم ما يعمل عليه الحزب

هو حل مشكلة البطالة وضمان التقاعد للعمال والبطالين وتحسين احوالهم. وهو يدعو الى لزوم المساواة بين اجور الرجل والمرأة فى جميع الاعمال المماثلة وهو يرى ان زواج المرأة يجب الا يكون سببا لحرمانها من وظيفتها.

ومنهج حزب العمال فى التربية والتعليم يدعو الى ايجاد نظام تعليمى يقضى على الدولة ان تساهم بدفع نصف تكاليفه على الاقل. وكان الحزب يدعو الى جعل عمر الطالب الذى يترك المدرسة ١٦ سنة وقد تحققت هذه النقطة من مبدأ الحزب بقانون المعارف الجديد الذى وضعه المستر بتلر الوزير المحافظ. ويعتقد الحزب بلزوم منح وزارة المعارف سلطات تامة لتفتيش جميع المدارس والمعاهد على اختلاف انواعها. وتقضى سياسة الحزب المالية على جعل بنك انكلترا مؤسسة حكومية صرفة تكون مسؤولة تجاه مجلس العموم مباشرة فيما يتعلق بالامور المالية والصيرفية. وهذا البنك هو الذى يمد المشاريع الاقتصادية والتجارية التى تقوم بها الدولة بالمال اللازم. وان تسيطر الدولة على البورصة بواسطة لجنة خاصة. وان توحد البنوك المهمة فى هيئة صيرفية واحدة تكون تحت ادارة الدولة. واما فيما يتعلق بالسياسة النقدية فان الحزب يدعو الى تثبيت الاسعار فى مستوى مناسب وبمقتضى اتفاق دولى لتعين اسعار التحويل الخارجى.

والحزب يدعو الى نبذ المحالفات العسكرية من النوع الذى كان يجرى قبل الحرب الماضية وهو يدعو ايضا الى نبذ العزلة. ويدعو كذلك الى عدم استعمال القوة الا فى الاحوال التى ينبغى استعمالها ضد الدول المعتدية. ويرى ضرورة ايجاد قوة دولية لضمان السلم الدولى وتخفيض تسليح الدول الى ادنى حد ممكن. ويعتقد الحزب بان السلم الدولى لا يتحقق ما لم تشترك كل دولة من الدول فى الانتفاع بالثروة العالمية. وقد اظهر الحزب دوما استعداده لعقد مؤتمر عالمى لهذه الغاية. وفى الوقت ذاته فانه يعمل على ايقاف التنافس بين الدول على التسليح وايجاد قوة جوية دولية وتنظيم الطيران المدنى الدولى وقد قدم فعلا فى هذه السنة (١٩٤٤) تقريرا يوصى الحكومة بالقيام بذلك.

ويلاحظ ان حزب العمال يعترف بنظام الملكية الوراثية القائم الآن وهو

لا يرى فيه ما يخالف نظام الدولة الاشتراكية التى يدعو الى تأسيسها وهو يعلن اخلاصا وولاء تامين للعرش البريطانى • اما فيما يخص الكنيسة فليس له رأى خاص لكنه يميل الى الخروج من تقييدات الكنيسة القائمة•

قلت فى صدد البحث عن كيفية ظهور حزب العمال ان الفكرة الاشتراكية والعطف نحو الطبقات الفقيرة والدعوة الى تحسين حالها كانت موجودة منذ اواخر القرن الماضى وقد دعت اليها جمعيات ومؤسسات عديدة• وكان لبعض الشخصيات اثر كبير فى ترويج الدعوة الاشتراكية بما كتبوه من الكتب وما بذلوه من الجهود فى هذا السبيل وربما كان (هيندمان) اول من قال ودعا للعمل المنظم فهو الذى اسس (الاتحاد الديمقراطى الاجتماعى) فى سنة ١٨٨١ الذى اصبح بعدئذ (الحزب الاشتراكى البريطانى) واصدر صحيفة يدافع بها عن آرائه ومبادئه سماها (العدل/Justice) • ومما ساعد (هيندمان) على الدعوة لمبادئه فى انكلترا ظهور (هنرى جورج) الاقتصادى الاميريكى الشهير الذى كان يدعوالىالاشتراكية بكتابه المسمى (التقدموالفقر) (Progress and Poverty) • ولما حل القرن الحالى وجدت حركة العمال خير نصير لها فى شخص (سيدنى ويب) (Sydney Webb) وزوجته (باتريس)• وتعتبر هذه العائلة الدماغ المفكر للحركة بما بذلته من النشاط المادى والفكرى فى سبيلها وكانت جريدة (نيو ستيتسمان) الشهيرة لسان حالهما• واكثر ما اشتهربه سيدنى ويب هو المشروع المسمى باسمه لاصلاح النظام البرلمانى وبعض النواحى الدستورية الاخرى التى تضمنها كتابه (دستور الدولة الاشتراكية لبريطانيا العظمى)• وقد اشترك ويب فى وزارة العمال سنة ١٩٢٤ وصار وزيرا للتجارة وفى سنة ١٩٢٩ صار وزيرا للمستعمرات وفى تلك السنة منح لقب اللوردية فصار يسمى باللورد (باسفيلد) وهكذا آمن هذا الثائر والمفكر بالنظام الذى كان يدعو الى تعديله وابطاله قبلا فسار فى الطريق التى سار عليها اكثر الناس محافظة وتعلقا بالانظمة القديمة• ومن اقدم نواب العمال فى مجلس العموم هو المستر (جون برنس) (John Burns) الذى توفى قبل مدة وجيزة فقد دخل البرلمان نائبا عن العمال سنة ١٨٩٢ وكان اول عامل يدخل الوزارة البريطانية اذ اصبح وزيرا

سيدنى وبياتريس ويب

جون برنس

سنة ١٩٠٥ . وهو عامل بمعنى الكلمة ينحدر من عائلة معدمة لم تمكنه حالته المالية من الدراسة المنظمة فدرس فى المدارس الليلية المجانية. وقد قال (جون برنس) عن نفسه : «اتيت الى الدنيا بكفاح وما زلت اكافح وآمل ان اثابر عليه».

رمزى ماكدونالد

ورمزى ماكدونالد لم يكن الدماغ المفكر لحزب العمال فحسب ولكنه كان زعيمه الوحيد بالحق والحقيقة. فقد ولد الحزب على يده وقبر على يده. اقول قبر على يده لان النهاية السياسية للدور الاول من حياة الحزب قد حلت يوم ان تألفت الحكومة الائتلافية برياسته سنة ١٩٣١ . وهو وان كان الوزير الاول فى تلك الوزارة الا انه لا هو ولا حزبه كان لهم كلام مسموع فيها فكانوا دوما رهن فضل المحافظين لبقائهم فى الحكم. وحزب العمال فى هذا الدور انقسم على نفسه ففريق التف حول ماكدونالد وسمى نفسه حزب العمال الوطنى. والفريق الاخر وهم الخوارج الذين خرجوا على سياسة ماكدونالد لموا شعث ما بقى من الحزب وكونوا حزب العمال الحالى. وفى البلاد التى تفسح المجال لمن لهم مواهب النبوغ بلغ رمزى ماكدونالد اعلى مناصب الدولة. فلم تكن لديه المؤهلات التى قلنا قبلا انها يجب ان تتوفر فى اغلب رجال الحكم من الانكليز كالتربية البيتية والثقافة الخاصة والانتساب الى الصنف الحاكم. فماكدونالد ينتسب الى عائلة اسكوتلندية مجهولة المركز والمقام وقد نشأ فى صباه نشأة صبى معدم فكافح لنيل قوت يومه بكد اليمين وعرق الجبين فقدم لندن مركز العمل وام الفرص واشتغل كاتبا براتب لا يتجاوز خمسة دنانير شهريا والتحق باحدى المدارس الليلية لدراسة العلوم الطبيعية والاقتصاد الى ان تفتحت له مناهل الرجاء والتوفيق والتقدم وما ان حلت الحرب العظمى الماضية حتى اوجد ماكدونالد لنفسه مقاما يحسد عليه فزاد فى شهرته عندما وقف وهو نائب فى مجلس العموم يدعو ضد الحرب وينادى بالسلم. وبعد بضع سنين وجد هذا العصامى نفسه رئيسا لحزب العمال وزعيم المعارضة فى مجلس العموم والمرشح الوحيد لرياسة الوزارة المقبلة ثم رئيسا حقيقيا لها. وباندماجه فى الصفوف الحاكمة بدأ ماكدونالد يشذب كثيرا من مبادئه الاشتراكية التى كان يدعو اليها بحماسة عمياء قبل مجيئه

الى الحكم فالتف حوله اقطاب المال والجاه ومديرو دفة السياسة بالخفاء حتى اصبح ذلك الاشتراكي المتطرف كغيره من الساسة الاخرين. تلك هي سنة طبيعية في سياسة الحكم في انكلترا يصعب على كل من يتولى الحكم ان يحيد عنها او يسير على نقيضها وان فعل ذلك قصدا او غفلة ابتعد عنه مجال الحكم.

آرثر هندرسون

ان اغلب صحب ماكدونالد من الذين ناصروه وشدوا ازر حركته يوم الدعوة قد لقوا اجلهم، وجلهم رجال لبريطانية كل الحق ان تفخر بهم. فارثر هندرسون (Arthur Henderson) من اعظم الشخصيات ليس في حزب العمال وحده بل في جميع انكلترا ولو لم يطوه الردى عاجلا لغير حتما مسلك سياسة حزب العمال. ومما قرب اجله هو الفشل الذى اصاب مؤتمر نزع السلاح ذلك المؤتمر الذى بذل المرحوم هندرسون جهودا مادية ومعنوية جبارة لانجاحه فمن الطبيعي ان يهد فشل المؤتمر كثيرا من صحته ومعنويته.

جورج لانسبوري

ومن اقطاب الحزب الذين اصبحت اعمالهم طي السجلات والكتب هو جورج لانسبوري (George Lansbury) سلف المستر اتلي في رياسة حزب العمال. والمستر لانسبوري يعتبر من اكبر دعاة السلم (Pacifists) الذى عاشوا في عصرنا الحاضر.

المستر لي ـ سميث

والمرحوم المستر لي ـ سميث (Lee-Smith) من وزراء ماكدونالد وقد انتخب رئيسا لحزب العمال البرلماني بعد اشراك الحزب في الحكومة الائتلافية الحاضرة. وللمستر لي ـ سميث فضل شخصي علي وهو فضل استاذ على تلميذ فله مني آيات الرحمة وحسن الثواب. وبعد وفاته خلفه في رياسة الحزب

المستر آرثر كرينوود

المستر آرثر كرينوود (Arthur Greenwood) وهو رجل نابه قدير متكلم ومن المتحمسين لحركة العمال وربما كان تحمسه لها قدر ميله للمسكر. وكان المستر كرينوود وزيرا بلا وزارة وعضوا في وزارة الحرب.

الكولونيل ويجوود

ومن الشخصيات البارزة في حزب العمال ممن فارق الحياة الدنيا هو الكولونيل ويجوود (Wedgwood) (لورد ويجوود بعدئذ) وكان هذا اليهودي من ابرز الشخصيات في مجلس العموم البريطاني وكان يلقب (ويجوود الجبار) (١) بالنظر لبراعته في الخطابة وشخصيته الفذة. وقد رغبت الحكومة

(١) Mighty Wedgwood

القائمة فى التخلص منه من مجلس العموم فمنح لقب اللوردية وغادر المجلس الاسفل الى المجلس الاعلى. ولى وانا عربى، ان اقول كلمة فى هذا الرجل، ولكننا نحن معاشر العرب لسنا ممن يشمتون بالموتى فالشماتة بالميت ذل وجبن. لقد اساء الينا هذا اليهودى كثيرا لما كان فى قيد الحياة ولم تمر فرصة الا وانتهزها للحط من قضية العرب امام الرأى العام البريطانى وشوه الحقائق وانتحل الاتهامات والافتراءات لنفع القضية الصهيونية فكان آخر عمله فى اخريات ايامه وقبل ان يلاقى ربه ان وجه خطابا بالراديو الى الشعب الاميريكى فى صيف عام ١٩٤٢ يطلب فيه تسليح اليهود فى فلسطين ويحرض الشعب الاميريكى النبيل على هضم حقوق العرب وقد جهل، غفر الله ذنوبه ومعاصيه، انه بعمله هذا كان يزيد فى النفرة بين العرب واليهود وانه باطلاقه العنان لعاطفته كان يلعب بالنار وهو غير مسؤول.

المستر جى. أج. توماس

ومن الاموات غير المقبورين من اعضاء حزب العمال الاصليين هو المستر جى. اج. توماس (J. H. Thomas) فقد كان هذا من اقوى انصار ماكدونالد وقد انتخب نائبا لرئيس حزب العمال البريطانى ودخل وزيرا فى الوزارة الائتلافية التى تألفت برياسة بولدوين. والمستر توماس نشأ نشأة عصامية ايضا. اشتغل وهو غلام يافع بالخدمة ثم اصبح عاملا فى القطار يوقد وينظف القاطرات ثم ترفع فاصبح سائقا لها. وبفضل ما اظهره من نشاط وذكاء انتخب نائبا فى مجلس العموم عن العمال. وحياته السياسية قد انتهت بالغرابة والسرعة اللتين بدأت بهما فعندما كان وزيرا فى وزارة المستر بولدوين الاخيرة تسربت منه لصديق له (١) بعض المعلومات التى لها علاقة باسرار الميزانية وادى الامر الى تأليف محكمة تحقيقية قررت ادانته فاضطر الى التخلى عن منصبه الوزارى ثم عن مقعده فى مجلس العموم. ولما حضر الجلسة ليدافع عن نفسه كان مما قاله «انى مرتاح الضمير لان شخصا واحدا مقتنع ببراءتى» ملتفتا الى المقصورة حيث جلست زوجته تستمع الى دفاعه وكان ذلك مشهدا مؤثرا ومؤلما حقا.

المستر أتلى

وهذه كلمتنا عن الاحياء من اعضاء حزب العمال. فرئيس الحزب

(١) السر الفريد بيت هو نائب يهودى محافظ.

اليوم هو المستر (كليمانت أتلي) (C. Attiee) الذى خلف المستر جورج لانسبورى فى رياسة الحزب سنة ١٩٣٥ وفى ظنى ان رياسة الحزب اتت الى المستر اتلى بطريق المصادفة فالرجل ليس اقدر واليق شخصية بين اعضاء الحزب بل هناك عدد من الشخصيات ممن تتوفر فيهم صفات الزعامة والقيادة اكثر منه مثل المستر هربرت موريسن والمستر ارنست بيفن والمستر آرثر كرينوود. فالمستر أتلى تنقصه موهبة الخطابة وهى اهم ما يجب ان تتوفر فى السياسى الانكليزى، ناهيك بزعيم حزب مهم. وربما كان (اتلى) استاذا ناجحا فى احدى الجامعات ولكنى لا ارى فيه لياقة لتزعم (معارضة جلالته) وربما كان السبب الوحيد لبقائه بزعامة الحزب هو لانه سبق وانتخب لهذه الوظيفة ولم تشأ روح «ابقاء ما كان على ما كان» ان تحدث اى تغيير فى ذلك برغم وجود من هو اكثر اهلية للمنصب، هكذا يقضى المنطق السياسى الانكليزى. وعند تأليف الوزارة الحاضرة دخل حزب العمال فيها فاسندت الى زعيمه وظيفة نائب رئيس الوزراء..

المستر هربرت موريسون

وحسب رأى الكثيرين من المطلعين والمتفهمين للاحوال السياسية الانكليزية ان المستر (هربرت موريسن) (Herbert Morrison) اليق شخص لرياسة الحزب وهو مثل آخر للنبوغ فى «بلاد الفرص». كريم العين ينتسب الى عائلة معدمة من العوام(Cockney) لم يتمكن والده الشرطى من تدبير نفقات دراسته فدرس كغيره من ابناء الفقراء فى مدارس البلدية ثم اشتغل فى الخدمة وبعدها اصبح عاملا فى احد الدكاكين حتى ترفع واصبح مأمورا لبدالة التلفون. ولذكائه وتحمسه انتخبه زملاؤه العمال نائبا عنهم ثم اختير سكرتيرا لحزب العمال منذ سنة ١٩١٤ وبعده اصبح رئيسا لمجلس بلدية لندن (L.C.C.) وبقى فى هذا المنصب من سنة ١٩٣٢ الى ان اشترك فى الوزارة الحالية. وقد اظهر فى ادارة البلدية كفاية نادرة فى التنظيم وتحسين احوال الطبقات الفقيرة من سكان العاصمة. ولما كان وزيرا للنقليات فى وزارة العمال الثانية اعد لائحة تنظيم وسائط النقل للندن وكانت آية من آيات التنظيم. والمستر موريسن يمتاز برجاحة رأيه ودقة تفكيره وادراكه السياسى الناضج. فهو سياسى عملى بكل ما لهذه الصفة من معنى. لا يتطرف بمبادئه اليسارية

تطرفا خياليا كما هو حال كثير من رجال الاحزاب اليسارية الاخرى فهو يفهم طبيعة قومه ومقتضيات الاحوال العامة فهما تاما ولذلك كان المستر موريسن عند حسن ظن احزاب اليمين وموضع ثقتها اضافة الى تمتعه باحترام اغلب الاحزاب اليسارية وثقتها. وله آراء ناضجة فيما يخص المشاكل العامة وكيفية حلها وخاصة فيما يخص المستقبل وقد جمع بعضها فى كتاب صغير اوصى الشباب المثقف بمطالعته(١) ويشغل المستر موريسن الان منصب وزير الداخلية وهو عضو فى هيئة وزارة الحرب وقد اقامت عليه مؤخرا بعض الاوساط اليسارية ضجة لاطلاقه سراح السير اوزولد موزلى زعيم حزب الفاشيست لاسباب صحية.

السير ستافورد كريبس

ولعل امتع شخصية بين شخصيات حزب العمال هو (السير ستافورد كريبس)(Sir Stafford Cripps) فهو ابن اللورد (بارمور) احد وزراء حكومة العمال البارزين وممثل الامبراطورية البريطانية فى عصبة الامم سنة ١٩٢٤ . وربما كان لعائلة (ويب) التى يمت اليها السير ستافورد بصلة القربى والنسب بعض الاثر فى اعتناقه المبادىء الاشتراكية. ان اشتراكية كريبس اشتراكية متطرفة اذا ما قورنت باشتراكية الاحزاب اليسارية ولذلك عندما قام بحملته الشهيرة لتوحيد تلك الاحزاب وتأليف الجبهة المتحدة التى تضم الحزب الشيوعى رأى حزبه ان محاولته هذه لا تتفق وآراء الحزب ومناهجه المقررة فقررت الهيئة العامة للحزب طرده. واود ان اشير عرضا الى ان حزب العمال يمتاز عن الاحزاب الاخرى بانظمته الانضباطية الصارمة بحق الاعضاء وتصرفاتهم(٢). والسير ستافورد من اثقف اعضاء حزب العمال واذكاهم ومن اكثر رجال الانكليز احاطة بالنظم والاصول البرلمانية وهو كذلك من ابرز المحامين فى انكلترا ووارده السنوى من المحاماة يتجاوز (٣٠٠٠٠) باون فى ايام السلم. ويتمتع كريبس بثقة الاحزاب اليسارية تمتعا مطلقا سواء أكان داخل انكلترا ام فى خارجها ولهذا السبب اودعت

(١) اسم الكتاب : Looking Ahead

(٢) ان حادثة طرد السير ستافورد كريبس من حزب العمال وحادثة تأنيب المستر اونيرن بيفان التى جرت قبل بضعة اشهر هى امثلة على صرامة الانظمة الانضباطية لحزب العمال.

اليه سفارة موسكو فى اوائل سنى الحرب حيث بقى فى هذا المنصب الى ما بعد الغزو الالمانى لروسيا فى حزيران ١٩٤١ . وعلى برقية طيرها له فريق من عمال اسكوتلندا اظهروا فيها قلقهم لبطء التقارب الروسى — البريطانى اجابهم السير ستافورد من موسكو «لا ينفذ صبركم ايها الرفقاء فكل شيء سيتم حسب ما يرام» ولم تمض اشهر طويلة على هذه المراسلة الا ورأينا كل شيء قد تم حسب ما يرام وان الشعب الروسى والبريطانى وجدا انفسهما جنبا الى جنب فى هذه الحرب. وبعد نجاحه فى موسكو استقال السير ستافورد من السلك الدبلوماسى وطفق يشتغل فى الحياة السياسية العامة. وما هى الا فترة وجيزة حتى استدعى الى الاشتراك فى الوزارة ثم اصبح زعيما لمجلس العموم وهى المهمة التى قلنا عنها انها تسند عادة الى اهم الشخصيات الوزارية بعد رئيس الوزراء. وعلى الاثر اسندت اليه مهمة من اعقد القضايا السياسية تحت التاج البريطانى الا وهى القضية الهندية. قصد الهند بنفسه واتصل بجميع الزعماء والاحزاب وابدى جهودا جبارة لايجاد حل للقضية الهندية ولكنه فشل وعاد الى بلاده بخفى حنين وخسرت انا لفشله هذا رهانا مع صديق. ومن اهم الاسباب التى ادت الى اضطلاعه بهذه المهمة الخطيرة سببان : الاول ان شأن الرجل اخذ يتعاظم فى انكلترا حتى شعرت بعض الاوساط انه يجب وقفه عند حده فانتدبته لمهمة تعلم تلك الاوساط باستحالة حلها. والسبب الثانى هو ان كريبس بالنظر الى ميوله الاشتراكية كان يظن انه يتمتع بثقة الاوساط الهندية الشعبية، خاصة وقد اشتهر عنه انه عدو لدود لسياسة بريطانيا الاستعمارية. وقد قال السير ستافورد مرة عن تاريخ بريطانيا الاستعمارى «انك اذا تصفحت تاريخ بريطانيا الاستعمارى فعليك ان تخفى رأسك خجلا وحياء لانك بريطانى».

المستر ارنست بيفن

والمستر (ارنست بيفن) (E. Bevin) وزير العمل والخدمة الوطنية الآن هو ايضا من ابرز شخصيات العمال فى انكلترا فهو مسموع الكلمة بين طبقات العمال اكثر من غيره وقبل الحرب اقتصرت جهوده على خدمة اتحاد نقابات العمال اذ كان سكرتيرا له وعندما الف المستر تشرشل وزارته استدعاه للاشتراك فيها وهو الآن عضو فى هيئة وزارة الحرب.

الاعضاء البارزون

ومن رجال الحزب ذوى المنزلة المرموقة هم المستر الكسندر (A.V. Alexander) وزير البحرية الحالى والدكتور هيو دالتون (Hugh Dalton) وزير التجارة. ومن الاعضاء البارزين فى مجلس العموم هم المستر (اونيرين بيفان) (A. Bevan) والمستر (عمانوئيل شينويل) (E. Shinwell) والمستر (ارنست ثيرتل) والمستر (شتراوس) والمستر (بريت).

البروفسور لاسكى

ان كان (سيدنى ويب) الدماغ المفكر لحركة العمال فى اوائل القرن الحاضر فقد خلفه فى هذه المهمة وانفرد بها دون ان ينافسه منافس البروفسور (هارولد لاسكى) (Prof. Laski) . ومع ان الاستاذ لاسكى ليس عضوا فى حزب العمال البرلمانى فهو عضو فى الهيئة الادارية لحزب العمال البريطانى (١) وهو دون ما شك من اكبر علماء السياسة فى العصر الحاضر وله مؤلفات فى الاقتصاد السياسى والفلسفة السياسية يعجز المرء عن تعدادها. والاستاذ لاسكى يدرس العلوم السياسية فى جامعة لندن (مدرسة لندن للاقتصاد والسياسة) وفى رأيى انه من اهم العوامل التى جعلت هذه المؤسسة تعير المبادىء الاشتراكية واليسارية اهمية خاصة. والاستاذ لاسكى متكلم ذلق يسحرك علمه وبيانه كما يعجبك منه خاصة اصول المناقشة وطريقة البحث العلمى.

السير ولتر سيترين

وقبل الختام على ان انوه بما للسير (ولتر سيترين) (Sir Walter Citrine) من المنزلة الشعبية لما بذله من الجهود فى مختلف مؤسسات العمال ونقاباتهم فهو سكرتير نقابة العمال وأحد مديرى مجلس مدرسة لندن للاقتصاد والسياسة ومدير جريدة (الديلى هرالد) لسان حال حزب العمال. والسير ولتر كثير التنقل بين روسيا وبريطانيا وله فى الاولى اصدقاء ومحبون كثيرون.

على اثر الائتلاف الذى جرى سنة ١٩٣١ وانشقاق الخوارج من العمال وقيامهم حزبا مستقلا بقى مؤيدو الائتلاف تحت لواء حزب سمى بحزب (العمال الوطنى) وهؤلاء كانوا تحت زعامة المستر ماكدونالد ولكن بعد وفاته واعتزال

---

(١) أن حزب العمال البرلمانى ونقابات العمال وحزب العمال غير البرلمانى يتحدون فى لجنة عليا تدعى (National Council of Labour) .

السير جى. اج. توماس السياسة ثم تعين المستر مالكولم ماكدونالد مندوبا ساميا فى كندا لم تبق لهذا الحزب قيمة حزبية فاصبح عدد اعضاء الحزب الآن ثمانية فقط.

حزب الاحرار

لقد فقد حزب الاحرار (Liberal Party) كثيرا من منزلته فى الحقل السياسى منذ الحرب الماضية فبعد ان كان الحكم ينتقل بينه وبين المحافظين خلال القرنين الماضيين اصبح الآن دولابا ثانويا فى عجلة السياسة الحزبية فاصبح عدد اعضائه الآن سبعة عشر عضوا فقط. وفى القرن الثامن عشر كان الكفاح منحصرا بين حزبى الاحرار والمحافظين فاذا وصل الواحد الى الحكم بقى الثانى يناضل لاسقاطه ليحل محله فكان الاحرار يتمتعون بالاكثرية فى مجلس العموم طيلة حكم الملك وليم الثالث ثم حلت اكثرية المحافظين محل اكثريتهم حتى سنة ١٧١٤ ثم بقى الاحرار فى دست الحكم خلال السنوات السبع والاربعين التالية بفضل زعامة (ولبول) وفى اواخر القرن الثامن عشر عاد المحافظون الى سابق عزهم. ولما حل عهد الاصلاح البرلمانى سنة ١٨٣٢ اصبح التناوب فى الحكم بين الحزبين اكثر مما كان فى الماضى الى ان فقد الاحرار كل امل فى الوصول الى دست الحكم بعد وزارة (اسكويث) الاولى التى كانت مؤلفة من حزب الاحرار وحدهم. على ان اهم تصدع اصاب حزب الاحرار فى تاريخهم السياسى كان بسبب القضية الايرلندية سنة ١٨٨٦ . ففى هذه السنة ربط كلادستون مصير حزبه بالقضية الايرلندية عندما تقدم بمشروع يقضى بمنح ايرلندا الجنوبية حق الانفصال من انكلترا واقامة برلمان خاص لها فى دبلن ولكن كلادستون لم يتمكن من استمالة جميع اعضاء حزب العمال الى جانبه فانشق عدد عظيم منهم وانتسبوا الى حزب المحافظين وكونوا حزب الاتحاد كما سبق بيانه. ان هذا الانشقاق كان مزدوج الغرض فمن ناحية قوى حزب المحافظين بما دخله من عناصر قوية مفكرة من الاحرار ومن الناحية الاخرى زاد فى ضعف الاحرار لانهم صاروا يعتمدون اعتمادا كليا على الاعضاء الايرلنديين الذين عرفوا بشذوذهم وعدم انصياعهم للانظمة الانضباطية البرلمانية.

مبادؤه

ان كل ما بقى من حزب الاحرار هو اثر مندروس لا يعتد به الآن

ولكن هذا الاثر يرمز الى ماض مجيد فالعضو فى حزب الاحرار اليوم ولو انه يندب حظ حزبه على ما وصل اليه من الوهن والضعة لكنه قد يجد ما يواسيه بما كان لحزبه من الفضل على الامة الانكليزية والامبراطورية. وكان الحزب بما كان يدعو اليه من المبادىء التقدمية والديمقراطية عاملا مهما فى انعاش الوعى الفكرى والسياسى فى انكلترا. فكان وما زال يدعو، ضمن ما يدعو اليه من المبادىء التقدمية والانسانية العديدة، الى فسح المجال واعطاء الفرص لكل فرد من الافراد بغض النظر عن منزلته الاجتماعية او جنسيته او عنصريته او قوميته. والاحرار هم اول من دعا الى لزوم ازالة الفقر والفاقة من الهيئة الاجتماعية وتأسيس العدل الاجتماعى بالطرق الديموقراطية وعلى سبيل الاقناع والحجة وتحت نعيم الحرية لا تحت جحيم التهديد والاكراه والظلم. واشتهر حزب الاحرار بدعوته الى سياسة التجارة الحرة وهى النقطة الاساسية التى كانت تفرق بينه وبين حزب المحافظين فيما مضى. وليس انتهاج سياسة التجارة الحرة بحسب رأى الاحرار مقتصرا على بريطانيا فحسب بل انهم يرون ان بريطانيا وجميع الشعوب الاخرى يجب ان تكون لها الحرية التامة فى المتاجرة بعضها مع بعض دون ان توضع فى طريقهم عراقيل التعريفات الكمركية او انظمة (الكوتا) او تحديد الاسعار او ما شاكلها من مقيدات التجارة الدولية. هذه هى اهم المبادىء العامة التى بشر بها الاحرار ولهم غير هذه سياسة خاصة فى كل ناحية من النواحى العامة وبغية تنفيذ سياستهم يقول الاحرار بلزوم تقوية الحزب البرلمانى ليتمكنوا بواسطته من وضع التشريع اللازم لتنفيذ تلك السياسة. والاحرار ابعد الاحزاب عن التفكير بالخروج على النظم الدستورية لنيل ماربهم الحزبية.

فللاحرار فى الحقل الصناعى آراء خاصة. من ذلك انهم لا يعتقدون ان بريطانيا قد فقدت كثيرا من اسواقها العالمية فهم لا يرون اى مبرر لسلوكها طريق القوة لاسترجاع تلك الاسواق. ويعتقدون بسهولة استئناف التجارة الدولية وعودتها الى سابق عهدها وعلى هذه الفرضية فانهم يشترطون تأسيس وزارة خاصة للصناعة لتنظيم شؤون الانتاج وخاصة علاقة رأس المال بالعمل. وهم مثل العمال يدعون الى لزوم وضع موارد المناجم

تحت تصرف الدولة وهى التى تعطى الامتيازات وتمنح الاجازات لاستخراجه. ومن مناهجهم الجذابة ان جميع المصالح التجارية وغيرها ملزمة بنشر حساباتها وان الدولة لها الحق بسماع الشكاوى ضد هذه المصالح ان هى استبدت بالانتفاع والاستثمار على حساب المستهلك وهى بدورها تقرر تخفيض الاسعار او وضع حد للمنافسات التجارية. والاحرار لا يتفقون مع حزب العمال او غيره من الاحزاب اليسارية حول وضع جميع وسائل الانتاج والمعامل تحت سيطرة الدولة فهم يرون حصر المشروعات العامة فقط بالدولة وهى المشروعات التى لها علاقة براحة المجتمع وفائدته كمشروعات الماء والكهرباء والغاز وما شاكلها. فصفوة القول ان الاحرار يرون ان الواجب يقضى على الدولة ان تمنع الاستغلال والتحكم غير العادل ولكن ليس لها فى الوقت ذاته ان تملك او تسيطر على اى شيء لمنفعتها الخاصة. ولم يغفل الاحرار الاعتناء بشؤون العمال والعمل على تحسين احوالهم فهم يرون ضرورة تعيين نهاية صغرى لاجور العمال فى مختلف مهنهم وتخصيص مساعدات مالية لذوى العوائل الكبيرة منهم على ان تستحصل هذه المساعدات من تبرعات مستخدميهم، وتعيين مستوى للاجور يتغير من حين الى آخر تبعا للظروف والاحوال وبعد الاتفاق مع من يخصهم الامر. ولهم اجتهاد يشبه ما يدعو اليه الاشتراكيون ذلك انهم يقولون بلزوم منح العمال بعض السهام من ارباح كل مصلحة بعد ان يحصل صاحب رأس المال على رأس ماله ونسبة مرضية من العوائد. وهم يرون ان مجلس ادارة كل شركة او مصلحة يجب ان يضم ممثلا عن العمال لرعاية مصالحهم التى تمثلها علاوة على ذلك مجالس خاصة فى المعامل.

قلنا ان اهم مبادىء الاحرار هى حرية التجارة ومقاومة انظمة الكوتا وتثبيت الاسعار والتعريفات وما شاكلها وبكلمة اخرى فانهم يبشرون بنظرية (Laissez faire) اى ترك كل فرد مطلقا يعمل ما يشاء. وحجتهم فيما يتعلق بالحرية الزراعية هى ان انكلترا لا يمكنها ان تنتج من المواد الغذائية ما يكفى جميع سكانها فلذا يجب عليها الا تقيد استيراد المواد الغذائية من الخارج وثانيا ان التقييدات المذكورة من شأنها ان ترفع الاسعار وبذلك ضرر على المستهلكين الذين جلهم من العمال وتدبيرا لذلك يدعون الى لزوم حصر

الزراعة بالمزروعات التى تلائمها التربة والجو الانكليزى باستثناء زراعة الحنطة لان انكلترا بطبيعة جوها وتربتها غير صالحة لزراعة الحنطة. وهم يدعون خاصة الى تشجيع تربية الطيور والدواجن وكل ما يصلح للغذاء من الحيوانات وصناعة الالبان وزراعة الاثمار والخضر وما شاكل. وفيما يتعلق بالمزارع وملكيتها فان الاحرار يؤكدون ضرورة اتباع الطرق التدريجية فيما يتعلق بتبديل نظام ملكية الاراضى الحاضر ومن هذه الطرق تأسيس سلطات قوية تأخذ على عاتقها بادىء ذى بدء ادارة الاراضى الاميرية او العرصات العائدة الى البلدية والاراضى التى ترجع الى بيت المال بنتيجة ضريبة الوفاة، وعلاوة على ذلك تشترى الاراضى التى تعرض للبيع او اية مقاطعة يثبت ان مالكيها او المتصرفين بها لا يديرونها ادارة مرضيــة. وبغيــة تشجيع الفلاحين على الزراعة فانهم يفكرون فى تنظيم احوال سكناهم كتشييد البيوت ووسائل الراحة الاخرى.

وسياسة الاحرار تجاه الامبراطورية تقضى بمنح كل قطر منها لم يحصل على نظام الحكم الذاتى، حكما ذاتيا تاما ولو تدريجيا وبنتيجة التفاهم التام المستند الى حسن النية. وسياستهم تجاه الهند هى انها يجب ان تبقى جزءا من الامبراطورية تعامل كما تعامل اجزاء الامبراطورية الاخرى. ويقولون تجاه المستعمرات الاخرى بلزوم مساعدتها ورفع مستواها كما ان استثمار مواردها الاقتصادية يجب ألا يستغله أصحاب المصالح من الانكليز استغلالا غير انسانى وعندهم ان اية دولة لها ملء الحق فى المتاجرة مع هذه المستعمرات وعدم حصر المتاجرة بالانكليز وحدهم. والحزب يرى مجالا كبيرا لتحسين نظام الاتصال والمشاورة والمعاونة بين الدومنيونات الذى يقتصر الآن على عقد المؤتمرات السنوية المعلومة. ومع انهم يطلبون المزيد من الاتصال والمعاونة لكنهم يقاومون فكرة ايجاد مجلس مركزى دائم يمثل جميع الدومنيونات.

وسياسة الاحرار الخارجية تتمثل بكلمة واحدة وهى (التفوق البريطانى) وهم يسلكون جميع السبل التى تؤدى الى تحقيق هذا التفوق وكانوا قد وضعوا كل آمالهم فى عصبة الامم وتوسموا فيها كل الخير لتحقيق السلم العالمى. والاحرار لا يرون فى سياسة العزلة سيــاسة صــالحة ويقولون ان الضمان

الوطنى لا يمكن ان يتحقق بمجرد التسليح والدفاع الوطنى الفردى البعيد عن التعاون الدولى.

ماضيه

ومن حق حزب الاحرار ان يفتخر بماضيه المجيد بما له من شأن عظيم فى تاريخ الامة البريطانية وخاصة بما انجبه من ساسة وزعماء، اكثرهم من فلتات الطبيعة. فاولهم السير روبرت وولبول (Sir Robert Walpole) الذى يعتبر اول رئيس وزارة انكليزية بالمعنى الذى نفهمه اليوم اذ انه هو الذى وضع اكثر الاسس الدستورية الخاصة بالهيئة التنفيذية وعلاقتها بالعرش وبالهيئة التشريعية فكان ما وضعه من سوابق دستورية السبب الاساسى فى جعل ماكنة الدولة البريطانية من انظم واتقن ما ابتدعه الفكر البشرى فى حقل النظم السياسية. لقد بقى وولبول رئيسا للوزارة مدة تجاوزت عشرين عاما فكان من الطبيعى ان يستقر عهده على نظم خاصة وسوابق قلدها كل من خلفه فى الحكم والسياسة على اختلاف نزعاتهم الحزبية. فقبل وولبول كان الملوك يعتمدون على احد وزرائهم ويولونه ثقتهم واعتمادهم اى انه يكون بمقام الوزير الاول اما وولبول فقد اعتبر نفسه الوزير الاول لا لان الملوك اولوه ثقتهم واعتمادهم بل لانه كان يتمتع بثقة اغلبية اعضاء مجلس العموم وعلى هذه القاعدة اصبح كل من يتمتع بهذه الاغلبية هو الذى يجب ان يكون رئيسا للوزارة سواء اكان يتمتع بثقة الملك ام لا. ومما ساعد وولبول على اقرار هذه القاعدة هو ان الملوك اعتادوا ان يترأسوا اجتماع وزرائهم ولكن لما اعتلى العرش الانكليزى ملوك يجهلون لغة البلاد لم يروا فائدة من ترأس هذه الاجتماعات ولذلك عهد كل من جورج الاول وجورج الثانى الى الوزير الاول بهذه المهمة واخذا على عاتقهما سلطة الحكم عن طريق هيئة الوزارة التى جعلاها هى المسؤولة امام البرلمان. فما دام مجلس العموم بجانب وولبول مؤيدا أعمال وزارته كان هو اهلا للبقاء فى دست الحكم لكنه حينما فقد الاكثرية اضطر الى التخلى عن الحكم مع انه كان يتمتع وقتئذ بثقة الملك. وهكذا اصبحت هذه السابقة قاعدة دستورية متبعة الى يومنا هذا. واراد وولبول ان يجعل مجلس العموم الندوة الوحيدة لتحقيق الطموح السياسى فكثيرا ما اعتذر عن قبول لقب اللوردية لان قبوله ذلك يعنى ابعاده عن مجلس

السير روبرت وولبول

العموم وهو يعلم ان هذا المجلس هو الهيئة التى بيدها السلطة الحقيقية والحل والعقد. ولم يقبل بلقب (ارل اوف اورفورد) الا بعد ان قرر اعتزال السياسة نهائيا. وكان وولبول يمتاز بدهائه وحنكته وقد تمتعت انكلترا فى عهده باستقرار وطيد وطمأنينة فريدة بعد ان كانت تتخبط فى نزاع داخلى لا مثيل له فى تاريخها. ومن آثار وولبول القائمة الآن الدار ذات الرقم (١٠) داوننغ ستريت وهى هدية قدمها اليه الملك جورج الثانى لكنه اشترط لقبولها ان تكون هدية رسمية لا شخصية فاصبحت هذه الدار مسكنا لكل رئيس وزارة يشغلها ما دام فى منصبه.

اللورد بالمرستون

وقد نبغ من بين صفوف الاحرار بعد وولبول ساسة يشار اليهم بالبنان ولسنا هنا فى صدد سرد تاريخ حياتهم جميعهم ولكن اثنين منهم قد بزا اقرانهما فيجب ان نعرض لهما بشىء من البحث وهما اللورد بالمرستون والمستر غلادستون. فقد كان للاول تأثير كبير فى السياسة البريطانية خلال القرن الماضى بالنظر الى ملازمته الحكم مدة طويلة اذ بقى رئيسا للوزارة عشر سنوات وشغل منصب وزارة الخارجية مرتين مرة من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٤١ واخرى من سنة ١٨٤٦ الى ١٨٦٥ وكان طبيعيا ان يترك طابعه الخاص على سياسة مملكته الداخلية والخارجية. وككثير من امثاله من ساسة الانكليز نشأ بالمرستون بين صفوف المحافظين ثم انضم الى حزب الاحرار حيث وجد فيه ضالته المنشودة لبناء مجده السياسى. وخدم بالمرستون تحت حكم الملكة فكتوريا وكان كخلفه غلادستون لا يتمتع بعطف الملكة الشخصى وكثيرا ما حصلت بينهما مواقف حادة فيما يخص علاقة صاحب العرش برئيس الوزراء. فقد كتبت اليه الملكة مرة تؤنبه على اتصالاته بالدول الاجنبية قائلة انها تريد ان تحيط علما بكل ما يجرى بينه وبين وزراء خارجية الدول الاجنبية قبل اتخاذ اى قرار خطير.

المستر غلادستون

وربما كان غلادستون (Gladstone) اعظم من انجبه حزب الاحرار من زعماء فقد اثر فى سياسة بريطانيا طيلة الحقبة الاخيرة من القرن التاسع عشر تأثيرا لا مثيل له. ومع انه نشأ محافظ النزعة والميل، وترعرع بين احضان اب محافظ ودرس في ايتون واوكسفورد مهد الفكر المحافظ، ذلك عدا عن

انه محافظ بطبيعته الشخصية، لكنه اصبح من اعند الاحرار وقاد الحزب خلال ثلاثين سنة تقريبا. وصادف ان خدم غلادستون معظم حياته العامة تحت حكم الملكة فكتوريا التى كانت تنفر منه نفرة شخصية رغم تمتعه التام بثقة البرلمان. وقد صرحت الملكة فكتوريا مرة ان سبب نفرتها من غلادستون وعطفها على خصمه دزرائيلي هو ان الثانى «كان يعاملها معاملة سيدة بينما الاول كان يعاملها كما لو كانت مجتمعا عاما، اذ انه كان يثاقلها ويزعجها بتوافه الامور واكثرها غضاضة اليها. ويروى ان غلادستون لما عهد اليه بتأليف احدى وزاراته فاته ان يجعل باكورة اعماله التشرف بالسدة الملكية وتقبيل ايدى مولاته». ولما لفت نظره الى ذلك استدرك خطأه فقصد البلاط الملكى بعد عدة ساعات من الوقت الذى كان يجب عليه ان يحضر فيه. فلما بادر بتقبيل أيدى الملكة صاحت به قائلة: (كان يجب عليك ان تفعل هذا قبل الآن). وربما كان من نتيجة هذا البرود بينه وبين الملكة رفضه قبول لقب اللوردية الذى كان قد عرض عليه عدة مرات بينما جميع اسلافه ومعاصريه وخصومه من رجال السياسة كانوا قد منحوا تلك الالقاب فمات دون ما لقب. ولعل اهم خطوة جبارة خطاها المستر غلادستون فى حياته السياسية هى قضية استقلال ايرلندا. فقد اتفق الاحرار وحزب الايرلنديين الوطنى الذى لم يتجاوز عدد أعضائه يومئذ المائة فى مجلس العموم لكنه كان لهم تأثير كبير فى المجلس بالنظر الى ما كانوا يحدثونه من الشغب فى جلساته، وعقد الحزبان تحالفا تم بموجبه الاتفاق على منح ايرلندا استقلالا ذاتيا. فقدم المستر غلادستون سنة ١٨٨٦ لائحة منحت بموجبها ايرلندا حق تأسيس برلمان مستقل. غير ان حزب الاحرار انقسم على نفسه فانشق عدد كبير منهم والتحقوا بحزب المحافظين الذى كان يعارض الفكرة من اساسها وكانت النتيجة ان رفضت اللائحة واستقال غلادستون من رياسة الوزارة.

زعماء الحزب الاخرون

وفى اوائل القرن الحاضر ظهر من الاحرار ساسة من الطراز الاول فى المقدرة الشخصية والقيمة السياسية وكان لبعضهم اليد الطولى والفضل الاكبر على حياة الامبراطورية. ومنذ ان تخلى الاحرار عن الحكم بعد وزارة اللورد روزبرى سنة ١٨٩٥ بقى الحزب بعيدا عن الحكم الى ان الف المستر

(كامبل ـ بانرمان) (Campbell—Bannerman) وزارته سنة ١٩٠٥ وفي هذه الاثناء لمعت اسماء كثيرة في الافق السياسي الانكليزي امثال السير ادورد غراي (لورد غراي اوف فالودون) (Lord Grey of Fallodon) ذلك السياسي الحكيم صاحب الفكر الهادىء والرأى الثاقب الذي رسم السياسة الخارجية البريطانية طوال العهد الذي سبق الحرب العظمى الماضية. واللورد هولدين (Haldane) الفيلسوف المحامي والسياسي الكيس الذي لاقى نجاحا عظيما عندما شغل منصب وزارة الحربية فادخل أهم النظم الاصلاحية في تاريخ الجيش البريطاني. ثم هناك جون مورلي (لورد مورلي) (Lord Morley) الكاتب المطبوع والمفكر المبدع والسياسي القدير. ونستن تشرشل الذي انتمى الى الاحرار بعد ما كان من المحافظين. وهناك من الاداريين والمشرعين القديرين امثال هربرت صموئيل وولتر رانسيمان وريجينالد ماكينا وكثيرين غيرهم. ولعل اعظم شخصيات الحزب في القرن العشرين هما المستر آسكويث (لورد اكسفورد أند اسكويث) (Lord Oxford and Asquith) والمستر لويد جورج. وقد بقي الاول رئيسا لوزارتين احداهما من الاحرار والاخرى ائتلافية من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٦ عندما اقتضت ظروف الحرب الماضية اسناد الحكم الى شخص اكثر نشاطا وحذقا ودهاء منه. وقد امتاز حكم المستر آسكويث بما قام به من المشاريع الاصلاحية التقدمية في مختلف نواحي الحياة العامة والاجتماعية منها خاصة. وفي عهده ابرم قانون البرلمان الشهير الذي حصر سلطات التشريع بيد مجلس العموم وحرم مجلس اللوردات من حق رفضها. وقبل وفاته بثلاث سنوات منح لقب (ارل) واعتزل السياسة الفعلية.

كانت وزارة المستر اسكويث الاولى آخر وزارة يؤلفها حزب الاحرار وقد بقيت في دست الحكم من سنة ١٩٠٨ الى سنة ١٩١٥ ولما اعلنت الحرب العظمى الماضية اقتضت مصلحة البلاد ان تؤلف وزارة ائتلافية تضم الاحزاب الاخرى فاستقال اسكويث واعاد تأليف وزارة اخرى لم تدم الا سنة واستقالت فالف لويد جورج وزارته التي بقيت في دست الحكم الى سنة ١٩٢٢ . ومنذ هذه المرحلة بدأ نجم حزب الاحرار بالافول فاخذ يفقد منزلته السياسية شيئا فشيئا حتى اصبح ثالث الاحزاب اهمية في توجيه السياسة الانكليزية وخاصة

بعدما بدأت حركة العمال تنشط وتتوسع فلم ير بدا من ربط مصيره بمصير حزب العمال اذ لم يبق له من القيمة السياسية ما يمكنه من الوقوف وحده كحزب يتمكن من بلوغ دست الحكم. ومما زاد في ضعفه انقسامه على نفسه وقيام احزاب ثانوية باسماء مختلفة. ففي مجلس العموم البريطاني الحالي ثلاث فرق من الاحرار الاولى هي آثار حزب الاحرار الاصلي الذي يبلغ عدد اعضائه الآن ثمانية عشر عضواً. ورئيس الحزب اليوم هو السير ارشيبالد سنكلير (Sir Archibald Sinclair) وقد انتخب لهذه المهمة سنة ١٩٣٥ . ولما تألفت وزارة المستر تشرشل الائتلافية في سنة ١٩٤٠ اشترك حزب الاحرار فيها واسندت الى رئيسه وزارة الطيران وما زال يتقلدها الى الآن. ولا يمكن ان يوضع السير ارشيبالد في مصاف زعماء الاحرار الذين ترأسوا الحزب فيما مضى ولا اعلم اذا كان ظهور زعيم فذ في الاحرار يمكن ان يعيد الحزب الى سابق مقامه اذ بتطور الظروف والازمان اصبح الحزب ومبادؤه اثرا من الآثار البالية.

السير ارشيبالد سنكلير

ويترأس الفرقة البرلمانية الآن السير برسي هاريس (Sir Percy Harris) وهو نائب رئيس الحزب ومن ابرز اعضاء هذه الفرقة هو المستر ماندر (Mr. Mander) المشهور باسئلته واستفهاماته المحرجة في مجلس العموم.

والفرقة الثانية من حزب الاحرار هي فرقة الاحرار الوطنيين وهم الذين خرجوا على حزب الاحرار الاصلي وساندوا الحكومة الوطنية التي تألفت من المحافظين والعمال ويبلغ عددهم الآن (٢٨) عضوا ومن اهم اعضائها البارزين هم المستر هور بليشا (Hore-Belisha) والدكتور لزلي بركن والمستر كرانفيل والمستر ارنست براون. واعتقد بان الاول منهم من اقدر وزراء الانكليز وأنشطهم فقد اثبت مقدرته ولياقته حينما عين وزيرا للنقليات بين سنتي ١٩٣٤ و ١٩٣٧ . وعندما عين وزيرا للحربية بين سنة ١٩٣٧ و ١٩٤٠ أدخل اصلاحات كثيرة على الجيش وانظمته ولما الف المستر تشرشل وزارته لم يستعن بمواهب هذا الرجل وربما كان للاعتبارات الشخصية بعض الدخل في ذلك. ومنذ سنة ١٩٤٢ ترك المستر هور بليشا فرقة الاحرار الوطنيين

فرقة الاحرار الوطنيين

المستر هور بليشا

فرقة الاحرار المستقلين

وانتمى الى فرقة الاحرار المستقلين وهى من الفرق التى تعتبر من الجبهة المعارضة للحكومة الحالية. اما فرقة الاحرار المستقلين هذه فتضم اربعة اعضاء وهى اشبه شيء بحزب عائلى اذ ان ثلاثة منهم من عائلة المستر لويد جورج وهم الاب وابنه الميجر كويلم (Gwilym) لويد جورج وزير الوقود فى وزارة المستر تشرشل الحالية، وابنته ميكان (Megan) لويد جورج.

المستر لويد جورج

وهنا نقول كلمتنا بحق المستر لويد جورج (Lloyd George) تلك الشخصية الفريدة التى هى بحد ذاتها تاريخ قائم بنفسه تمثل مختلف صور انكلترا ومظاهرها الخاصة. فقد نشأ هذا العبقرى نشأة عادية لا تمتاز بمركز اجتماعى مرموق ولم تكن لها تلك الفرص الخاصة التى تتاح عادة لافراد الطبقات الحاكمة فى انكلترا كالتربية البيتية والثروة والجاه والانتساب. فوالده كان مديرا لمدرسة اولية وكان جده لامه قسيسا فقير الحال. وقد ذاق اليتم وهو فى الثانية من عمره فرعاه خاله وهو صانع احذية وكان المعيل الوحيد للارملة وايتامها فساعد اليتيم لويد جورج على دراسة الحقوق حتى اذا ما اتم دراسته انعكف على مهنة المحاماة وفى الوقت نفسه اظهر ولعا خاصا فى السياسة. وفى احد الانتخابات الثانوية التى جرت فى سنة ١٨٩٠ فى (كارنارفون) وهى احدى المقاطعات فى شمالى ويلز فاز لويد جورج على خصمه فدخل مجلس العموم وما زال فيه يمثل تلك المقاطعة الى يومنا هذا فيكون اذ ذاك قد بقى نائبا عن مقاطعة واحدة اربعا وخمسين سنة وهذا رقم قياسى فى هذا الباب. وقد وجد الشاب النابه لويد جورج فى النظام البرلمانى الانكليزى خير مجال لاظهار مواهبه وملكاته وما هى الا عشية وضحاها حتى علا شأنه وصار يشار اليه بالبنان للباقته وقوة حجته وملكته الخطابية وكان اشهر موقف من مواقفه البرلمانية هو معارضته لسياسة جوزيف تشمبرلين حول حرب البوير فسلك موقفا مواليا للعدو مما جعل له مركزا خاصا بين الشعب. وبنتيجة نشاطه البرلمانى هذا تمكن من ترأس الحزب الويلزى فى مجلس العموم ولما الف السير كامبل - بانرمان وزارته سنة ١٩٠٥ ادخله فيها وزيرا للتجارة فتمكن من تشريع كثير من القوانين المهمة مما ادى الى رفع منزلته السياسية والشخصية وكذلك منزلة الوزارة التى ينتسب اليها. وعندما الف المستر

اسكويت وزارته الاولى سنة ١٩٠٨ عهد اليه بمنصب وزارة المالية وهو كما سبق ان بينا اهم منصب فى الوزارة بعد منصب رئيس الوزراء. ولما جوبه باعداد الميزانية اضطر الى فرض ضرائب جديدة اهمها الضرائب على الاراضى، لجمع الثروة اللازمة لمقاومة الفقر والفاقة فى البلاد وهذا مما حمل الملاكين واصحاب الاموال على معارضتها بكل قواهم. فدافع عنها لويد جورج فى داخل المجلس وفى خارجه بحماسة وهمة شديدتين مما اكسبه عطف الطبقات الفقيرة وطبقات العمال وتأييدها. ولما بلغت اللائحة مجلس اللوردات قام اللورد (لانسداون) زعيم المعارضة يومئذ وطلب عرض اللائحة لاستفتاء الرأى العام الامر الذى سبب احتجاج مجلس العموم لتدخل مجلس اللوردات فى الامور التى يعتبرها من صلاحيته الخاصة. ولما حصل الاحرار على تأييد الناخبين للائحة اعيدت من جديد الى مجلس اللوردات فاضطر الى تصديقها فكانت هذه اهم سابقة دستورية اقرها لويد جورج وقد دعمها بعدئذ بان اصدر قانون البرلمان لسنة ١٩١١ الذى حددت بموجبه صلاحية المجلسين وحرم على المجلس الاعلى التدخل فى القوانين التى لها صبغة مالية وقد سبق ان بحثنا هذه الناحية فى مستهل هذا الفصل. ومن الحوادث الشهيرة التى جابهها لويد جورج فى حياته السياسية هى حادثة شراء اسهم شركة ماركونى. وملخصها ان احد اصدقائه من اليهود، السير روفوس ايزك (Sir Rofus Isaac) (اللورد ريدنك بعدئذ) اغراه بشراء حصص من فرع شركة ماركونى الاميركية بمبلغ (١٠٠٠٠) باون فى الوقت الذى كانت تجرى بعض المفاوضات بين فرع الشركة الانكليزى وبين دائرة البريد الانكليزية وبرغم ان فرعى الشركة المذكورة كانا مستقلين الواحد عن الآخر تمام الاستقلال، ولكن بالنظر الى مركز لويد جورج الخطير لم تمر القضية دون ما ضجة فطلب مجلس العموم تأليف لجنة من بين اعضائه للتحقيق فى القضية وقدمت اللجنة تقريرها الذى تضمن توبيخ لويد جورج على عمله هذا لانه قام به وهو وزير للمالية. ومع ان اكثرية مجلس العموم كانت قد منحته ثقتها الا ان هذه الحادثة لم تكن قليلة التأثير فى سمعته ومركزه السياسى ولو الى حين.

ولما نشبت الحرب العالمية الماضية وجد لويد جورج امامه مجالا واسعا للعمل والنبوغ فابدع فى تسيير دفتها حتى قيل عنه انه الرجل الذى كسب تلك الحرب لبريطانية كما سيقال عن ونستون تشرشل انه الرجل الذى كسب الحرب العظمى الثانية لها. وكان لويد جورج وزيرا للمالية يوم اندلعت نيران تلك الحرب فاخذ على عاتقه امر تنظيم مالية البلاد وهو امر ليس باليسير فوضع الامور المالية على اقوى الاسس وأمتنها وكان نجاحه فى هذه المهمة نجاحا تاما. وفى سنة ١٩١٥ جوبه المجهود الحربى بصدمة عنيفة من جراء قلة تجهيز الاسلحة والعتاد للجيوش المتحاربة فتألفت وزارة ائتلافية برياسة اسكويث وأحدثت وزارة العتاد التى اسندت الى لويد جورج نفسه فنجح ايضا فى هذه المهمة نجاحا باهرا. وفى هذه الاثناء صار يدرك انه غير راض عن الطريقة التى تدار بها دفة الحرب فقال ان حربا ضروسا كهذه لا يمكن ان تكسب بجيش متطوع فاخذ يدعو الى التجنيد الاجبارى ولكن كثيرا من الاوساط عارضته فى ذلك حتى ان رئيسه المستر اسكويث تردد كثيرا فى قبول هذه الفكرة واخيرا تمكن لويد جورج من حمل اعضاء الوزارة على اقرار التجنيد الاجبارى الا واحدا وهو السير جون سايمون الذى فضل الاستقالة. وابت الظروف الا ان تساعد لويد جورج على تحقيق طموحه. ذلك ان اللورد كتشنر كان قد اوفد بمهمة رسمية الى روسيا ولكن العدو أغرق الطراد الذى اقله. فشغر بوفاته منصب وزير الحربية فنقل اليه لويد جورج فقبض على زمام الادارة الحربية والعسكرية بيد من حديد. فاتى الى رئيسه المستر اسكويث ذلك الرجل اللبيب النبيل، بفكرة جديدة وهي ان الحرب لا يمكن ان تديرها وزارة مؤلفة من عدد عظيم من الاعضاء واقترح احداث لجنة وزارية مكونة من اربعة اعضاء أو خمسة يحصر بها امر البت فى الشؤون الحربية المهمة تسهيلا للوصول الى قرارات حاسمة دون جدل واخذ ورد. ان هذه الفكرة ولو كان ينطوى تحتها ميل لويد جورج الى الروح الاستبدادية غير أنه كان يقول دائما «لا يمكن تسيير دفة حرب بيد مجلس مثل مجلس اسباط موسى» (١) وصرح بجرأة قائلا ان

(١) الذى يسمى (Sanhedrin) وهو مجلس مكون من حوالى (٧٠) من رجال الدين من اليهود وجد ايام النبى موسى.

هذه اللجنة يجب ألا تكون برياسة اسكويت. وهو رفض صريح ولكنه يشبع لزعامة الرجل في حزب الاحرار ولو ان اسكويت كان في باديء الامر قد رشح لويد جورج لرياسة اللجنة الا ان وقاحة الاخير ولدت تأثيرا عكسيا عنده واثرت في كرامته السياسية فحدثت ازمة سياسية داخلية ولم يمكن حلها الا بتكليف لويد جورج تاليف الوزارة. فألف وزارته التي دامت من سنة ١٩١٦ حتى ١٩٢٢ فدارت دفة الحرب وحققت لبريطانية نصرا مبينا. ولعب لويد جورج بمكره وخداعه ادوارا عظيمة في مفاوضات الصلح مع ندين احدهما لا يقل عنه مكرا وخداعا والثاني رجل بسيط القلب طيب السريرة سامي الخلق.

وبعد ان ربح لويد جورج الحرب لبريطانية بدأ نجمه السياسي بالافول وهذه سنة عامة في الحياة الانكليزية سبق ان بحثنا فيها. فلم يعد له شأن كبير في السياسة وعلى مر السنين لم يعد (يطاع لقصير امر) حتى فقد حزبه واعوانه ولولا اخلاص مقاطعة (كارنارفون) (Carnarvon) له لما تمكن حتى من البقاء في مجلس العموم. وقد اخذت منه الآن الشيخوخة مأخذها وبلغ من العمر عتيا حتى صارت كتاباته وخطاباته توصف بهذيان الشيخوخة ولا تقابل بجد. ومع انه شاهد الحرب الحالية وهو حي يرزق الا انه من ناحية القيمة السياسية اقرب الى الاموات منه الى الاحياء، ولو انه تزوج قبل بضعة اشهر من عانس وقد جاوز الثمانين من عمره.

حزب العمال المستقل

لنستأنف بحثنا في الاحزاب السياسية في مجلس العموم. ان الاحزاب والفرق التي ذكرناها هي اهم الاحزاب المنظمة وأكبرها وهناك احزاب اخرى لكنها قليلة الاهمية من ناحية الماضي ومن ناحية اعتبارها احزابا بالمعنى الذي يفهم في النظم الحزبية الانكليزية. ويمكن وضع حزب العمال المستقل (I.L.P.) على رأس هذه الفرق بالنظر الى أنه اقدمها واقربها الى المفهوم الحزبي. فقد تأسس هذا الحزب سنة ١٨٩٣ وظل المستر (كير هاردي) رئيسا له وجريدة (الليبور ليدر) لسان حاله. ولما توسعت حركة حزب العمال اندمج كثير من اعضاء حزب العمال المستقل فيه ولم يبق منهم الا المتطرفون في اشتراكيتهم. ومبادىء الحزب وسط بين المبادىء الشيوعية

ومبادىء حزب العمال الاشتراكية. ومن مبادئه الاساسية تأسيس دولة اشتراكية فى انكلترا بعيدة عن النظام الطبقى تستولى هذه على جميع الموارد الاقتصادية فى البلاد وتديرها لفائدة المجموع كما ان قاعدة الوراثة فيما يتعلق بالثروة والحكم يجب ان تلغى وان الرغبة فى رفع مستوى الشعب يجب ان تكون المقياس الوحيد لعمل كل مواطن. اما حصة الفرد من نتاج عمله فانها تقاس بحاجته وفى هذه النقطة يقترب نظام هذا الحزب من النظام الشيوعى. وبغية الوصول الى هدفه الاشتراكى فان الحزب يؤيد اثارة النزاع والتنافس بين مختلف الطبقات فى الحقلين السياسى والاقتصادى للوصول الى هدفه. والحزب المذكور يعارض اى تعاون بين الطبقات العاملة والمصالح الرأسمالية وكان يدعو الى لزوم توحيد جهوده بجهود حزب العمال والحزب الشيوعى لتحقيق اهدافه. ومن مبادىء الحزب قلب الاستعمار البريطانى وسحب القوات البريطانية المسلحة من جميع اقسام الامبراطورية ومن الشعوب الراضخة تحت النير البريطانى. وهو يصرح بوجوب معاضدة جميع الحركات التى تقوم ضد الحكم البريطانى فى اقسام الامبراطورية حتى ولو كانت هذه الحركات غير اشتراكية. ومن مبادئه الانسانية العمل على الغاء اية محاولة تحاولها بريطانيا فى سبيل الاستيلاء على المشروعات الصناعية والسياسية للشعوب المتأخرة. وسياسة الحزب الاقتصادية تقضى بالاستيلاء على جميع المصارف وتسييرها بيد الدولة. اما سياسته الخارجية فهى متصلة اتصالا وثيقا بوجهة نظره تجاه الحروب. فالحزب يعتبر الحرب كنتيجة للنزاع بين المصالح الرأسمالية وان العمال قد غفلوا فحشروا فى هذا النزاع. وقصده من وراء جميع الحروب التى تثار بين الدول الرأسمالية هو قلب النظام الرأسمالى فى البلاد المتحاربة. وهو يدعو الى الغاء النظام الملكى القائم والحرية للتدين ولمقاومة الدين. يتضح من ذلك ان كثيرا من مبادىء هذا الحزب هى المبادىء الشيوعية عينها وفى بعض الاحيان اتخذ الحزب مواقف اكثر تطرفا لليسار من المبادىء الشيوعية.

ان اعضاء الحزب فى مجلس العموم الحالى اربعة فقط ولكنهم اكثر الاعضاء ثرثرة ولغطا فكما ان حزب الاحرار المستقل حزب عائلى تقريبا

فان حزب العمال المستقل حزب اقليمي اذ أن جميع اعضائه اسكوتلنديين ويظهر ان ابناء اسكوتلندا هم اكثر ميلا الى الروح الثورية من ابناء باقي انحاء انكلترا. ان رئيس الحزب المستر جيمس ماكستون (James Maxton) هو احب شخصية في مجلس العموم البريطاني. نشأ معلما في احدى المدارس الابتدائية وكان في بادىء الامر ذا نزعة محافظة ثم اعتنق المبادىء اليسارية حتى تطرف فيها فوجد له في مناطق اسكوتلندا الصناعية اذنا مصغية فانتخب نائبا عن مدينة كلاسكو. وهو نحيف الجسم ذو شعر كثيف خطه الشيب فطغى بياضه على سواده. يقف في ندوة المجلس تارة متهجما على الحكومة باعنف العبارات واخرى لاذعا بعض الوزراء باقرص الكلمات وطورا مسمعا المجلس امتع الطرائف والنكات. فتراه يتكلم دائما فيرغي ويزبد ويثور ولا يمر موضوع الا وله كلمته فيه او دمدمة بحقه حتى صار يوصف بانه «الطفل الوقح» (L'enfant Terrible) في المجلس. فاذا كانت هذه صفات ماكستون الانكليزي فاي نائب من نوابنا في نظر القارىء العراقي اكثر شبها به ؟ . وزملاء ماكستون من اعضاء الحزب اسكوتلانديون ايضا وهم المستر جورج بوكانان والقس كامبل ستيفن والمستر ماك كفرن وهم اقل من رئيسهم نشاطا وشغبا ومع ذلك فان حزبهم اكثر الاحزاب لغطا وضوضاء.

المستر جيمس ماكستون

واصغر احزاب مجلس العموم هو الحزب الشيوعي (The Communist Party) اذ لم يدخل ويستمنستر اكثر من نائب واحد منذ ان ظهرت الشيوعية في العالم الى يومنا هذا، مما يدلك على ان المذهب الشيوعي ان وجد له مرتعا خصبا في اى بلد من بلاد العالم فلا يمكن ان يجد له في التربة الانكليزية اى مرتع. فالانكليز كما قلنا قبلا قوم يتجنبون كل شيء ليس من صنع يدهم او انتاج تفكيرهم. فمهما كانت حسنات النظام الشيوعي او سيئاته فالانكليزي لا ينظر اليه الا بشيء من الريبة والحذر. وان ما يسمعه او يقرأه المرء من الاقوال او الكتابات اليسارية في انكلترا اغلبها صادر من اشخاص ليسوا من دم انكليزي وانما هم ممن التجأوا الى تلك البلاد فاوتهم فوجدوا من خيراتها ونعيمها وحريتها خير مجال لبث آرائهم ومبادئهم. فالانكليزي لا ينظر الى الشيوعية بعين الحذر لانها لا تتفق ومصالحه ولا مع طبيعته او مع مثله العليا

الحزب الشيوعي

او تقاليده الراسخة، لكنه ينظر اليها نظرة الحذر لانها نظام غريب عنه لم ينشأ في ارضه ولم ينتج من بنات افكار امته فالانكليز لا يثقون باى مبدأ او مذهب اجنبي جديد مهما كان ذلك المذهب علميا او منطقيا فالقوم كما قلنا قبلا لا يأبهون للمنطق ويفخرون بكونهم لا منطقيون. (١) فسواء عليهم اكان المذهب الجديد هو المذهب الشيوعي او المذهب الفاشيستي ام اى مذهب مبتكر حديث فهم اقل العالم عرضة للتأثر به او اعتناقه. ويوم التهمت نيران الاشتراكية الوطنية اكثر اقطار العالم في السنين التي اعقبت تولى الحزب النازى الحكم في المانيا كانت انكلترا اقل بلدان العالم تأثرا بمبادئها. لقد عاش أبو الشيوعية لنين بضع سنين في انكلترا(٢) ولم يبق ما يخلد ذكراه وذكرى مبادئه التي قال بها سوى تمثاله القائم في ميدان (هولفورد) (Holford Square) في حي (فينسبرى) (Finsbury) في لندن. وقد عاش ومات كارل ماركس نبي الشيوعية والاشتراكية في انكلترا ولم يترك في البلد من آثار اكثر من قبره القائم في مقبرة (هايكيت) (Highgate Cemetry) كما أن أنجلس (Engels) قد مارس التجارة في مانجستر وفارق الحياة في لندن ولكنه لم يترك في الشعب الانكليزى اكثر مما تركه رفيقاه ماركس ولنين. ويوم اصبحت الشيوعية تدب في كل قطر من اقطار المعمورة واخذت تنفذ الى صميم النظم السياسية وهيآت الدولة المختلفة لم تسمح ويستمنستر بادخال اكثر من نائب واحد، في ندوتها وهو المستر (ويلى كالاكار) (Willie Gallacher) وهذا النائب لم ينتخب من بين الانكليز انفسهم بل من الاوساط الاسكوتلندية الفقيرة وقد اشرنا الى طبيعة الاسكوتلنديين الثورية قبلا. وهذا لا يعنى أن ليس بين الاوساط الانكليزية من لا يعتنق الشيوعية فان عدد هؤلاء قليل جدا ويكاد ينحصر بالطبقات المعدمة والتي (لا تملك). يستدل على ضالة الحزب الشيوعى في انكلترا نفسها(٣) انه لم يتمكن من ارسال مندوب عنه الى مجلس العموم،

(١) انى لاعجب حقا كيف ان المسيحية قد انتشرت بين الانكليز مع انها دين اتى به نبى شرقى. وربما كان اسلاف الانكليز يختلفون بطبيعتهم ونفسيتهم عن انكليز اليوم.

(٢) التجأ لنين الى لندن وسكن في الحى المذكور بين سنتى ١٩٠٢ ــ ١٩٠٣ .

(٣) اى ما عدا اسكوتلندا.

حتى سكرتير الحزب العام المستر هارى بوليت (Harry Pollitt) رغم قدرته ولباقته الحزبية. وأحسب ان من السهل عليه الفوز فى النيابة أن هو نزع عنه صبغته الشيوعية وتبرأ من الحزب الشيوعى.

الشيوعية والعمال

اريد من القارىء العربى ان يدرك الفرق العظيم بين اصطلاح «العمال» واصطلاح «الشيوعية». فهناك كل الفرق بين هذين الاصطلاحين فى انكلترا خلافا لمفهومهما لدى كثير من البلاد المتأخرة من ناحية الادراك والنضج السياسى. فكثيرا ما يتهم الشخص الذى يدعو الى تحسين احوال الطبقة العاملة ورفع مستواها بالشيوعية وفى الوقت عينه فان معتنقى الفكرة الشيوعية الحقيقيين يريدون ان يصعدوا على اكتاف العمال للوصول الى غاياتهم ومآربهم السياسية. فالتمييز بين الاصطلاحين خاصة عندنا فى العراق معدوم حتى اصبحت الكلمتان مترادفتان ويرجع سبب ذلك طبعا الى جهل بعض المتطفلين على السياسة والاجتماع بأوليات المبادىء السياسية والاجتماعية. ويمكن ان يفهم القارىء الشقة الواسعة التى بين «العمال» و «الشيوعية» اذا ما علم ان احد زعماء حزب العمال البريطانى البارزين لما طلب توحيد حزبه بالحزب الشيوعى وبقية الاحزاب اليسارية طرد من الحزب. ثم انه فى احد المؤتمرات السنوية التى عقدها حزب العمال البريطانى خلال هذه الحرب نصح المؤتمر الحزب الشيوعى بان يحل نفسه باعتباره وحدة سياسية ويندمج بحزب العمال. ذلك كان قبل ان يفاجأ العالم بحل (الكومنترن) اى الشيوعية الدولية وفك اتصال جميع الاحزاب الشيوعية فى العالم بعضها عن بعض وعن الكومنترن فى موسكو.

حزب الثروة العامة

وفى خلال الحرب تأسس حزب جديد فى انكلترا اسمه حزب «الثروة العامة» (Common Wealth) [١] بزعامة السير (ريجارد اكلاند) (Sir Richard Acland) واهم اسباب تأسيسه ومبادئه هى تحسين احوال البلاد بعد الحرب. وقد تمكن الحزب الى الآن من ارسال عدة اعضاء الى مجلس العموم ويظهر ان مبادىء الحزب ومنهاجه تستهوى الناخب الانكليزى استهواء كبيرا. وامتع ما قرأت

---

(١) يجب التميز بين هذا الاسم وبين اصطلاح (Commonwealth) الذى يعنى دولة او مملكة.

فى وصف هذا الحزب كلمة قالها المستر (Patherick) احد النواب المحافظين فى احدى مناقشات مجلس العموم وهى «ان هذا الحزب نوع من الشيوعية لكنها ترتدى قبعة من الطراز الذى يرتديه اصحاب المال ورداء الرهبان الابيض الموشح بالتمائم والقلائد وذات شعر اصفر اللون مصبوغ بالاكسجين»

الحزب الفاشيستى

هـذه هى الاحزاب الانكليزية الممثلة فى مجلس العموم البريطـانى الآن. وهناك حزب آخر غير ممثل فى البرلمان وهو الحزب الفاشيستى وسبب عدم تمثيله هو ان مبادىء الحزب الدكتاتورية تعارض النظم البرلمانية ولا تعترف بها واسطة من وسائط الحكم. ولذلك لم يشترك الحزب المذكور فى الانتخابات النيابية على الاطلاق. ولا اريد ان اتكلم عن مبادىء هذا الحزب ومناهجه اذ ان الحرب الحالية وما لابسها من دعاية للفاشيستية وضدها اغنتنى عن مثل هذا البحث. وزعيم الحزب هو السير ازوولد موزلى (Sir Oswald Mosley) وهو من اذكى المشتغلين بالامور العامة فى انكلترا وأنشطهم ومنذ بدء الحرب اقتضت المصلحة العامة اعتقاله فبقى معتقلا الى ان اطلق سراحه فى اوائل السنة الحالية (١٩٤٤) لاسباب صحية. وبعض مناصرى الحزب، كالنائب الكابتن رمزى (Cap. Ramsy) الذى نزعت عنه حصانته النيابية، ما زال معتقلا الى الآن للاسباب ذاتها. (١)

وهناك اعضاء لا ينتمون الى اى حزب من الاحزاب يسمون بالمستقلين، دون ما نعت او صفه.

هذا هو النظام السياسى الذى تسير بموجبه الدولة البريطانية الحديثة. فقد استعرضنا اركانه الثلاثة: العرش، السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية وعرفنا كيف ان كل واحد من هذه الاركان تطور فاصبح بالشكل الذى هو عليه الآن ولا يمكن فهم اسرار عظمة هذا النظام ونجاحه من غير تتبع مراحل هذا التطور الامر الذى حملنا على الرجوع الى التاريخ البعيد لهذه المراحل فاصبح بحثنا هذا استعراضا تاريخيا اكثر منه بحثا عن مشاهداتنا وملاحظاتنا عن البلد واهله كما فهمناه وشاهدناه.

(١) أن الكابتن رامزى هو نائب محافظ. وقد اطلق سراحه والكتاب تحت الطبع بعد أن بقى معتقلا فى سجن (بريكستون) منذ شهر مايس سنة ١٩٤٠

الادارة المحلية

ولكن انكلترا لا تديرها اليوم هذه السلطات الثلاث وحدها اذ ان هذه السلطات، مثل باقى الدول الدستورية، تدير الماكنة المركزية المسؤولة عن ادارة البلاد والتى ترسم الخطة التى تمشى وفقها السياسة العامة للدولة. ولكن هناك ماكنة اخرى تسير بقوة الماكنة المركزية ولكنها فى كثير من الوجوه والمظاهر مستقلة عنها تمام الاستقلال وهى ما تسمى بالادارة المحلية. لنبحث الآن فى هذه الادارة وشكلها. ان انكلترا لا يمكن مقارنتها بالبلاد الاخرى من ناحية تشكيلات الحكومة المحلية اذ انها فى الحقيقة فريدة فى هذا الباب لان الفرد الانكليزى يحب الحرية حبا جما وهو يريد على الدوام ان يتولى ادارة شؤونه بيده وتقرير مصيره بنفسه. ونرى السكان فى انحاء انكلترا هم المسؤولون عن ادارة المناطق التى يسكونها وهم الذين يبتون باحتياجاتهم ومطالبهم. ويشاهد المرء فى كل المناطق اداة قديرة لتسيير شؤون سكانها فى جميع نواحى الحياة. فهناك عدد كبير من اللجان فى جميع المناطق والوحدات تنظر كل منها فى الشؤون والمشاكل المنوطة بها. فهنالك مثلا لجنة خاصة لبحث شؤون المعارف واخرى للشؤون الصحية واخرى للخدمات العامة واخرى للطرق والحدائق واخرى للعناية بالاطفال وحتى بالحيوانات وغير ذلك من اللجان. ومما لا شك فيه هو ان الشعب الانكليزى شعب مدرب تدريبا حسنا لقبول هذا الضرب من الحكم الذاتى الذى تأسس قبل تأسيس شكل الحكومة المركزية بمدة طويلة. ومما يلفت النظر هو ان الحكومة المركزية لا تتدخل فى شؤون المقاطعات والادارات المحلية بل تقوم هذه باعمالها بملء الحرية وكما تشتهى ولكن طبعا ضمن حدود القانون وتحت اشراف الحكومة المركزية اشرافا عاما والعمل ببعض ارشاداتها وتوصياتها الا اذا نصت القوانين على خلاف ذلك. وما دامت هذه الادارات المحلية قائمة بتطبيق القوانين الصادرة من البرلمان فليس للسلطة المركزية حق ما فى التدخل فى شؤونها. وما دام الحكام مثلا يراعون احكام القوانين فلا تستطيع سلطة اخرى التدخل فى امورهم وقراراتهم. اما اذا حاد احدهم عن جادة الصواب واهمل وجائبه فلرئيس القضاة بصفته رئيس الهيئة القضائية ان يوبخه او يفصله من منصبه. كما ان لوزارة المعارف او لوزارة

التجارة او لاية سلطة مركزية اخرى ان تشرف بنفسها على حسن تطبيق القوانين والاوامر من جانب مختلف الادارات المحلية.

التقسيمات الادارية

ان اصغر التشكيلات الادارية فى انكلترا هى وحدة ادارية تسمى (Parish) كانت فى الاصل وحدة دينية يديرها مجلس او لجنة وعدد من الموظفين يرأسهم رئيس المجلس. وكان هناك فى قديم الزمان قسم ادارى اكبر من الـ (Parish) واصغر من الـ (County) يسمى : (Hundred) وفى بعض المقاطعات كان يعرف باسماء اخرى(Wards) او(Wapentakes) او (Shires) . ومن الصعب جدا فهم المعنى الحقيقى لاصطلاح(Hundred) المستعمل فى هذا الشأن حتى ان الانسكلوبيديا البريطانية نفسها تقر بذلك. وتلى هذه الوحدة وحدة ثانية تعرف باسم (County) وهى تعادل اللواء عندنا وقد قسمت انكلترا وويلز الى اثنين وستين وحدة كهذه لمقاصد ادارية وهذه الكلمة مرادفة لكلمة (Shire) التى تلحق بأسماء كثير من المقاطعات البريطانية كما لايخفى. ويلاحظ ان اللواء ليس وحدة ادارية فقط فتارة يكون وحدة عسكرية وطورا وحدة قضائية واخرى وحدة برلمانية اى لغرض الانتخابات. وتختلف مساحة هذه الوحدات باختلاف الغرض الذى من اجله احدثت وحدة مستقلة قائمة بذاتها. ويسمى اكبر موظف فى هذه الوحدة (لورد لفتنانت) وهو يمثل الملك فى المقاطعة ويليه فى المنصب موظف يعرف باسم (High Sheriff) وقد كان لهذا الموظف شأن يذكر فيما مضى بيد انه الآن يكاد يكون اسما بلا مسمى كما ان منصبه ووجائبه اصبحت بالية وتعتبر أثرا من الآثار التاريخية. ومن وظائفه المحافظة على النظام والسكينة عند اجتماع المحاكم والاشراف على تنفيذ احكام الاعدام. وهنالك موظفون آخرون وهم حكام المحاكم على اختلاف انواعها وفئة اخرى يطلق عليها اسم (Coroners) وسأتكلم عن وظائف هذين الصنفين فى فصل قادم. ويوجد فى كل لواء مجلس هو المرجع البلدى المركزى يؤلف من رئيس وسكرتير وطبيب ومن مدير المعارف وعدد من الموظفين الاخرين. وهنالك وحدة ادارية اخرى هامة تحكم نفسهابنفسها ولا يتسنى الحاقها باى صنف من الاصناف المتقدمة. وهذه الوحدة تسمى (Borough) وكلما رجعت الى

المصادر لم اتمكن من ايجاد تعريف معين لها. ان هذه الوحدات تقسم لمقاصد برلمانية او بلدية وتحدث بأرادة ملكية. واذا تجاوز عدد سكان هذه الوحدة (٧٥) الف نسمة تدعى اذ ذاك (County Borough) ويبلغ عدد هذه الوحدات ثلاثا وثمانين وحدة في انكلترا وويلز بما في ذلك المدن الكبيرة امثال منجستر وليفربول وبرمنكهام وبرستول وشفيلد وغيرها. وهذه الوحدات مستقلة استقلالا تاما عن مجالس الالوية ولها مجالسها واداراتها الخاصة. وتحتوي لندن على ٢٨ وحدة من هذه الوحدات بما في ذلك مدينة وستمنستر وكنسكتون. ولكل (Borough) مجلس خاص قوامه امين (ماير) واختيارية وعدد من المشاورين وسكرتير وامين صندوق وموظفون اخرون. وتساعد هذه المجالس لجان مؤلفة من رجال اخصائيين. ان امين (مدينة لندن) هو اهم الثمانية والعشرين امينا الموجودين في لندن الكبرى ويسمى (لورد ماير)ويتمتع بحقوق اجتماعية وسياسية وتقليدية واسعة منها ان الملك الجديد لا يستطيع دخول (مدينة لندن القديمة) بدون استحصال الاذن من اللورد ماير كما ان الحفلة التي تقام سنويا لهذا المنصب هي من اروع الحفلات واجملها. ويقيم اللورد ماير في (كلد هول) حيث تقام الحفلات والمآدب للملوك ورؤساء الهيئات الدبلوماسية ومن يزور بريطانيا من رجالات العالم البارزين(١). واللورد ماير ينتخب لمدة سنة واحدة فقط وهو لا يتقاضى راتبا او اجرة. وليست هناك فروق سياسية او دينية في انتخاب اللورد ماير فقد كان اللورد ماير سنة ١٩٤٢ يهوديا وهذا بنظري ترتيب مستحب الغرض منه اعطاء المجال لاكبر عدد ممكن من المواطنين للعمل والاصلاح.

الامبراطورية

ان انكلترا، او ما تسمى بالمملكة المتحدة، ما هي الا وحدة صغيرة من منظمة سياسية عالمية هي اعظم ما سجله التاريخ من التعاون بين مجموعات متباينة من الهيئات البشرية. وهذه المنظمة هي ما تسمى بالامبراطورية البريطانية او برابطة الشعوب البريطانية. ان هذه الامبراطورية هي في الحقيقة مثل منقطع النظير لم يسبق للتاريخ البشري ان ضم بين سطوره مثل هذا التجربة. نعم لقد سبق ان قامت في تاريخ العلاقات البشرية امبراطوريات

(١) من الخرافات الانكليزية أن اللورد ماير يقتني هرا أسود مجلبة للبخت.

واسعة ضمت تحت سطوتها مساحات واسعة من البلاد وملايين من الانفس كالامبراطورية الرومانية والامبراطورية العربية وكثير من الامبراطوريات الاخرى التى قامت وهوت فى الماضى وكذلك رابطة الشعوب الاميركية المتحدة. ولكن لم يسجل التاريخ ان ضمت امبراطورية اقواما واجناسا واديانا والسنة وثقافات متباينة ومختلفة مثل ما ضمته الامبراطورية البريطانية ومع ذلك فقد كانت هذه الامبراطورية وحدة متماسكة ومتراصة دون ان يكون تماسكها وتضامنها مستندا الى القوة والاكراه كما كان الحال فى سائر الامبراطوريات الاخرى. ويمكننى دعم حجتى هذه بشاهدين حديثين وهما ان هذه الامبراطورية قد عانت صدمتين عنيفتين خلال جيل واحد وهاتان الصدمتان هما الحرب الماضية والحرب الحالية ومع ذلك فقد خرجت هذه المجموعة من هاتين المعمعتين دون ان ينهد شيء من تضامنها وكيانها. ولعل الحرب الحالية اكبر شاهد على درجة تماسك هذه الوحدة. لقد مرت ايام على المملكة المتحدة وهى لا تعلم مصيرها ولا تعلم ماذا يكن لها غدها فكانت هى نفسها مهددة بالفناء والزوال كما ان كل جزء من اجزاء الامبراطورية كان عرضة اما لاطماع الدول الطامعة واما للانفصال عن مجموعة الامبراطورية واعلان استقلالها ولكن مع كل هذه الاعتبارات لم يحدث اى شيء من هذا القبيل فخرجت رابطة هذه الشعوب وهى اشد تمسكا بعضها مع بعض مما كانت عليه قبلا فقد اثبت لنا التاريخ مرتين خلال الجيل الحاضر انه كلما زاد الضغط والخطر على الامبراطورية ظهرت حقيقة معدنها باجلى مظاهره ونقاوته. انها والحق اقول ظاهرة غريبة فريدة فى بابها وكلما اراد المرء ان يتوسع فى وصفها وتحليلها وجد قلمه وبيانه عاجزين عن ذلك.

ولنتساءل الان عما اذا كانت هذه الامبراطورية هى ثمرة لخطط موضوعة ومرسومة منذ سنين واجيال او انها وليدة المصادفة. انى اميل الى الاعتقاد بانها لم تكن نتيجة لخطة سابقة او لحلم عريق ومن المؤكد ان (سيسل رودس) (Cecil Rhodes) حينما افنى زهرة شبابه فى سبيل ايجاد هيئة دولية يكون لكل شيء انكليزى فيها الكلمة المسموعة والمثل الاعلى، لم يكن ليحلم ان تلك الهيئة ستكون بالشكل الذى هى عليه اليوم. ومن المؤكد انه

لا جوزيف تشمبرلين ولا السير جون سيلى ولا رديارد كيلنغ كانوا قد فكروا ان جهودهم وتمنياتهم فى اعلاء اسم بريطانيا وضم بقية الشعوب الاخرى تحت العلم البريطانى ستؤدى الى الوضع الذى نراه اليوم. اذن فالقول بان الامبراطورية البريطانية وليدة المصادفة وليست نتيجة لخطة مرسومة هو قول كله الصدق والصواب، وفعلا فان كثيرين من مدركى الانكليز ومفكريهم يقولون بهذا الرأى ويسلمون به. وهناك من يذهب الى أبعد من ذلك فيقول أن الامبراطورية ليست وليدة المصادفة فحسب ولكن الشعب البريطانى قد اوجدها وهو فى نوبة ذهول فكرى.(١) ان كيفية نمو هذه الوحدة الحيوية، والامبراطورية البريطانية كما وصفها المستر (Emrys-Evans) احد اعضاء مجلس العموم البريطانى، هى وحدة حيوية من فضائلها انها ككل جسم حى آخر، تابعة لتبدل وتغير دائمين، وبلوغها الوضع الذى هى عليه الان، يؤيد الرأى القائل بانها وليدة المصادفة وليست نتيجة لخطة موضوعة. فاذا تتبعنا المراحل الاولية لنشوئها رأينا ان تغير الاحوال فى انكلترا وتحول تلك البلاد من بلاد زراعية الى بلاد صناعية وتجارية قد حمل الانكليز على ايجاد اسواق عالمية لتجارتهم وصناعاتهم. ثم ان ايجاد هذه الاسواق يتوقف على تأسيس قواعد ومراكز تجارية فى مختلف اصقاع المعمورة وهذه المراكز التجارية كانت المصادر الحقيقية للتوسع الانكليزى فى العالم. ومنها ان النفوذ الانكليزى اخذ يدب فى بلدان العالم المختلفة ويتغلغل فيها كما تتغلغل المياه ذرات التراب. فاصبحت هذه المراكز التجارية قواعد امامية او هيئات استطلاعية للقوات الفاتحة التى تبعتها. هذا عامل واحد من عوامل ايجاد الامبراطورية اما العامل الاخر فهو ان تزايد السكان فى انكلترا فى القرنين الماضيين قد حمل الانكليز على ركوب البحار والالتجاء الى ارض الله الواسعة حيث يرون مجالا اوفى للمعيشة وكسب الرزق وقد توسعت هذه الهجرة الى بعض الاقطار حتى تفوق الجنس الانكليزى وساد غيره من الاجناس وكانت النتيجة ان فتح العنصر الانكليزى قارات واسعة من غير حروب ولا معارك.

(١) (In a fit of absent-mindedness): Pax Britamericana-by John MacCormac Chapter IV.

فبعد اتساع مجال تجارتهم وامتداد بنى جنسهم الى اقطار نائية اضطروا الى محافظة طرقهم الحيوية فى الاستيلاء على مناطق وقواعد استراتيجية اما فتحا واما اكراها واما بالحاقها او انتزاعها واما بتأجيرها واما باعلان الحماية والوصاية عليها واما بعقد نوع من انواع المعاهدات معها. بهذه الطرق والوسائل وجدت الامبراطورية ونمت وتوسعت حتى بلغت وضعها الحاضر وهى اليوم تضم مجموعة من الشعوب والاقوام يزيد عدد سكانها على **(٤٧٥)** مليونا من النفوس اى ما يقرب من خمس سكان الكرة الارضية ولها من المساحة ما يزيد على ثلاثة عشر مليونا من الاميال المربعة اى ما ينوف على خمس مساحة المعمورة ولا شك انه لم يسبق ان وجدت وحدة دولية تضاهى هذه الوحدة من حيث النفوس والمساحة.

اجزاء الامبراطورية

ان الامبراطورية البريطانية مكونة من اجزاء مختلفة منها ما هى مستقلة استقلالا تاما مثل ايرلندا الحرة ومنها مستعمرات ومحميات لا شأنا ولا كيانا دوليا لها. فاذا بدأنا بتعدادها تسلسلا فهى : المملكة المتحدة وايرلندا الشمالية، ايرلندا الحرة، اوستراليا، كندا، جنوب افريقيا، نيوزيلندا، نيو فوندلاند، والمستعمرات ذات الحكم الذاتى مثل مالطة وروديشيا الجنوبية، ومستعمرات التاج والمحميات، والولايات الملحقة، والاراضى المنتدبة وكثير مما تسمى بمناطق النفوذ.

المملكة المتحدة

ان المملكة المتحدة هى الوطن الام لهذه المجموعة من الشعوب المختلفة التى ترتبط بها بوشائج الاخلاص. فملك انكلترا هو ملك كل جزء من هذه الاجزاء وقد تقرر ذلك نهائيا بمقتضى قانون وستمنستر لسنة **١٩٣١** الذى عين مواقف الدومنيونات بالمملكة المتحدة وعلاقاتها ومن اهم ما جاءفيه انه لا يمكن تغيير النظام الوراثى للملكية من غير موافقة جميع برلمانات الدومنيونات. كما ان التشريعات التى يقررها برلمان المملكة المتحدة لا تسرى على بقية الدومنيونات ولكنه من الوجهة الدستورية يمكن للبرلمان البريطانى ان يشرع تشريعات ان وقع بها طلب خاص من قبل الدومنيونات وقبلت تطبيقه عليها. اما فيما يخص علاقة هذه الدومنيونات بالمملكة بغير ذلك فقد حددها قرار المؤتمر الامبراطورى الذى عقد سنة **١٩٢٦**

وقد عرف القرار المذكور الدومنيونات انها «ممتلكات ذات حكم ذاتي تعتبر جزءا من اجزاء الامبراطورية وهي متساوية بعضها مع بعض من وجهة الاوضاع وليست الواحدة منها تابعة او خاضعة للاخرى لا بشؤونها الداخلية ولا الخارجية، ولكنها جميعا متحدة باخلاص مشترك للتاج البريطاني ومشتركة بعضها مع بعض بحرية تامة ضمن رابطة الشعوب البريطانية». ولهذه الدومنيونات برلماناتها الخاصة وهي ترسم سياستها الخارجية ولكن ضمن نطاق السياسة العامة التي تقرها المملكة المتحدة. ومع ذلك فكثيرا ما كان مندوبو الدومنيونات يصوتون ضد مندوبي المملكة المتحدة في عصبة الامم او في المؤتمرات الدولية. ان ملك بريطانيا ممثل في كل من هذه الدومنيونات (بحاكم عام) (Governor-General) وهذا الحاكم العام تعينه عادة الحكومة البريطانية من بين كبار الشخصيات او من اعضاء العائلة المالكة كما هو الحال الان مع كندا فالحاكم العام هو الارل اوف اثلون خال الملك جورج السادس وقد كان قبلا حاكما عاما لاتحاد جنوب افريقيا. وفي استراليا كان المرحوم الدوق كنت قد عين حاكما عاما وبعد وفاته عين اخوه الدوق كلوستر لذلك المنصب. ويبدو ان هذه القاعدة اخذت تتطور شيئا فشيئا حتى صار هذا المنصب يسند الى احد رعايا الدومنيونات نفسها. فقد بدأ بالسابقة دي فاليرا رئيس حكومة ايرلندا عندما الغى نهائيا منصب الحاكم العام على اثر حادثة تنازل الملك ادورد الثامن عن العرش. وقد صرح المارشال سمطس رئيس وزراء اتحاد جنوبي افريقيا في اوائل السنة ١٩٤٤ انه بمناسبة وفاة الحاكم العام السير (باتريك دانكان)(Sir Patrick Duncan) سيقترح على الملك تعيين حاكم عام للاتحاد من ابناء الاتحاد لا من المملكة المتحدة. ان هذه الخطوات ولو كانت تدل على استقلال الدومنيونات استقلالا تاما في ادارة شؤونها غير انه لا يمكن ان تفسر مثل هذه الاجراءات بانها خطوات نحو انفصالها عن الامبراطورية اذ ان الدور الذي كان يمكن فيه تحقيق مثل هذه الرغبة قد مر ولم تقدم عليه اية حكومة من حكومات الدومنيونات.

الدومنيونات

اما من الناحية الاقتصادية فان علاقة بريطانيا بالدومنيونات قد ثبتتها

احكام اتفاقية اوتاوه التي عقدت سنة ١٩٣٢ على اثر المؤتمر الذى عقد فى تلك المدينة الكندية بين بريطانيا وبقية الدومنيونات (عدا ايرلندا الحرة) وقد ادى الاتفاق فى هذا المؤتمر الى ان يكون للتجارة والصادرات البريطانية افضلية على غيرها وفى الوقت ذاته تعطى الدومنيونات حق ادخال منتجاتها الزراعية الى بريطانيا دون استيفاء رسوم كمركية عليها كما ان الاتفاق المذكور ادى الى قيام كل واحدة من الدومنيونات بمنح امتيازات خاصة الى الاخرى.

ان العلاقة بين وحدات هذه المجموعة الدولية ليست سياسية او اقتصادية او عنصرية او روحية فحسب بل انها علاقة تستند الى الدفاع والتعاون العسكرى المشترك. فكل واحدة من الدومنيونات قد ادركت ان الدفاع والتعاون العسكرى بينها مفيد لكيان كل منها وحياتها. فكلما رأت الدومنيونات ان انكلترا اشتركت فى حرب رأت من صالحها ومنفعتها الخاصة ان تنضم الى جانبها. وهذه الحاجة تدركها كندا مثلا سواء اكان على رأس الحكم فيها رجل مثل (بينيت) (Bennett) ام اخر مثل (ماكنزى كينك)؟ وتدركها اوستراليا سواء اادار دفة سياستها رجل مثل (منزيس) (Menzies) ام اخر مثل (كرتن) وتدركها نيوزيلندا ان حكمها شخص مثل (بيتر فريزر) او غيره. ولا نرى مثلا واقعيا مثل ما حصل فى اتحاد جنوبى افريقيا حينما قال رئيس وزرائها السابق الجنرال (هرتزوك) (Hertzog) قبل سنتين ان الاتحاد يجب ان يخرج من هذه الحرب التى ليس له اية فائدة فيها. وما هى الا عشية وضحاها حتى فشل الرجل فى سياسته وسقط عن الحكم وكان بودى ان يعيش ليرى خطل ما قاله وصواب سياسة خصمه (سمطس) الذى توقع المصير الذى ستمشى اليه بلاده ضمن وحدة الامبراطورية ان هى تمسكت باهدابها. وقد قامت القوات العسكرية والبرية والجوية لجميع الدومنيونات بجهود جبارة سواء فى هذه الحرب او فى الحرب الماضية وشجاعة (الانزاك) (Anzancs) فى الدردنيل فى الحرب الماضية ودفاع جنود جنوبى افريقيا فى (طبرق) فى الحرب الحالية وتفانى الكنديين فى مختلف ميادين القتال هى امثلة قليلة لتماسك هذه الاقوام ووحدتها.

قضايا الامبراطورية المعقدة

وفى هذه الامبراطورية التى اغدقنا عليها آيات الوصف والاعجاب

ثلاث قضايا معقدة كانت وما زالت اعقد من ذنب الضب ولم تتوصل ادمغة الساسة الى ايجاد حل لها وهذه القضايا هى : القضية الفلسطينية والقضية الايرلندية والقضية الهندية. فالقضية الاولى نشأت منذ ان استحوذت بريطانيا على الاراضى المقدسة بحجة «الانتداب» فخلقت ما تسمى بالقضية الفلسطينية، تلك القضية التى اصبحت الان ليست قضية فلسطينية وانما قضية بين العرب والصهيونيين، بين الاسلام واليهود، بين انكلترا واميركا، بين الشرق والغرب وبكلام اوضح بين الحق والباطل. والبحث فيها خارج عن نطاق موضوعنا هذا والافضل ان نترك امرها لغيرنا.

القضية الفلسطينية

اما القضية الايرلندية فهى فى الحقيقة شوكة فى جنب بريطانيا. كنت قد كتبت السطور التالية بالحرف الواحد فى الطبعة الانكليزية للكتاب فى اوائل سنة ١٩٤٢ اى قبل ان تفاتح الحكومتان البريطانية والاميركية حكومة ايرلندا لابعاد ممثلى دول المحور من دبلن بسنتين تقريبا. «ان ايرلندا تشغل مركزا شاذا فى مجموعة الشعوب البريطانية». «لما دخلت الامبراطورية كلها الحرب الى جانب بريطانيا احتفظت ايرلندا بعلاقاتها السياسية مع اعداء اخواتها من الدومنيونات وجعلت (دبلن) عشا للجواسيس». انا غريب عن الايرلنديين وعن الانكليز ولا موجب للتحيز الى هؤلاء على اولئك ولكنى ارى ان ايرلندا الجنوبية قد اغترت كثيرا بصبر الانكليز وبحلمهم حتى صارت تكيل لهم الاساءة فى احرج الساعات واقسى الظروف. فمنذ القرن الماضى بل منذ القرون القديمة والخلاف والعداء بين الايرلنديين والانكليز مستمر بالنظر الى التباين العظيم فى كل ناحية من النواحى بين القومين : باللغة والعنصر والدين والعادات والتقاليد والطبيعة البشرية. لقد تصور الانكليز انهم بمنحهم ايرلندا حكما داخليا سيتمكنون من ايجاد تسوية نهائية للمشكلة الايرلندية ولكن سرعان ما خاب ظنهم اذ ظلت هذه المملكة الصغيرة تنتهز الفرص لاظهار العداء لبريطانيا. ومن يقرأ الدستور الايرلندى لا يمكن ان يتصور ان تلك البلاد جزء من رابطة الشعوب البريطانية اذ لا توجد اية اشارة لعلاقاتها ببريطانيا والامبراطورية. ولما اجتمعت جميع دول الامبراطورية فى اوتاوه لتقرير علاقاتها الاقتصادية رفضت

القضية الايرلندية

ايرلندا الاشتراك بذلك ورفضت ايضا ان تقيد علاقاتها الاقتصادية بدول الامبراطورية دون غيرها من الدول. ولما امتحنت الامبراطورية من جراء حادثة تنازل الملك ادورد الثامن عن العرش انتهزت ايرلندا هذه الفرصة لالغاء منصب الحاكم العام اى (ممثل الملك) وبذلك قطعت اخر خيط يربطها بالامبراطورية. ولما اعتلى جلالة الملك جورج السادس العرش لم تناد به ايرلندا ملكا عليها، وفى اوائل سنى الحرب وبريطانيا فى أحرج الساعات خرج الجيش الجمهورى الايرلندى وناصب الشعب الانكليزى العداء وقام باعمال عنيفة وسلك طريق الغدر. وفي جميع تلك الاثناء ظلت ايرلندا الجنوبية تطالب بالحاق ايرلندا الشمالية (آلستر) (Ulster) بها. وأبناء الجنوب والشمال يختلفون بعضهم عن بعض اختلاف الابيض عن الاسود. ومع ذلك كله لم تعلن ايرلندا انفصالها التام عن الامبراطورية لان خطوة مثل هذه تؤدى الى اعتبارها دولة اجنبية وفى هذه الحالة يعتبر الالوف من الايرلنديين المنتشرين في مختلف اصقاع الامبراطورية اجانب فيخسرون من جراء ذلك كثيرا من النعم والامتيازات التى يتمتعون بها الان بصفتهم من رعايا الامبراطورية واهمها التطوع فى الجيش البريطانى فى الحروب. وفى الوقت ذاته فان مثل هذه الخطوة تحمل بريطانيا وبقية دول الامبراطورية على وضع العراقيل الاقتصادية كالتعريفات الكمركية وما شاكلها بينها وبين ايرلندا وفى هذه الحالة تخسر كثيرا مما تتمتع به الان. ثم ان اى ضغط يبدو من بريطانيا عليها قد يحملها على الارتماء في احضان دولة اجنبية وبالنظر الى وقوعها على عتبة بريطانيا نفسها فان مثل هذا العمل مما يهددها تهديدا مباشرا. يتضح من ذلك ان مثل بريطانيا وايرلندا هو مثل (بلاع الموس) فاى وضع هو اعقد من هذا واية مشكلة اصعب حلا منها ؟.

والواسطة الوحيدة التى تربط المملكتين بعضهما ببعض ارتباطا رسميا ودوليا فى الوقت الحاضر هى معاهدة سنة ١٩٢١ التى جاء فيها بصراحة تامة ان ايرلندا تبقى ضمن رابطة الشعوب البريطانية. ومع ارتباطها بالامبراطورية هذا الارتباط فانها لا تعتبر نفسها من الدومنيونات مثل كندا واوستراليا.

القضية الهندية

والمشكلة الثالثة التى تشغل بال الامبراطورية هى المشكلة الهندية، ان

صح اعتبارها، من وجهة نظر الانكليز انفسهم، مشكلة. فهى مشكلة من وجهة نظر العالم اجمع عدا الانكليز. فقد بلغ امر الهند من بريطانيا ان اصبحت لا حياة للواحدة منهما بغير الاخرى. فلا حياة لبريطانيا ان هى جردت من الهند ولا سياسة عليا لها غير تلك السياسة التى تضع دائما سلامة الهند والاحتفاظ بها نصب عينها. فهى فى الحق والحقيقة اثمن وازهى جوهرة فى التاج البريطانى. هذا من ناحية بريطانيا اما من ناحية الهند نفسها فان ما يصدق على بريطانيا يصدق عليها اذ لا حياة للهند بغير بريطانيا ولا يمكن ان يسود السلم والطمأنينة فى الهند لا تحت حكم هندى ولا تحت حكم اية دولة اجنبية اخرى(١). وبهذا الرأى يسلم حتى اعداء الانكليز ومنافسوهم كما يتضح مما ورد فى كتاب اكبر عدو منافس للانكليز وهو الهر هتلر عندما كتب فى كتابه (كفاحى). «انى وانا المانى افضل ان تكون الهند تحت سيطرة الشعب البريطانى من ان تكون تحت سيطرة اى شعب اخر».

ان طريقة استيلاء بريطانيا على الهند وشكل حكمها اياها ونوع العلاقات التى تربطها بها لهى بدعة فريدة من بدع التاريخ. لقد سجل التاريخ فتوحات عظيمة لامبراطوريات واسعة ولكن فتح بريطانيا الهند واستيلائها عليها ليس له شبه باى فتح من تلك الفتوح. انها اغرب من فتوح الاسكندر الكبير التى اوصلت الثقافة اليونانية الى الهند والنفوذ اليونانى الى ماوراء الصين وتركستان، انها اغرب من توسعات الامبراطورية الرومانية التى اوصلت الحكم الرومانى والقانون الرومانى الى حدود وادى الرافدين، انها اغرب من الفتح الاسلامى الذى اوصل العرب الى جبال البرنه غربا واتى بمحمد بن القاسم الى السند من الهند شرقا. فان قامت هذه التوسعات والفتوحات بحد السيف، واكثرها لم تدم الا قليلا، فان فتح الانكليز للهند لم يقم بالسيف وهو الان فى القرن الرابع من عمره ولا يعلم الا الله كم سيعمر بعد الان.

(١) كنت اتكلم مرة مع شاب هندى اثر دراسته العالية والتحق بجامعة لندن لدراسة خاصة، ولما آل البحث بيننا الى علاقة الهند ببريطانيا وسألته عن احتمال قيام الهند وحدها ونبذ الاستعمار البريطانى بادرنى سائلا : ان ابعدنا الانكليز عنا فمن سيحكمنا ؟ ويبدو ان هذه الفكرة استحوذت على اغلب الطبقات والعناصر فى الهند وهى اثر من آثار نفوذ روح الاعتياد والثقة بالحكم البريطانى الى قرارة نفوس الهنود.

كيف استولت بريطانيا على الهند ؟ وهنا تبدأ سلسلة غرائب علاقة بريطانيا بالهند. كان الشرق منذ القرون الماضية مطمح انظار الغرب وخاصة تجارهم اذ ان فيه من الموارد الغنية ما جعله قبلة انظارهم. وقد صادف ان نالت احدى الشركات الانكليزية المسماة بشركة الهند الشرقية امتيازا للمتاجرة مع الشرق وخاصة الهند. ففى اوائل القرن السابع عشر اسست هذه الشركة فروعا وقواعد تجارية لها فى مختلف اصقاع الهند فازدادت ممتلكاتها شيئا فشيئا حتى شملت اقاليم ومناطق واسعة فى الهند فصارت تضع الانظمة والقوانين لادارة الممتلكات وتعقد المعاهدات مع السكان لمحافظتهم حتى صارت تؤسس جيوشا جرارة لتقويم سلطانها ودعم نفوذها فتجاوزت صلاحيات ونطاق اعمال هذه الشركة من تجارية الى سياسية وحكومية حتى صارت تقيم الامراء والراجات وتجبى الضرائب وتسن القوانين كما لو كانت حكومة ذات سلطة وسيادة. فاستحالت تلك الشركة التى كانت تتجر بالتوابل والعطريات والاصباغ وعظام الفيلة الى حاكم مطلق يقيم العروش ويقرر المصير لمئات من الملايين.

وبنتيجة هذا التوسع العظيم الذى حققته الشركة وما صارت تدره من الارباح الطائلة جلبت انتباه الشعب البريطانى والحكومة البريطانية بصورة خاصة. وقد ولدت اعمال الشركة وعلاقاتها التجارية كثيرا من المشاكل التى كثيرا ما ادت الى الحروب كما حصل فعلا بينها وبين زميلتها الشركة الافرنسية. وعدا ذلك فان الثروة الطائلة التى صار موظفو الشركة يجمعونها من الهند ويعودون بها الى بلادهم فيشترون بها المقاعد النيابية وينفذون الى قلب السياسة والحكم. كل هذه الامور حملت البرلمان البريطانى على تشريع قانون يعين كيفية ادارة ممتلكات الشركة فى الهند ثم وضعت قوانين اخرى حتى آل الامر الى الحاق البلاد نهائيا بالتاج البريطانى وهكذا صارت بريطانيا التى لا تزيد نفوس شعبها على السبعة والاربعين مليونا تحكم شعبا عدد سكانه عشر مرات سكانها تقريبا واذا اردنا الدقة فى التعبير نقول : ان بضعة الوف فقط من السبعة والاربعين مليونا من الانكليز هم الذين يحكمون هذه المئات من الملايين من الهنود وهو لعمرى بدعة فى الحكم والادارة وسنرى كيف ولماذا ؟

اذا اراد الانكليز حكم الهند كما تحكم الدول المستبدة الشعوب المستعبدة الاخرى لعسر عليهم ذلك اذ لا يمكن حكم شعب مكون من حوالى (٣٥٠) مليونا من النفوس الا بقوة عظيمة لا يمكن ان توفرها دولة حاكمة لا تتجاوز نفوسها الـ (٤٧) مليونا. ولذلك فقد اتبع الانكليز خطة خاصة لحكم الهند، وهذه الخطة هي ما تسمى بالحكم غير المباشر وقد تقيد بها جميع حكام الهند من الانكليز من يوم ان اخذت الحكومة البريطانية على عاتقها ادارة الهند من شركة الهند الشرقية. فكانت هي خطة (وارن هستنكس) (Warren Hastings) و (روبرت كليف) (Robert Clive) وهي خطة (لنليثكو) و (ويفل) وستبقى خطة من سيخلفهم من الحكام ما دام للانكليز قدم في الهند. لقد تعود الانكليز في بلادهم على الحكم الذاتي والاستقلال الفردي فهم لا يطيقون سلطة تسيرهم وفق ما تشاء انما الشعب هو الذي يقرر مصيره بنفسه. وبالنظر لتغلب هذه الروح على الفرد الانكليزي فقد رأى من الافضل والانسب ان يطبق نظام الحكم الذاتي في حكمه للشعوب الاخرى، ليس حبا بسواد عيون هذه الشعوب بل لان هذه الطريقة في الحكم تكلفه اقل عناء وجهدا ومالا من الحكم المباشر. فخلقوا في الهند دويلات وامارات ومقاطعات، واقاموا راجات وامراء ووزراء ومنحوا كلا من هذه الوحدات المجزأة استقلالا صوريا وحكما ذاتيا ما اقيم الا لخدمة الانكليز وفائدتهم بذاتهم. وصاروا يعينون اميرا على اخر ويساعدون هذا على ذاك ويعقدون معاهدة مع دويلة ويعلنون الحماية على الاخرى، واذا اظهرت طائفة مناوأة للانكليز فانهم يعملون على جلب ود الطائفة الاخرى وثقتها ويجعلونها ترتمي باحضانهم وهكذا دواليك.

من المؤكد ان الانكليز بزوا الشعوب الاخرى باصول الحكم والادارة فلكتهم في ذلك ملكة فريدة. واذا اشتهر الطليان بما انجبوه من فنانين والالمان بما انجبوه من عسكريين والفرنسيون بما انجبوه من رجال الفكر فان الانكليز قد اشتهروا، بين ما اشتهروا به، بما انجبوه من رجال الادارة والحكم واكثر هؤلاء تدربوا في مختبر الهند العظيم او على الاقل درسوا تجارب الحكم في الحقل التجريبي الهندي ثم طبقوها على البلدان والشعوب

الاخرى، وهم كثيرون امثال نابير، وجلمسفورد ولانسداون وكرزن وملنر وكرومر، وكتشنر وصاموئيل وريدنك وغيرهم. والحكم الانكليزى فى الهند يختلف كل الاختلاف عن علاقة الانكليز بباقى اجزاء الامبراطورية فبينما تفكر بريطانيا ان تكون اشبه شيء (ببنك تصفية) بقدر تعلق شؤون اجزاء الامبراطورية الاخرى بها وانها لا تفكر فى التضيق على خناقها لتقرير حياتها ومماتها، نرى من الناحية الثانية انها تنظر الى الهند نظرة تختلف عن نظرتها الى بقية الدومنيونات فهى ممسكة بخناق الهند بيد حديدية وان الطرق التى تتبعها لاستعمار الهند لها بعض الشبه بالطرق التى تتبعها الدول المستعمرة الاخرى التى كثيرا ما سخفت سياستها الاستعمارية وفضح خططها. فلنأخذ مثلا السياسة التى تتبعها فرنسا مع مستعمراتها وكيف انها تحاول تفسيخ الروح الوطنية والدم الوطنى والعزة الوطنية كما فعلت مع عرب افريقيا الشمالية ولنقارن بين هذه وبين ما يسلكه الانكليز فى الهند. فاللغة الانكليزية سادت اللغة الوطنية وجعلت لغة العلم والادب والدولة، والثقافة الانكليزية اصبحت المثل الاعلى لكل مثقف هندى وصار غرض كل شاب من الدراسة العالية هو الالتحاق باوكسفورد او كمبردج. وعلى اكتاف هذه الطبقة من الهنود، التى فقدت الروح القومية الهندية ولم تكتسب الثقافة والاخلاق الغربية بكل مظاهرها ومعانيها، صارت بريطانيا تحكم الهند وتسوسها. لقد دعا ماكاولى (Macaulay) لما كان عضوا فى مجلس كلكتا الاعلى الى ادخال النظام التعليمى البريطانى الى الهند لتوحيد الثقافة والمثل العليا والروابط الروحية بين الهنود واذابة الثقافة الوطنية الهندية فى الثقافة والقومية الانكليزية، وقد اوقف (سيسيل رودس) ثروته الطائلة للمنح الدراسية فى اوكسفورد تمنح للشباب الهنود وغيرهم من ابناء المستعمرات البريطانية للغرض المار ذكره. ولكن لم يجر كل شيء حسب هوى الانكليز فان كثيرا من هذه العناصر التى توسموا فيها الخير لهم بما اسبغوه عليها من مظاهر المدنية الغربية وما علموها فى مدارسهم وجامعاتهم من مبادىء الحرية والمساواة والوعى السياسى والقومى. فلما بزغ فجر القرن الحالى وجدت طبقتان من الهنود تدعوان الى مقاومة الانكليز ومناوأتهم؛ الاولى هى التى تأثرت بالمدنية الغربية الى اقصى

حدودها والثانية هى الطبقة التى لم تتأثر بها تأثرا ما. وفى هذا الحين ظهر حزب المؤتمر الهندى الذى كان وما زال يناضل الحكم الانكليزى فى الهند ويدعو الى لزوم ترك الانكليز للهند لتحكم نفسها بنفسها. ومن ظهر من رجال النهضة الهندية امثال (تيلاك) (١) وغاندى و (جواهر لال نهرو) و (بوز) كانوا من اكثر ابناء الهند معرفة بالثقافة الانكليزية وتفهما للمدنية الغربية. وفى ظنى ان من دعا من الهنود لاخراج الانكليز من الهند لم يبين كيف سيستتب الامن والنظام فيها وفيها من الاديان والاقوام والطبقات والدويلات ما يعجز المرء عن تعداده. ومن المؤكد ان غاندى مثلا عندما جاهر الانكليز سنة ١٩٤٢ بجلائهم عن الهند لم يقصد ان يستبدل سيدا بسيد. وان ارتمى (بوز) باحضان دول اخرى لمساعدة الهند وانتشالها من مخالب الانكليز فانى ابرئ غاندى وصحبه من ذلك. ولكنه قال بذلك ولما تجتمع كلمة الهنود على امر ما. فهناك فئة قوية من مسلمى الهنود يبلغ عددها الـ (٦٠) مليونا تبغى الانفصال وتأسيس حكومة هندية مسلمة، وحزب المؤتمر الهندى يطالب بتأسيس حكومة هندية تضم جميع الهند وهناك الامراء الذين يتمسكون بحقوق المعاهدات التى عقدوها مع الحكومة البريطانية التى تتظاهر بحرصها على تنفيذ وعودها لهم. كل هذه الملابسات جعلت الوصول الى حل يرضى جميع الجهات امرا مستحيلا.

وتستند اليوم ادارة الهند الى دستور منحته سنة ١٩٣٥ وذلك لقاء الاخلاص والمساعدات التى اسدتها لبريطانيا فى الحرب الماضية. وبغية ضمان تكاتفها فى الحرب الحالية فقد وعدت الهند بعد انتهاء الحرب بالحصول على نظام الدومنيون الذى يعطيها استقلالا ذاتيا ويضع مقدرات الهنود بايديهم. فصارت جميع موارد الهند وامكانياتها تحت تصرف الحكومة البريطانية وصار شباب الهنود يعملون ويحاربون فى مختلف ميادين القتال فتراهم يقاتلون فى امفال (Imphal) وفى الفلوجه وفى الدامور وفى اديس ابابا وفى مجاز الباب وفى كاسينو كما لو انهم يقاتلون فى سبيل الهند نفسها.

(١) توفى هذا الزعيم الهندى سنة ١٩٢٠

الفصل الرابع

حياتهم الاجتماعية

النظم الاجتماعية

لكل مجتمع بشرى نظامه الاجتماعى الخاص وهذا النظام يختلف باختلاف درجة رقى ذلك المجتمع وتقدمه فكلما كان المجتمع متأخرا كان نظامه الاجتماعى بسيطا غير معقد والعكس بالعكس. هذه قاعدة عامة من قواعد علم الاجتماع. والمجتمع البريطانى بحسب ما هو عليه من رقى وتقدم مجتمع ذو نظام اجتماعى معقد وفريد فى بابه اذا ما قورن ببقية الانظمة الاجتماعية للشعوب الاوربية الاخرى. فمن المعلوم ان الهيئات الاجتماعية لاغلب الشعوب الراقية فى العالم يمكن تقسيمها بوجه عام الى اربع طبقات: طبقة النبلاء، والطبقة الوسطى التى كثيرا ما يعبر عنها بالطبقة البورجوازية، وطبقة الفلاحين، واخيرا طبقة العمال. فهذا التقسيم يصدق على جميع الممالك الاوربية على حد سواء حتى ان النظام الشيوعى الذى كثيرا ما يقال عنه انه نظام غير مؤسس على اساس الطبقات هو فى الحقيقة نظام طبقى مستند الى العمل بدلا من المال. اذ يمكن تمييز عدة طبقات بعضها عن بعض بما لكل طبقة من امتياز وحقوق وواجبات ليست فى الطبقة الاخرى. فهناك مثلا الطبقة العليا المكونة من اعضاء الحزب الشيوعى والهيئة الحاكمة والتى يمكن ان تعادل بطبقة النبلاء بالنظر الى ما تتمتع به من حقوق وامتيازات. وهناك طبقة (الاستاكانوفايت) (Stakhanovite) وهى الطبقة المكونة من العناصر الماهرة من العمال الذين يمنحون امتيازات خاصة بالنظر الى تفوقهم على غيرهم فى العمل والانتاج. ويمكن اعتبار هذه الطبقة معادلة للطبقة البورجوازية. ثم هناك طبقة العمال الذين يعملون فى المعامل وطبقة الفلاحين الذين يعملون فى المزارع التعاونية. (١) يتضح من ذلك ان جميع

طبقات كل هيئة اجتماعية

حتى النظام الشيوعى نظام طبقى

(١) قد يستغرب بعض القراء لاول وهلة من ادعائى هذا وربما يراه البعض منهم مثيرا. وعليه سأستبيح القارئ عذرا ان أنا اوردت بعض الادلة لاثبات هذا

الهيئات البشرية مهما كان نوعها لها طبقاتها وصنوفها الخاصة. اما فى انكلترا فالترتيب الاجتماعى يختلف كل الاختلاف عما فى جميع الممالك الاخرى على اختلاف انظمتها الاجتماعية والسياسية. فيمكن حصر الطبقات الاجتماعية فى انكلترا بثلاثة صنوف وهى الصنوف العليا(The Upper Classes) والصنوف الوسطى (The Middle Classes) والصنوف الدنيا (The Lower Classes) ولا يمكن مقارنة هذه الصنوف مقارنة دقيقة بالطبقات التى اشرنا اليها بالنظر الى التباين والتداخل الذى بين الصنوف الانكليزية من جهة وبين الطبقات الاجتماعية التى فى المجتمعات الاوربية الباقية من الجهة الاخرى.

الطبقات الاجتماعية الانكليزية

تضم الصنوف العليا الانكليزية ما يعبر عنه بطبقة النبلاء (Nobility) او بالطبقة الارستقراطية والتى كثيرا ما تسمى بـ(العشرة آلاف العليا)

الصنوف العليا

الادعاء. ولو ان الاسهاب فى هذا البحث قد يخرج عن نطاق الكتاب. ان النظام الشيوعى، نظريا، لا يعترف بالنظام الطبقى ضمن الهيئة الاجتماعية ولكن هذا النظام وهو بحاله الحاضر يختلف بكثير من النواحى عما كان قبلا وعما فرضه واضعوه امثال ماركس وانجلس، ولنين. فكثير من الاسس والمبادىء التى قام عليها النظام الشيوعى قد طرأ عليها الان تغير جوهرى حتى ان بعضها قد تغير تغيرا اساسيا. ومن جملتها نظام الطبقات. فقد لاحظ المستر جوزيف ديفيس السفير الاميركى فى موسكو فى كتابه «بعثة لموسكو» (Mission to Moscow by J.F. Davies) «ان مبدأ الهيئة الاجتماعية الحالية من الصنوف والطبقات قد ابيد وهو يباد الان فعلا من الوجهة العملية فى الاتحاد السوفياتى. فالحكومة نفسها هى ادارة فيها جميع علائم النظام الطبقى لما لها من امتيازات خاصة ومستوى عال فى المعيشة وما شاكل. ومما يؤيد ذلك ان (الكافيار) هنا لا يقدم الا الى كبار موظفى الحكومة وفى مطعم الكرملين. وفى الهيئة الاجتماعية السوفيتية من اعلاها الى ادناها يلاحظ المرء مظاهر النظام الطبقى. وان العضوية فى الحزب الشيوعى بحد ذاتها تكون صنفا مستقلا يتمتع بامتيازات خاصة. وفى الصناعة ايضا قد أوجدت الصنوف والطبقات بين العمال وهى تتقوى بصورة دائمة، وذلك من جراء نظام منح الاجور العالية للعمال الذين ينتجون اكثر من غيرهم ويقومون باعمال بصورة اكفأ، (نظام الاستاكانوفايت). وهذا بدوره قد ادى الى ارتفاع مستوى المعيشة لبعض العمال وان الشعور بوجود النظام الطبقى ظاهر فى احوال المعيشة والسكنى وبما تبديه زوجات هؤلاء العمال من شعور». ويضيف المستر ديفيس «ان الصنوف او الطبقات ما هى الا اصطلاحات لتعريف فكرة من الافكار وان اساسها هو وجود فئات متباينة من البشر تمتاز بعضها عن بعض. وكما يظهر فان الفروق الاساسية البينة موجودة فى مستوى المعيشة عند

(The Upper Ten Thousand) ومفهومهـــا هو نفس مفهوم اصطـــلاح (Society) واذا اردنا الدقة فى التعبير جاز لنا القول بان الصنوف العليا لا تشمل الطبقة الارستقراطية فقط بل ربما تعدتها الى بعض عناصر الطبقات الوسطى فانه ولو كان هناك حد فاصل بين الصنوف العليا والوسطى ففى الواقع يصعب التمييز بين من يمت الى احد الصنفين بسهولة. فكثيرا ما يتوهم الاجانب ان الفرق بين شخص من افراد الصنوف الوسطى واخر من افراد الصنوف العليا هو بما يحمله كل منهما من القاب. والحال ان الالقاب لا تقرر باى حال من الاحوال المقام الاجتماعى للشخص. والرجل الذى يحمل لقب (سير) او السيدة التى تحمل لقب (ليدى) لا يعتبران حتما من الطبقة الارستقراطية لمجرد تسميتهما بهذا اللقب. وفى الوقت ذاته نرى كثيرا من

مم تتكون الصنوف العليا

مختلف الهيئات وكذلك فى الامتيازات الخاصة التى تتمتع بها البعض منها. ومما لا شك فيه ان نظام هذه البلاد (اى روسية السوفيتية) هو نظام طبقى وفيه بذور النفع الذاتى الذى ينتجه مثل ذلك الوضع» (ص ٨٩).

وجاء فى محل اخر من الكتاب نفسه (ص ٢٥٧) ان الخلاف بين العمال والفلاحين هو مصدر دائم للمنافسة بينهما وهو مثقل بنتائج سياسية ذات مغزى بعيد. وهذا يصدق بصورة خاصة فى البلاد التى يمتص فيها صنف دم الصنف الاخر بصورة دائمة. وجاء فى محل اخر (ص ٥٤) : ان للصنف الحاكم قصورا ريفية فخمة تدعى (Dacha) ذات موقع جذاب ومؤثثة بافخر الاثاث واجذبها ولهم سياراتهم الخاصة ويتمتعون بجميع اسباب النعيم. وقال فى محل اخر (ص ٥٨) (لاحظنا وجود مخازن عديدة لبيع الورود والعطريات. ان هذا المظهر هو من المظاهر المهمة التى تدل على انحراف الدولة السوفياتية عن المبادىء الشيوعية الماركسية). ثم يضيف قائلا (ان جوهر المبدأ الشيوعى هو انعدام النظام الطبقى من الهيئة الاجتماعية لكن فى هذه المظاهر يوجد باعث قوى لخلق النظام الطبقى). وقال فى محل اخر (ص ٧٧) (فاذا بقى هذا الاتجاه الجديد الذى بموجبه تدفع تعويضات عالية للعمال الذين ينتجون اكثر من غيرهم مستمرا واذا بقيت مستويات المعيشة ترتفع بصورة دائمة فان الهيئة الاجتماعية الحالية من النظام الطبقى ستتلاشى فى الحال من الاتحاد السوفياتى. وبحسب الدرجة الحالية التى يزداد بموجبها التمييز بين الصنوف والارتفاع فى الاجور، ففى وقت قريب جدا ستصبح فى تلك البلاد طبقات وصنوف واضحة جدا ومستندة الى اساس الملكية الفردية). وجاء فى محل اخر (ص ٢٥٨) (وعلى مر الايام وبتحسين احوال المعيشة وبازدياد الفروق والامتيازات بين الاصناف والطبقات ازديادا مطردا، فمن المحتمل ان يثور الشباب على هذه الحقائق الواقعية التى تخالف ما اريد منهم فهمه مما سيقوم المبدأ الشيوعى بتحقيقه).

ابناء الصنوف العليا ومن العوائل. الارستقراطية الحقيقية لا يسمون سوى (مستر) او (مسز) اسوة باى شخص اخر من العوام. فهذه الملابسات والتعقيدات من اهم المشاكل التى يجابهها الاجنبى فى انكلترا فتجعله فى حيرة من امره لتفهم مراكز الافراد الاجتماعية. فليس هناك مقاييس خاصة يمكن الرجوع اليها لمعرفة مقام الشخص ولذلك كثيرا ما يرتكب الاجانب الاخطاء فى آداب المجاملة واصول المعاشرة عند مداخلتهم مع تلك الطبقات، هذه الآداب والاصول التى يحسب لها كل حساب فى المجتمع الانكليزى. اما الفرد الانكليزى فانه يتجنب مثل هذه الهفوات بما له من مقدرة خاصة فى تمييز مراكز الاشخاص عند اتصاله بهم فيمكنه ان يعلم بالغريزة اذا كان الشخص الفلانى ينحدر من الصنوف العليا ام هو من الصنوف الدنيا من دون عناء الاستفسار عن اسمه ولقبه وهويته اذ ان لكل صنف خواصه ومميزاته الخاصة سواء من ناحية الثقافة او المظهر او الكلام او الذوق او ما شاكلها ويسهل على الانكليزى ان يميز بنى قومه بعضهم عن بعض اكثر مما يتمكن الاجنبى من ذلك.

الصنوف العليا ومقارنتها مع طبقة النبلاء

ولو ان الصنوف العليا الانكليزية لها حدودها ومميزاتها الخاصة الا انه لا يمكن اعتبارها صنفا خاصا قائما بذاته مستقلا بنفسه (Caste) منفصلا عن بقية اصناف الهيئة الاجتماعية ويمكن ايضاح قولنا هذا اذا ما قارنا بين الصنوف العليا الانكليزية وبين طبقة النبلاء التى فى فرنسا او ايطاليا او غيرهما من الممالك الاوربية. فهذه الطبقة هى صنف مستقل قائم بذاته تفصله وتميزه عن بقية الصنوف والطبقات حدود احتمى بها وبقى ملازما لها منذ القرون الماضية. فلا يمكن لشخص ما من غير هذه الطبقة ان ينتسب اليها كما ان الفرد الذى ينتمى اليها بالاصل والنسب لا يمكنه التنصل من ذلك الانتساب. وعلى مر السنين والاعوام اخذ نفوذ هذه الطبقة يضعف ويزول. اما الصنوف العليا الانكليزية فهى وان كانت، كما قلنا قبلا، لها حدودها ومميزاتها الخاصة الا انه يسهل الانتساب اليها عن غير طريق النسب والوراثة.

الارستقراطية الانكليزية هى ديمقراطية

فيمكن من هذه الناحية اعتبار الارستقراطية الانكليزية كانها ديمقراطية. ذلك لان هذه الطبقة مفتوحة لجميع الطبقات وليست مقتصرة على عوائل وعناصر

معينة. فهى دائمة التغير والتبدل والتكيف والتطور لما تجره سنويا من العناصر القوية من مختلف طبقات الشعب وذلك اما عن طريق السياسة او الجاه او الثروة او الخدمة العامة او اذا ما امتازت بناحية من النواحى او فازت بتوفيق او نجاح فى حقل من الحقول. والتغير والتبدل هذا لا يقتصر على العناصر التى تضاف الى الصنوف العليا فان صغار ابناء واحفاد ذوى الالقاب يبقون فى عداد العوام (Commoners) اى الذين لا يحملون الالقاب وبذلك اما انهم يخرجون من هذه الطبقة نهائيا واما بطموحهم وجهودهم الشخصية يتوصلون الى بلوغ ما يؤهلهم للانتساب اليها من جديد. فبهذه الطريقة صارت هذه الطبقة تقوى الصنف الحاكم باستمرار وهذا الصنف كما لا يخفى يستمد سلطته وقوته ونفوذه منها. وهنا يبدو مظهر اخر من مظاهر التميز بين الارستقراطية الانكليزية والارستقراطية الاوربية فالاولى لها مركز وشأن سياسى علاوة على ما تتمتع به من المركز الاقتصادى والاجتماعى اما الثانية فانها قد ضحت وسلمت جميع حقوقها السياسية لقاء ضمان مركزها الاقتصادى والاجتماعى وبذلك اصبح تأثيرها فى الشؤون العامة لمملكتها محدودا جدا او يكاد يكون معدوما. كما ان علاقتها بطبقات الشعب الاخرى امست جزئية وغير طبيعية بالنظر الى ما تتصف به من صفات الغرور والعجرفة والغطرسة التى جعلتها منفورة من بقية الطبقات. وبينما تتصف الارستقراطية الاوربية بهذه الصفات نرى الارستقراطية الانكليزية بعكس تلك الصفات. فكثير ما تتصف بتواضعها وبتضحيتها فى سبيل الخدمة العامة وباتصالها المستمر ببقية الطبقات ولو بوجه غير مباشر مما جعلها مقربة اليها اكثر بكثير من قرابة ارستقراطية الدول الاوربية للطبقات الاخرى(١). ومن الوسائل الاخرى التى تزيد

مقارنة بين الارستقراطية الانكليزية والاوربية

---

(١) يزعم البروفسور بروكان الاميركى (D. W. Brogan) فى كتابه المسمى (The English People) ان الشعب البريطانى بما له من امور مشتركة بين جميع طبقاته لا يعرف بعضه بعضا. فالناس يشعرون بحرية اكثر باختلاطهم بالاجانب من اختلاطهم بمواطنيهم الذين يختلفون عنهم بالكلام والعادات والالعاب وما شاكل. وان صعوبة المداخلة بين مختلف الطبقات الاجتماعية ليست مسألة اللهجة الكلامية التى تمتاز بها كل طبقة عن الاخرى وانما سببها التباين فى المظهر والعادات والحركات والتصرفات الشخصية وطريقة التعبير والسهولة او التكلف فى المكالمة الخ. اننى وان كنت اتفق مع الاستاذ ببعض ملاحظاته ولكنى لا اذهب الى المدى الذى ذهب اليه.

فى ديمقراطية الارستقراطية الانكليزية هو الزواج. نعم كانت الارستقراطية الانكليزية فيما مضى تظهر بعض التكلف والصلابة فيما يتعلق بكثير من عاداتها الاجتماعية الا انها وصلت فى السنين التى سبقت الحرب الحالية الى درجة انها حطمت كثيرا من القيود القديمة حتى صار التكلف والصلابة والتعصب تعتبر نقصا فى المجاملة والذوق (Bad Form) فبعدما كانت الطبقة الارستقراطية تبتعد كل الابتعاد عن الزواج من الطبقات الاخرى صارت عادة زواج النبلاء بحسان المسارح او بالسكرتيرات ممن ينتمين الى الطبقات الدنيا من الامور الاعتيادية فبين عشية وضحاها تصبح تلك الفتاة الحسناء التى كانت تكتفى بما تقرؤه فى الصحف او تشاهده فى الشوارع من الابهة الارستقراطية، حلقة مهمة منها. فبينما كانت تتمتع بتصاوير بذخ افراد هذه الطبقة صارت هى نفسها تقوم بالبذخ والظهور. ولم يقتصر الاتصال بين الطبقات المختلفة من الشعب نفسه بل تعداها الى الاتصال بالشعوب الاجنبية. فكم من سيدة اجنبية بزواجها من نبيل انكليزى قد نفذت الى قلب الارستقراطية الانكليزية. واكثر من ذلك انها نفذت الى قلب الصنف الحاكم. فقد تزوج مثلا الفايكونت (آستور) رب عائلة (آستور) الشهيرة بنفوذها السياسى فى انكلترا، بمطلقة اميركية من اهالى (فرجينيا) فاصبحت هذه السيدة من اكبر المتنفذات فى الحياة السياسية والاجتماعية الانكليزية. كما ان اللورد راندولف تشرشل والد المستر تشرشل تزوج من اميركية من اهالى نيويورك تدعى (Jenny Jerome) فاصبحت أما لرئيس وزارة بريطانيا يدير اعظم حرب فى تاريخها. ومن الامثلة القريبة العهد هى (الليدى كيلرن) زوجة السفير البريطانى فى مصر. فالسير مايلز لامبسون لا ينحدر من عائلة من حملة الالقاب ولما منح لقب (بارون) سنة ١٩٤٣ واصبحت زوجته تحمل لقب (ليدى) صارت بحكم ذلك من الطبقة الارستقراطية مع انها ليست اجنبية فحسب ولكن والدها الدكتور (الدوكاستيلانى) كان المشاور الطبى لهيئة القيادة الايطالية العليا عندما كانت دولة الزوج ودولة الزوجة تتحاربان ؟

الارستقراطية فى زمن الحرب

أنى وان كنت بعيدا عن المجتمع البريطانى اثناء هذه الحرب الا اننى اشعر

من تتبعاتى الشخصية ان الطبقة الارستقراطية رجالا ونساء لم ترفع عن مشاركة الشعب فى سرائه وضرائه فلم تقعد عن الخدمة والتضحية فى أى حقل من الحقول العامة. فعملت فى المعامل واستخدمت فى المصالح التى يمكنها ان تؤدى فيها اكبر ما تقدر عليه من الخدمة كما ان ابناءها قد حاربوا فى مختلف ميادين القتال ولم يبد منهم ما يشم منه رائحة التقاعس عن الخدمة العامة متذرعين بما لهم من امتيازات اجتماعية. فعرض كل واحد منهم خدماته للدولة تستفيد منها بحسب مقدرة كل منهم. فذوو المقدرة الممتازة اودعوا اهم المهام الحربية فاللورد (لويس مونتباتن) ابن عم الملك جورج السادس عين لاكبر قيادة حربية فى الامبراطورية وهى قيادة جنوب شرقى آسيا؛ واللورد (لاسلس) ابن اخت الملك جورج حارب واسر فى جبهة ايطاليا وحفيد الدوق ولنكدن قتل فى جبهة صقلية. والماكيز هارتنكتون الابن الاكبر للدوق ديفونشاير حارب ومات فى الحركات العسكرية فى فرنسا ولم يبلغ العقد الثالث من عمره وابن الفايكونت هاليفاكس حارب فى الشرق الاوسط فى سنة ١٩٤١ الخ. . وهذه الامثلة القليلة شواهد على مبلغ اشتراك الطبقات الارستقراطية فى الخدمة العامة ككل فرد من افراد الشعب الآخرين.

ومما تركته الحرب من تأثير فى الطبقة الارستقراطية الانكليزية انها وسعت نطاقها كثيرا بما اضافته اليها من قواد عسكريين وامبريالية ورجال الدبلوماسية والعلم والصناعة وغير هؤلاء. فقد منح الى الآن عشرات من هؤلاء، الالقاب العالية (لوردات) والحبل على الجرار !.

نفوذ الطبقة الارستقراطية

ونفوذ الطبقة الارستقراطية الانكليزية السياسى سواء أكان فى زمن السلم أم فى زمن الحرب نفوذ عظيم لا يشابهه نفوذ الطبقة التى تقابلها فى الممالك الاوربية الاخرى. فمجلس اللوردات هو دار ندوتها ومصدر حيويتها وقد رأينا مبلغ اهمية هذه المؤسسة فى نظام الدولة. ان كبرى العوائل الارستقراطية هم اعضاء طبيعيون فى هذا المجلس وبسبب هذا الامتياز الذى لحقهم عن طريق الوراثة اصبح فى امكانهم التدخل فعلا فى ادارة شؤون المملكة. فصار منهم رؤساء للوزارات وصار منهم وزراء وصار منهم

نواب الملك فى الهند والحكام العامون فى الدومنيونات والسفراء، ولم تتألف لجنة ملكية ولم يوفد وفد لمؤتمر الا وترأسهما واحد منهم.

نفوذها الاقتصادى

وبحكم وراثتهم للقب فانهم يرثون المال ايضا فصاروا يعضدون منزلتهم السياسية والاجتماعية بقوتهم المالية والعكس بالعكس. فترأسوا الشركات والبيوتات المالية والبنوك واصبحوا القوة المسيرة لا فى (وستمنستر) فحسب بل فى (السيتى) ايضا. حتى ان اسماءهم صارت تؤثر فى المواطن وتبعث فى نفسه الثقة بسمعة الشركة او البيت التجارى ان رأى احدا من (اللوردات) فى رياستها او ضمن اعضاء مجلس ادارتها. والمتصلون من العراقيين بالاوساط المالية والاقتصادية الانكليزية يعلمون ان اغلب المؤسسات التجارية التى لها علاقة بالعراق تضم بعض اللوردات. فالمرحوم اللورد كادمن كان رئيسا لشركة النفط العراقية واللورد (كوشن)(Lord Goschen) كان عضوا فى لجنة العملة العراقية واللورد (أينفرفورث) (Lord Inverforth) كان رئيسا لشركة (اندرو وير) ذات العلاقات التجارية الكثيرة فى العراق. وكان اللورد (ريفلستوك) (Lord Revelstoke) رئيسا لشركة بيرنك اخوان التى تولت عقد القرض العراقى فى لندن سنة ١٩٣٧. ومن الدلائل الاخرى على مبلغ نفوذ الطبقة الارستقراطية فى الاوساط المالية ان البنوك الخمسة الكبيرة(The Big Five) وهى اهم البنوك فى انكلترا هى تحت ادارة ابناء هذه الطبقة (١).

الارستقراطية والصحافة

ونفوذ الطبقة الارستقراطية فى (فليت ستريت) (٢) لا يقل عن نفوذها فى (الستى) ان لم يفقه بكثير. ولا يخفى ما للصحافة فى انكلترا من التأثير فى الرأى العام واخيرا فى توجيه السياسة العليا فى البلاد وفى الامبراطورية وفى العالم اجمع. واذا ما علمنا ان اغلب الصحف الانكليزية تحت ادارة اللوردات امكننا ان ندرك اهمية الطبقة الارستقراطية فى البلاد. فجريدة

---

(١) وهى بنك وستمنستر، وبنك ميدلاند، وبنك ناشينال بروفنشيال، وبنك باركليز وبنك لويد.

(٢) هو الشارع الذى يضم الاوساط الصحفية فى لندن.

(الديلى ميل)و(الايفننك نيوز) كان يملكهما اللورد روذرمير و(الديلى سكتش والسنداى تايمس والسنداى كرافيك) يملكها اللورد (كيمسلى) و(الديلى تلغراف والفايننشيال تايمس) يملكهما اللورد (كامروز) و(والديلى اكسبرس والايفننك ستاندارد والسنداى اكسبرس) يملكها اللورد بيفربروك. وبحكم استيلائهم على هذه الصحف المهمة لا يمكن لرئيس وزارة او لوزير ان يبقى بمنصبه يوما واحدا ان لم يكن يتمتع بثقتهم وعطفهم. ولا يمكن لاى مشروع او اصلاح ان يتم اذا هم لم يؤيدوه او على الاقل لم يعارضوه. وبفضل استيلائهم على الصحف صاروا يستميلون او بالاحرى يجذبون ود الطبقات الاخرى واحترامها. فالصحافة الانكليزية تعنى عناية خاصة باخبار هذه الطبقة وشؤونها لاحبا منها بالاعلان عن نفسها او رغبة منها بالمباهاة ولكن لانه يلذ لاغلبية الشعب ماتقراءه عنها. فدعواتهم وحفلاتهم ولباسهم وحركاتهم وسكناتهم وكل ما تنشره الصحف عنهم تطالعه الطبقات الاخرى بلهفة وشوق وعن طيبة خاطر. وبصرف النظر عن بعض العناصر المشمئزة والمشاغبة فان الشعب البريطانى على العموم لا يرى فيما لهذه الطبقة من حقوق وامتيازات ما يغاير العدل الاجتماعى او ينافيه. فبدلا من ان تتولد فى نفوسهم روح الغيرة والحسد ان هم قرأوا فى صحيفة ان اللورد الفلانى او الليدى الفلانية تستعمل هذا النوع من اللباس او ترتاد المجل الفلانى او تستعمل السيارة الفلانية او تشترى حوائجها من المخزن الفلانى فان مجرد ظهور الخبر عن ذلك على صفحات الجرائد كاف لان يكون اكبر اعلان لتلك المحلات حيث يتقاطر الناس عليها اما تقليدا لهم او تشبها بهم، او على الاقل للتمتع بمشاهدة تلك الحاجة او ذلك المحل الذى مدت الطبقة الارستقراطية يدها اليه.

الاصل والثروة عند الانكليز

ان الاصل والثروة هما اهم العوامل التى تقرر مركز الشخص فى الحياة العامة فى انكلترا. فالفرد الانكليزى يحترم الانساب والاحساب احتراما عظيما وذلك لانه بطبيعته يعبد القدم والقديم ويرى قيمة خاصة للشخص او للعائلة ذات المجد القديم فيوليها اعتبارا خاصا وقدرا مرموقا. ومن هذا الاعتبار تستمد الطبقة الارستقراطية قوتها ونفوذها. اما الثروة والثراء فلها

تلك الحرمة وذلك المقام لدى الفرد الانكليزى لانه يعتقد ان ما يملكه الشخص كان نتيجة لنجاحه فى الحياة وعنده لكل نوع من انواع النجاح فى الحياة رعاية خاصة مهما كان نوع ودرجة ذلك النجاح. فان الشخص الذى له دخل وثروة، ولو كانت منزلته العلمية واطئة جدا او كان ذكاؤه اقل كثيرا من غيره، يأتمنه الناس ويثقون به اكثر ممن لهم منزلة علمية معتبرة او ممن لهم ذكاء وقاد. هذه هى احدى شواذ المجتمع البريطانى البارزة. ولذا كان على من يطمح الى الظهور فى المجتمع والوصول الى المراكز العالية فى الحياة العامة، وخاصة السياسية منها، ان يحقق اول شرط لذلك الا وهو الثروة، أذ بخلاف ذلك يعتبر الشخص مجازفا مخاطرا. وقد قيل ان منصة الحكم ومائدة الطعام تمشيان يدا بيد فى انكلترا؛ للدلالة على ان من يريد بلوغ الحكم عليه ان يسير عن طريق البذخ واقامة الحفلات والولائم. ولا يمكن لمن يقل وارده السنوى الصافى عن خمسة الاف باون ان يتجاسر على ولوج ابواب الطبقات العليا او الانتساب اليها. والوارد السنوى وحده لا يكفى لتحقيق هذه الغاية ان لم يحسن الشخص استعماله فى المرافق الصحيحة كاقامة الحفلات أو حضورها وتقديم الهدايا أو الظهور بالمظهر الخلاب. وبلد غنى مثل انكلترا وامبراطوريتها تنمو فيه الثروة والارستقراطية نموا غريبا. فاولئك الذين يثرون فى الهند او بالمتاجرة مع الدومنيونات او عن طريق الصناعة والاعمال الصيرفية او التملك والى حد ما عن طريق الزراعة، اصبح بامكانهم بلوغ صفوف الطبقات العليا وشراء الالقاب بكل سهولة. ولا اقصد بشراء الالقاب ما كان جاريا على عهد الامبراطورية العثمانية عندما كانت السلاطين تبيع الالقاب باسعار محدودة. (١) اذ ان ذلك محرم قانونا فى انكلترا فنص القانون المرعى الآن (٢) على معاقبة «من يقدم او يهب او يأخذ او يطلب» اى مبلغ او هدية لغرض الاغراء للحصول على لقب ما.

---

(١) يروى عن الملك جيمس الاول انه لما كان بحاجة الى المال باع مائتى لقب (بارونيت) بسعر مائة باون للقب الواحد وان الملك شارل الاول اصر على منح لقب (سير) على بعض الناس لغرض استيفاء الرسوم منهم.

(٢) صدر هذا القرار من البرلمان سنة ١٩٢٥ على اثر تحقيق قامت به لجنة ملكية حول شراء الالقاب لقاء دراهم.

نفوذ الطبقة الارستقراطية الاجتماعى والسياسى

كنا قد بينا تأثير الطبقة الارستقراطية الانكليزية فى الصنف الحاكم وقلنا انها هى منه وهو منها. فالحكومة فى انكلترا ومناصب الدولة والامبراطورية العالية محصورة بافراد هذا الصنف السياسى ـ الاجتماعى (Socio-Political Class) الذى احتكر تلك المناصب لنفسه. ومع تغير الاحزاب وتنقل السلطة بين حزب المحافظين والاحرار والعمال نرى ان هذا الانحصار للمناصب الخطيرة لم يتغير تغيرا محسوسا. وبالعكس فقد رأينا حزب العمال عندما بلغ الحكم لم يتمكن من مقاومة هذا التيار فاضطر زعماؤه الحقيقيون امثال (رمزى ماكدونالد) و(سيدنى ويب)و(فيليب سنودن) وغيرهم الى الانجراف بتأثير الصنف المذكور. ولم يقتصر الامر على الجيل القائم بل ان هناك تقليدا وطنيا قديما يقضى بان يحل الابن محل ابيه ضمن الصنف المذكور ليتولى منصبه فى الحياة العامة. فنرى كثيرا من الابناء يشغلون مناصب عالية فى الدولة ليس لمقدرتهم وكفايتهم الشخصية بقدر ما لانهم ابناء لاباء سبق لهم ان شغلوا المناصب العامة من قبل. فالوالد يعتنى بتربية ابنه وثقافته لينشأ نشأة خاصة تمكنه من ان يحل محله. والامثلة على ذلك كثيرة جدا منها: وليم بيت ووالده (الارل اوف جاتام)، جوزيف تشمبرلين وولداه اوستن ونفيل، عائلة داربى الشهيرة، عائلة تشرشل، عائلة ديفنشاير، رامزى ماكدونالد وابنه مالكولم، لويد جورج وابنه كويليم، اللورد سالسبورى وابنه كرانبون وبونار لو وولده ريشارد وكثيرون غيرهم. هذا ما يتعلق بالمناصب العالية على ان القاعدة عينها تطبق حتى فى حالة العضوية فى مجلس العموم فكم ممن انتخبوا نوابا كان انتخابهم بسبب ان والدهم كان عضوا فى المجلس فيما مضى. ومما يساعد على ذلك روح المحافظة فى الفرد الانكليزى، فهو يصوت لهذا المرشح دون ذاك لانه كان يصوت لوالد ذلك المرشح من قبل.

هل ان انكلترا بلد ديمقراطى

قلنا فى الفصل الاول ان انكلترا هى بلد الغرائب والمتناقضات فقد وصفناها بانها مهد الديمقراطية ثم رأينا كيف انها فى الواقع (بلوتوقراطية) (١) من الطراز الاول. ولكن الديمقراطية ليست نظاما سياسيا فحسب وانما هى نظام اجتماعى او بالاحرى وجهة نظر خاصة تجاه الحياة. فاذا اخذنا

---

(١) البلوتوقراطية هو نظام الحكم الذى يستند الى الثروة.

المعنى الثانى بنظر الاعتبار لا يصح ان تعتبر انكلترا بلادا ديمقراطية. أن أهم عناصر المذهب الديمقراطى هى المساواة ولكن المساواة بمعناها الحقيقى معدومة فى انكلترا والاغرب من ذلك ان الفرد الانكليزى يؤمن بان عدم المساواة بين البشر امر طبيعى وهو لا يرى ضيرا من بقاء نظامه الاجتماعى الحالى وكما قال الاديب الشهير (جسترتون) «ان الانكليزى اقل اهتماما بالمساواة بين البشر من اهتمامه بالفروق التى بين أنواع الخيول». أن النظام الاجتماعى الذى لحمته الثروة وسداه النسب (اى الارستقراطية) هو النظام الوحيد الذى يروق رجل الشارع الانكليزى فهو مادى الى درجة انه لا يأبه لامر المساواة بين طبقات البشر. نعم انه يعبد الحرية وهو يضحى اليوم بالغالى والرخيص فى سبيل الدفاع عن حرياته الاربع ولكن الحرية فى نظره شىء والمساواة شىء آخر ولو انهما فى الحقيقة ركنان اساسيان من اركان الديمقراطية الحديثة. اذن فالتباين بين طبقات الشعب هى حالة يقبلها الانكليزى ويعتبرها جزءا من كيانه الاجتماعى. ومن هذا الاتجاه استمدت الطبقات العليا قوتها وتأكدت من سلامة وجودها ضمن النظام القائم. ولولا التطور والتكيف الذى تبديه هذه الطبقات، ذلك التكيف الذى تستلزمه لوازم التطورات الاجتماعية والتغيرات الزمنية، لما امكنها ان تحافظ على مركزها ومقامها ولاصبحت دائما أثرا من الاثار القديمة البالية كما هو الحال فى بقية الممالك الاوربية. فلو تمسكت الارستقراطية الانكليزية بحقوقها وامتيازاتها تمسكا شديدا لوجدت نفسها اقرب شبها بالارستقراطية الاوربية التى تمسكت بحقوقها وامتيازاتها تمسكا صارما فاضاعت من جراء ذلك المقدرة على التكيف والمماشاة مع مقتضيات العصر ووجدت نفسها فى معزل عن بقية الشعب. نعم ان للارستقراطية الانكليزية حقوقا وامتيازات واسعة جدا فلو انها استعملتها على رقاب طبقات الشعب الاخرى لاصطدمت بها ولكان الفوز للثانية حتما، ولكن هذا الاصطدام لم يحصل وذلك بنتيجة الادراك والحكمة التى ابدتها الطبقات الارستقراطية. فقد قبلت بدفع الضرائب الهائلة على ممتلكاتها ودخلها كما انها اذعنت الى قبول التشاريع التى اضعفت كثيرا من اوضاعها الاقتصادية كما هو الحال فى التشريع الخاص بضريبة الارث. وفى

فترة الانتقال الحالية نراها تقبل بكثير من التضحيات عن طيبة خاطر فسمحت للدولة ان تضع اليد على كثير من المشاريع ذات الملكية الخاصة. فالبنوك الكبيرة قد ارتبطت بمعاملاتها التجارية الكبيرة كالقروض وما شاكل بـ(بنك انكلترا) والسكك الحديدية التي هي ملك لشركات خاصة صارت تدار من قبل الحكومة مباشرة؛ والمعامل لا تنتج الا ما تريده الحكومة للاغراض الحربية. ومن المؤكد ان كثيرا من هذه التضحيات التي اقتضتها ظروف الحرب ستبقى الى ما بعد الحرب. كما انها صارت تقدم من تلقاء نفسها كثيرا من ممتلكاتها التي كانت تعتز بها والتي للطبقات الاخرى من الشعب اهتمام خاص بها كما يشاهد مما يقدم الان الى مؤسسة (الناشنال تراست) من القصور القديمة والمقاطعات الواسعة لغرض انتفاع جميع الطبقات وتمتعها بها.

امتيازات الطبقة الارستقراطية

وعدا ما تطرقنا اليه من حقوق الطبقة الارستقراطية وامتيازاتها وخاصة طبقة اللوردات منهم، فان لهم امتيازات اخرى منها ما هى ابعد مما يجب ان توجد فى مجتمع راق حديث مثل المجتمع البريطاني. فبعضهم كما قلنا اعضاء طبيعيون فى مجلس اللوردات ولهم حرية الكلام التامة ويتمتعون بالصيانة البرلمانية وزيادة على ذلك فانهم مصونون من الحضور حتى امام المحاكم الاعتيادية. فان اراد اللورد ان يستعمل حقه القانوني فله ان يمتنع عن الحضور امام المحكمة عن اية جريمة يتهم بها وفى هذه الحالة فانه يحاكم من قبل زملائه اعضاء مجلس اللوردات ولكن جرى تفسير القانون المرعى بهذا الشأن بشكل ان اللورد المتهم بجريمة الخيانة او الـ (Felony) يحاكمه مجلس اللوردات والمتهم بالجنح تحاكمه المحاكم الاعتيادية. ولكن القضايا من النوع الاول قليلة جدا واخرها كان قبل اكثر من اربعين سنة عندما حوكم اللورد (راسل) عن تهمة تعدد الزوجات. واذا ما حكم على لورد بالاعدام فمن حقوقه القديمة ان يشنق بحبل من حرير. فحقوقهم اذن تبدأ من يوم ولادتهم ولا تنتهى الا بعد وفاتهم. وهناك بعض الحقوق الاخرى المتعلقة بالقدم، وسنأتى على تفصيلها بعد قليل. ولهم كذلك حقوق الاشتراك بالمناقشات والتصويت فى مجلس اللوردات ولكن بالرغم من هذه الحقوق الاستثنائية فان بعض حقوقهم المدنية قد بترت من بقية المواطنين منها

انهم ممنوعون عن التصويت فى الانتخابات او من عضوية مجلس العموم(١).

الارستقراطية والنظام الملكى

وهناك عامل اخر له اثره الكبير فى تقويه الارستقراطية الانكليزية ذلك هو النظام الملكى. فالنظام الملكى فى انكلترا له قوته الخاصة ونفوذه الشديد ليس على الطبقات العليا فحسب بل على جميع الشعب البريطانى قاطبة وان اضطرت جميع الشعوب الى نبذ النظام الملكى فمن المؤكد ان الشعب البريطانى سيكون اخرها. والعرش والارستقراطية شيئان متداخلان تداخلا كليا فالواحد منهما يعضد الاخر ويسنده. فالارستقراطية متعلقة تعلقا عظيما بصاحب العرش وتعتبره نصيرها وملاذها وحامى حماها الوحيد وفى الوقت عينه فان الملك يعتبر الارستقراطية اهم دعامة يستند اليها عرشه. فهى التى تقرر كيفية تصرفاته، وهى التى ترسم له طريقة حياته الخاصة، وهى التى تعين العناصر والاوساط التى يجب ان تحيط به والآراء والافكار التى يجب ان يسمعها او يعتنقها واذا لم يذعن الملك الى هذه اللوازم فانه يرى طريق حكمه مملوءا بالاشواك. لقد كانت الملكة فكتوريا اكثر الملوك ادراكا لهذه اللوازم التى راعتها مراعاة دقيقة وكذلك كان ولدها ادورد السابع. اما المرحوم الملك جورج الخامس فعلى الرغم مما كان يتمتع به من احترام الشعب بوجه عام فان الطبقة الارستقراطية لم تعتبره انيقا او شيقا وقالت عن اذواقه انها اقرب الى الاذواق الشعبية منها الى الاذواق الملكية. اما ابنه ادورد الثامن فكان اول ملوك الانكليز فى العصر الحاضر من الذين خرجوا على الحدود المرسومة التى تقضى بان البلاط الملكى يجب الا يكون رسميا اكثر من الحد الذى تستسيغه هذه الطبقة ولا شعبيا بدرجة لا تأتلف وتقاليدها وعاداتها. او ان الملك يجب ان يدرك ان الغطرسة والعجرفة يجب ان تكون ابعد الصفات عنه والا يحاول التميز والانحياز الى عائلة او بيئة دون اخرى، فاذا ما دققنا مركز الملك ادورد الثامن ضمن هذه الحدود رأيناه من غير الطراز الذى تستسيغه هذه الطبقة. فكان الرجل لا يطيق التقيد بالقيود التى فرضتها عليه كما انه بعزوبته جعل البلاط الانكليزى ناشفا بالنظر الى ان

(١) رب العائلة من اللوردات هو الممنوع من عضوية مجلس العموم.

الملكة هى التى تزيد فى جلاله وبهجته. ثم ان علاقته بـ (المسز سيمسن) ومخالفتها للمثل الاخلاقية التى ترتضيها هذه الطبقة قد زادت فى النفرة بينها وبين العرش حتى صارت تجاهر بان الملك (لم يحسن انتقاء اصدقائه) الامر الذى ادى فى النتيجة الى تنحيه عن عرشه غير آسف عليه. والملك جورج السادس اكثر ملوك القرن الحاضر رضوخا للتقاليد واكثرهم حرصا على تنفيذ اللوازم التى تتطلبها الملكية. وان الطبقة الارستقراطية لقاء ما تتمتع به من لطفه وعطفه اصبحت اكثر اخلاصا وتعلقا لا بشخصه وبملكته وابنتيهما فحسب بل بكل فرد من افراد العائلة المالكة مهما بعدت قرابته منها. وقد زادت الحرب هذا الاخلاص لما شاهد الشعب بوجه عام من الملك وعائلته من روح الخدمة والتضحية فى سبيل الصالح العام.

مساوىء النظام الطبقى الانكليزى

قد يظن القارىء اننى بهذا الاطناب والتفصيل عن حياة هذه الطبقة ونفوذها وحقوقها اؤيد النظام الطبقى السائد فى انكلترا تأييدا مطلقا دون ما قيد او شرط او انى لا اجد فيه غضاضة او جورا او خروجا على ما يقتضيه العدل الاجتماعى او ما تحتمه مقتضيات العصر. فبقدر ما لهذه الطبقة من محاسن ومظاهر خلابة فان فيها من السيئات والنواقص التى منها ما هو مناف للعدل ومنها ما هو مخالف للمنطق والذوق ومنها ما هو خارج عن ابسط المبادىء الديمقراطية الصحيحة.

ففى الدرجة الاولى ان الاساس الذى بنيت عليه الارستقراطية الانكليزية هو اساس غريب يمجه الذوق وتأباه الانسانية. يولد الفرد فتولد معه حقوق وامتيازات مفرطة ثم لا يلبث ان يجد نفسه، بعد ما يرث اللقب من ابيه، متمتعا بهذه الحقوق والامتيازات التى لا تقتصر على التمتع بالجاه والثروة وانما تتعداه الى التمتع بالمركز السياسى. فحالما يبلغ سن الرشد[١] يجد نفسه عضوا فى اقدم مجلس تشريعى فى العالم فيشترك فى اعداد تشريعات البلاد ورسم سياستها العليا من دون ان يكابد الطرق الاعتيادية التى يسلكها من يطمح فى الاشتغال فى سياسة بلده. فهل هذا بالله عليكم،

(١) اى الحادية والعشرين من عمره.

من الديمقراطية فى شيء؟. وهل يحق للانكليز ان يتفاخروا بانهم اعرق الشعوب فى الديمقراطية ؟.

قانون الارشدية

ان وراثة هذه الحقوق والامتيازات بما فيها وراثة اللقب، تابعة لقانون خاص هو اقرب الى السخافة منه الى الغرابة. وهذا القانون يسمى بقانون الارشدية (Law of Primogeniture) وهو قانون كان مرعيا فى اوربا فى القرون الوسطى الا انه اهمل الان واصبح اثرا بعد عين ولكنه بقى مرعى الاجراء فى انكلترا وهو يطبق خاصة فى وراثة العرش والالقاب وفى تسوية التركات العائلية. وهذا القانون يخول الابن الاكبر ان يكون هو الوارث الوحيد والمطلق لما يخلفه المورث. فاللقب له، والمال له، والجاه له، وكل ممتلكات العائلة له يتصرف بها كيفما يشاء اما اخوانه واخواته فلا شيء لهم قانونا سوى ما يتلطف به هو عليهم ولذا فالكبير يعيش فى بحبوحة من العيش والرخاء فيميل الى حياة الكسل والخمول او يحول تلك الحياة الى حياة البذخ والانس والحبور. اما اخوانه الصغار فعندما يرون ان الحق والعدل قد قضى بحرمانهم من ارث آبائهم فانهم يهيمون على وجه الارض طلبا للرزق والعلى ولذلك كان اكثر نوابغ بريطانيا وبناة مجدها من اولئك الابناء.

العجرفة والغطرسة

وهناك وجه اخر لانتقاد هذه الطبقة. فان بعض الاوساط قد جعل المال والنسب حاجزا منيعا بينها وبين بقية طبقات الشعب حتى اصبح الاتصال مهما كان نوعه معدوما فى بعض الاحيان مما ولد شيئا من النفرة والتباعد وجعل الشق واسعا بين طبقات الشعب الواحد. وهناك ما يسمى بالعجرفة او الغطرسة (Snobbery) فان اكثر ابناء الطبقات العليا مبتلون بما يعبر عنه بشعور التفوق على الغير وهم يتظاهرون بآرائهم كانهم واثقون حقا من ذلك التفوق. فهم يفضلون الاختلاط بابناء طبقتهم دون الاخرين وهم يحرصون على اتباع ما اقروه لهم من نظم الحياة والمعيشة والدراسة والمأكل والمسكن والمشرب وما شاكلها. فقد حصرت تهذيب ابنائها بالمدارس الخاصة امثال ايتون وهارو وراكبى ووينجستر وغيرها، وبالجامعتين القديمتين اوكسفورد وكمبردج. وقد حصرت سكناها مثلا بمحلات معينة من محلات لندن وجعلت السكنى فيها لا تتيسر لغيرها من الطبقات بما تكلفه السكنى من اجور باهظة

فلا يمكن لغير العوائل الارستقراطية ان تتحمل الايجارات فى محلات مثل (بيلكريف Belgravia) او (ايتون بليس (Eton Place) او (مى فير (May Fair) أو(كنسنكتون باليس كاردن) (Kensington Palace Garden).
ثم ان شعور التفوق والتميز عن الغير يحمل ابناء هذه الطبقة على اقتناء سيارات (رولز رويز) مثلا دون غيرها، وذلك الشعور عينه يحملها على دفع ثلاثة اضعاف ما يدفع لخياطة بدلة اعتيادية لانها صنعت على يد خياطى شارع (سافيل رو)، او ما يدفع لشراء برنيطة لانها تباع فى مخزن (لوك)(Lock) او لشراء شراب لانه يباع فى محل (برى) (Berry) او لابتياع تبغ لانه يباع فى محل (فرايبرغ اندتريار)(Fribourg and Treyer) او لشراء الفواكه لانها تباع فى محل (فورتنام اند ميسون) (Fortnum and Mason) وربما كانت الحوائج التى تشترى من دكاكين شارع (سانت جيمس) او (بوند ستريت) هى بنفس الجودة التى تتصف بها الحوائج المعروضة فى اى محل اخر من محلات (الوست اند) ولكن مجرد دفع القيمة الباهظة او الشعور بانها مشتراة من محلات خاصة بهم هو الذى يطمن انفسهم.

ثم ان التكلف فى الكلام وخاصة التبجح باللهجة الارستقراطية الخاصة التى يعتبرها كثير من الناس لهجة ممقوتة من العوامل المهمة التى تميز هذه الطبقات عن غيرها وتجعل بعض طبقات الشعب الاخرى لا تهوى الاختلاط بها والتقرب منها.

طبقة النبلاء العليا

ان الصنوف العليا التى نحن بصددها يمكن تقسيمها بوجه عام الى صنفين :ـ الصنف الاول يشمل ما يسمى بطبقة النبلاء العليا (Higher Nobility) والصنف الثانى يشمل ما يسمى بطبقة النبلاء الصغرى (Lesser Nobility). فنبلاء الطبقة الاولى على خمس مراتب وهى : اولا مرتبة الدوق والدوقة (Dukes and Duchesses) وثانيا مرتبة الماركيز والماركيزة (Marquesses and Marchionesses) وثالثا مرتبة الارل والكونتة (Earls and Countesses) ورابعا مرتبة الفايكونت والفايكونتة (Viscounts and Viscountesses) وخامسا واخيرا مرتبة البارون والبارونة (Barons and Baronesses)

مرتبة الدوق

ان مرتبة الدوق هى اعلى المراتب قاطبة وهى ليست خاصة بالنظام الطبقى الانكليزى وانما توجد فى جميع الممالك الاوربية وهى من اقدم مراتب النبلاء ويرجع تاريخ احداثها الى سنة ١٣٣٧ حتى ان دزرائيلى لما فكر فى الغاء الالقاب اراد استثناء مرتبة الدوقية من ذلك فقال ان بقاءها ضرورى جدا بالنظر الى ما كان يتمتع به ذووها من المنزلة السياسية فى البلاد عدا ما لهم من ثروة عظيمة. ولثروتهم هذه اعتبار خاص لانها تعتبر من تراث اسلاف صالحين.

الامراء

وحملة لقب الدوق على نوعين. النوع الاول هم الامراء الذين ينتمون الى العائلة المالكة والنوع الثانى من غير البيت المالك. فالامراء لا يعتبرون من طبقة النبلاء(Peers) بصفة كونهم امراء ولكن لان كل واحد منهم يحمل لقب دوق. فقد جرت العادة ان يمنح الملك لقب الدوقية الى ابنائه واخوانه واعمامه واخواله او الى من يشاء من اقربائه. فأبنه الكبير يمنح عادة لقب (دوق كورنوال)(Duke of Cornwall) ولكنه فى الوقت ذاته هو (برنس اوف ويلز) فهو من طبقة النبلاء لانه (دوق) لا لانه امير او ولى للعهد. وان كان للملك ابن ثان فيمنح لقب (دوق يورك) وان كان له اولاد اخرون فكل منهم يمنح لقب دوق كما هو الحال مع ابناء الملك جورج الخامس واخوان الملك جورج السادس وهم الدوق كلوستر والمرحوم دوق كنت. ولما تنازل الملك ادورد الثامن عن العرش منحه اخوه الملك جورج السادس لقب دوق وندسور وهى دوقية جديدة احدثت خصيصا له. وهذه الدوقيات الملكية موروثة فاذا مات الوالد وكان له وارث ذكر انتقل له اللقب فعند وفاة الدوق كونوت (Duke of Connaught) وهو البرنس آرثر الابن السابع للملكة فكتوريا انتقل اللقب الى حفيده ولما قتل الدوق كنت فى حادث اصطدام طيارته انتقل اللقب الى طفله البرنس ادورد. هذا فيما يتعلق بالذكور اما الاناث فمن تتزوج منهن تحمل لقب زوجها ومن لم تتزوج تحمل لقب اميرة (Princess) فقط. اما حقوقهن فى ولاية العهد فهى حقوق الذكور عينها فالابنة الكبيرة للملك هى ولية العهد ان لم يكن له وارث ذكر. وتصبح ملكة عند بلوغها سن الرشد ان لم يلد للملك ولد قبل ذلك التاريخ. ان كل دوق

من العائلة المالكة هو حامل وسام الساق ووسام الشوكة وهو ايضا عضو طبيعي في المجلس الخاص. وعنوانه : صاحب السمو الملكي دوق كذا وكذا ويخاطب بكلمة «مولاي» او بجملة (عسى ان يسر سموكم الملكي) (May it Please your Royal Highness)

الدوقيات من غير العائلة المالكة

والنوع الثاني من الدوقيات هي الدوقيات التي ليست من العائلة المالكة ويبلغ عددها الان (سنة ١٩٤٤) ثمانية وعشرين، اقدمها دوقية نورفوك (Dukedom of Norfolk) ولهذا فان دوق نورفوك بحقه المكتسب هو الدوق الاول في انكلترا (Premier Duke and Earl) وهو يتقدم على جميع زملائه من حملة الالقاب. ان عنوان الدوق من هذا النوع هو «عطوفة الدوق كذا» وهو يخاطب بجملة «مولاي الدوق» (My Lord Duke) او «عطوفتكم» (Your Grace). ان الاصول والمجاملات المقررة لعنوان ذوي الالقاب او عند مخاطبتهم هي من اهم ما تجب مراعاتها في انكلترا فالدقة والضبط فيها ضروريان جدا والسهو او الاغفال في استعمال العنوان الصحيح او المخاطبة الصحيحة لا يمكن ان يغتفر فيجب على من له اتصال باصحاب الالقاب ان يتقن اصول مخاطبتهم اتقانا تاما سواء في المخاطبات الشفوية او في المراسلات التحريرية.

ان قضايا الالقاب وطريقة حملها ونظم وراثتها واصول توجيهها من اعقد القضايا ويصعب جدا ان يحاط بها الا بعد درس دقيق. فان الابن الاكبر للدوق ووريثه يحمل، من باب المجاملة لا من باب الحق المكتسب، لقب المرتبة التي تلي مرتبة الدوق اي لقب الماركيز. اما بقية الابناء والبنات فيحملون لقب لورد وليدي فقط مثال ذلك أن الابن الاكبر للدوق (ديفونشاير) التاسع يحمل لقب ماركيز هارتنكتون وعند وفاة والده يتغير لقبه من ماركيز هارتنكتون ويصبح دوق ديفنشاير العاشر (١). ولهذا الدوق ولدان وثلاث بنات فكل واحد من الاولاد يحمل، من باب المجاملة ايضا، لقب (لورد) والبنات لقب (ليدي).

مرتبة الماركيز

والمرتبة الثانية بعد مرتبة الدوق هي مرتبة الماركيز واتخاذ هذا اللقب

(١) توفي الابن قبل الاب بعد كتابة هذه السطور.

مرتبة من مراتب النبلاء يرجع الى ايام الملك ريشارد الثانى. فالماركيز هو
الضابط المسؤول عن محافظة حدود المملكة اى انها كانت وظيفة من وظائف
الدولة لا مرتبة من مراتب النبلاء. اما القاعدة المتبعة فى وراثتها فهى القاعدة
المتبعة فى حالة وراثة مرتبة الدوق اى ان الابن الاكبر للماركيز يحمل
اللقب الثانى للقب والده اى لقب (ايرل) اما بقية البنات والبنين فيحملون
لقب لورد وليدى. ان زوجة الماركيز هى ماركيزة واذا ما توفى بعلها وانتقل
اللقب الى ابنها الاكبر تضيف حينئذ كلمة ارملة (Dowager) الى اسمها
ولقبها وذلك للتميز بينها وبين كنتها. ان كلمة (دوويجر) لا تستعمل مع
جميع زوجات اصحاب المراتب بل فى حالة الدوق والماركيز وكذلك فى
حالة الملكة الارملة. اما عنوان الماركيز فهو «صاحب المقام النبيل الماركيز كذا
وكذا» (The Most Honourable) وهو يخاطب بـ«سيدى الماركيز»
(My Lord Marquess) وزوجته بـ«سيدتى الماركيزة»(My Lady Marchioness)
ولنوضح ذلك بمثال : فنأخذ (الماركيز لينليثكو) الذى كان نائبا للملك فى
الهند الى ما قبل بضعة اشهر. فهو الماركيز لينليثكو الثانى وكان اسمه قبل
ان يرث اللقب من والده (فكتور الكسندر جون هوب) ان ابنه الكبير ووريثه
هو الارل هوبتون (Earl of Hopetoun) الذى بوفاة والده سيصبح ماركيز
لينليثكو الثالث. وان جميع اخوان الابن الكبير واخواته يحملون لقب (لورد)
و (ليدى) فقط.

مرتبة الارل

والمرتبة الثالثة هى مرتبة الارل وهذه المرتبة من اقدم مراتب الشرف
الانكليزية وهى تقابل لقب الكونت المستعمل فى اوربا ولذا فان زوجة الارل
تسمى بالكونتيس (Countess) وهو نفس الاسم المستعمل فى اوربا. ان
عنوان الارل هو : «صاحب النبل الارل كذا وكذا»(The Right Honourable)
ويخاطب بـ«سيدى اللورد» (My Lord) ويلاحظ ان عنوان الارل يختلف
عن عنوان الماركيز والدوق وهو يشبه عنوان وزراء الدولة. ان الابن الاكبر
للارل يحمل اللقب الثانى لوالده أى لقب الفايكونت وذلك من باب المجاملة
ايضا اما الابناء فلا يحملون اى لقب كان اى انهم ليسوا (لوردات) كما هو
الحال مع ابناء الدوق والماركيز فهم يخاطبون بكلمة «النبيل فلان» فقط.

(The Honourable So and So) اما البنات فتضاف الى اسمائهن لقب (ليدى).
وعنوان زوجة الارل هو «صاحبة النبل الكونتة فلانة» (The Right Honouble Countess So ond So) وهى تخاطب بكلمة (مدام (Madam) او (سيدتى).
ولنوضح ذلك باللورد داربى : ان الاسم العائلى للورد داربى هو (ستانلى) ومرتبته هى (ارل) وهو الارل السابع عشر. فكان اسمه قبل وراثة اللقب (ادورد) ستانلى وبعد ان ورث اللقب واصبح الارل السابع عشر اختار (لقب داربى) فاصبح الارل داربى السابع عشر. ان اسماء اخوانه وابنائه هى (ستانلى) فالابن الاكبر والوريث هو اللورد ستانلى والصغير هو النبيل (اوليفر ستانلى) وهو وزير المستعمرات فى الوزارة الحالية. وبعد وفاة الارل داربى يرث اللقب اللورد ستانلى الذى يصبح حينئذ الارل داربى الثامن عشر. اما اخوه الصغير اوليفر ستانلى فيبقى اسمه كما كان قبلا.

مرتبة الفايكونت

والمرتبة الرابعة هى مرتبة الفايكونت وبالاساس اوجد هذا اللقب بدلا من لقب الكونت او الارل. وهذه المرتبة تختلف عن المراتب السابقة فيما يتعلق بلقب الابن الاكبر. فقد ذكرنا ان الابن الاكبر للماركيز والارل يحمل، من باب المجاملة، اللقب الثانى لوالده اما الابن الاكبر للفايكونت فلا لقب له لا من قبيل المجاملة ولا من قبيل الاستحقاق. فالبنين والبنات على السواء يلقبون «بالنبيل كذا او النبيلة كذا». اما حامل اللقب نفسه وكذلك زوجته فيدعون «بصاحب المقام النبيل الفايكونت كذا وكذا» ويخاطب الفايكونت بكلمة «سيدى» وزوجته بكلمة مدام. ولنوضح ذلك باللورد هاليفاكس السفير البريطانى الحالى فى واشنطن. فالاسم العائلى هو (وود) (Wood) وكان اسم اللورد هاليفاكس قبل ان يصبح لوردا (ادورد وود). أن اللورد هاليفاكس هو احد أبناء الفايكونت هاليفاكس الثانى ولكنه ليس الابن الاكبر ولذلك فانه لم يرث اللقب بعد وفاة ابيه وعندما أنعم عليه بمرتبة (بارون) قبل تعيينه نائبا للملك فى الهند سنة ١٩٢٥ اختار لقب (ايروين) فاصبح اسمه (اللورد ايروين) ثم لما رفع اللقب الى مرتبة فايكونت اختار لقب العائلة فاصبح الفايكونت هاليفاكس ولما رفع اللقب مرة اخرى سنة ١٩٤٤ مكافاة نجاحه فى سفارة واشنطن الى درجة (ارل) احتفظ بلقب العائلة فاصبح

(الارل هاليفاكس) اما اولاده فقبل ان يصبح والدهم (ارل) كان كل واحد منهم يسمى (النبيل وود) (The Honourable Wood) ولكن لما بلغ والدهم مرتبة الارل اصبح من حق ابنه الكبير (جارلس وود) ان يحمل اللقب الثانى لوالده.

مرتبة البارون

والمرتبة الخامسة هى مرتبة البارون وهى اوطأ المراتب، ومعظم اعضاء مجلس اللوردات يحملون هذه المرتبة. ان عنوان البارون هو (The **Right** honourable) ويخاطب (بسيدى) وان جميع اولاده وبناته يحملون كلمة (The honourable) قبل اسمائهم.

لا تنتهى تعقدات النظام الارستقراطى الانكليزى بتعداد مراتب الشرف ومعرفة اصول المخاطبة ونظام وراثة الالقاب وما اليها بل هناك قوانين وعادات وتقاليد اخرى ترتبط بها. فعلى من يمنح مرتبة من مراتب الشرف ان يختار الاسم الذى يفضل ان يدعى به لدى أول منحه تلك المرتبة. فبعضهم يفضل ان يبقى على اسم عائلته اذا كان اسم العائلة مشتهرا فمثلا السير جون سايمن لم يغير اسمه عندما اصبح لوردا. وكذلك اللورد (ويجوود) واللورد صاموئيل واللورد (كينز) لان اسم عائلاتهم معلوم ومشهور. وبعضهم يختار اسم محل ما فى انكلترا له علاقة ما به فمثلا المستر ستانلى بولدوين عندما منح لقب (ارل) اصبح الارل بولدوين اوف بيودلى (Earl Baldwin of Bewedly) وكذلك السير مايلز لامبسون اختار اسم لورد كيلرن اوف كيلرن ومنهم من يختار اسما اجنبيا خارج انكلترا له علاقة به كما هو الحال مع رجال القوات المحاربة. فمثلا (كتشنر) عندما اصبح لوردا اختار اسم (اللورد كتشنر اوف خرطوم)، والجنرال (ويفل) اختار اسم اللورد (ويفل اوف وينجستر وبرقة) فالمحل الاول هو المحل الذى له علاقة داخل انكلترا والمحل الثانى هو المحل الذى كسب فيه انتصاراته العسكرية وكذلك الاميرال (كيز) اختار اسم (اللورد كيز اوف دوفر وزيبروكه (Admiral Keyes of Dover and Zeebrugge) وهو احدى الموانىء البلجيكية.

التباين بين الاسماء

ويحدث كثيرا ان ابناء عائلة واحدة يسمون باسماء مختلفة فيكون من الصعب جدا على الشخص ان يميز قرابة بعضهم من بعض مثال ذلك ان

افراد عائلة هاوارد (Howard) يحملون اسماء مختلفة كل الاختلاف. فكبير العائلة هو كارلايل (Carlisle) ولكن ابنه الاكبر يدعى الفايكونت (موربث) (Viscount Morpeth) واخوانه الصغار يسمون باسماء العائلة اى (النبيل فلان هاوارد) ويحدث احيانا ان احد هؤلاء الابناء الصغار يحصل على لقب لكفاية خاصة فيختار اسما يختلف تماما عن اسم العائلة فمثلا ان الابن الثالث للماركيز (سالسبرى) كان يعرف باللورد (روبرت سسل) ولما منح لقب الفايكونت لكفايته الشخصية اختار له اسم (الفايكونت سسل اوف جيلوود) (١) وهو غير اسم عائلته.

وراثة اللقب عند النساء

ومما يلفت النظر فيما يتعلق بوراثة اللقب ان النساء ولو انهن يرثن القاب آبائهن الا انهن لا يحق لهن الانتساب الى مجلس اللوردات فابنة اللورد الكبيرة هى (ليدى) ولكنها بسبب كونها امرأة ليست عضوة فى مجلس اللوردات وقد حاولت الليدى (Rhondda) فى سنة ١٩٣٠ ان تقر سابقة فى هذا الخصوص فقدمت طلبا الى مجلس اللوردات للانتساب اليه لانها وريثة لقب وصاحبة حق مكتسب فيه ومن حقها ان تصبح عضوة فى هذا المجلس. ولكن اكثرية اعضاء المجلس رفضت قبولها وهكذا منع النساء من الانتساب الى هـذا المجلس. ويحدث ايضـا ان بعض النساء يمنحن احدى مراتب الشرف لخدمة خاصة او لمقدرة ممتازة او لانهن زوجات اصحاب الالقاب تلطيفا وتكريما لهن ولازواجهن.

حقوق اللقب

واذا ما تزوجت ابنة (الارل) او ابنة (الماركيز) برجل من العوام اى من غير ذوى الالقاب فهى لا تفقد لقبها وتحمل اسم زوجها فقط كما هو معلوم. فابنة الارل مثلا اذا تزوجت من شخص اسمه (المستر سميث) فان اسمها الكامل يصبح (الليدى فلانة سميث) لا المسز سميث. اما اذا تزوجت صاحبة اللقب بزوج من ذوى الالقاب وكان لقب زوجها اعلى من لقبها فمن حقها ان تحمل اللقبين معا لقبها ولقب زوجها والاعلى يذكر فى الاول. وحاملة اللقب (Peeress) ان كانت صاحبة الحق فيه قانونا، تورث لقبها لابنها الاكبر او لابنتها الكبيرة بغض النظر عما اذا كان زوجها من حملة الالقاب

(١) (Viscount Cecil of Chelwood)

او لا. واذا تزوجت المرأة التى اكتسبت لقبها بزواجها من احد ذوى الالقاب بشخص من العوام فانها تفقد لقبها فتسمى باسم زوجها الثانى فقط.

اللوردات فى مجلس العموم

كما قد بينا ان اللورد هو عضو طبيعى فى مجلس اللوردات وهو محروم من عضوية مجلس العموم ولكن كثيرا ما نسمع بوجود بعض (اللوردات) بين اعضاء مجلس العموم فكيف ذلك. لقد ذكرنا ان ابناء الدوق والماركيز والارل الصغار يحملون احد الالقاب الثانوية لآبائهم(٢) وذلك من باب المجاملة لا انها حق من حقوقهم المكتسبة. وان هذا النوع من الالقاب وهى ما تسمى (بالقاب المجاملة)(Courtesy Titles) لا تحول دون انتخابهم اعضاء فى مجلس العموم. فاللورد الذى هو عضو فى مجلس العموم اما انه الابن الاكبر لدوق او لماركيز او لارل والذى هو ما زال فى قيد الحياة؛ او انه احد الاولاد الصغار لواحد من هؤلاء سواء اكان حيا ام ميتا. فالابن الكبير يحق له ان يبقى عضوا فى مجلس العموم ما دام والده فى قيد الحياة فاذا ما قضى نحبه انتقل اللقب الى الابن الاكبر الذى عليه حينئذ ان يستقيل حالا من عضوية مجلس العموم وينقل الى المجلس الاعلى. مثال ذلك : كان المستر اورمسبى غور وزير المستعمرات فى وزارة المستر تشمبرلين من الممع الشخصيات السياسية فى مجلس العموم وكان فى الوقت نفسه الوريث الوحيد لوالده البارون هارليخ الثالث (The Third Baron of Harlech) فلما توفى والده ورث اللقب فاصبح البارون (هارليخ) الرابع فاضطر الى الاستقالة من مجلس العموم والاعتكاف فى مجلس اللوردات وهو مكره لا بطل. ومثل اخر هو الفايكونت (كرانبورن) فقد كان عضوا فى مجلس العموم عندما كان والده الماركيز ساليسبرى الرابع حيا وبعد وفاته اضطر الى الاستقالة من عضوية مجلس العموم والانتقال الى مجلس اللوردات. وقد رأى كثير من الشباب ذوى الطموح السياسى ان هذا التعامل مما يضر بهم ويقضى على طموحهم السياسى لان العلى السياسى فى انكلترا لا يبلغ الا عن طريق مجلس العموم. فقدم بعضهم لائحة قانونية

---

(٢) لبعضهم عدة القاب ثانوية فى آن واحد فهو دوق وله القاب ثانوية من مرتبة ماركيز وايرل وفايكونت وبارون كما هو الحال مع (الدوق اوف ديفونشاير).

قبل عدة سنوات(١) تنص على ان اللوردات (Peers) يحق لهم ان ينتخبوا اعضاء فى مجلس العموم وان احدهم ان قبل منصب وزير دولة فانه يفقد حقوقه فيما يتعلق بالالقاب ووراثتها ويصبح من العوام. ولكن هذه اللائحة كانت بالنسبة الى الآراء المحافظة طفرة تقدمية ولذلك فشلت واهملت هذه التشبثات. اما اللوردات الذين فى مجلس العموم والذين لا يحاذرون ان تصب مثل هذه النكبة عليهم يوما من الايام فهم غير وارثى الالقاب اى الابناء الصغار لصاحب اللقب وهؤلاء لا يمسهم شيء من جراء وفاة والدهم وذلك بقدر تعلق الامر بعضويتهم فى مجلس العموم.

لوردات ايرلندة

وهناك حالة ثالثة يكون فيها اللورد عضوا فى مجلس العموم. ذلك ان لوردات ايرلندا (Irish Peers) خلافا للوردات بريطانيا او اسكوتلندا غير ممنوعين من ترشيح انفسهم لعضوية مجلس العموم فكان بعض اعضاء هذا المجلس يحملون لقب (لورد) لهذا السبب.

المستر تشرشل ولقبه

يستفسر الكثيرون لماذا لا يحمل المستر تشرشل لقب لورد بينما ابوه لورد وجده دوق. وتفسير ذلك ان المستر تشرشل هو الابن الاكبر للورد راندولف تشرشل الابن الثالث لدوق مالبوروه ولما كان جميع ابناء الدوق يحملون، من باب المجاملة، لقب لورد اصبح راندولف تشرشل لوردا. وبما ان هذا اللقب من القاب المجاملة فهو ليس من الالقاب التى يرثها الابن لذا لم يرث المستر تشرشل اى لقب من اسلافه فبقى اسمه المستر ونستن سبنسر تشرشل وبصفته عضوا فى المجلس الخاص اصبح اسمه الكامل صاحب المقام النبيل ونستن تشرشل (The Right Honourable Winston S. Churchill) اما ابنه راندولف تشرشل فلا لقب له كما ان اسمه الكامل هو المستر (او الميجر) راندولف تشرشل. اما اذا منح والده لقبا ما، وهذا ما اظنه سيكون بعد ربحه هذه الحرب، فيصبح ولده وريثا للقب جديد.

طبقة النبلاء الصغرى

والطبقة الثانية من الصنوف العليا تعرف بطبقة النبلاء الصغرى. ولو ان التميز بينها وبين طبقة النبلاء العليا فيه شيء من الصعوبة ولكن اذا اعتبرنا حمل مراتب الشرف هو المقياس فى تميز الطبقتين بعضهما عن بعض فيمكننا

(١) (The Peers Disabilities Bill)

القول ان هذه الطبقة تشمل حملة مرتبة البارونيت (Baronet) والى حد ما حملة لقب الفارس (Kinghts)

طبقة البارونيت

ان مرتبة البارونيت (Baronetage) هى مرتبة احدثها الملك جيمس الاول لينعم بها على رعاياه لغرض استيفاء المال منهم فكانت تباع وتشترى كأية سلعة من السلع التجارية. ويوجد الان حوالى (١،٥٠٠) من حملة هذه المرتبة. ومرتبة البارونيت هذه هى غير مرتبة البارون فالاولى انعام ملكى لا يحرم حامليه من عضوية مجلس العموم اما مرتبة البارون (Baronage) فهى احدى مراتب الشرف الخمس التى عددناها وحاملها هو لورد وهو عضو فى مجلس اللوردات ولا يحق له ان ينتخب لعضوية مجلس العموم. وحامل مرتبة البارونيت هو (سير) ولكنه يميز عن الفارس (سير) باضافة حرفى (BT) او (Bart) الى اخر اسمه. وفى توجيه المخاطبات التحريرية اليه يجب ذكر اسمه الكامل مع لقبه. اما زوجته فتخاطب بكلمة «سيدتى» (Your Ladyship) (او الليدى فلانة) بدون ذكر اسمها الاول الا اذا كانت ابنة دوق او ماركيز او ارل فتسمى حينئذ باسمها واسم زوجها اما اذا كانت ابنة فايكونت او بارون فتسمى مثلا (The honourable Lady Smith) ومرتبة البارونيت بحد ذاتها ليست وراثية كما يتوهم الكثيرون ولكن احد حقوق حاملى هذه المرتبة ان ابناءهم عندما يبلغون سن الرشد يكون لهم الحق الشرعى فى الحصول على لقب (سير) ولذلك فانه ينعم على اكثرهم ممن يستحقونه ومن هنا تولد الوهم فى ان المرتبة هى وراثية. ومع ذلك فمنذ عهد الملك جورج الرابع الغى حق ابناء (البارونيت) فى المطالبة بمنحهم لقب (سير) واصبح من حق العرش المطلق الانعام به او عدمه عليهم.

مرتبة الفروسية

اما الفروسية (Knighthood) فهى ليست مرتبة شرف بالمعنى الذى تفهم فيه مراتب الشرف التى عددناها آنفا فهى وسام يمنح لبعض الاشخاص مكافأة على اعمالهم وقد اعتبرنا حاملى هذا الوسام ضمن طبقة النبلاء الصغرى بالنظر الى ان اكثرهم فى الواقع من الصنوف العليا نظرا لما تتوفر فيهم من المؤهلات التى تتوفر عادة فى هذه الصنوف كالمال والجاه والمركز الاجتماعى والنفوذ السياسى. والقاب الفروسية لا تورث كما هو الحال فى

مراتب الشرف الاخرى الا ان هناك نوعين منها يظن الكثيرون من الناس انها تورث على حين ان من يحملها ليس فارسا قانونيا وهذان النوعان هما (Knight of Glin and Knight of Kerry) وهما باليان الان ويندر ان يسمع عنهما فى انكلترا.

ان حامل درجة الفارس يدعى (بالسير) وزوجته (بالليدى) ومخاطبتهما ومراسلتهما تابعة لاصول يجب مراعاتها مراعاة دقيقة. فلنأخذ مثلا السير فرانك سميث لايضاح ذلك. فعند مخاطبته هو وزوجته معا يقال السير فرانك والليدى سميث ولا يقال ابدا السير سميث او الليدى فرانك. اما اذا قصد ذكر اسم الزوجة وحدها فيجب ذكر اسمها الشخصى ثم ذكر اسم زوجها فيقال مثلا الليدى ماركريت سميث. اما فى الاحوال الخصوصية الصميمة فيمكن ان يذكر الاسم الاول للزوج او الزوجة كأن يقال السير فرانك فقط او الليدى ماركريت فقط.

منح الالقاب والاوسمة

ينعم فى كل سنة بعشرات من هذه الالقاب على اشخاص من مختلف نواحى الحياة فمن موسيقار الى مؤلف الى قائد الى سياسى الى دبلوماسى. وقد وجد الشعب الانكليزى فى هذه الاوسمة والنياشين خير اداة للتشجيع والتفاخر فيمكن نعتهم بانهم شعب يعبد الاوسمة ويموت فى سبيلها فلا شئ ترقبه جميع طبقات الشعب برغبة وشوق عظيمين قدر ترقبها القوائم التى تصدر فى رأس كل سنة او فى يوم ولادة الملك والتى تعلن الالقاب والاوسمة والمداليات التى ينعم بها على الرعايا البريطانيين فى مختلف ارجاء المعمورة. ولا يقتصر الانعام على الرعايا البريطانيين وحدهم بل يشمل رعايا الدول الاجنبية الذين يزيدهم ذلك الانعام فخرا ويكسبهم شرفا.

اوسمة الفروسية

ان اوسمة الفروسية على عدة درجات اعلاها هو وسام الساق (Order of the Garter) وهو اقدم جميع الاوسمة الانكليزية. فقد احدث سنة ١٣٤٩ ورمزه (K.G) وشعاره : «الشر على من يفكر بالشر». وينعم بهذا الوسام على الملوك والامراء الاجانب وعلى افراد العائلة المالكة الانكليزية وكبار رجال الطبقة الارستقراطية ولا يزيد عدد حاملى هذا الوسام الان على (٣٥) شخصا من اجانب وبريطانيين.

وسام الساق

وسام الشوكة

ويلي وسام الساق درجة وسام الشوكة (Order of the Thistle) ورمزه (K.T) وشعاره: «لا يغضبني احد دون جزاء» ويحمله من اعضاء العائلة المالكة الدوق كلوستر والدوق وندسور اخوا الملك جورج السادس وحاملوه الان لا يتجاوز عددهم الثمانية عشر.

وسام القديس باتريك

ووسام القديس باتريك (Order of St. Patrick) يحمله تسعة اشخاص فقط في ضمنهم اخوا الملك ورمزه (K.P) وشعاره «من سيفرق».

وسام الحمام

ووسام الحمام (Order of the Bath) يمنح عادة لمن يحملون احدى درجات الشرف وهو على نوعين مدني وعسكري وعدد من ينعم عليهم به محدود لا يمكن تجاوزه. ودرجاته ثلاث وهي :
(G.C.B.) (K.C.B.): (C.B.).

الاوسمة الاخرى

هذه اعلى الاوسمة درجة وهناك اوسمة اخرى تخول حاملها لقب (سير) واهمها (نجمة الهند) ووسام القديس ميخائيل والقديس جورج ووسام الامبراطورية الهندية ووسام فكتوريا الملكي ووسام الامبراطورية البريطانية. ان جميع هذه الاوسمة مقسمة الى ثلاث درجات (Knight Grand Cross, Companion, Knight Commander) ورموزها تضاف الى آخر اسم الشخص. وحملة هذه الاوسمة على اختلاف انواعها يبلغون الالوف وهي مقصورة على الرجال. اما النساء فلهن اوسمتهن الخاصة وهي على نوعين الاول هو وسام فكتوريا الملكي والثاني هو وسام الامبراطورية البريطانية. ومن ينعم عليها باحدى هذين الوسامين تضيف كلمة (Dame) الى اسمها. فمثلا اذا انعم على امرأة اسمها ماري سميث فيصبح اسمها (Dame Mary Smith) واذا كانت صاحبة الوسام من حاملات الالقاب فلا تضيف هذه الكلمة الى اسمها بل تكتفي بوضع رمز الوسام ودرجته في آخر اسمها. وهناك درجة من درجات الفرسان تخول حاملها التمتع بلقب (سير) ولكنهم لا يحملون أحد الاوسمة المبينة اعلاه وهذه الدرجة تسمى بدرجة (الفارس الاعزب) (Knight Bachelor)

وسام صليب فكتوريا

وهناك غير هذه الاوسمة انواع كثيرة من النياشين والمداليات المدنية والعسكرية وهي كثيرة لا يمكن حصرها وعدها ولعل (صليب فكتوريا)

(V.C.) اشهرها اسما واعلاها مقاما. ان تاريخ احداث هذا الوسام يرجع الى عهد حرب القرم وهو يصنع من معادن المدافع التى استولى عليها الانكليز من الروس فى تلك الحرب ويمنح لكل من يظهر شجاعة فائقة فى الاعمال العسكرية من الاحياء والاموات وسبب منحه للاموات (Posthumous) هو ان من ينعم عليه بهذا الوسام يأخذ من خزينة الدولة مبلغا سنويا قدره (٥٠) باونا اذا لم يجد له عملا يعيش به وهذا الحق يبقى لورثته بعد وفاته. اما اذا كان فى الخدمة الفعلية فانه يأخذ عشرة باونات فى السنة. وبلغ مجموع من انعم عليهم بهذا الوسام فى الحرب الحالية الى الآن (١) (٩٣) شخصا.

القدم

لقد اصبح من جراء تنوع وتعدد مراتب الشرف والالقاب والاوسمة وشدة التمسك بالمحافظة على حقوق القدم وكثرة حوادث الخلافات التى تحصل ان اضطرت الدولة الى سن قانون خاص بها فكما ان قضايا القدم فى السلك السياسى قد ثبتها نهائيا مؤتمر (اكس لا شابل) فاعطى حدا بذلك الى المشاكل التى كانت تحصل من جراء هذا الامر كذلك القدم بين مختلف الطبقات قد حدد وثبت نهائيا فى انكلترا بموجب قانون أقره البرلمان ولاجل الاحاطة بالاسس التى وضع بموجبها هذا القانون ودرجة التباين الذى بين مختلف الاشخاص والمناصب وللمقارنة بين ذلك وبين ما هو مرعى فى الدول الاخرى أود ان اقدم جدولا بنظام القدم والتشريفات المتبع فى الوقت الحاضر لفائدة القارىء العربى :

جدول القدم والتشريفات للرجال

الملك
دوق كلوستر
دوق وندسور (٢)
ابناء عم الملك
سفراء الدول الاجنبية

---

(١) تموز ١٩٤٤ .

(٢) ان دوق وندسور ولو انه الاخ الاكبر للملك وكان هو الملك قبل اخيه الملك جورج السادس الا ان الدوق كلوستر قد حصل على لقبه قبل اخيه الدوق وندسور.

رئيس اساقفة كانتربرى
رئيس مجلس اللوردات
رئيس الوزراء
رئيس المجلس الخاص
رئيس مجلس العموم
حامل اختام الملك
كبير رئيس الامناء } ان كانوا من مرتبة دوق.
كبار موظفى البلاط الملكى }
الدوقيون
الوزراء المفوضون
اكبر ابناء الدوقيين من العائلة المالكة
موظفو البلاط الملكى ـ ان كانوا من مرتبة ماركيز
الماركيزيون
اكبر ابناء الدوقيين
موظفو البلاط الملكى ـ ان كانوا من مرتبة ارل
الارليون
صغار ابناء الدوقيين من العائلة المالكة
كبار ابناء الماركيزيين
صغار ابناء الدوقيين
موظفو البلاط ـ من مرتبة فايكونت
الفايكونتيون
صغار ابناء الماركيزيين
مطارنة لندن ودرهام وونجستر
بقية المطارنة بحسب قدمهم
موظفو البلاط الملكى ـ من مرتبة بارون (١)

(١) ويقصد هنا بوزراء الدولة (Secretaries of State) وعددهم ثمانية وهم وزير الخارجية، وزير الداخلية، وزير الحربية، وزير الطيران، وزير الدومنيونات، وزير المستعمرات، وزير الهند ووزير اسكوتلندا.

وزراء الدولة ـ من مرتبة بارون
موظفو الخزينة الخاصة
وزراء الدولة ـ دون مرتبة البارون
المندوبون السامون للدومنيونات
كبار ابناء الفايكونتيين
صغار ابناء الارليين
كبار ابناء البارونيين
حاملو وسام الساق من غير اعضاء العائلة المالكة
اعضاء المجلس الخاص ممن لا مرتبة لهم.
وزير المالية
امين مقاطعة لانكستر
قاضي القضاة
رؤساء المحاكم
صغار ابناء الفايكونتيين
صغار ابناء البارونيين
ابناء اللوردات الذين يتمتعون بالقابهم ما داموا في قيد الحياة (Life Peers)
حملة مرتبة البارونيت حسب قدمهم
حملة وسام الشوكة والقديس باتريك من العوام
حملة وسام الحمام من الدرجة الاولى
حملة وسام نجمة الهند من الدرجة الاولى
حملة وسام القديس ميخائيل والقديس جورج من الدرجة الاولى
حملة وسام الامبراطورية الهندية من الدرجة الاولى
حملة الوسام الفكتوري الملكي من الدرجة الأولى
حملة وسام الامبراطورية البريطانية من الدرجة الاولى
حملة الاوسمة المذكورة اعلاه من الدرجة الثانية
الفرسان العزب (Knight Bachelor)

كبار موظفى المحاكم
حملة الاوسمة المذكورة اعلاه من الدرجة الثالثة
كبار احفاد اللوردات
كبار ابناء البارونيتات
صغار احفاد اللوردات
صغار ابناء البارونيتات
كبار الضباط العسكريين والبحريين والجويين (١)

القدم والتشريفات للنساء

هذا هو نظام القدم المتبع مع الرجال. اما النساء فلهن نظام خاص بهن اهمه ان الزوجة لها نفس مرتبة القدم التى يتمتع بها زوجها او اكبر اخوانها كما ان ابنة اللورد المتزوجة من احد العوام تحتفظ بلقبها (ليدى) كما سبق ان بيناه آنفا وبنات اللورد يأتين بعد زوجات اخوانهم الكبار وقبل زوجات اخوانهم الصغار، وان بنات اللوردات المتزوجات من لوردات اقل منهن مرتبة لهن نفس حق القدم الذى يتمتع به ازواجهن. مثال ذلك: ان ابنة الدوق المتزوجة من بارون تحمل لقب (بارونة) فقط بينما اخواتها المتزوجات من افراد من العوام يحتفظن بمراتبهن ويتقدمن على مرتبة (البارونية). واخيرا ان اية مرتبة يتمتع بها الزوج بحكم وظيفته فى الدولة لا تعطى زوجته حق قدم مماثل لحقه. فان زوجات رؤساء الدين ورئيس الوزراء ورئيس المجلس والوزراء لا منزلة لهن من ناحية القدم بصفتهن زوجات هؤلاء الاشخاص. أما اذا كان احدهم ذا مرتبه شرف فان زوجته تتمتع بحق القدم المتناسب مع مرتبته.

الصنوف الوسطى

اذا شبهنا المجتمع البريطانى بالجسم البشرى فان الصنوف العليا تشبه بالرأس والصنوف الوسطى بالجسم والصنوف السفلى (اى الصنوف العاملة) بالاطراف. وان كان الرأس يضم الدماغ الذى يسير كل مجموعة حيوية فان الجسم يضم القلب وبقية الاجهزة التى تتوقف عليها حياة كل جسم حى.

---

(٢) وهم (Squires) وهذا الاصطلاح هو غير اصطلاح (Esquire) فالاول يعنى (الوجيه) والثانى يعنى (المحترم) ويستعمل الان فى بعض الوثائق القانونية او المخابرات التحريرية.

فالصنوف الوسطى اذن هى اهم صنوف المجتمع البريطانى ومنها يتكون هيكل بريطانية وامبراطوريتها فمن هذا الصنف تتكون ادارة الدولة ومعظم جهازها الحكومى والى هذا الصنف يمت كثير من مديرى دفة سياسة الامة، كما ان منهم الحكام والاطباء والمحامين والادباء ومحررى الصحف ورجال الدين والدبلوماسية والعلم والفكر والصناعة وعمد القرى والارياف. وبلاد تجارية مثل انكلترا مدينة فى سمعتها التجارية الطيبة بين شعوب العالم الى هذا الصنف. واذا اتهم الانكليز بحبهم جمع المال فانما بسبب هذا الصنف أيضاء وان بدرت فى جيش دولة من الدول بوادر التمرد والاشمئزاز فيندر ان يبدر ذلك من القوات الانكليزية لان معظم ضباطها وقوادها من هذا الصنف الذى يمتاز بتطرفه فى وطنيته وتعلقه بوحدة بلاده. فرأيه هو رأى الامة باجمعها وما يتصف به من خواص وخصال حسنة كانت ام سيئة هى خواص الامة وخصالها. وان ما بحثناه فى الفصل الاول من مميزات الشعب الانكليزى انما هى تنطبق وتصدق على هذا الصنف اكثر من غيره من الصنوف. وزيادة على ذلك فان هذا الصنف اشتهر بما له من سمعة اخلاقية عالية، وتمسك باهداب الدين، وتحمس للمبادىء الوطنية. وان وصف الشعب البريطانى بوجه عام بانه شعب محافظ فانما ذلك لان هذه المميزة هى المميزة التى تصبغ هذه الطبقة بوجه خاص. ان طبقة واسعة مثل هذه الطبقة التى فتحت ابوابها لعناصر كثيرة تنضم اليها من مختلف الطبقات الاخرى قد قسمت الى طبقتين ثانويتين اخريين وهما: طبقة الصنوف الوسطى العليا (Upper Middle Classes) وطبقة الصنوف الوسطى السفلى (Lower Middle Classes) وبالنظر الى كثرة هذه التقسيمات فى طبقات الشعب الاجتماعية وصعوبة التمييز بين الواحدة والاخرى تمييزا دقيقا اصبح الشعب الانكليزى يمقت التطرق الى الفروق بين الاصناف والطبقات ويفضل السكوت عنها.

اقسام الصنوف الوسطى

والطبقة الثالثة من طبقات النظام الاجتماعى الانكليزى هى ما تسمى (بالصنوف السفلى) وتضم الصنوف العاملة على اختلاف انواعها من عمال المعامل والمناجم والمصالح العامة والخاصة الى طبقات الفلاحين وبعبارة اوضح تضم كل من يعتمد على كده لكسب قوته. ومنذ ظهور المبادىء الاشتراكية

الصنوف السفلى

البروليتاريت

في العالم صارت الصنوف العاملة في جميع بلاد العالم تدعى بطبقة (البروليتاريات) (Proletariate) اما في انكلترا فما زال هذا الاصطلاح غريبا وتأبى هذه الصنوف ان تسمى نفسها به ولعل هذا الاباء عن كونه اصطلاحا اجنبيا والانكليز كما قلنا ابعد الاقوام عن اكتساب الآراء او الافكار التي تنشأ وتنمو في غير التربة الانكليزية. ولا تختلف الصنوف العاملة الانكليزية عن بقية الصنوف العاملة في البلاد الاخرى بالتسمية فحسب وانما تختلف بعلاقتها بالطبقات الاخرى للشعب ووجهة نظرها تجاهها. ففي الدرجة الاولى لا تعتبر هذه الصنوف نفسها طبقة مستقلة منفصلة عن بقية طبقات الشعب الاخرى او ترى في نفسها فئة مضطهدة اغتصبت منها متع الحياة من قبل الطبقات العليا التي تسيرها وتستخدمها لمصالحها الذاتية. فبدلا من ان تكتفي الطبقات العاملة باعلان اشمئزازها او تمردها على النظام القائم الذي جعل منها طبقة اقل امتيازا وحقوقا من غيرها فانها تجد وتبذل الجهود في سبيل المطالبة باصلاح احوالها عن طريق تأليف النقابات والجمعيات وحمل الحكومة على سن القوانين التي تكفل لها حياة اضمن وارفه وبرغم ما تقوم به العناصر المتطرفة من غرس بذور الاشمئزاز والتفرقة بين هذه الطبقات والطبقات الاخرى فانها لم تفلح في مراميها الى درجة محسوسة وبقيت انكلترا بعيدة جدا عن النضال الطبقي الذي غزا بعض المجتمعات الاوربية والذي اخذ يدب في بعض الممالك الشرقية. وانك ان استمعت لخطيب يتكلم من المنبر الشيوعي في (هايد بارك) ترى ان مستمعيه من العمال العاطلين يجادلونه ويحاججونه ان هو طعن في النظام الاجتماعي القائم اودعا الى الثورة العالمية. ان هذا الاستقرار في الرأي والاتزان في التفكير السياسي هما من اهم العوامل التي تكفل الوحدة والتماسك بين الشعب البريطاني بغض النظر عما يحدث في بقية اقطار العالم من تغيير وانقلاب مستمرين وفجائيين في الانظمة السياسية والاجتماعية.

الصنوف السفلى ليست مشمئزة

مما يدلك على قناعة الطبقة العاملة الانكليزية وقلة عدائها للاوضاع التي كانت سائدة في اوقات السلم، ان البطالة مهما كانت نسبتها عالية، تظهر كأنها حالة طبيعية اعتيادية وأن العمال العاطلين ان ارادوا اظهار سخطهم

قناعة الصنوف السفلى

من الاوضاع التى ادت بهم الى تلك الحالة فانهم يكتفون بالسير بمظاهرة سلمية رافعين الاعلام وقد كتبت عليها بعض العبارات الوديعة غير المهيجة طالبين فيها ايجاد العمل وتوفير موارد الرزق لهم. ومن المؤكد ان البطالة والفاقة ورداءة الاحوال الصحية التى يصادفها المرء فى المناطق الفقيرة التى فى ويلز ودرهام و (Clydeside)و(Tynside) وحتى فى الاطراف الشرقية للعاصمة التى لو وجدت فى بلاد اوربية اخرى كفرنسا او المانيا او ايطاليا لسببت فى تلك البلاد ثورة لا تبقى ولاتذر.

انكلترا نعيم للغنى وجحيم للفقير

ان مستوى المعيشة فى انكلترا تقرره الطبقات ذات اليسر المالى فلذلك كانت معيشة الطبقات العاملة والفقيرة ضنكة وهى فى بعض الاحيان جحيم لهم اذ انهم لا يتمكنون من بلوغ المستوى الذى يضمن لهم عيشتهم بما يدخلهم من اجور زهيدة ناهيك ما تسببه مشكلة البطالة من ضيق وضنك. فلقد صدق من قال ان «انكلترا نعيم للغنى وجحيم للفقير». انها اشتهرت بانها من اثرى بلاد العالم وأغناها فلا ينتظر والحالة هذه ان يهبط مستوى المعيشة فى بعض الهيئات الشعبية الى منزلة دونها منزلة افقر الشعوب واكثرهم تأخرا فى المدنية. الم يكن من الخزى والعار ان يصادف المرء فى انكلترا، فى لندن، فى قلب لندن، فى احياء ذوى اليسر والثراء، شيخا عاجزا يخور من مضض الجوع. اقول ذلك لاننى شاهدته بنفسى عندما حملتنى المصادفة على اسعاف شيخ عاطل افادنى بنفس متقطع وقلب كليم «انه لم يذق طعم الاكل منذ يومين كاملين». ومهما كانت الظروف المحيطة بهذه الحادثة فالحقيقة هى ان كثيرا من الاوساط الشعبية تعيش بحالة تقرب من هذه الحالة التعسة.

الطبقات العاملة والحرب

ولما حلت الحرب الحالية كان افراد الطبقات العاملة اكثر الناس تحمسا وتأييدا للاسباب والبواعث التى اعلنت الحرب من اجلها فتطوعوا فى القوات المحاربة وانتسبوا الى المعامل والخدمات العامة وتحملوا مشاق الحرب واهوالها ولم تزدهم تلك المشاق والاهوال الا همة وحزما فأصبح من واجب الدولة ان توفيهم حقهم ازاء هذه الاتعاب الجليلة فتزيل عنهم ما كانوا يتشكون منه قبل الحرب. وقد ادرك الرأى العام البريطانى هذه الحاجة وطالب بالقيام بالمشروعات التى تحقق ذلك وكان اولها التقرير الشهير الذى اعده

(السير وليم بيفريج) وهو يتضمن اقتراحات للضمان الاجتماعي للطبقات الفقيرة والعاملة ورفع مستواها ولكن دون ان يؤثر ذلك تأثيرا كبيرا في هبوط مستوى الطبقات الباقية. والانكليز لم تستهوهم الانظمة الاشتراكية التي تطبقها الدول الاخرى فارادوا ايجاد انظمة مستمدة من تجاربهم وتفكيرهم الخاص وهكذا فقد عهد الى الخبير (بيفريج) اعداد ذلك التقرير الذي يرمي الى مكافحة الحاجة والمرض والجهل والفاقة والبطالة. ان الحكومة البريطانية ولو انها قبلت المقترحات التي تضمنها هذا التقرير مبدئيا الا انها لم تضعه الى الآن موضع التنفيذ برغم ما تبديه اوساط العمال من الالحاح في سبيل ذلك (١). ومقترحات (بيفريج) واحدة من سلسلة مقترحات منها ما اعدت ومنها ما تعد الان لتحسين احوال الشعب بوجه عام بعد الحرب كوضع تقرير (أوثوات) في تنظيم المدن والقرى وتقسيمها ووضع تقرير (دادلي) في اعداد المساكن اللازمة للشعب. ووضعت تقارير (نوردود) و(لاكسمور) و(فليمنك)(١) لاصلاح التعليم وتقارير اخرى كثيرة لاصلاح الاحوال الصحية والزراعية وما شاكل.

تحسين احوال الطبقات العاملة

هذه هي طبقات الشعب الانكليزي باقسامها ومميزاتها واهمية كل واحدة منها في الهيئة الاجتماعية. واذا كنا قد اسهبنا في واحدة واوجزنا في الاخرى فما ذلك الا للرغبة في التعمق في اظهار ما تنطوي عليه الطبقات العليا بوجه خاص من تعقيدات وتقسيمات لا توجد في الطبقات الاخرى. وعند كلامنا عن العادات والطبائع فيما يخص كل ناحية من النواحي الاجتماعية سنتطرق الى ما هو عام ومشترك لدى جميع الطبقات. اما بعض المظاهر التي تعتبر منحصرة في طبقة دون اخرى فيمكن اعتبارها عامة ايضا لان اغلبية الشعب ان لم تشترك فيها اشتراكا فعليا فانها تعتبرها جزءا من المظاهر الوطنية المشتركة بينها وبين الطبقات الباقية.

---

(١) كتبت هذه الفقرة قبل سنتين تقريبا من صدور الكتاب الابيض للضمان الاجتماعي الذي نشرته الحكومة البريطانية في ايلول ١٩٤٤

(١) ان تقرير فليمنك هو اهم هذه التقارير. فقد وضعه النائب المحافظ اللورد فليمنك لاصلاح وضع (المدارس العامة) وجعلها مفتوحة لجميع طبقات ابناء الشعب بشكل اوسع مما كان قبلا.

السوسايتي

عندما بحثنا في اقسام الطبقات الاجتماعية للشعب البريطاني قلنا ان الصنوف العليا تضم ما يعبر عنه «بالاوساط الاجتماعية الراقية» اى (Society) ولما كان من الصعب ايجاد اصطلاح واحد في العربية يؤدي المعنى الذي تتضمنه الكلمة الانكليزية اداء دقيقا وحبا في الانصراف عن استعمال جملة «الاوساط الاجتماعية الراقية» للدلالة عليها فاني استميح القارىء عذرا اذا ما استعملت الكلمة الانكليزية نفسها للسهولة والايضاح.

كيفية بلوغها

ان صح تعريف (السوسايتي) لكل بلد بانها فئة من الرجال والنساء ممن انغمسوا في حياة اللهو لا شأن لهم سوى صب حياة الكسل واوقات الفراغ والبطالة في قالب الحبور والملذات، فان ذلك لا يصدق في حالة (السوسايتي) الانكليزية. فقد رأينا فيما تقدم كيف انها تتمتع بنفوذ عظيم في مختلف نواحي حياة المملكة وكيف انها في تغير ونمو مستمرين لما ينضم اليها من عناصر جديدة تبعث فيها الروح والهمة والنشاط. وقد رأينا كذلك كيف ان هذا التغير والنمو يتمان بسرعة بالنظر الى الوسائل المتيسرة لدى الفرد سواء أكان مواطنا ام اجنبيا، للانضمام الى اوساطها واهم تلك الوسائل هي الثروة. ثم اننا عزونا سبب احتفاظها بمقامها ومركزها الى وجود النظام الملكي في انكلترة. ولكن ذلك ليس كل ما يخص هذه الزمرة من الشعب فهناك مظاهر ومميزات ومؤهلات اخرى تنفرد بها السوسايتي الانكليزية مما لم نتطرق اليها قبلا.

الاصل

يروى عن دزرائيلي انه قال ان النجاح في اوساط السوسايتي يتطلب ثلاثة شروط. اولها كرم الاصل وثانيها العبقرية والذكاء وثالثها مليون من الباونات. اما كون الاصل هو اولى هذه الشروط فهو امر واضح اذ انه العامل الاساسي الذي يتوقف عليه كيان هذه الزمرة ووجودها. فالعوائل ذات المحتد الكريم وبيوتات الشرف هي التي تقرر المستوى الاخلاقي وحتى المستوى المالي (للسوسايتي الانكليزية) ولا تقرره العناصر الدخيلة من التي جعلت من مالها وثرائها واسطة لبلوغ ذلك المركز الاجتماعي الفذ. ولولا الفريق الاول لتلوثت (السوسايتي الانكليزية) بآثام (السوسايتي الاميركية) الحديثة التي لا غاية لها من حياة البذخ والاسراف سوى الظهور حبا بالظهور

ومما ساعدها على ذلك ان الانكليز كما قلنا قبلا يمقتون تقليد او اعتناق كل مظهر او مذهب او مبدأ اجنبى ولا يرقصون على ضربات طبول غيرهم سواء فى امورهم السياسية او الاجتماعية ان لم يكن ما يقومون به هو من انبات تربتهم. ويظهر ان تطورات الزمان قد اثرت فى هذه الناحية تأثيرا كبيرا ففداحة الضرائب وخاصة ضرائب الارث قد قضت على كثير من العوائل القديمة واخيرا اثرت فى مركزها الاجتماعى فاضعفت تأثيرها فى وضع القواعد والاصول ورسم المستوى الذى تتمشى عليه (السوسايتى) لان اوضاعها المالية لم تعد تساعدها على الظهور بالمظهر الاجتماعى الذى ترتضيه ومما لا شك فيه ان السوسايتى الانكليزية لو كانت مقتصرة على حملة الالقاب وحدهم لكانت اشبه شىء بالسوسايتى التى فى بقية الممالك الاوربية من حيث جمودها وركودها.

قلنا ان العوائل الاصيلة هى التى تقرر المستوى الاخلاقى والسلوك الذى يجب ان يتصف به من يخالط (السوسايتى) وليست هناك قوانين مكتوبة او شروط معينة ومحددة للتصرف الحسن والسلوك المرضى. اذ لا يمكن بالضبط تعيين ما هو موافق او ماهو مخالف للسلوك المقبول اذ ان ذلك كما لا يخفى شىء نسبى كما لايمكن القول من هم اولئك الذين تتفق مؤهلاتهم وما يتطلبه العرف المألوف والعادة الجارية ومثل ذلك كمثل من يسأل عن وصف حيوان فيجيب باننى لا اتمكن من وصفه ولكنى اتمكن من تمييزه اذا شاهدته. ان الانتساب والمداخلة مع (السوسايتى) الانكليزية امر دقيق ويجب على كل رجل وامرأة ان يحافظ ويحرص على سمعته الشخصية وان يحذر من الاتيان بما يشين منها فان من تتصدع سمعته بنتيجة تصرفاته الشخصية يرى نفسه قد ابعد تدريجيا عن تلك الاوساط. وان العناصر التى يعبر عنها الاميركيون باصطلاح (Nincompoop) والذى لا اعلم ما يقابله فى العربية تلك العناصر التى تحوم حولها الشبهة الاجتماعية، لا محل لها فى انكلترا ولا يمكن ان تحشر نفسها طويلا ضمن اوساط السوسايتى. فالاخلاق المرضية والسيرة الحسنة والسمعة الطيبة والعفة والحشمة تتمشى يدا بيد مع السوسايتى الانكليزية ـ فكيف ببلد مسلم شرقى ؟ ـ الا اللهم تلك الموجة التى سادت

بعض اوساطها قبل الحرب الحالية فيما يتعلق بقضايا الطلاق والافتراق بسبب الزنى (Adultry) وما يتبعها من الاعلان والدعاية والتى قد اثرت تأثيرا كبيرا حتى فى الاخلاق العامة للشعب.

العبقرية والذكاء

والشرط الثانى من الشروط التى قال عنها دزرائيلى انها يجب ان تتوفر فيمن يبتغى النجاح فى اوساط السوسايتى هو العبقرية والذكاء. والمقصود هنا بالعبقرية والذكاء هو ان من يريد ان يماشى هذه الاوساط ويجد له مركزا بينها يجب ان تكون لديه مواهب فكرية خاصة. فمن المسلم به ان السوسايتى الانكليزية هى اثقف سوسايتى فى اوربا على الاطلاق ومالم تكن للمنتسب اليها ملكة خاصة فى تقدير الادب والشعر والرسم والنحت والتمثيل على اختلاف انواعه والموسيقى والغناء والآثار والاثاث وغير ذلك لا يمكنه ان ينضم اليها ويحوز على احترامها وتكريمها. فترى ان ارقى انواع التمثيل كالاوبرا و(الباليه) يكاد يكون محصورا فيها. وترى اثمن تصاوير مشاهير الرسامين القدماء والمحدثين من انكليز واجانب ممن عددنا اسماءهم فى الفصل الاول معلقة فى ردهات قصورهم، كما انهم يفهمون مقطوعات جونو وفيردى وروزينى وهندل وبتهوفن وباخ وشوبرت وشتراوس او غيرهم من آلهة الموسيقى عن ظهر قلب وعندهم مقدرة عجيبة فى تقدير الاثاث القديمة وجمع اندرها واتحفها فتراهم يتسابقون لاقتناء الاثاث الانكليزية القديمة من طراز (William-Um-Mary) (١) (Sheraton), (Elizabethan), (Chippindale), (Hepple White) او غيرها ويدفعون اسعارا غير معقولة للاثاث القديمة الاوربية من طراز (لويس الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر) او (Italian Renaissance), (Dutch Marquetry) او غيرها. وحدث عن ولعهم بجمع النوادر من النحت والفخار الصينى والاوراد والكتب والمخطوطات القديمة والستائر الموشحة (Tapestries) والسجاد والتحف ولا حرج. وترى مجتمعاتهم تضم نخبة كتاب العصر والشعراء والمؤلفين. ولا يزور انكلترا اديب اجنبى كبير الا واحتضنته هذه الاوساط تمتع الفكر بآيات

(١) وهى William and Mary ولكنها تكتب كما تلفظ.

ادبه وابداع فكره. ولا يعود انكليزى او انكليزية جاب مجاهل الارض من الربع الخالى وحضرموت الى (لاهاسا فى التبيت) الى اواسط افريقية والى اصقاع القطب الا ووجدته (السوسايتى) خير عامل لبث البهجة والمتعة فى دعواتها ومجتمعاتها بما يقصه عليهم من تجاربه ونوادره ومجازفاته وما يعرضه من الافلام والتصاوير وغير ذلك. وكذا الحال مع الدبلوماسيين(١) والمحاربين والتجار وغيرهم ممن جاب بطون الكرة الارضية. كل ذلك يدل على سعة ثقافة هذه الطبقة ووفرة معلوماتها اذ لا يمكن لغير من بلغ مرحلة عليا فى الثقافة وسعة الاطلاع ان يشعر او يتذوق او يلتذ بمثل هذه الملاهى والتسليات الراقية.

الثروة

والشرط الثالث الذى عده دزرائيلى هو المليون من الباونات وطبعا لا يؤخذ هذا الرقم على علاته بل ان ما يقصد به هو الثراء الزائد المقرون بالبذخ فقد قلنا فى اول الفصل ان من يريد المداخلة مع اوساط السوسايتى عليه ان يكون لديه وارد سنوى لا يقل عن خمسة الاف باون بل يبدو حتى هذا المبلغ ضئيلا فى بلد ثرى مثل انكلترا اخذت فيه المادة تحل تدريجيا محل كل اعتبار اخر فاصبح من لا مال عنده يعزز به مرتبة شرفه لا قيمة له بين الاشراف فكم من كونت افرنسى او بارون نمسوى من غير ذوى اليسر يروح ويغدو فى انكلترا دون ان يأبه لامره بشر.

ان سعة اليد مضافا اليها سعة الخلق هما العاملان المهمان اللذان جعلا اوساط السوسايتى الانكليزية جنة ونعيما. فشعب مضياف كريم يعشق الهوى ومتعة النفس وقد اسبغ الله عليه نعمة عالية تكد له شعوب الارض ليتنعم ويبذخ، لم يبخل على نفسه ولم تضن يداه بمال او حلال فصارت ولائمه وحفلاته ومناسباته توصف بفخامتها وبذخها وجلالها. فاذا ما اقيمت وليمة ما رأيت المئات من كرام القوم يتوافدون عليها وقد استخدمت فيها ارقى الاجواق او الفنيين وقدمت فيها اعتق الخمور والشراب، وارتدى فيها اثمن اللباس واندر المجوهرات والاحجار الكريمة، ويستحضر كل ما يجعلها

---

(١) ان موظفى السلك الدبلوماسى دون غيرهم من موظفى الدولة لهم منزلة معتبرة بين اوساط (السوسايتى).

ممتازة باناقتها وخلابتها وزهوها ولو اقتضى الامر استيراد بعض النوادر من بلاد اخرى خصيصا لها.

لندن معقل السوسايتى

ان لندن هى مركز الحركة الاجتماعية الانكليزية. ولو ان فى بعض المدن الكبيرة امثال ادنبره وبرمنكهام وليفربول حياة اجتماعية راقية ولكنها طبعا لا تقاس بحياة لندن. فلندن معقل السوسايتى الانكليزية وكعبتها وقد بلغت درجة نشاط الروح الاجتماعية فيها ان صار كثير من الاجانب وخاصة الاميركيين وابناء الدومنيونات يؤمونها فى (الموسم) حينما تكون فيه الحياة الاجتماعية فى اوجها وقد انحصرت جميع المناسبات الاجتماعية فى فصل خاص من السنة يبتدىء بشهر ايار وينتهى بأيام صيد القطا فى اوائل آب وهذه الاشهر الثلاثة تسمى بموسم لندن الاجتماعى (Season) ففيه تقام جميع الحفلات والمادب الرسمية والخاصة وتفتح المعارض وتجرى المسابقات على اختلاف انواعها وتمثل الروايات وتحيى الاجواق الموسيقية والغنائية لياليها الساهرة فصفوة القول ان السوسايتى ومن ورائها من يهتم بامورها من صفوف الشعب يجدون فى هذه الاشهر الثلاثة ربيعا طبيعيا وربيعا اجتماعيا فى آن واحد لما ينم عنه من مظاهر البهجة والحبور والنشاط الاجتماعى.

الموسم

معرض الأكاديميا الملكية

لكل موسم تقويمه الخاص وهو يعد سنويا فيقتنيه كل من يهمه تعقيب مواعيد المناسبات الاجتماعية. يفتتح الموسم بافتتاح المعرض السنوى للاكاديمية الملكية فى بناية برلنكتون فى شارع بيكادلى. وهو معرض تعرض فيه آيات التصاوير الزيتية والتصاوير المائية (Water Colour) والمخططات والنقوش المحفورة (Itchings) والرسوم المنحوتة (Sculpture) وغيرها من انواع الفن. وانك ان دخلت صالات هذا المعرض رأيت مئات من الهواة ومن المتهنين وقد اشرأبت اعناقهم الى الجدران يمتعون الطرف ويشبعون الذوق باحدث آيات الفن. وانه لفخر عظيم لمن يفوز بعرض تصوير له على جدران ردهات بناية برلنكتون التى اكثرها عادة من انتاج اعضاء الاكاديمية. وعضوية الاكاديمية هذه تمنح للفنان بعد اجتياز فحص دقيق امام لجنة مكونة من كبار رجال الفن فاذا ما انتسب الفنان الى الاكاديمية اصبح من حقه ان يضيف بكل فخر حرفى (R.A) اى (Royal Academician) الى اخر اسمه.

واذا ما تصفحت قائمة اسعار المعروضات لتولاك العجب واعترتك الحيرة من درجة البذخ والاسراف فان كثيرا من هذه المعروضات تباع بآلاف الباونات وبعضها يشترى فى لندن ليباع فى اوساط اكثر اسرافا وبذخا من اوساط لندن الا وهى اوساط نيويورك وواشنطن وهوليوود وغيرها، اتذكر انى رأيت تصويرا صغيرا للنصف العلوى لجسم زنجى فلم تلفت نظرى قيمته الفنية فاستغربت من عرضه بين هذه التصاوير العظيمة والجميلة ولما رجعت الى قائمة الاسعار كان استغرابى اعظم عندما رأيت مدونا بجنبه رقم (٩٠٠ باون).

مسابقات آسكوت

وبينما بناية (برلنكتون) مكتظة بالمتفرجين والزوار من اوساط السوسايتى اذ بمركز الثقل ينتقل فجأة الى خارج لندن حيث اعدت العدة لمسابقات آسكوت (Ascot Races) الشهيرة وآسكوت هى قرية صغيرة تقع فى مقاطعة (باركشاير) وفيها ساحة للسباق تعود للخزينة الخاصة وقد اقيمت فيها مقصورات ملكية لا يدعى اليها الا من ثبتت لياقته ومؤهلاته الاجتماعية فكان توجيه الدعوة الى مقصورات (آسكوت) من اهم الاعتبارات التى تجعل الشخص ذا مركز يعتد به بين اوساط (السوسايتى) ولكن (آسكوت) لها مظهر آخر اهم من كونه ساحة سباق فهو معرض سنوى للازياء النسوية حيث تظهر فيه النساء وكل منهن قد ابتكرت لها احدث ما وصلت اليه (المودة) من لباس الرأس او الجسم او القدم او الحلى وما شاكل ذلك وما يتفق عليه فى آسكوت يبقى (المودة) السائدة فى لندن وفى انكلترا طيلة تلك السنة وبعض هذه المبتكرات من الفن والجمال كانت تغارمنه حتى (الشانزليزة) وبوليفارات باريس.

دار الاوبرا الملكية

تعود قوافل رواد (آسكوت) مسرعة لتستبدل لباس النهار بلباس السهرة لحضور دار الاوبرا فى (كوفنت كاردن) (١) وقد قلنا قبلا ان فن التمتع بالاوبرا يكاد يكون محصورا فى الطبقات العالية دون غيرها فاصبحت

---

(١) ان أعظم نجاح صادفه هذا المسرح فى حياته كان على يد (أوكست هاريس) بين سنة ١٨٨٨ و١٨٩٦ وينتظر ان يبلغ مركزا أعظم من مركزه قبل الحرب الحالية على يد الادارة الجديدة لشركة (Messers Boosey and Hawkes)

دار الاوبرا ملتقى تلك الاوساط ومعرضا لازيائهم ومجوهراتهم وكانك وانت تطوف ممراتها وشرفاتها امام احدى مناظر افلام هوليود. حتى ترتاب فلا تكاد تصدق بصرك أهذا الذى تراه حقيقى ام خيالى. لا ادرى ماذا حل الان بيت (واكنر) و (ديبوسى) و (بوجينى) و (روزينى) و (فردى) و (سابليوس) و (ولتون) و (وليماس) وغيرهم من انبياء الاوبرا واذا كانت قد دمرتها قنابل الطيش والانتقام فانما هى خسارة يصعب تعويضها، والاسف حينئذ كل الاسف عليها. وقد حافظت (كوفنت كاردن) على كثير من التقاليد القديمة ولم تجتحها موجة التجدد الى الحد الذى اجتاحت به الاوبرا الباريسية مثلا. فالتمثيل ظل محتفظا ببعض آثار القدم، وارتياد المسرح مازال مقيدا بقيود اللباس وما شاكله. فبينما انت تتمكن من حضور الاوبرا فى باريس باى لباس شئت تجد نفسك فى غير محلك ان حضرت دار الاوبرا الانكليزية دون ان ترتدى بزة السهرة الكاملة فكأنك تسىء الى شكسبير ان انت شاهدت (روميو وجوليت) او (ماكبث) او (هاملت) او (يوليوس قيصر) او غيرها من رواياته الخالدة دون ان ترتدى رداء الحشمة والوقار. وقد اشتهر عن باريس وبرلين وفينا وروما انها المدن الوحيدة التى يمكن مشاهدة مختلف انواع الاوبرا فيها وقد استثنيت احيانا لندن عن ذلك لكنه فى الواقع ان لندن ليست اقل اعتناء بالاوبرا من أية عاصمة اوربية اخرى ولكن الفرق هو ان الاوبرا كماقلنا بقيت فى أنكلترا محصورة فى طبقة معينة من الناس كما ان دار الاوبرا لا تفتح ابوابهـا فى جميع السنة، الامر الذى حرم طبقات كثيرة من مشاهدة هذا النوع من التمثيل الفنى الا من يجد منهم ما يشفى غليله فى مسرح (Saddlers Wells) حيث تعرض بين حين وآخر بعض قطع الاوبرا لمن لم يسعدهم الحظ بحضور (كوفنت كاردن).

بيت كريستى

وللاوبرا دار اخرى ولكنها ليست فى لندن نفسها وانما هى فى قرية مجاورة تقع فى مقاطعة (ساسيكس) وليست هى من الاوبرات العامة بل مقتصرة على طبقة (السوسايتى) وحدها فقد أعد المستر (جون كريستى) وزوجته مسرحا خاصا فى دارهما فى (Glyndebourne) يدعوان اليه اصدقاءهما من اوسـاط السوسـايتى فى بعض عطـلات نهاية الاسبوع اثناء (الموسم)

للاشتراك بما يسمى (Glyndebourne Festival)• وان كان قد فات احدهم مشاهدة بعض قطع الاوبرا الخالدة مثل (عايدا) او (فاوست) او (هانسل وكريتيل) او (مدام باترفلاى) او (زواج فيكارو) او (سيكفريد) او (ترافياتا) او (شمشون ودليله) او (البوهيمى) او (اسكافى القاهرة) او غيرها على مسرح (كوفنت كاردن) فربما تيسر له ذلك فى بيت (كريستى)•

معرض جلسى للازهار

وفى هذه الايام يقام معرض الازهار فى (جلسى) فيفتتح المعرض بمراسم باهرة وتعرض فيه آخر ما توصل اليه تعاون البشر والطبيعة من روائع الزهور والنباتات الجميلة• ففى (جلسى) ترى أنفس اجناس ورود القرنفل حجما ولونا ووردة القرنفل كما سنرى تعتبر جزءا متمما لشخصية كل انكليزى أنيق• وتعرض فى هذا المعرض كل سنة اجناس جديدة من اوراد الداليا والكاردينيا والداوودى والزنبق المائى مما لم يعهدها الهواة فى حدائق قصورهم من قبل•

سباق القوارب

وبينما انت لاه فى صيف لندن الجميل واذا بالوجوه وحركة السير قد يممت شطر ضفاف نهر التايمس لترقب سباق القوارب الشهير بين جامعتى اوكسفورد وكمبرج• فترى ضفاف النهر الواقعة بين (مورتليك) وجسر (باتنى) والسبل المؤدية اليها قد اكتظت بعشرات الالوف من الخلق يؤمون لندن من سائر انحاء انكلترا خصيصا لهذه المناسبة وقد علق كل واحد قطعة من قماش اما زرقاء قاتمة واما زرقاء فاتحة والاولى تشير الى انه من مشايعى جامعة اوكسفورد والثانية الى (١) انه من مشايعى كمبرج واذا ما انتهت المسابقة ببلوغ قارب احدى الجامعتين الهدف قبل القارب الثانى رأيت مشايعيهم يكادون يجنون من نشوة النصر فترى لندن فى ذلك النهار كانها قد سمعت بنبأ النصر بعد حرب طويلة•

مسابقات الكريكيت

ولا اتذكر بالضبط مسابقة (الكريكيت) الشهيرة بين طلاب كليتى أيتون وهارو أهى تجرى قبل سباق القوارب هذا ام بعده• وهذه المسابقة مثل سباق (آسكوت) هى ايضا معرض للازياء فترى ساحة (Lords Ground)

---

(١) فى خلال السنين العشرين التى سبقت الحرب كان اكثر الفوز لجامعة كمبرج الامرة واحدة تعادل فيها الطرفان (Dead Heat)

(لورد) الشهيرة التي تجرى عليها هذه المسابقة كانها حديقة غناء تفتحت فيها كرام الازهار في عز الربيع.

مهرجان يوم التأسيس

وفي اليوم الرابع من شهر حزيران من كل سنة تحتفل كلية العظماء (آيتون) بيوم تأسيسها (Founder's Day) فتقام حفلة يحضرها اولياء الطلاب واصدقاؤهم يجرى خلالها كثير من التقاليد التاريخية المرتبطة بهذه المؤسسة القديمة.

استعراض آلدرشوت

وفي هذا الشهر حسبما اتذكر يجرى الاستعراض المسمى (تاتو) (Tattoo) الشهير في منطقة (Aldershot) العسكرية ويقام ليلا ويستغرق عدة ساعات يحضره عشرات الالوف من المتفرجين لمشاهدة مناظر ووقائع عسكرية وتاريخية شهيرة او بعض التمارين الحديثة. فيعتبر هذا الاستعراض من المناسبات الشعبية العامة لا من مناسبات السوسايتي الخاصة.

سباق الزوارق في هنلي

وفي احد ايام (الموسم) تجتمع اوساط السوسايتي في (Henley) (هنلي) الواقعة على ضفة نهر التايمس خارج لندن لمشاهدة سباق الزوارق الملكي (Henley Royal Regatta) وهي مناسبة لا تقل بهجة وسرورا عن اخواتها. وهناك سباق آخر يشبه هذا السباق وهو سباق اليخت الذي يقيمه نادي اليخت الملكي في بلدة (كاوس) (Cowes) الواقعة على الساحل الشمالي من جزيرة (وايت) في جنوب انكلترة، خلال اسبوع واحد يسمى (أسبوع كاوس) وبه تنتهي آخر مناسبة من مناسبات (الموسم). وقبيل عطلة عيد العنصرة (Whitsuntide) تجرى مناسبة شعبية عظيمة يشترك فيها جميع افراد الشعب من اوساط (السوسايتي) الى اوساط العمال وافقر الطبقات وهذه المناسبة هي يوم سباق (الداربي) (Derby Day) ففي مروج (أبسوم) (Epsom Downs) الواقعة في مقاطعة (ساري) تتقاطر الوف مؤلفة من جميع طبقات الشعب وعلى رأسهم الملك وافراد العائلة المالكة والطبقة الارستقراطية. ويظهر ان الشعب الانكليزي عن بكرة ابيه قد اعترته جنة المقامرة والمراهنة ففي هذا اليوم لا يبقى فقير او غني وضيع او شريف الا واشترك بالرهان في سباق الخيل كل حسب مقدرته وربما كان ذلك تجربة لحظه اكثر منه طمعا بالربح.

سباق الداربي

الحفلات الملكية

ولعل الحفلات الرسمية التى تقام فى قصرى (بكنكهام) و (سانت جيمس) هى اهم وافخم المناسبات التى تجرى خلال (الموسم) وفى هذه الحفلات يتجلى الاتصال والتعلق بين الطبقة الارستقراطية والعرش باجلى مظاهره اذ يتبين كيف ان البلاط الانكليزى هو المحور الذى يدور حوله الفلك الاجتماعى فى انكلترة.

استقبالات الليفى

ففى كل سنة خلال اشهر الموسم الثلاثة تقام عدة استقبالات رسمية فى قصر سانت جيمس تدعى ليفى (Levees) وهذه المناسبات تمتاز عن الحفلات الاخرى التى تقام فى قصر بكنكهام بكونها للرجال فقط. فيدعو رئيس التشريفات فى البلاط جميع اعضاء الهيئة السياسية من الذين سجلت اسماؤهم فى قائمة الهيئة السياسية من الملحق حتى رؤساء البعثات من درجة وزير مفوض او سفير، وكذلك رجال الحكومة واعضاء البرلمان وكبار رجال الدين والبارزين فى مختلف نواحى الحياة العامة من مدنية وعسكرية وتجارية وفنية وغيرهم. وتقام هذه الحفلات قبل الظهر ويرتدى المدعوون البزات الرسمية (اليونيفورم). اما اعضاء السفارات والمفوضيات الذين ليس لهم بزات رسمية أقرتها حكوماتهم كما هو الحال فى السفارة الاميركية وهيئة المفوضية العراقية وبعض المفوضيات الشرقية الاخرى (١) فعليهم ان يلبسوا بدلة الفراك. و (الليفى) لا يشبه حفلات (البالو) التى تقام فى قصر بكنكهام فلا موسيقى ولا شراب ولا ورود ولا جمال ولا بهاء سوى ان هذه الهيئات تجتمع للتشرف بحضرة جلالة الملك. اما الاصول المتبعة فى المقابلة فهى ان هيئات البعثات السياسية تصطف بحسب حروف الهجاء لاسماء مملكاتهم ثم يقف رئيس التشريفات على الجهة اليمنى لجلالة الملك فيمر من امامه رؤساء البعثات واحدا فواحدا وهو ينادى اسماءهم مقدما اياهم لجلالته فيمر رئيس البعثة ثم يتبعه اعضاء بعثته وعندما يصل امام جلالته يقف فينحنى تحية واجلالا فيرد عليه جلالته التحية ثم يقدم لجلالته اعضاء بعثته كلا باسمه. هذا كل ما يجرى فى هذه المناسبة التى لا تستغرق كلها اكثر من ثلاثة ارباع الساعة.

---

(١) الافغان ليس لهم بزة رسمية والسعوديون يلبسون الرداء العربى واما الايرانيون والمصريون فلهم بزة رسمية.

حفلات البالو الملكية

ولكن اعظم المناسبات الملكية وأفخمها هى حفلات البالو التى تقام ليلا فى قصر بكنكهام والتى تعرف باسم الحفلات البلاطية (Courts) • ويقام فى كل موسم حوالى اربع حفلات من هذه الحفلات وتحضرها الطبقات التى تحضر (الليفى) ولكنها تمتاز عن هذه الاخيرة بحضور النساء• ولنصف بادىء ذى بدء حضور الهيئة الدبلوماسية احدى هذه المناسبات كما شاهدناها بأنفسنا• فقبل مدة مناسبة من موعد اقامة هذه الحفلة يذيع مدير التشريفات لوزارة الخارجية (Vice-Marshall of the Diplomatic Corps) منشورا الى رؤساء الهيئات الدبلوماسية يخبرهم فيه بالحفلة وموعدها ويطلب منهم تقديم قائمة باسماء من يرغب من اعضاء الهيئة رجالا ونساء فى حضورها• فتعد السفارة او المفوضية قائمة باسماء من يرغب فى الحضور على ان يبين فى الوقت عينه اسماء الموظفين الجدد الذى لم يسبق لهم ان قدموا (Presented) الى جلالة الملك• وعند وصول تلك القائمة يدعو رئيس التشريفات فى البلاط الملكى اعضاء الهيئات الدبلوماسية باسمائهم على ان يستصحب المتزوجون منهم زوجاتهم وبناتهم الرشيدات ان وجدن• وبعد توجيه الدعوة لا يجوز الاعتذار عن الحضور ولا يعد عذرا مشروعا للاعتذار الا حالات المرض الشديد• وان عدم حضور رئيس البعثة بعد ان يتسلم هذه الدعوة لها نتائج سياسية تكون فى بعض الاحيان ذات مغزى بعيد• ان الهيئة السياسية لها امتياز **خاص** (Entree) ذلك ان أعضاءها يزودون ببطاقة خاصة تخولهم حق دخول القصر من مدخل خاص هو غير المدخل الذى يدخل منه بقية المدعوين• وقد اعدت لهم صالتان خصوصيتان تجاوران صالة الاستقبال المخصصة لجلالة الملك وافراد حاشيته والتى تسمى (Presence Chamber) وهى غير قاعة العرش (Throne-Room) •ان اللباس الذى يرتدى فى هذه المناسبة لباس خاص هو بدلة الفراك ذاتها ولكن بدلا من البنطلون الاعتيادى يلبس البنطلون البريجس (Breeches) مع جوارب طويلة تغطى الساق الى ما فوق الركبتين• اما الحذاء فهو نوع خاص يسمى (Pumps) ومن لديه أوسمة او مداليات فعليه ان يعلقها على صدره• (١) اما نساء اعضاء الهيئة الدبلوماسية

التقديم

الحضور

---

(١) يفضل فى كثير من الاحيان تعليق مصغرات الاوسمة بدلا من الاوسمة ذاتها•

فلا قيد فى لباسهن وانما هن يتفنن فيه كبقية المدعوات.

هذا فيما يتعلق بكيفية حضور الهيئة الدبلوماسية الى القصر واللباس الذى يلبسونه فيه. اما بقية المدعوين من رجال ونساء وما يتعلق بكيفية دعوتهم وحضورهم والاتيكيت الواجب اتباعه عند تقديمهم الى جلالة الملك وجلالة الملكة وغير ذلك مما له علاقة بهذه المناسبة الفريدة فيحتاج الى وصف طويل لكنى ساكتفى بذكر نبذة موجزة عنه. ان الغرض من اقامة هذه الحفلات هو تأمين الاتصال بين الشعب والعرش وتوثيق هذا الاتصال. حتى أصبح منية كل انكليزى وانكليزية حضورها وبالاخص تقديمهم الى الحضرة الملكية ولهذا الشرف قيمة اجتماعية عظيمة وخاصة لدى الشابات اللواتى يحلمن باليوم الذى سيتوفقن فيه للحصول على هذا الشرف العظيم ومن تتوفق منهن تكون قد بلغت اعلى منزلة فى الهيئة الاجتماعية.

حضور السيدات

قلنا ان الاوساط التى تدعى لمثل هذه المناسبات هى الطبقة الارستقراطية ورجال الدولة والنواب وكبار رجال المال والتجارة والعلم والقانون والجيش والبحرية والطيران وغيرهم. ولكن البهجة هى فى حضور السيدات والاوانس وتقديمهن. فان العادة الجارية هى ان السيدة التى سبق لها ان قدمت الى الملك لها ان تقدم فى احدى هذه الحفلات احدى قريباتها او صديقاتها ممن تثق باهليتها للتقديم وهى تتحمل كل ما ينتج من مسؤولية اخلاقية او اجتماعية عن ذلك. فتقدم هذه السيدة طلبا الى (رئيس التشريفات فى البلاط الملكى) قبل اليوم الاول من كانون الثانى من كل سنة تخبره فيها عن رغبتها فى تقديم الفتاة الفلانية. وتتبع الطريقة ذاتها اذا اراد احد المدعوين من الرجال ان يقدم احدى قريباته او من يعتمد عليهن من معارفه. وبعد ان يفحص (اللورد تشمبرلين) هذه الطلبات ويتأكد من اهلية الفتاة المطلوب تقديمها ولياقتها، يدون اسمها فى القائمة المعدة لذلك. ويحق لكل سيدة ان تقدم بنتا واحدة علاوة على ابنتها او كنتها ولكن هذه القاعدة لا تطبق فى حالة زوجات اعضاء الهيئة السياسية اذ لا حد لمن يقدمنهن من الفتيات.

تصل مواكب المدعوين والمدعوات الى قصر بكنكهام بعدما تسير وسط جموع من المتفرجين والمتفرجات الذين لم يسعدهم الحظ ولم يكتب لهم

النصيب ان ينالوا هذا الشرف العظيم. فتبدأ الحسان بالتقاطر ويدخلن مدخل القصر الداخلى فيخلعن ما عليهن من زائد اللباس ويضعنه فى المحل المخصص لذلك ثم يتهادين وسط ممرات القصر الجميلة واروقته الفخمة المزينة بأثمن الستائر والسجاد ونوادر التحف يرتقين سلم القصر(The Grand Stair-case) الى الطابق العلوى حيث تقع الصالونات المعدة لهن وبعد هنيهة تبدأ عملية التقديم. فتقدم اولا الهيئة الدبلوماسية واعضاء الحكومة ويلى ذلك تقديم النساء فتسلم كل منهن بطاقتها الى الموظف المختص(The Gentleman-at-Arm) المشرف على مدخل الصالون المجاور للصالة الملكية وهذا ينادى باسمها فيكرره رئيس التشريفات بصوت جهورى مقدما اياها الى الحضرة الملكية. ثم تدخل السيدة الى الصالة بعد ان يتولى نشر ذيل فستانها(Train) وراءها موظفون خاصون وحينما تصل امـام الملك والملكة تقف ثم تواجه جلالتهمـا فتنحنى (Curtsy) مرة للملكة واخرى للملك وبعد ان يرد جلالتهما التحية بانحناء قليل مع ابتسامة طفيفة تتابع سيرها نحو احدى جهات الصالة فتأخذ محلها على احد المدرجات، بعد ان يلم موظفون خاصون ذيل فستانها ويضعوه بين ذراعيها. اما الرجال فيمرون امام جلالتهما متبعين ذلك الترتيب عينه على ان ينحنى (Bow) كل منهم مرة للملكة واخرى للملك. وفى حالة الهيئة الدبلوماسية يقف رئيس البعثة امام جلالتهما فيمر من امامه اعضاء بعثته فيقدمهم واحدا فواحد ذاكرا أسمه لجلالتهما. وبعد ان يتم تقديمهم جميعا يتبعهم رئيسهم مارا من امام الحضرة الملكية. فلا يصافح جلالتهما احدا ولا يقبل ايديهما احد كما كانت العادة جارية فى الماضى. اما لباس من يحضر هذه الحفلة من النساء فيمكن ان يدرك المرء ثمنه واناقته اذا ما علم ان التى ستقدم الى الملك والملكة تنفق المئات من الباونات وتستغرق عدة اشهر لاعداد بدلتها التى يخيطها اشهر خياطى (نايتسبريج)(Knightsbridge) او (بوند ستريت)(Bond Street). ان هذه البدلة يفضل ان تكون بيضاء اللون أو قريبة منه وان تكون اكمامها قصيرة وذيلها طويلا (ان لم تكن من ذوات الذيل الطويل) وعلى السيدة ان تلبس قفازين أبيضين طويلين، وتحمل بيدها باقة من نفيس الزهر او مروحة من ريش النعام وكثير منهن يضعن

تقديمهن الى الملك والملكة

لباسهن

تويجا من المجوهرات (Tiara) على رؤوسهن.

وبعد الانتهاء من مراسم التقديم يقصد المدعوون المقاصف والموائد حيث يقدم اليهم نفيس الطعام والشراب وتدوم الحفلة من الساعة العاشرة مساء الى منتصف الليل.

الحفلات البستانية

والنوع الثالث من الحفلات الملكية التى تقام خلال الموسم هى الحفلات البستانية (Garden Parties) ويدعى الى هذه الحفلات تلك الطبقات التى المعنا اليها آنفا. فهى تقام فى حدائق قصر بكنكهام الزاهية فتعد السرداقات البهية فى اطراف ساحات القصر الواسعة وتصدح الموسيقى الاسكوتلندية بأنغامها المنعشة الشجية. وفى هذه الحفلة يجرى ايضا تقديم الحضور من رجال ونساء الى جلالة الملك والملكة. واتذكر ان عدد من قدمن فى احدى الحفلات التى اقيمت فى عهد الملك ادورد الثامن كان حوالى ألف سيدة ولم يكد يقدم منهن نصفهن الا وجادت السماء بغيثها فتشتت شمل المدعوين وحطمت امال الباقيات وبددت احلامهن فقد كن يأملن الحصول على هذا الشرف يوما اقدم. اما لباس السيدات فهو اللباس النهارى الاعتيادى واما الرجال فيرتدون بدلة البونجور ويجوز بل يتحتم حمل المظلات فى هذه المناسبات درءا لتغير فجائى فى الطقس يؤدى الى هطول الامطار.

ليست هذه الحفلات والمناسبات العامة هى كل ما يحدث فى «الموسم» وانما هناك مناسبات خاصة تقيمها اوساط السوسايتى بعضها لبعض فمن حفلات الرقص (Balls and Dancing Parties) الى حفلات الاستقبال (Receptions) الى ايام القبول (At Homes) الى حفلات الكوكتيل الى الحفلات البستانية الى الحفلات المختصرة كحفلات الشاى. ولكثرة هذه المناسبات اصبح كل فرد من الطبقة الارستقراطية رجلا كان ام امرأة ضيق الوقت كثير المواعيد كما لزم عليه ان اراد الاحتفاظ بمركزه بين تلك الطبقات ان يشترك فى اكثر هذه الحفلات ويكون دائما أمام انظار اصدقائه وخلانه لان من لم يتردد عليهم يكون عرضة للنسيان بالنظر الى كثرة ما يشغل بال اولئك الذين ينغمرون فيما تتطلبه الحياة الاجتماعية.

الدبيبوتانت

وفى كل هذه الحفلات فأن البنت التى بلغت عهد الشباب وهى ما تسمى بالـ (Debutante) هى القطب الذى يدور حوله النشاط الاجتماعى. هذه هى البنت التى بلغت سن الرشد فى تلك السنة فاصبحت موضع اهتمام عائلتها اولا واوساط السوسايتى ثانيا وكثير من الاوساط الشعبية ثالثا. فاول ما تتمناه تلك الغادة هو ان تقدم للبلاط حيث تبدأ عضويتها التامة فى اوساط السوسايتى فتصبح موضع الاعجاب والرعاية فى تلك الاوساط. ويوثق الاتصال بين هذه الغيد الحسان وبين شباب الطبقة الارستقراطية ذلك الاتصال الذى يقصد من ورائه تسهيل الزواج بين عناصر هذه الطبقة ومنعهم من الاختلاط بالطبقات الاخرى. يقرأ المرء فى الصحف المحلية بين حين وآخر ان الوالدة الفلانية قد اقامت حفلة رقص لابنتها او ان العائلة الفلانية اقامت حفلة استقبال اوكوكتيل فخمة على شرف ابنتها وهكذا (١). ولكن هذا النعيم لا يدوم طويلا لهؤلاء الغانيات اذ ان عهد عزهن يقتصر على سنتين او ثلاث فقط ثم يختفى اسمهن ويأفل نجم سعادتهن فى اوساط السوسايتى ولا يعود اسمهن الى الظهور مرة اخرى الا عند عقد خطبتهن ان ساعدهن الحظ على ذلك. ويجب ان يلاحظ القارىء ان البنت الانكليزية هذه او ما تعرف عندنا بالبنت التى (على باب الزواج) ليست لها الحرية الكافية فى الاختلاط والتزاور وهى فى هذا العهد. فقد ترافقها والدتها او احدى قريباتها التى تسمى بالـ (Chaperone) فى كل هذه المناسبات، ولكن التمسك بهذه العادة الفيكتورية صار يخف تدريجيا على مر الزمن.

انتهاء الموسم

لا يكاد شهر آب يولى عن لندن الا واصبحت هذه المدينة العظيمة التى يسكنها فى ايام السلم ما يقارب سبعة ملايين نسمة كانها مدينة الاموات. فالحركة الاجتماعية فيها قد شلت؛ فلا حفلات ولادعوات ولا مسارح ولا مسابقات كما ان الحركة الاقتصادية والسياسية تكاد تكون راكدة، فالبرلمان قد عطل جلساته واغلب الوزراء ورجالات الدولة قد غادروها الى

---

(١) أن اعظم هذه المناسبات هو حفلة (البالو) التى تقام مرة فى كل سنة فى احد الفنادق الفخمة فى لندن والتى تسمى (Queen Charlotte Ball) والغرض منها ايجاد التعاون وتمكين الاتصال بين شابات الطبقة الارستقراطية وشبانها.

الريف

الريف كما ان القسم الاغلب من مستخدمي المحلات التجارية والدوائر يبدأون بالتمتع باجازاتهم السنوية فمنهم من يقصد الريف ومنهم من يقصد ساحل البحر ومنهم من يغادرها الى سواحل فرنسا الجنوبية او الى الريفيرا الايطالية او غيرها من محلات الراحة والاستجمام. وفي الصيف ينتقل مركز الحركة الاجتماعية من لندن الى الريف مبتدئا بموسم صيد القطا الذي يبدأ في ١٢ آب، وهو تاريخ يتذكره جميع هواة الصيد وينتظرون حلوله بلهفة وشوق ثم يتبعه (موسم القنص)(Hunting) . وفي اواسط تشرين الاول يأخذ الناس بالعودة الى لندن لاستئناف اعمالهم الرسمية والتجارية ونشاطهم الاجتماعي الذي يجري خلال هذه المدة في نطاق ضيق ويبقى الى ايام الكريسمس حيث يعود اكثر اوساط السوسايتي الى الريف لقضاء هذه العطلة. وفي كانون الثاني ترجع ثانية الى لندن استعدادا للموسم القادم.

حياة الريف

وحياة الريف امتع من حياة لندن وان طبيعة الفرد الانكليزي الحقيقية ونفسيته وعقليته لا تظهر في لندن ولا في دوائرها اودعواتها او احتفالاتها؛ ولا تظهر عندما يكون الفرد الانكليزي خارج بلاده، فالانكليزي الذي يشاهد في اوربا او في الشرق او في أية بقعة من بقاع العالم ليس هو الانكليزي بوضعه الطبيعي وحقيقته الاصلية. وخفايا الذهنية الانكليزية والاخلاق والطباع والميول تظهر باجلى مظاهرها عندما يعتكف الانكليزي في داره في الريف ويهجر ضوضاء المدن وجلباتها وحينئذ يزداد تقدير الاجنبي قيمة الانكليزي واحترامه له واعجابه به اضعافا مضاعفة. ان لاغلب العوائل الانكليزية الموسرة بيتا في المدينة يسكنون فيه في ايام العمل واخر في الريف يقصدونه في ايام الراحة والعطل. وفي هذا البيت وما يحيطه من بدائع صنع الباري، تجد العائلة الانكليزية راحتها وهناءها. فوسائل التسلية وقضاء الوقت متيسرة لها كالصيد والقنص ولعب الكولف والتنس وصيد السمك والاشراف على زراعة الورود والمخضرات وتربية الدواجن واقامة حفلات الرقص والسمر ولعب الورق ونزهات المسير الطويلة (Walking and Hiking) والسياقة وركوب الدراجات والتسلق والتجديف بانواعه. ويبدأ موسم الهجرة الى الريف بعد انقضاء اسبوع سباق اليخت في (كاوس) وبعد

ان يتم سباق الخيل الشهير فى (كودوود) (Goodwood) فبعد انتهاء هذه المناسبات يدعى الكثيرون من اوساط السوسايتى لقضاء بعض الايام فى دور اصدقائهم وقصورهم فى الريف فى انكلترة الجنوبية، ان لم يكونوا قد تشوقوا الى جبال اسكوتلندة ومناظر (منطقة البحيرات) الجميلة او لم يعاودهم الحنين الى (لاتوكه) او (دوفيل) او غيرهما من مدن فرنسا او ايطاليا الساحلية.

قصور الريف من ادوات الحكم

ولكن دور الريف وقصوره ليست محلات للهو والتسلية فقط انما هى لغرض اكبر واهم من ذلك بكثير فكما وصفها احد المنتقدين الاجانب، هى اداة من ادوات الحكم فى انكلترة. فلعدة ايام من ايام الاسبوع لا سراى الحكومة فى (وايت هول) ولا مقر رئيس الوزراء فى (داونئك ستريت) الا حى (السيتى) هى المراكز التى ترسم فيها سياسة المملكة العليا وانما ترسم وتوجه وتقرر فى قصور الريف على اختلاف انواعها. انه من المتعارف فى انكلتره ان كل عهد من العهود تسوده زمرة صغيرة من المتنفذين فى مختلف نواحى الحياة يعبر عنها بالزمرة المقربة (Best-Set) وان تأثير هذه الزمرة أكثر مما يتصوره الذين يدرسون الامور دراسة سطحية. فهذه الزمرة هى على اتصال وثيق بعضها ببعض فيحصل التفاهم التام بين افرادها بشأن الخطط السياسية او الاقتصادية او الاستعمارية او كل ما يهم شؤون المملكة واتجاهاتها وميولها ثم ينفذ الجهاز الحكومى هذه الخطط. فقبل الحرب الحالية كانت الزمرة التى نحن بصددها تعرف (بزمرة كلايفدن) (Clivedon Set) وقد كان مقرها الرئيسى فى قصر اللورد والليدى آستور فهذه الزمرة كانت تضم كبار رجال السياسة والدبلوماسية والمال والاقتصاد والصحافة والصناعة وغيرهم وكانت صالات ذلك القصر وحدائقه الغناء الواسعة تعج بهم يجتمعون فيها لتبادل الآراء واقرار المناهج ولم يكد دماغ جديد او شخصية قوية تبرز فى المملكة الا ورأيت هذه الزمرة قد احتضنتها وقادتها اليها. ففى (كلايفدن) وضعت اسس سياسة المستر شمبرلين التى كانت تعرف بسياسة التهدئة تجاه دكتاتورى اوربا. وعلى ارشادات (كلايفدن) حمل ذلك الشيخ نفسه اكثر من مرة وطار الى (كودسبرغ) و (برختسكادن) و (مونيخ)

الزمرة المقربة

زمرة كلايفدن

ليوقع بيده وثيقة حط قدر بريطانيا العظمى السياسى. ومن كلايفدن (١) كان السير نفيل هندرسون واللورد (برث) يتلقيان تعليماتهما حول ما يجب عليهما القيام به فى برلين وروما، واليه كانا يرفعان تقاريرهما وملاحظاتهما عما كان يجرى وراء الستار

القصور القديمة

ومن اشهر القصور الاخرى ذوات القيمة التاريخية قصور (Warwick, Wilton, Knole, Blenheim) والتى هى محج لكثير من أفراد الشعب يقصدونها للتمتع بمناظرها وبما تحويه من نوادر التحف والاثار وخاصة التصاوير الزيتية الخالدة لمشاهير الرسامين مثل (Gainsborough, Van Dyke, Watteau, De Vince) وغيرهم.

بيت رئيس الوزراء

ان رقم ١٠ (داوننك ستريت) وان كان مقر رئيس الوزراء عندما يكون فى لندن فان له مقرا خاصا فى الريف فقصر (جيكرز) (Chequers) الواقع على بعد (٣٥) ميلا شمالى شرقى لندن هو مقره فى ايام العطل والاعياد وقد اهدى اللورد والليدى (لى)(Lord Lee) هذا القصر الجميل ليكون مقرا ريفيا لكل من يصبح رئيسا للوزارة.

قصور العائلة المالكة

ان العائلة المالكة الانكليزية غنية بالقصور الريفية واضخم هذه القصور واجملها هو قصر وندسور الواقع فى مدينة وندسور التى تبعد حوالى ٢٠ ميلا عن لندن والمحاط بحديقة (وندسور الكبرى) (Windsor Great Park) المشهورة بوعولها الكثيرة والكبيرة. ففى اشهر الصيف حين تترك العائلة المالكة سكناه يفتح القصر للزيارة العامة لمشاهدة ما تحتوى عليه صالاته من ثمين التحف والتصاوير. وعلى اسم هذا القصر التاريخى اختار الملك جورج الخامس اسم (وندسور) اسما لعائلته بدلا من اسم (Saxe-Coburg-Gotha) كما ان الدوق وندسور (الملك ادورد الثامن) اختار هذا الاسم لدوقيته. ومن هذا القصر التاريخى اذاع خطاب تنازله عن العرش.

وندسور

(١) تبرع اللورد والليدى آستور بقصر كلايفدن والحدائق الواسعة المحيطة به الى الـ(National Trust) قبل سنتين تقريبا ليصبح منتزها عاما لجميع طبقات الشعب لما فيه من ذكريات وطنية خالدة اذ على مسرحه انشد لاول مرة النشيد الوطنى الشهير (Rule Britannia) والقصر يقع فى مقاطعة (Taplow, Bucks)

ساندرنكهام

ومن القصور الملكية الشهيرة قصر سندرنكهام(Sandringham) الواقع في مقاطعة (نورفولك) وكان يتخذه الملك ادورد السابع لسكناه الخاص كما اتخذ حفيده ادورد الثامن قصر (Forte Belvedere)

بالمورال

وفي صيف كل سنة يقضي جلالة الملك وعائلته عدة اشهر بين رعاياه الاسكتلنديين في قصر بالمورال الشهير (Balmoral Castle) الواقع في مقاطعة (آبردينشاير) من اعمال اسكوتلنده. ان هذا القصر قدم هدية للملكة فيكتوريا من زوجها الحبيب البرنس البرت. وفي هذا القصر اتخذ كثير من القرارات التاريخية وعقدت بعض الاجتماعات الخطيرة طوال حكم الملكة فيكتوريا. لقد حرضتني رواية (فكتوريا ريجاينا) على زيارة هذا القصر متجشما عناء سفرة شاقة. وان انسى فلا انسى المخاطر التي جابهتني انا وصديقي الدكتور العراقي الذي رافقني في تلك السفرة، وما زلنا نردد اسماء (Devil's Elbow and Fettercairn) كلما اجتمعنا. ان موقع القصر ومنظره جميلان جدا فهو يطل على نهر (دي) وتحيط به غابات وحدائق هي من اجمل درر الطبيعة.

وهناك قصور ملكية لها قيمتها التاريخية أمثال قصر ادنبره، وقصور (Bernard Castle, Hampton Court, Crystal Palace) (والاخير أحترق وفي النية تشييد قصر مثله تماما ليحل محله).

هذا ما عن لنا ان نقوله عن حياة الطبقة الارستقراطية العامة والخاصة وهي لاشك خواطر سطحية لاتشمل جميع نواحي هذا الموضوع الواسع ولذلك سنقف عند هذا الحد لنلقي نظرة على حياة الطبقات الاخرى سواء منها ما يخص حياتها العامة او الخاصة.

عند تطرقنا الى حياة الطبقة الارستقراطية ذكرنا ان الطبقات الاخرى تشاركها في كثير من المظاهر وتوليها اعتناء واهتماما خاصين حتى انها كثيرا ما تعتبر تلك المظاهر جزءا اساسيا من تراثها القومي وكيانها الشعبي ولكن هناك بعض النواحي التي يمكن اعتبارها خاصة بالطبقات الوسطى والسفلى والتي قليلا ما تشترك فيها الطبقات العليا اشتراكا محسوسا.

الشعب البريطاني والرياضة

ان اتصفت الحياة العامة للشعب الانكليزي بشيء بارز فانما هو انغماسها في الحياة الرياضية والالعاب. ونحن ان عولنا على ان نعود الى بحث هذه النقطة بحثا وافيا في احد فصول الجزء الثاني من هذا الكتاب الا اننا نود ان نشير هنا الى ان المناسبات الرياضية قد تجاوزت حد كونها رياضية بل اصبحت مناسبات اجتماعية وفي كثير من الاحيان اصبحت اشبه بالاعياد الوطنية. فقد رأينا كيف ان يوم (سباق داربي) اشبه بعيد وطني تشترك فيه طبقات الشعب على اختلاف اصنافها ومناسبات السباق الاخرى كسباق الخيل في (نيو ماركيت) وسباق (St. Leger) الذي يجري في (دونكاستر) وسباق (كودوود) وسباق (Grand National) الذي يجري في ليفربول وكثير غيرها هي مطمح انظار وآمال الالوف المؤلفة من ابناء الشعب. ولعل مسابقات كرة القدم والركبي (Rugby) اكثر انواع المناسبات الرياضية التي تستهوي الفرد الانكليزي. ففي كل سبت يجري عدد كبير من هذه المسابقات يحضرها حتى الذين اضناهم شظف العيش وتقطعت بهم الاسباب. ويوم سباق(Cup Final) يصبح مهرجانا شعبيا فريدا. ويكون ملعب (ويمبلدن) و (ويمبلي) وساحة (تويكنهام) وغيرها من محلات السباق والالعاب مركزا لكل نوع من الالعاب الرياضية التي لا تدخل تحت حصر. فلا يمر يوم الا وتظهر مناسبة رياضية لها مريدوها وانصارها يترقبون اخبارها ونتائجها بالدقائق.

المناسبات الرياضية

المناسبات الدينية والوطنية

وهناك مناسبات اخرى منها الدينية ومنها الوطنية يحتفل بها الشعب عن بكرة ابيه. فيستقبل الشعب البريطاني سنته الجديدة بعيد رأس السنة (New Year's Day) حيث يحتفل بهذا العيد بالفرح والمرح سواء باحياء مناسبات عائلية خاصة او بالاشتراك في الحفلات والسهرات التي تعقد في المسارح والمراقص والمطاعم. وهناك حفلات خاصة تسمى (Gala Nights) تمتاز ببهجتها ومرحها. وما حلت الساعة الاولى من السنة الجديدة الا واطفئت الانوار لبضع دقائق وجاز للحضور ما لا يجوز لهم عند انارتها. وفي هذه الليلة يطلق الكثيرون لانفسهم العنان للتمتع بالمسكرات فترى شوارع (ويست اند) مكتظة بمن افقدتهم الخمرة وعيهم، والعياذ بالله من (السكرة الانكليزية). ولعل امتع ما يجري في هذه الليلة من الحفلات والمناسبات العامة

رأس السنة

هى السهرة التى تقام فى (قاعة البرت) وتسمى (Chelsea Art Ball) والتى يشترك فيها الوف من طلاب اللهو والمرح. ومما يزيد فى بهجتها ارتداء الحضور مختلف الازياء(Fancy Dress) واغربهـا ومنهـا ما يكون مبتكرا حقا فيأخذ صـاحبه لقـاء هذا الابتكار جـائزة ثمينة. ويظهران (الجراوية) الملفوفة لفة (أعدام) و (عرقجين الجنازة) و (الزبون البتة) والدميرى والهميان (والعباية النايين ام الكلبدون ذات سبع تختات) و (يمنى بغداد) لم تكن غريبة عن تلك الازياء بدليل انها لم تربح شيئا من الجوائز ؟؟

يوم اربعاء الرماد

ومن المناسبات الاخرى التى يحتفل بها (الروم الكاثوليك) من الانكليز هو يوم اربعـاء الرمـاد او يوم التوبة(Ash Wednesday) الذى يصـادف فى غضون شهر شباط من كل سنة. وقد سمى كذلك لاستعمال الرماد اثناء جريان الطقوس الدينية فى ذلك اليوم. وهذا الرماد هو من بقايا احراق شجرة النخل التى جرى تبريكها فى يوم احد النخلة (Palm Sunday) والمراسم التى تجرى فى الكنيسة احتفاء بهذا اليوم تتلخص بوضع هذا الرماد فى كأس خاص ثم يقوم الراهب بتغطيس اصابعه فى هذا الكأس ويبارك بها الحضور على جبينهم قارئا آية من الكتاب المقدس تتضمن معنى الآية الشريفة (منها خلقناكم واليها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) ثم يضع الراهب كأس الرماد على رأسه بكل سكينة ووقار.

يوم القديس داود

وفى الشهر التالى (اذار) يصادف يوم زيارة القديس داود (St. David's Day) وهو عيد يهم سكان منطقة (ويلس) اكثر من غيرهم اذ ان كنيسة القديس داود تقع فى احدى مقاطعات تلك المنطقة. ومن المعتقدات العامة التى تخص زيارة هذه الكنيسة هى ان كل زيارتين من زياراتها تعتبر كانها حجة واحدة لمدينة روما نفسها.

يوم القديس باتريك

وفى الشهر ذاته تقريبا يصادف عيد القديس باتريك (St. Patrick's Day) وهو عيد ارلندى كما يهم عيد القديس داود ابناء ويلس بالدرجة الاولى. ويعتبر هذا اليوم يوم عطلة البنوك فى ارلندا بصورة خاصة.

يوم القديس آندروز

وللاسكوتلنديين عيد يماثل عيدى القديس داود والقديس باتريك وهو عيد القديس آندروز (St. Andrew's Day) وفى احـدى مدن اسكوتلنده

المسماة بهذا الاسم توجد كاتدرائية قديمة يطلق عليها هذا الاسم.

يوم القديس جورج

وانكلتره تحتفل مقابل الاعياد الثلاثة التى عددناها آنفا بعيد القديس جورج (St. George's Day) وهو الذى يكون فى اليوم الثالث والعشرين من نيسان من كل سنة. وقد اعتبر هذا اليوم منذ عهد الملك ادورد الثالث من الاعياد الوطنية لا من الاعياد الدينية فقط فصار الشعب يحتفل بهذا اليوم كما يحتفل العوام عندنا بليلة النصف من شعبان (المحية) وذلك باطلاق الالعاب النارية وما شاكلها من وسائل التسلية.

يوم الجمعة العظيمة

وفى شهر نيسان تحتفل انكلتره وايرلندة الشمالية بيوم الجمعة العظيمة (Good Friday) وهو يوم الجمعة الذى يسبق عيد الفصح وتعطل فيه جميع الاعمال التجارية وغيرها. ان ايام هذه العطلات الوطنية على اختلاف انواعها تعرف فى انكلتره بايام (عطلة البنوك)(Bank Holiday) وهى عطلات وطنية عامة يتمتع فيها الموظفون والعمال بعطلة مع الراتب والاجور.

عيد الفصح

واعظم الاعياد الوطنية ـ الدينية هو عيد الفصح (الايستر) (١) وهو اول يوم احد يعقب ثانى سبت من شهر نيسان من كل سنة. والمعلوم ان تثبت هذا التاريخ كان موضوع خلاف بين الكنيسة الغربية والشرقية قرونا عديدة لكن تثبيته جرى مؤخرا جدا عندما ابرم البرلمان الانكليزى قانون عيد الفصح (Easter Act) لسنة **١٩٢٨** الذى نفذ اعتبارا من نيسان **١٩٣٠**. ولما كان يوم الاحد هذا عطلة الاسبوع الاعتيادية فقد اعتبر يوم الاثنين الذى يليه يوم (عطلة البنوك) وبما ان العيد يصادف فى الربيع فقد اصبح من ابهى الاعياد فى انكلترة ففيه ينتهز كل فرد من افراد الشعب هذه الفرصة لقضاء عطلته خارج المدن فتبلغ الحركة على سواحل البحر وفى الارياف والمتنزهات العامة اشدها.

عيد العنصرة

وبعد سبعة اسابيع من عيد الفصح يحل عيد العنصرة (Whit Sunday) ولما كان يوم الاحد يوم عطلة الاسبوع فقد اعتبر يوم الاثنين الذى يليه يوم (عطلة البنوك) كما هو الحال فى عطلة عيد الفصح.

---

(١) ان كلمة (Easter) مشتقة من كلمة (آلهة الربيع) اللاتينية.

كرنفال الليدي كودايفا

وفي اليوم الحادي والثلاثين من شهر أيار من بعض السنين (٢) يؤم مدينة (كوفنتري) خلق كثيرون لمشاهدة المهرجان الشهير بكرنفال الليدي كودايفا فيقيم اهالي مدينة كوفنتري التي اشتهرت الان بانها اكثر المدن الانكليزية تأثرا بالقصف الجوي، حينما مركزت عليها الطائرات الالمانية قصفها سنة ١٩٤٠–١٩٤١ مهرجانا عظيما يشترك فيه معظم اهالي المدينة وكثير من المشاهدين فيطوف الكرنفال في شوارع المدينة تتقدمه سيارة مفتوحة تحمل غادة جميلة، احياءا لذكرى الليدي (كودايفا) التي ساعدت الاهلين على رفع الضرائب الفادحة التي كان قد فرضها عليهم حاكمها اللورد (ليوفريك)(Lord Leofric) ٠وقصة الليدي كودايفا هي بحد ذاتها قصة ممتعة وملخصها انه يروى ان سكان المدينة المذكورة توسلوا الى زوجة الحاكم المشهورة بجمالها الرائع ان تقنع زوجها بان يرفع عنهم الضرائب المرهقة ولما فاتحته بالامر رفض اجابة طلبها الا اذا قبلت بتنفيذ شرط يفرضه هو عليها وكان هذا الشرط هو ان تسير راكبة حصانا وسط شوارع المدينة وهي عارية تماما لا يسترها الا شعرها الطويل فوافقت الزوجة الحسناء على ذلك ونادى المنادي في المدينة ان على جميع السكان ان يقبعوا في بيوتهم ويحكموا الشبابيك والمنافذ وان لا يظل احد منهم على الشارع او يحاول القاء النظر على الزوجة العارية٠ فنفذوا جميعهم هذا الامر الا واحد وهو خياط المدينة المسمى (توم) الذي صار يسترق النظر من بين شبابيك داره٠ وقد كف الله بصره جزاء خيانته هذه فصار اصطلاح (Peeping Tom) يضرب مثلا لمن يكثر من التدخل الدنيء في شؤون غيره٠

الاعياد الوطنية

وأبناء الشعب على اختلاف طبقاتهم ممن تمكنهم ظروفهم الخاصة لا يتهاونون في حضور المراسم والمهرجانات التي تقام بمناسبة حلول بعض الاعياد الوطنية بغض النظر عما قد يقاسونه من الصعوبات والمتاعب٠ وهذه المناسبات كثيرة جدا اهمها يوم اعتلاء الملك العرش (Accession Day) ويوم ولادة الملك ويوم ولادة ولي العهد (او ولية العهد) ويوم افتتاح البرلمان

(٢) هذا المهرجان لا يحدث في كل سنة واتذكر اني شاهدته مرة واحدة خلال السنين التي قضيتها في انكلتره٠

ويوم استعراض اللورد مابر (Lord Mayor's Show) • وفى ليلة ١١ تشرين الثانى من كل سنة تقام المراسم حول تمثال الجندى المجهول فى شارع البرلمان تخليدا لذكرى يوم هدنة الحرب الماضية فتشترك فيها البلاد من اقصاها الى ادناها بدوائرها ومعاملها ومصالحها وذلك بالسكوت بضع دقائق فى الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم• وفى ضحى كل ليلة يعج شارع (بال مال) (Pall Mall) بالناس لمشاهدة استعراض تبديل الحرس (Changing of the Gaurds) الذى يجرى امام قصر سانت جيمس• ويوم ١٢ ايار من سنة ١٩٣٧ كان من الايام المشهورة فى تاريخ بريطانية الحديث وهو تاريخ تويج الملك جورج السادس والملكة اليزابيث ولاشك ان من كتب له الحظ مشاهدة ذلك اليوم والاشتراك فى المراسم التى اقيمت فيه سواء من رعايا الامبراطورية ام من الاجانب، فقد شهد يوما من اعظم أيام حياته• وان دل ذلك على شيء فهو مبلغ تعلق الامبراطورية البريطانية عامة والشعب البريطانى خاصة بالنظام الملكى القائم•

عيد الميلاد

وتختتم السنة بعيد الميلاد(Christmass) اهم الاعياد الدينية والوطنية على الاطلاق• وهو عيد للافراح والمسرات اكثر منه عيد للورع والتقوى بخلاف ما يلاحظ فى الممالك المسيحية الاخرى• فهو اليوم الذى يجتمع فيه شمل العائلة؛ وهو اليوم الذى تقام فيه الولائم وتؤدى الزيارات، وهو اليوم الذى يترقبه الاطفال والشبان والشيوخ والعجائز كل بانتظار ضالته، وهو اليوم الـذى يجرى فيه تبـادل الهدايـا بين الاقربـاء والاحبـاء ولعل الاطفـال هم اكبر النـاس حصة فى هـذا العيد• يفيق الطفل صباح اليوم الخـامس والعشرين من كـانون الاول فيرى ان الاب كريسمس (Father Christmass) قد ملاله أحـد جواربه المعلقة بجنب سريره، بأتحف الهدايا واجملها كاللعب على اختلاف انواعها والحلويات وما شاكلها• ويلقن الاطفال قصة مجيء (الاب كريسمس) ودخوله البيت وهى انه يأتى طائرا فى الجو وراكبا على مزلقة تجرها الايائل فيدخل البيت من مدخنة الموقد مرتديا جلبابا وقلنسوة مصنوعين من قماش ذى لونين أخضر وأحمر• وفى صباح ذلك اليوم السعيد تجتمع العائلة، وقد حضر البيت افرادها المنتشرون فى مختلف

ارجاء العالم، حول المائدة التى تضم بقية الهدايا من التى لم تسعها الجوارب.
فيجلس الجميع لتناول طعام الافطار وليس للانكليزى فطور شهى ان لم يحتو
على صحن من البيض ولحم الخنزير. وبعد الظهر من اليوم عينه تجتمع العائلة
حول شجرة الكريسمس وقد زينت بالانوار واوراق الزينة ذات الالوان
البراقة واغصان نبات من النباتات المتسلقة وبعد تناول الشاى والكعك الذى
صنع خصيصا لهذا اليوم توقد انوار الشجرة فتزيد البيت بهجة وسرورا.
وعندما يحل المساء يجلس افراد العائلة مع من دعى من اصدقائهم حول
المائدة فتدار عليهم اكلة الكريسمس الشهيرة وهى الديك الرومى وحلو
الكريسمس (Christmass Pudding) وكأنما هذه الاكلة فريضة على كل فرد
من الناس وربما كانت من الفروض الدينية. واعداد حلو الكريسمس هو
اختصاص انكليزى فتصرف العائلة وطباخها أياما عديدة لتحضير المواد
الاولية التى يصنع منها هذا الحلو والتى تتجاوز فى بعض الاحيان العشرين
من جملتها بعض النقود الصغيرة الحجم (Lucky Dip) التى توضع فى الحلو
فمن ظهرت فى حصته كان اوفى حظا من غيره.

ولا يتصف عيد الكريسمس بكونه يوم جمع الشمل ويوم المرح
والسرور الذى يسود البيت، بل انك اذا زرت القرى والارياف استهوتك
تلك الاناشيد والاغنيات الخاصة بهذا اليوم (Christmass Carols) ترتلها زمر
الاطفال والصبيان فى شوارع القرى ومنتزهاتها. وهو ايضا يوم لاظهار خصلة
سامية من خصال الشعب الانكليزى الا وهى خصلة الكرم والسخاء فترى
افقر الناس يفكر فى تقديم هدية عيد الكريسمس الى احد اصدقائه أو اقاربه
حسب ما تساعده حالته المالية ناهيك بالموسرين وذوى السعة. فتكتظ دوائر
البريد بالناس ليتسلموا هدايا العيد كما تكتظ شوارع المدن ومخازنها بهم
وكل قد تأبط رزمة حوت هدية لعزيز او عزيزة. وان لم تكن الصلة بين
الاصدقاء قريبة جدا بحيث تتطلب تقديم الهدية فان تبادل بطاقات العيد هى
من دلائل حفظ الود والاحترام ومن وسائل الذكرى. ولا يغفل احد عن
مبادلة بطاقات العيد مع اصدقائه مهما كان الواحد منهم بعيدا عن الاخر حتى
ولو كان فى جبهات القتال.

والاطفال يتشوقون لهذا العيد لسبب آخر ، وهو أن خلال أيام الكريسمس تعرض المسارح نوعا خاصا من الروايات التمثيلية الصامتة التى تمثل قصصا خيالية (سواليف) يهواها الاطفال كثيرا وهذه الروايات تدعى (Pantomimes) وهى محدودة العدد يتكرر عرضها فى كل سنة واشهرها هى (Cinderella, Goody Two Shoes, Babes in The Wood, Peter Pan, and Alice in Wonderland)

حياة الشعب الخاصة فى البيت

لقد قلنا الشىء الكافى عن الحياة العامة ومظاهرها لمختلف طبقات المجتمع البريطانى . اما الحياة الخاصة فاهم ما فيها هو البيت وقد تكلمنا عنه باسهاب فى الفصل الثانى . ويلى البيت اهمية وتأثيرا فى حياة الفرد الانكليزى الخاصة النادى . ليست انكلترة الحقيقية هى ما يشاهده الغريب فى الشوارع والمحلات العامة والمدن الكبيرة ، وليس الانكليزى بحقيقته الاصلية هو ذلك الشخص الذى تتصل به فى محل عمله او فى مجال لهوه . انما هناك ناحية تعتبر على الاكثر من خفايا الحياة الانكليزية ولكنها فى الواقع من اهم نواحيها ؛ الا وهى حياة النوادى . ومع ان النوادى باعتبارها مؤسسة اجتماعية كانت على عهد الامم الغابرة كالرومان واليونان لكنها لم تزدهر ولم يعل شأنها فى عهد من العهود ولا فى بلد من البلدان كبلاد الانكليز حتى اصبحت أحد عوامل ثلاثة أثرت فى تكوين الاخلاق العامة والمزايا الفردية للشعب البريطانى ؛ وهى النوادى والمدارس الخاصة والجامعتان القديمتان اوكسفورد وكمبرج . ان الانكليزى بطبعه انسان يتوق الى حياة النوادى . ولكن ليس هذا هو العامل الوحيد فى ازدهار هذه الحياة فى انكلترة بل هناك عوامل اخرى ، منها ان الشعب الانكليزى كما قلنا فى بدء هذا الفصل شعب قد اعترف بالنظام الطبقى واقره وجعله جزءا من نظامه الاجتماعى وعنصرا اساسيا من عناصر نفسيته فنتج من ذلك ان الاوساط التى تنتمى الى طبقات معينة قد فضلت الاعتزال عن الطبقات الاخرى واوجدت كل منها مركزا وموئلا خاصا بها فكان ذلك هو النادى . ثم ان التربية التى تلقاها كثير من الانكليز فى المدارس الخاصة وطراز الحياة ونوع المعيشة فيها هى التى جعلتهم يفضلون اتباع هذه الحياة وهذه المعيشة حتى بعد الحياة المدرسية فوجدوا فى النوادى

النادى

النوادى فى انكلترا

خير وسيلة تتفق ورغباتهم وميولهم. وقد بدا عامل آخر له اثره الكبير في نجاح النوادي في انكلترة وهذا العامل هو نمو الفكرة البوهيمية (Bohemianism) وانتشارها بين الشعب. فقد سادت هذه الفكرة وبلغت ذروتها في النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما اخذت كل فئة تقاربت اهواؤها وميولها تعيش وحدها بالطريقة التي تهواها منعزلة عن بقية اوساط المجتمع ثائرة على النظم والطرق التي اقرها المجتمع وألفها. وبسبب انتشار هذه الفكرة رأيت الكتاب والمفكرين يجتمعون وحدهم والعلماء يرتادون منتداهم الخاص بهم والفنانين قد اوجدوا لهم محيطا وجوا خاصين بهم وهكذا صارت النوادي تنمو وتزداد في انكلترة على مر السنين تبعا لتشعب الافكار والمبادىء والميول والاذواق وتباينها.

اسباب نجاحها

ان كان بيت الانكليزي، كما قلنا، قلعته الحصينة فان ناديه هو قلعته ومعبده في آن واحد. ففيه يجد الفرد راحته الجسمية والفكرية وفيه يشعر باحترام حريته الشخصية واستقلاله الفردي كما لو كان في حصن منيع. وان ذلك الهدؤ والسكون والوجوم الذي يسود جو النوادي الانكليزية هو اشبه شيء بالهدؤ والسكون والوجوم الذي يستحوذ على الشخص عندما يقف خاشعا امام ربه وانك ان دخلت احد هذه النوادي تصورت نفسك في احد المعابد القديمة يسود جوها الهدؤ والسكون وآثار القدم والمحافظة. وان الشعور الذي يعتورك عندما تدخلها لا يختلف حقيقة عن شعور من يدخل مسجدا او مزارا، او شعور من أم معبدا او كنيسة ويحاذر ان يكشف أمره. فزيارة النوادي الانكليزية ولا سيما النوادي الخاصة منها (Exclusive Clubs) تلك النوادي التي تقتصر عضويتها على فريق محدود من الاعضاء، ليس بالامر السهل وبعضها لا تسمح لزائرها ان يدخلها مهما كانت منزلته وظروفه. يجلس العضو على مائدة الطعام ولا يريد ان يدري أبشر جلس الى جانبه ام حجر، وكانما قد حظر عليه ان يكلم غيره. وربما كانت هذه الحالة من المميزات التي تميز الانكليز من الاجانب. فكثير من الاجانب يعتقدون ان الكلام الزائد يسبغ عليهم شيئا من الفضل. اما الانكليزي فيتصور انه يصل الى هذا الهدف اذا هو احجم عن الكلام الزائد. ولا يقف الامر عند الكلام

النادي هو القلعة والمعبد

وحده بل الانكليزى وهو فى ناديه لايأبه لمن يدخل الى النادى أو يخرج منه بل لا يكلف نفسه القاء نظرة على من دخل او على من امامه، كائنا من كان. ولشدة تعشقه لحريته وراحته وهو فى ناديه منع كثير من النوادى الانكليزية قبول السيدات بل دخولهن زائرات لان كثيرا من الاعضاء يرون المرأة تقلق راحتهم وتنغص عليهم هناءهم.

تنظيم النوادى

واكثر النوادى الانكليزية يشبه بعضها بعضا بتنظيمها وترتيبها. ففى كل ناد مكتبة عامة؛ واكثر النوادى تضم نخبة ممتازة من التحف والنوادر والتصاوير؛ وكثير منها تهىء للاعضاء الغذاء ووسائل النوم. وفى النادى غرفة للاستراحة واخرى للقراءة والتدخين وغيرها للكتابة والتدخين، والاعضاء يحافظون على انظمة ناديهم بطبيعة حالهم ومن دون تكلف كانما اصبحت هذه الانظمة وطريقة مراعاتها جزءا من نفسيتهم وطبيعتهم. ولعل اهم ما يلفت نظر الزائر الى هذه النوادى هى تقاليد القدم وروح المحافظة. فالنادى يحرص على ادامة آثاره واثاثه بالنظر الى ما لها من التأثير النفسى فى الاعضاء كلهم فما اعظم الوقع الذى يحس به أديب او شاعر او كاتب مثل كالزورثى، او دى لامار، او اليوت، او توماس مور او الك وو عندما يعلم ان نادى (الاثينيوم) او (السافيل) هما تلك النوادى التى كانت تضم كبار اسلافه الادباء قبل عشرات من السنين. وما اعظم التأثير فى نفسه عندما يعلم ان الكرسى الذى يجلس عليه الآن او الموقد الذى يتدفأ بقربه او الكتب التى يطالعها هى التى استعملها قبله تينسون، وديكنز وكبلنك وهاردى او غيرهم من كبار الادباء والشعراء.

النادى هو معهد تدريب الجنتلمان

لقد عددنا فى الفصل الاول صفات (الجنتلمان) ومزاياه أما اذا اردت الاطلاع عليه بحقيقته الاصلية فيمكنك ان تلقاه فى النادى. ففيه تعلم من هو الجنتلمان وكيف يعاشر غيره وكيف يتكلم وكيف يجلس وكيف يأكل وكيف يقرأ وكيف يفكر. فالنادى هو المعهد الحقيقى الذى يتدرب فيه الجنتلمان الانكليزى، وان تصرف الشخص فى ناديه هو المقياس الذى تقاس به منزلته وقيمته الاجتماعية. ولذلك صار فصل الشخص من النادى يعادل أسقاطه من الهيئة الاجتماعية أو تجريده من حقوقه المدنية فلا ينظر اليه الناس بعدئذ

نظرة احترام ولا يوثق بقوله او بعمله وكانما نودي عليه بالتحريم. ان حياة النوادى فى انكلترة تتغير وتتقدم يوما بعد يوم حتى صارت تؤثر فى الحياة العائلية البيتية. فمعظم الاعضاء صاروا يقصدونها لتناول طعامهم كما ان اغلب نوادى (بيكادلى) و (سانت جيمس) صارت محلات للسكنى. ولا يقتصر الامر على الاكل والمنام فالنادى علاوة على ذلك هو محل للمطالعة والدرس ودائرة لاكثر الاعضاء يقومون فيها بمكاتباتهم ومراسلاتهم الشخصية.

والمهم فى النوادى الانكليزية أن رسوم الدخول والاشتراك فيها باهظة جدا ففى بعضها كالنادى المسمى (The City of London Club, of Old Brood St.) يبلغ رسم الدخول فيه مائة باون وهو خاص باقطاب التجارة والمتمولين ولا تتسنى عضويته لغير هذه الطبقة من الناس. وفى الوقت ذاته فان من بين النوادى ما يمكنك ان تنتمى اليها وتصبح عضوا فيها كما لو ذهبت الى السينما او الى المسرح واشتريت بطاقة الدخول. فرسوم الدخول فيها زهيدة جدا كما ان مراسم الترشيح والتحقيق عن هوية العضو مفقودة. ولا شك ان هذا النوع من النوادى بعيد عن النادى الانكليزى الحقيقى الذى نحن بصدده.

انواع النوادى

وفى لندن أندية لكل مهنة وكل حزب وكل فئة مهما تباينت اذواقها وآراؤها وميولها. فهناك النوادى السياسية التى تلعب دورا خطيرا فى الحياة السياسية للمملكة. فلكل حزب سياسى ناديه الخاص به تعقد فيه الاجتماعات السياسية التى لا يمكن البحث فيها فى قاعة البرلمان واروقته. فحزب المحافظين مثلالهم نادى (Conservative Club) ونادى (Carlton) الذى يعتبره الاحرار والعمال وكرا تحاك فيه مؤامرات المحافظين ودسائسهم. وحزب الاحرار الوطنيين لهم ايضا ناديهم الخاص وهذه النوادى هى حزبية صرفة. ولكن هناك نوادى اخرى ولوانها سياسية لكنها لا تتقيد بالحزبية كنوادى (St. Stephen, Constitutional, Reform, "1900") وللهيئة الدبلوماسية فى لندن نواديها الخاصة. وفى بلد مثل انكلترة يتصف شعبها بقلة الاختلاط وبالعزلة عن الاجانب اصبح من الضرورى جدا لاعضاء الهيئة الدبلوماسية ان تجد لها وسطا يضمها ببعض الطبقات المتنفذة من الشعب. ونادى (سنت

جيمس) هو اهم هذه النوادى وهو يبدى تسهيلات خاصة فى رسوم الدخول والاشتراك لاعضاء السلك الدبلوماسى فى لندن. ومن النوادى الاخرى التى يرتادها اعضاء السلك الدبلوماسى اكثر من غيرها هى نوادى (Travellers & Orleans) وهناك عدد كبير من النوادى الادبية والعلمية والفنية واهمها نادي (الاثينيوم) (Athenæum) الذى يضم كبار رجال الادب فى انكلترة وهو من احسن النوادى موقعا وبناء وتنظيما. ونادى (سافيل) (Savile, of Brook St.) هو ثانى النوادى الادبية فى لندن وهو فى الوقت عينه يضم بين اعضائه عددا كبيرا من كبار الكتاب والادباء وعلى رأسهم (أج. جى. ويلز). ونادى المؤلفين (Author's) هو احدث هذه النوادى الادبية. وللفنانين ناديهم الخاص وهو نادى (Savage) كما ان الممثلين لهم نواديهم الخاصة وهى (Garrick, Rehearsal, Green Room) . والصحافيون يجتمعون فى نادى الصحافة (Press Club) وهناك اندية تدعى (Varsity Clubs) وهذه خاصة بطلاب الجامعات واشهرها نادى جامعتى اوكسفورد وكمبرج ونادى (الجامعة الحديثة) (New University) وبعض النوادى لاتعنى باية ناحية من النواحى وانما هى اجتماعية تعنى براحة اعضائها قبل اى اعتبار آخر واهمها (Boodles, Buck's, Bachelor's, Aldwych) وللقوات المحاربة نواديها الخاصة كنادى (Army and Navy; and Guards) وهناك ناد يضم اعضاء اغلبهم ممن لهم خدمات فى مختلف ارجاء الامبراطورية(United Service) ويندر ان ترى عضوا من اعضائه الا وله خدمات فى زاوية من زوايا المعمورة ومن يرغب فى ان يطلع على أحوال البلدان الاجنبية فليقصد هذا النادى ومن المؤكد انه يجد احد اعضائه ممن قضى معظم سنى حياته هناك. روى ان شخصا اراد السفر الى جزيرة (سانت هيلانه) فقصد هذا النادى ليتعرف بمن يحيط بها معرفة وعلما فاستدعى خادم النادى واخبره بمطلبه فذهب يستقصى الخبر ويسأل الاعضاء عمن رأى تلك الجزيرة. فعاد الى الرجل وقال له: سيدى لم اجد احدا من بين اعضاء النادى الحاضرين من كان فى تلك الجزيرة سوى هذا (مشيرا الى تمثال نابليون النصفى القائم فى احدى صالات النادى !).

نوادى النساء

وللنساء نواديهن الخاصة فقد وجدن انفسهن مرغمات على تأسيسها لان اكثر نوادى الرجال لا تسمح بدخولهن حتى ولو بصفة زائرات كما ذكرناه وهن ايضا مقابلة بالمثل جعلن نواديهن خاصة بجنسهن اللطيف فمنعن الرجال عن ارتيادها حتى ولو بصفة زائرين. ويروى ان البرنس اوف ويلس (الملك ادورد السابع بعدئذ) رافق الاميرة زوجته التى كانت عضوة فى نادى (الكسندرا)(Alexandra Club) ولما هم بالدخول منعه حاجب النادى قائلا له بتأدب! مولاى الدخول ممنوع على الرجال. ومن اشهر نوادى النساء فى لندن هو نادى (الامبراطورة)(Empress Club) وهو ناد طبقى تقتصر عضويته على سيدات الطبقات العليا. كما ان نادى (Victoria) ونادى (New Century) مفتوحة لجميع السيدات على اختلاف مراكزهن الاجتماعية.

النوادى الليلية

وهناك ما تسمى بالنوادى الليلية (Night Clubs) وهذه ليست نوادى صحيحة ولكنها اشبه شيئا بالحانات. ففى محلة (سوهو) مئات من هذه المواخير التى كثيرا ما تكون بؤرة للجرائم الاخلاقية. وسبب وجود هذا النوع من المحلات فى لندن هو صرامة قانون تعاطى المسكرات. ففى انكلترة لا يجوز فتح محلات بيع المسكرات بعد الساعة الحادية عشرة مساء وفى كثير من الحانات العامة(Pubs) تقدم الساعة بضع دقائق حتى اذا آذنت الحادية عشرة أنتزعت الكؤوس من ايدى الشاربين واطفئت الانوار واقفل المحل ابوابه. هذا ما يجرى فى بلد الحرية والديمقراطية فلا يغيظن احدا ان كانت مثل هذه القوانين تطبق فى بلد شرقى مسلم مثل العراق. ومن جراء اغلاق جميع محلات بيع المسكر على اختلاف درجاتها فى منتصف الليل صار طالبو اللهو والملذات من كلا الجنسين يقصدون هذه النوادى للاستزاده منها وكثيرا ما تعرف هذه النوادى (Bottle Arties) . وكثيرا ما تكبس هذه المجتمعات الشرطة لمخالفتها القوانين بتقديمها المشروبات الكحولية الى الزبائن بعد الساعة الثانية. وتخلصا من صرامة هذه القوانين وتعنت اصحاب هذه النوادى الذين صاروا يطلبون اثمانا باهظة للمشروبات التى تقدم فى غير الساعات القانونية لتلافى الغرامات التى قد تفرض عليهم فى حالة كبس

البوليس محلاتهم، اخـذ الشبـان وصديقـاتهم يلتجئون الى بيوتهم (Flats) حيث يتابعون قضاء سهرتهم بكلفة اقل وبحرية اوسع.

حياة الشارع

ان السبب الاساسى الذى جعل للبيت والنادى هذه الاهمية فى حياة الفرد الانكليزى اليومية هو فقدان المقاهى (والكازينات) التى يؤمها الناس فى ساعات فراغهم. اما فى انكلترا فلا توجد مقهى او كازينو بالمعنى الذى نفهمه من هذه المحلات يؤمها من يريد قضاء بضع ساعات من وقته اومن يريد تناول كأس من الشاى او القهوة او قدح من المرطبات. فالمطاعم ومحلات شرب الشاى وصالونات بعض الاوتيلات الكبيرة هى المحلات الوحيدة التى يمكن الالتجاء اليها للاغراض المذكورة ولكنها ليست معدة لاكثر من الغرض الذى فتحت من أجله. فاكثر المطاعم تفتح خلال ساعات اوقات الطعام واذا ما انتهى الشخص من غذائه فعليه ألا يبقى فى المطعم اكثر من المدة اللازمة لتناول قهوته وسيكارته وان تأخر عن ذلك فكانما يشعران العيون ترقبه عن كثب. وعادة قضاء الوقت فى المقاهى والكازينوات المطلة على طرفى الشوارع الكبيرة سائدة فى اغلب الاقطار الاوربية والشرقية اما فى انكلترة فهذه العادة تكاد تكون معدومة. فلم ار فى جميع انحاء انكلترا مقهى من النوع الذى يشاهد فى فرنسا او عندنا فى الشرق (١) يجلس الناس فيه ساعات طويلة يرقبون الرائح والغادى. وسبب ذلك اولا لان الجو الانكليزى لا يساعد الناس على ارتياد المقاهى المفتوحة وثانيا طراز حياة الشعب. فليس للانكليزى وقت رخيص يقضيه عبثا فى المقاهى فهو اما ان يكون فى عمله واما ان يكون فى بيته واما ان تراه فى طريقه بين الاثنين مستعجلا مهرولا كانما موعد حركة قطار او باخرة قد ادركه. وليس الشارع فى انكلترا متنزها فلا ترى احدا يسير على الارصفة لغرض النزهة، كما يندر ان تلاقى شابا طوق ذراعه ذراع رفيقته يتناجيان بالغرام وهى مناظر مألوفة فى اوربا. ولا احد يكلمك او يعترضك او يضايقك فى طريقك كما يندر ان ترى من يطل عليك من شباكه او شرفته او من وضع المقاعد امام مدخل الدار جاعلا منه ناديا او ديوانا. فـالبيت

---

(١) الا اذا أستثنيا بار (Oddeninos) المطل على شارع (ريجنت) والذى ليس فيه اكثر من اربعة كراسى او ستة.

الانـكليزى، على العكس من البيت الاميريـكى، معزول عزلـة صحيحة عن الشـارع فيستحيل ان يصادف الزائر لانـكلترة بيتـا ترك بابه مفتوحا على مصراعيه كما ان اكثر البيوت تعزلها عن الشارع حواجز من الفولاذ. وان شبابيك الدور يسترها اكثر من ستار واحد.

صفات الشوارع الانكليزية

واول ما يلفت النظر فى الشوارع الانكليزية هو التناسق والتشابه بين ابنيتها. فترى احد الشوارع وقد بنيت جميع أبنيته بنوع معين من الحجر واخر قد طليت جميع ابنيته بلون خاص من الطلاء، وفى شارع اخر تكون واجهة البيوت من طراز واحد : خمس او سبع من الدرجات وعمودان تعلوهما شرفة صغيرة. وما وراء اغلب هذه الشوارع توجد اروقة ضيقة تدعى (Mews) يطل عليها قسم الخدم. ومدينة لندن خاصة كما كانت قبل الحرب الحالية وقبل ان توضع الخطط الجديدة لاعادة تنظيمها، هى اكثر العواصم الاوربية ارتباكا وأقلها تنظيما وتنسيقا فى الشوارع. فاغلب شوارعها معوجة ملتوية ومنها ما هى قصيرة جدا ومنها ما يمل المرء من طولها ومنها ماهى ضيقة جدا كانها (درابين) بغداد. وانك ان سالت شرطيا او عابر طريق عن محل من المحلات او شارع من هذه الشوارع المرتبكة اجابك على الفور باتجاهها وموقعها : (تمشى الى الامام ثم تلتفت يمينا ثم شمالا فتدخل المنعطف الثالث من الجهة اليسرى . . .الخ)

اختصاص الشوارع الانكليزية

وهناك مظهر آخر تتصف به الشوارع الانكليزية وهو الاختصاص. فكل شـارع من الشوارع قد اختص بعمل من الاعمـال او بمصلحـة من المصالح. فالصحافة الانكليزية قد اجتمعت كلها فى (فليت ستريت) (Fleet Street) والطبابة اجتمعت فى (هارلى ستريت) (Harley Street) والجوهريون فى سوق (بيرلنكتون) (Burlington Archade) والخياطون فى (سوق سافيل) (Savile Row) والمخـازن الانيقة فى شـارع (ريجنـت) وشـارع (بوند) (Regent Street and Bord Street) وبيع الامتعة القديمة (سوق الهرج) فى (سوق كالادونيان) (Caledonian Market) والمخـازن الكبيرة فى شـارع (اوكسفورد) والبنوك والمحلات التجـارية فى شوارع (الستى) والسينمـات والمسارح ومحلات اللهو والمطاعم فى شوارع (الويست اند) ومساكن الطلاب

فى (Gower Street and Russell Square) والفنــانون فى (Chelsea) واليهود قد استوطنوا الاحياء الشرقية من لندن؛ وابناء الصين انحصروا فى (China Town) والفواكه والخضر والاوراد فى (كوفنت كاردن) وتجارة الحبوب فى (Corn Exchange, Mark Lane) وبيع الطيور واللحوم فى (Leaden hall Market) وبيع الاسماك فى (Billingsgate)

الحدائق

والحدائق العامة فى انكلترة حلت محل الشوارع للاغراض التى تؤديها الشوارع فى مدن الممالك الاخرى. فالتنزه والقيام بالمظاهرات وعقد الاجتماعات العامة، والعلاقات الغرامية، وما شاكل ذلك كلها تجرى فى انكلترا فى الحدائق العامة، حتى اصبحت جزءا اساسيا من كل قرية ومدينة انكليزية. ومن اهم ما تتصف به الحديقة الانكليزية هو بساطتها وحسن تنسيقها فليس فيها تلك الفوضى فى زراعة الاشجار والاوراد او الاكثار من الممرات والسياجات مما يشاهد فى الحدائق العامة فى البلاد الاخرى. فالحديقة الانكليزية ما هى الا ساحة واسعة قد كستها خضرة العشب وقد رصعتها هنا وهناك اشجار باسقات دائمة الخضرة جميلة المنظر والمظهر وعليها علائم القدم وآثار الحشمة والاحترام. فقد قال الكاتب المسرحى الجيكى الشهير كارل(١) كابك«ان هذه الاشجار الباسقة التى يشاهدها المرء فى جميع الحدائق العامة وحتى الخاصة ذات المنظر الاخاذ والمحتشم هى التى انمت روح المحافظة فى الشعب الانكليزى. فهى التى تعمل على ادامة الغرائز الارستقراطية فيهم وهى التى ولدت فى الانكليز روح اكبار الاثار التاريخية والقديمة وهى التى أورثت نفوسهم حب المحافظة، وحب نظام التعريفة، وحب لعبة الكولف وحب مجلس اللوردات وغير ذلك من الامور القديمة والفريدة فى نوعها». وهايد بارك هى احدى هذه الحدائق العامة. وليس لها حسب ما اعلم شبه باية حديقة فى العالم. ومما يدل على انفرادها وغرابتها ان باكورة اعمال كل زائر جديد للندن هى زيارة هذه الحديقة. وفيها من وسائل التسلية المختلفة ما يمكن الزائر من البقاء فيها طوال ساعات النهار دون ما ملل او ضجر. ومما تمتاز به هذه الحديقة انها مركز للاجتماعات والخطب والمناقشات الشعبية على اختلاف

(١) (Karel Capek, "Letters from England")

اغراضها وميولها. وسنعود الى الكلام عن هذه الناحية فى الفصل المتعلق (بالرأى العام فى انكلترة) من الجزء الثانى.

المأكل عند الانكليز

ولنتكلم الآن عن المأكل والمشرب والملبس فى بلاد الانكليز. فالشعب الانكليزى قليل الاهتمام بمأكله ولهذا كان المطبخ الانكليزى ابسط المطابخ الاوربية وأفقرها من ناحية جودة ما ينتجه من الطعام او من ناحية تنوعه فكثير من الذين يزورون انكلترة يلاحظون ان المأكل الانكليزى، مثل الشعب نفسه، بليد. فهو بسيط الى منتهى درجات البساطة والانكليز قليلا ما يميلون الى استعمال التوابل والمواد المشهية او الاسراف باستعمال الشحوم والدهون فهم يفضلون ابقاء مأكولهم على حالته الطبيعية دون تشويهه او اكتسابه طعما غير طعمه الطبيعى. وانك ان راقبت المطاعم الشعبية رأيت اغلب الطعام يتكون من السمك المقلى مع البطاطة او الروست على اختلاف انواعه او اللحوم الباردة او الخضر المسلوقة. وللاجانب فضل كبير على المأكل الانكليزى اذ لولا الطهاة الايطاليون او الافرنسيون او غيرهم من الاجانب ولولا المطاعم الاجنبية وما تركته من اثر فى المطبخ الانكليزى لبقى الطعام الانكليزى على بساطته كما كان قبل مئات من السنين. ويدلك مبلغ هذا التأثير انك اذا تصفحت قائمة الطعام فى اى مطعم انكليزى لرأيت ان اغلب الاسماء هى اما افرنسية او ايطالية او نمسوية او غيرها وان الاسماء الانكليزية تقتصر على انواع الاسماك واللحوم والخضر المسلوقة او بعض الاكلات الانكليزية الصرفة. والاجانب الذين لم يتذوقوا ولم يألفوا الطعام الانكليزى ولا سيما المولعين منهم (Gourmond) يقاسون بمأكلهم الامرين، لولا مطاعم (جرمن ستريت) و (سوهو) وغيرها من الـ (Brasseries) التى فى (الوست أند). وقد حوت لندن مطاعم لكل ذوق ولكل صنف ولكل قوم فهى من هذه الناحية

المطاعم

(دولية) (Cosmopolitan) اكثر من اية عاصمة اوربية حتى اكثر من باريس نفسها التى اشتهرت بانها اكثر العواصم الاوربية احتواء على الغرباء والاجانب. وهناك مطاعم الطبقات الفقيرة التى تدير اكثرها شركات هى على جانب عظيم من الترتيب والتنظيم والرخص واهمها مطاعم شركة (لايونز) (Lyon's Corner Houses) ومطاعم شركة (أى. بى. سى.) و (اكسبريس دايرى).

وهناك مطاعم الطبقات العليـا التى كـانت تفضل المطعم على البيت حتى صار تناول الغذاء فى المطاعم يعتبر من المظاهر الانيقة. ولعل اهم سبب لذلك هو ان الانكليز صاروا ينبذون عزلتهم فيما يتعلق بالغذاء واخذوا يتقبلون الاشياء الاجنبية ومن جملتها الطعام الاجنبى الى حد انهم أخذوا يفضلونه على الطعام الانـكليزى. فأصبحت المطـاعم الاجنبية الانيقة مثل

(Quaqlino's, Sovrani, Frascati, Cafe' de Paris, Cafe' Royal, Criterion, Cafe' Angles)

وغيرها من مطاعم الويست اند ملتقى طبقات السوسايتى. وغير هذه ففى لندن مطعم لكل قوم من الاقوام. فمع ان اغلب المطاعم تقدم الطعام الافرنسى فان مطعمى (Jule's of Germyn St. and L'Escargot of Soho) هما من المطاعم الافرنسية البحته حتى يصعب عليك ان تجد فيها من يكلمك بالانكليزية. وللايطاليين ايضا مطاعمهم الخاصة (Taverna and Pinoli) اضافة الى انه ليس فى لندن مطعم او فندق لم يكن بين خدمه وموظفيه عدد من الطليان. وللاسبان عدة مطـاعم تقدم طعامـا يقرب من الطعـام الشرقى ونحن والاسبان نشترك بالذوق وبالطبيعة لاننا شركـاء بتراث قديم. ومطعم (مارتينى) (Martinez) اشهر هذه المطاعم الاسبانية. وان اردت ان تحصل على ألذ (Schnitzel) فاقصد مطعمى (Hungaria and Oddeninos) . وللالمان مطعمهم الخـاص (Schmidt) .ولم تحرم لندن من الفودكا الروسية والكباب الروسى اذ يمكن الحصول عليهما فى مطعم (Casbek) وان سمعت ان الصين يأكلون الرز بالعيدان واردت ان ترى ذلك بنفسك فاقصد مطعم (ماكسيم) (Maxim) . واحسن انواع (البريانى) الهندى يقدم فى مطعم (فيرا سوامى) (Veeraswamy) كما ان الاكل التركى (والحلقوم) يمكنك الحصول عليها فى مطعم (ديموس) (Demos) والمصريون يمكنهم ان يجدوا طعاما مصريا فى ناديهم، ولليونان كذلك مطعم حقير تحت الارض، اما نحن العراقين فلسنا مع الاسف ممثلين بين هذه المجموعة الدولية بل كنا نتطفل على هذه المطاعم كلما عنت ببالنا أكلة شهية. اما الاكلات الانكليزية البحتة فلها مطاعمها الخاصة. فمثلا مطعم (سمبسون) (Simpson) مختص (بالروست بيف) ومطعم (سكوتس) (Scott's) مختص فى

(Lobsters and oysters) ومطعم (بيم) (Pim) الواقع فى (السيتى) مختص فى السمك بانواعه ومطعم (رولز) (Rule's) مشهور بالاكلة الانكليزية المسماة (Shepherd's Pie)

وجبات الغذاء عند الانكليز

ان كل شعب من الشعوب قد اعتاد أن ينظم حياته اليومية فيما يتعلق بالاكل تنظيما خاصا. ومما يلفت النظر فى الحياة الانكليزية ان الانكليز يهتمون بوجبتين من الطعام فى النهار وهما الفطور صباحا والشاى عصرا. فهم يهتمون اهتماما شديدا بفطورهم الذى يتألف فى اغلب الاحيان من اكثر من ستة انواع من الشاى والمشهيات الى اللحوم والسمك وما شاكلها. وكثيرا ما يسبق وجبة الفطور هذه تناول عصير البرتقال او القهوة عندما يفيق الشخص من نومه وقبل ان يغادر فراشه. وربما كان سبب الاهتمام بالفطور هو ان ساعات العمل فى انكلترة تبدأ من الصباح وتنتهى عصرا وتتخللها فترة قصيرة لغذاء بسيط جدا يقتصر عند كثير من الناس على السندويج او ما يشابهه. على ان الاهتمام بوجبة الفطور اخذ يقل تدريجيا فصار الفطور (القارى) اى الفطور البسيط كالذى يقدم فى فرنسا مثلا ويتألف من الشاى وشىء من الزبد والمربى والخبز وهو الذى يعرف (Plain or Continental Breakfast) ويقدم فى اكثر الفنادق وبيوت السكنى. والوجبة الثانية من طعام النهار هو الشاى. فعادة شرب الشاى هى عادة انكليزية صرفة والانكليز يحافظون عليها سواء أكانوا فى بلادهم ام فى غيرها. ويعزى سبب أنتشار هذه العادة الى امرين الاول نظام الحياة اليومية فالشخص الذى قضى معظم ساعات النهار فى محل عمله يشعر بحاجة الى فترة قصيرة للراحة. وفى الوقت ذاته اصبحت مائدة الشاى ملتقى أصحاب المصالح والاعمال او غيرهم يتذاكرون عليها حول اعمالهم التجارية او شؤونهم العائلية. والامر الثانى هو طبيعة الجو الانكليزى فان رطوبته جعلت تناول السوائل الحارة ضرورة من الضرورات ويدل على ذلك ان الاجنبى عندما يصل انكلترة يشعر بهذه الحاجة ويزداد هذا الشعور بعد ان تمضى عليه هناك بضعة ايام. فالانكليز يقولون ان لاشىء يدفىء أجوافهم فى الشتاء او يبردها فى الصيف مثل قدح من الشاى. وان عادة الشاى هذه قد اضافت جمالا الى جمال الريف الانكليزى

حيث يقصد الناس محلات الشاى الجميلة المنتشرة على طرفى الطرق العامة والمتنزهات الريفية. وعند كثير من الطبقات وخاصة الفقيرة منها تطورت عادة شرب الشاى فاصبحت هذه الوجبة من اهم وجبات النهار كمية اذ صارت تشمل بعض انواع الطعام الاخرى كاللحوم وما شاكلها وهى ما تسمى بـ (High Tea) والتى عوضت عما يتبعها من وجبات الاكل كالعشاء والسحور (Supper). وللفقراء والعاطلين الذين لا تمكنهم حالتهم المالية من الحصول على وجبة العشاء فى مطعم، يمكنهم الاكتفاء بما يحصلون عليه من السندويج او ما يشبهه اما من احد البارات (Snack Bars) او من الحوانيت السيارة التى تظهر ليلا فقط (Stalls) والتى هى اقرب شبها بعربات (ابو الابيض وبيض) عندنا ومن أسبغ الله عليهم فضل الغنى واليسار يلتجؤن ليلا الى النوادى او المطاعم التى تقدم ما يسمى بعشاء المسرح (Theatre Dinner) وهو الذى يتناوله كثير من الناس بعد خروجهم من سهرتهم فى المسارح او دور السينماء.

المشرب عند الانكليز

والانكليز اكثر الاقوام انهماكا بالمسكرات على اختلاف انواعها. وقد استعذنا بالله من السكرة الانكليزية. لان كثيرا من الانكليز اذا استرسلوا فى لذة المسكر تطرفوا فى سكرهم. ولعل ابناء اسكوتلندة بالرغم من حرصهم ونزعتهم الاقتصادية، اكثر ميلا الى المسكرات من ابناء عمهم الانكليز، وهم الذين اتحفوا العالم باحسن انواع المشروبات الا وهو الويسكى الذى يسمى باسمهم (Scotch). ويتراءى لى ان الجعة (البيرة) بانواعها هى الشراب الوطنى للسواد الاعظم من الشعب كما يلاحظ فى الحانات العامة (Pubs) والبيرة الانكليزية على عدة انواع منها ما تسمى بالـ (Lager) وهى البيرة الاعتيادية المعروفة. وهناك انواع اخرى منها كالـ (Ales) و (Bitters) وأن شراب (Pim No. 1) هو فيما ارى من الذ انواع المشروبات. اما المشروبات الاخرى المعلومة والمنتشرة فى انحاء العالم كالشراب الافرنسى بنوعيه الابيض والاحمر والبورت البرتغالى والشرى الاسبانى والزنزانو والجن والليكور على اختلاف انواعه، والشامبين وانواع الكوكتيل ومشروب (Rum) فهى معروفة فى انكلترا كما فى غيرها من الاقطار. والذين لا يتعاطون

المسكرات (Teetotalers) يكتفون بما يحصلون عليه من المرطبات غير المسكرة كالـ (Oppolinaris) وانواع (Cider) الاخرى وعصير الطماطة وغيرها. وقد ابتكر نوع جديد من هذه المشروبات الخفيفة فى زمن الحرب وانتشر استعماله انتشارا كبيرا وهو ما يسمى (Next Best)

الحانات

والحانات الانكليزية على عدة انواع فالتى فى المدن منها تدعى بالـ ("Pubs") (١). وهناك ما يماثلها فى الارياف وهى التى تعرف بالـ (Inns) ومن هذه ما هى قديمة جدا وقد اكسبها قدمها هذا اهمية خاصة لدى الشعب فصار الناس يؤمونها فى عطلاتهم واوقات فراغهم مهما بعدت عنهم. وهناك حانات اخرى من هذا القبيل (Road Houses, Taverns, Ale-Houses) التى يوجد منها عدد عظيم فى الالوية التى تجاور لندن وان كتب الله للقارىء زيارة بلاد الانكليز فانى اوصيه بمدينة (ميدنهيد) (Maidenhead) وما جاورها من القرى والمحلات كـ (Bray-on-Thames) وذلك اذا لم تكن هذه المنطقة قد قاست من الحرب واهوالها. ان هذه الحانات مرآة صادقة لحياة الشعب وفيها تتمثل انفس مظاهرها. ففيها يلتقى سواد الشعب وتظهر كثير من خصاله واخلاقه (والخمرة كشافة الحقائق) ففى هذه المحلات الصغيرة يمكنك معرفة ما يفكر فيه الشعب ويمكنك استطلاع آرائه وميوله ومعتقداته حول كل امر من امور الحياة. يقصد العامل احدى هذه الحانات بعد الفراغ من عمله، وكثير منهم ليس لهم ما يأوون اليه سوى هذه الزوايا. فيصرف هذا العامل قسما مما كسبته يداه على املاء بطنه باكبر كمية من المشروب يمكنه دفع اثمانها وما بقى لديه منها ينفقه فى احدى المراهنات او فى بعض المسليات ويندر ان توجد حانة من هذه الحانات من غير ان يكون فيها لعبة رمى السهم (٢). والفرق بين هذه الحانات ومواخير (مونمارتر) و(مونبارناس) الباريسية ظاهر بين. فانك ان دخلت الحانة الانكليزية رأيت الزبائن وقد تكأكأوا حول (البار) واكثرهم وجوم كأن على رؤوسهم الطير او كأنما بينهم وبين كؤوسهم سر من الاسرار . واذا ما نفد كأس احدهم ناوله صاحب

(١) هذه الكلمة مأخوذة من كلمتى (Public House) اى الحانات العامة.

(٢) (Darts)

البار ليمده بكأس غيره والعملية كأنها تجرى بطريقة ميكانيكية. وصاحبة المحل لا تنتقل بين الزبائن لتهيج عواطفهم وتغريهم فيزيدوا فى السكر والبذخ فيستفيد المحل بما يبتزه منهم من الدراهم كما يشاهد فى فرنسا وغيرها من البلاد. ومن المناظر التى تؤلم، كثرة النساء اللائى يرتدن هذه الحانات ويسرفن فى السكر الى الدرجة التى لا تتحملها اعصاب الجنس اللطيف فكثير منهن يصطحبن اطفالهن فيتركنهم خارج الحانة الى ساعة متأخرة من الليل وعندما يخرجن منها يكن بحالة يصعب عليهن ايصال هؤلاء المساكين الى البيت. ومناظر النساء الثملات اللائى يترنحن على الارصفة وفى المنعطفات مناظر مألوفة جدا فى لندن.

الملبس عند الانكليز

واشتهر الانكليز ولا سيما رجالهم بانهم احسن الاقوام اعتناء بالملبس والهندام فكما ان باريس اشتهرت بانها كعبة (المودة) النسوية فان لندن هى كعبة مودة الرجال وان خياطى (سافيل رو) وحوانيت سان جيمس وبيكادلى هى التى تملى على رجال العالم اصول الملبس الانيق وقواعده. والانكليز – كما هو حالهم فى نواحى الحياة الاخرى – قليلو التأثر بالتغيرات والتطورات التى تطرأ على قواعد الملبس فى بقية انحاء العالم. فترى الاسراف والاسفاف والتكلف والابتكار الذى يشاهد عند الاميركيين او الافرنسيين او غيرهم يمر بالانكليز بدون اى اكتراث او التفات فهم يفضلون ان يتمسكوا بما يضعونه من اصول وقواعد، والتى هى على الاكثر اقرب الى الذوق والمألوف ولذلك كان الانكليزى انيقا قليل التفاخر والتباهى بملبسه يمقت التصنع والتظاهر بملبس جديد. يروى عن متأنقى الانكليز فيما مضى انهم كانوا يمسحون بدلاتهم الجديدة بـ (كاغد جام) ليزيلوا منها لمعانها او ما يدل على انها جديدة. والذوق الانكليزى لا يستسيغ اللباس ذا الالوان الزاهية او الاشكال البهية التى تلفت النظر. وقد بلغت درجة اعتناء الانكليزى بملبسه ودرجة براعة الخياطين بمهنتهم ان اصبح الشخص والبدلة التى يرتديها كانهما قد نميا فى وقت واحد. فلا يروق الانكليزى ان تكون بدلته ضيقة او واسعة اكثر من المعتاد او ذات كتف عال او كثيرة الجيوب او الازرار او ما شاكل ذلك من مبتكرات الخياطة.

انواع اللباس عندهم

ويمكن تقسيم ملابس الانكليزى الى نوعين : الملابس الليلة والملابس النهارية. فالاولى تشمل الفراك وتعرف فى انكلترا (White Tie or Tails) وهى ترتدى فى المناسبات الليلية التى تجمع الجنسين، كالمسارح والدعوات وحفلات الرقص والموسيقى واضرابها. إما الاسموكنك فيعرف بـ (Dinner Jacket or Black Tie) واما كلمة (سوكنك) فلا تستعمل فى انكلترا مطلقاً.

لباس الليل

وهذه البدلة ترتدى عادة وقت العشاء فى البيت او فى الاوتيل، وفى المناسبات الخاصة التى لا تحضرها السيدات. وكثير من الانكليز لا يحلو لهم تناوله الطعام ان لم يرتدوا بدلة العشاء هذه حتى ولو كانوا فى اواسط البرارى والقفار.

لباس النهار

اما لباس النهار فهو اما اللباس الرسمى واما اللباس الاعتيادى فاللباس الرسمى يسمى (البونجور) (Morning Dress) ومما يجدر ذكره هو ان هذه البدلة كثيرا ما ترتدى مع قبعة رمادية وصدرية مثلها بدلا من القبعة العالية السوداء والصدرية السوداء ويجوز ان تكون هذه الصدرية غير اللون الرمادى والاسود. واما البنطلون فلا يشترط ان يكون مخططا بخطوط طويلة كما هو المتعارف عليه بل يجوز ان يكون بمربعات صغيرة. اما الحذاء الذى يرتدى مع هذه البدلة فليس من اللازم ان يكون مصنوعا من الجلد اللامع (الروغان) بل من الجلد الاسود الاعتيادى. وكثيرا ما ترتدى فى بعض المناسبات شبه الرسمية بدلة تدعى (Demi-Bonjour) وهى عبارة عن جاكيت اعتيادى اسود اللون مع بنطلون مخطط ويجوز ايضا ارتداء بدلة اعتيادية غامقة اللون فى مثل هذه المناسبات شبه الرسمية.

اللباس العادى

اما البدلات الاعتيادية فاكثر الانكليز لا يرتدون الا بدلات ذات لون ازرق او رمادى او بنى او ما يقاربها من الالوان الغامقة. اما الالوان الاخرى فلا تروق ذوق الانكليزى وهذه البدلات الاعتيادية تسمى : (Lounch Suits) اى بدلات الصالون. واما القمصان والجوارب والربطات فان اختيارها تابع للذوق الشخصى وللانكليزى قابلية خاصة فى انتقاء هذه الاشياء لتلائم لون البدلة وشكلها. اما الاحذية فان الحذاء الاسود هو الحذاء الاكثر استعمالا مع اللباس الاعتيادى عندما يكون الشخص داخل المدينة اما اذا خرج الى الارياف او

لباس الاسبورت

ارتدى بدلة (سبورت) فيجب لبس الحذاء الاصفر او البنى او الكدرى ولا ترى انكليزيا معتبرا يرتدى حذاءا اصفر او بنيا مع بدلة زرقاء او غامقة كما ان بدلة الاسبورت لا ترتدى مطلقا فى الدوائر او محلات العمل ويكون الشخص سمج المنظر اذا ما ارتدى بدلات الصالون فى السفرات او فى الارياف. وبدلة (الاسبورت) مكونة من البنطلون الفانيلة او بنطلون (البلاسفور)(Plus-Four) ومعناها ان البنطلون يصل الى ما تحت الركبة باربع بوصات، والجاكيت المصنوع من صوف الـ (Tweed) الذى اشهر ما فيه هو الصوف الاسكوتلاندى المسمى (Harris Tweed). ويرتدى الكثيرون الكنزة مع بدلة الاسبورت. ويجب ان يلاحظ ان الياقة المنشاة او الاوراد لا يستعملها الانكليز مطلقا مع بدلة الاسبورت. اما المعاطف فما يستعمل شتاء فى داخل المدينة هو على الاغلب ازرق اللون. اما صيفا فيستعمل المعطف ذو اللون الرمادى وفى الريف يفضل ذو اللون البنى الفاتح المصنوع من القماش غير السميك. ويندر ان ترى انكليزيا معتبرا حاسر الرأس. فعادة الاستغناء عن البرنيطة عادة اوربية لم تغز الجزر البريطانية بعد وقد يكون السبب فى تمسك الانكليز بلبس البرانيط هو ان كثرة هطول الامطار والرذاذ جعلت الشخص يشعر بضرورة تغطيه رأسه اتقاء هذه العوارض الطبيعية. والبرنيطه المستعملة فى انكلترا على عدة انواع. فالتجار والمتقدمون فى السن يرتدون ما تسمى بالـ(Bowler Hat) والعمال يرتدون (الكاسكيت) واغلب الناس يستعملون برنيطة اعتيادية مصنوعة من اللباد (Felt Hat) وكان الطراز السائد من هذه البرانيط فى انكلترا قبل الحرب هو النوع الذى كان يرتديه المستر ايدن فسميت على اسمه. اما القبعة العالية(Top Hat) فهى ايضا على نوعين نوع يرتدى مع بدلة النهار الرسمية وتصنع من الحرير الخالص(Silk Hat) وهى اما رمادية اللون واما سوداء اللون. والنوع الثانى هو الذى يرتدى مع بدلة الفراك وتعرف بـ (Opera Hat or Crush Hat) وسميت كذلك لانها يطبق عاليها على سافلها لحفظها فى فراغ صغير عند الذهاب الى الاوبراء وكثيرا ما كانت برانيط اللباد تستعمل بدلا من القبعات العالية للسهولة. ولو ان استعمال القبعات العالية امسى ضئيلا فان تلامذة ايتون وهارو

البرنيطة

وويستمنستر وغيرهم من طلاب المدارس العامة ما زالوا يرتدونها فى داخل المدرسة .

المظلة

وكثيرا ما يوصف الشعب الانكليزى بانه شعب من حملة المظلات (A nation of Umbrella Bearers) وسبب ذلك لان المظلة اصبحت جزءا متمما لشخصية معظم الانكليز . فقليلا ما ترى انكليزيا معتبرا يسير دون ان تكون بيده مظلة ولعل تفسير هذه العادة يرجع الى الجو ولكن الا يحار القارىء اذا ما علم ان هذا الانكليزى لا يفتح مظلته ولا يستعملها اذا قضت عليه ضرورة الجو باستعمالها فيفضل ان يستأجر سيارة ويدفع اجرة باهظة على ان يفتح مظلته ليدفع عنه غائلة المطر – وهذا مثل اخر من شذوذ القوم ولا – منطقيتهم(١) . ولا بد ان بعض القراء يتذكرون ان المرحوم المستر تشمبرلين حمل مظلته حتى عندما سافر بالطائرة الى (كودسبرك وبرختسكادن) لمقابلة الهر هتلر . وكان من امتع النكت التى جرت فى اوائل هذه الحرب هى انه عندما القى الالمان بالبراشوت مظلته المفقودة – فان فهم الالمان هذه الناحية من العقلية الانكليزية فلم فات ساستهم ومفكريهم ان يفهموا النواحى الاخرى من عقليتهم ؟ . والانكليزى الانيق بملبسه لا يفوته ان يشترى (قرنفلته) ليزين بها صدره . فقد حتمت اصول الاناقة فى الملبس وضع القرنفلة فى عروة بدلات النهار وبدلات السهرة لا بدلة السبورت ابدا . واستعمال الحلى عند الرجال مكروه عند الانكليز . فعادة وضع الدبابيس الذهبية او الاختام الثمينة او اساور الساعات المصنوعة من الذهب او غيره من المعادن النادرة ، قليلة الاستعمال فى انكلترا وهى عادة اوربية . ولكن استعمال ازرار القمصان الذهبية او سلاسل الساعات الصدرية شائع هناك والذوق الانكليزى يمج استعمال الرجال الروائح العطرية وغيرها من مواد الزينة وهم يعتبرون التزين المفرط من علامات التخنث .

الوردة

التزين عند الرجال

آداب الكلام

والان دونكم كلمة عن آداب الكلام والمعاشرة وآداب الولائم والموائد والتصرفات الخاصة والعامة عند الانكليز . فالانكليز من اكثر الاقوام اهتماما

(١) وربما على مثل هذه الامور شكر الارل بولدوين الله تعالى لانه جعلهم قوما لا منطقيين .

با داب الكلام فهم ينشئون اطفالهم منذ الصغر على اتقانها والتقيد بها لان الانكليزى ان غفر اية هفوة فانه لا يغفر الهفوات اللسانية. وبالنظر الى كثرة الشواذ والغرائب فى اللغة الانكليزية التى يتكلمها الانكليز داخل بلادهم اصبح من اللازم على الاجنبى الذى يختلط بالقوم ان يحيط نفسه بكل هذه الشواذ والغرائب ويكون على حذر من كل كلمة او جملة يفوه بها وخاصة اذا قضى له ان يتصل بالطبقات المثقفة والمتعلمة. وانى اشير على من تعلم الانكليزية خارج انكلترا من الاجانب ان يصغوا الى اللهجة الانكليزية المحلية والتلفظ الدارج ويحاولوا محاكاتها لان كثيرا من الانكليز لا يفهمون او بالاحرى لا يريدون ان يفهموا كلام غيرهم ان لم يلفظه كما يلفظونه هم انفسهم. اتذكر انى سألت مرة احد المارة ليدلنى على شارع اسمه (ديفونشاير). فكررت عليه السؤال ثلاث مرات متلفظا الكلمة كما تصورت انها يجب ان تلفظ وفى المرة الثالثة ادرك الرجل سؤالى فقال : اظن انك تقصد (ديفونشر). والشواذ فى الانكليزية الدارجة كثيرة جدا ومنها ما هى غريبة ففى بعضها يحذف حرف او اكثر من حروف الكلمة دون ما سبب وفى بعضها تدغم كلمتان او ثلاث بكلمة واحدة. وحذار ان يحاول الاجنبى محاكاة اللهجة العامية (Cockney) من اللغة المحلية التى تتصف بسماجتها اذ تظهر الكلمات كانها خارجة من انف المتكلم لا من فمه. وهذه اللهجة العامية ينفرها ذوق مثقفى الانكليز كما ان الذوق السليم يمج تشويه الكلمات او خنقها او ابتلاع بعض مقاطعها اثناء التكلم. وان بدرت من احد فانما ذلك يدل على قلة ثقافته وانحطاط مستواه الاجتماعى. وهناك ما يسمى بال (Slang) وهى رطانة عامية صرفة ولكنها كثيرا ما يستعملها جميع الطبقات ومن الصعب على الغريب ان يميز بين ما هو مقبول منها وما هو منبوذ. ولذلك يحسن بالاجنبى وخاصة من لم يستوطن البلاد مدة طويلة ان يصرف النظر عن استعمال جميع هذه الكلمات العامية مهما كانت. والتكلم بصوت جهورى وعال غير مستحب فى انكلترا كما هو الحال فى كثير من الاقطار الاخرى. وعند مخاطبة سيدة او سيد ذى مقام لا يستحسن الاكثار من استعمال كلمتى (Madam or Sir) وعند التكلم مع كبير فى المقام او السن لا بأس من مخاطبته بـ

(Sir) • ان استعمال هذه الكلمة لا تعني الذلة والعبودية بل تتضمن التجلة والاحترام للمخاطب ومع ذلك فيستحسن الاقلال من استعمالها•وليس من الادب عند مخاطبة آنسة محترمة ان تخاطب بكلمة (Miss) وحدها بل يجب ذكر اسمها ايضا• واستعمال هذه الكلمة وحدها يجب الا يتعدى مخاطبة الخادمات• ولا يمكن ذكر كل شيء عن آداب المعاشرة في استعراض عام للآداب الانكليزية كهذا ولكني ساكتفي بايراد بعض النقاط البارزة•

آداب المعاشرة

ليس من آداب المعاشرة الطيبة في شيء ان يقوم الزائر بمصافحة جميع الحاضرين عند دخوله في مجمع خاص او عام فالانحناء كاف للسلام على الحاضرين• وعند السلام على سيدة يجب الا يمد الرجل اليها يده للمصافحة وانما عليه ان ينتظر ان تبدأ هي فان مدت يدها مد يده والا فلا• ويصدق الحال كذلك عند السلام على كبير في المقام او السن اذ يجب ان تنتظر منه ان يبدأك بالسلام• وكثيرا ما يغفل بعض الشرقيين ابداء شعائر الاحترام نحو المرأة في المجتمعات الخاصة• فاذا ما دخلت المرأة مجتمعا فعلى جميع الحضور من الرجال ان يقوموا احتراما لها• والانكليز يشمئزون من معظم العادات (Mannerisms) التي تعتبر عندنا في الشرق امورا مألوفة، كتحريك السيقان او الاقدام اثناء الجلوس او اللعب (بالسلسلة) او المسبحة او ما شاكلها• ويعتبر الانكليز الاصرار على الشخص لتناول طعام او شراب او تكليفه ما لا يرغب فيه،قلة في المجاملة والخلق• فالآداب تقضي بان لا يكلف الشخص اكثر من مرة واحدة خلافا لما يظنه بعض الشرقيين من ان الالحاح في الكرم هو من كرم الخلق اذ لا يمكن ان يتصرف الانكليزي خلافا لرغباته الشخصية مهما كانت الظروف المحيطة به• والانفراد في الكلام في مجمع ما او محاولة شخص حصر انتباه الحضور به يعتبر فقرا بتربيته• وكثرة المشاورة والهمس بين اثنين او اكثر بحضور اناس اخرين يغيظهم ولا يفعلها الانكليز الا اضطرارا• واكثر الانكليز لا يستسيغون الغيبة او اخبار السوء ولا يهمهم كثيرا التحدث في المسائل الدينية والسياسية ويفضلون الاقتصار في محادثاتهم على القضايا العامة التي لا مساس لها بشؤون غيرهم ولا بعواطفهم كالبحث في الاخبار الرياضية وتقلبات الجو وما شاكلها• وهم يعتبرون المقاطعة

الكثيرة اثناء التكلم وتكذيب المتكلم او ابداء ما يناقض قوله وكذلك الجدل الزائد الحاد ضعفا فى الاخلاق والتربية الفردية. والانكليزى لا يسف او يدخل بتفاصيل فى كلامه فيسترسل فيه ويزيد فى حشوه حتى يضيع جوهر موضوعه. فالانكليز فى علاقاتهم الفردية بعضهم مع بعض يودون ان يتوصلوا الى ما يريدون مباشرة من دون لف ولا دوران. والنكات ذات المغزى البعيد والتوريات والـ (Puns) هى من لطائف آداب المحادثة ولكن الاكثار منها يكون فى كثير من الاحيان متعبة للسامعين وقد تؤدى الى شىء من سوء التفاهم. ويتضح سمو الاخلاق الانكليزية انك ان سألت انكليزيا رأيه الصريح فى شخص من الاشخاص تراه قليل الرغبة فى الزام نفسه بقول ما يعتقده فيه وهو يفضل السكوت على الدخول فى بحث قد يسىء الى سمعة غيره. واذا ما كان الانكليزى بين جلسائه لا يظهر قلة مبالاة نحوهم او يبدى اشمئزازا او ضجرا اذا لم يرق له قول احدهم مهما كان الكلام مثيرا له ولعواطفه. واذا لم يطق الشخص جلساءه يخرج حالا ولا يبقى بينهم او يصرف انتباهه الى قراءة جريدة او كتاب او يكثر من التطلع الى ساعته.

تأدب الشعب

ان بلاد الانكليز، فيما ارى، اكثر بلاد الله تأدبا. وانت تلاحظ هذه الظاهرة فى كل ناحية من نواحى الحياة العامة وتشعر بها حالما تطأ قدماك سواحل الجزر البريطانية فان المعاملة التى يلقاها الزائرون الاجانب فى دوائر الكمارك والاقامة ومحطات القطار ومراكز الشرطة وغير ذلك هى معاملة فريدة حقا ويظهر الفرق باجلى مظاهره عند المقارنة بين ما يلاقيه المسافر فى انكلترا وما يلاقيه فى غيرها من البلدان الاجنبية والشرقية. وانى اشير هنا الى المسافرين العاديين اما من ينتمى منهم الى السلك السياسى او من يحمل جواز سفر سياسى فانهم يعاملون بمنتهى ما يمكن من اللطف والاحترام.

معاملة الزائرين الاجانب

ومن الواجب على من يزور بلاد الانكليز من الاجانب ان يتعلم حالا قواعد التصرفات العامة او ان يحاول على الاقل تقليد القوم بما يفعلون وابرز هذه القواعد التى ينفرد بها الشعب الانكليزى دون غيره من الشعوب هى عادة التصنف (Queuing) وهى تعود الناس الوقوف صفوفا منظمة وتمنعهم من التجمهر او التدافع. فقد تطرف الانكليز بالمحافظة على هذه الروح

يساعدهم فى ذلك برودة دمهم وطبعهم فكلما زاد عدد المنتظرين على اثنين او ثلاثة رأيتهم اصطفوا بحسب اقدمية وصولهم • ويمكن تقدير التربية العامة لهذا الشعب عندما تلاحظ ان الناس يحافظون على هذه العادة تحت اقسى الظروف الجوية ويزيد اعجابك اذا ما علمت انهم يحافظون عليها حتى تحت اشنع قصف جوى • وقد لاحظت فى فرنسا ان المحافظة على نظام التصنف هذا يجرى فى بعض الاحيان بواسطة توزيع البطاقات على الناس بحسب قدم وصولهم كما يحدث فى محطات الباصات او المسارح او ما شاكلها ومع ذلك فانك تشاهد ازدحاما وارتباكا فى المحافظة على النظام وقد تمكنت تلك العادة من الانكليز حتى لم يصبح خرق نظام التصنف هذا مخالفا للقانون فحسب بل ان من تعمد خرقه يلاقى استهجانا واحتقارا واعتراضا من المنتظرين حتى صار من المستبعد جدا ان يقدم انكليزى على مثل هذه المخالفة التى تدل على الانانية •

خدمة الغير

ومهما كانت درجة تأدب الانكليزى تجاه غيره فانها لا تصل الى درجة العبودية والاستكانة وفى الوقت ذاته فان اظهار العطف والاحترام الذى يزيد على الحد المطلوب والمنتظر يعتبر ضعفا فى النفس والخلق • فالانكليزى لا يقوم بخدمة مهما كان نوعها لانداده اذا ما خرجت تلك الخدمة عن حد اللطف والمساعدة البريئة الا اذا اديت لسيدة او لشيخ او لمسن لا يقوى على ادائها بنفسه • فاذا سقط شىء من يدك مثلا فلا تأمل ان يلتقطه شخص اخر ويناولك اياه الا اذا تأكد من انك غير قادر على التقاطه بنفسك واذا اردت ان تحصل على شىء فلا تتصور ان شخصا اخر يتقدم من تلقاء نفسه فيساعدك للحصول عليه • وهذا لا يصدق طبعا تجاه السيدات اللائى يجب ان يتمتعن بكل رعاية ولطف من بقية المواطنين • واذا ما ظهر شخص بعض العطف او المساعدة لاخر فعلى الثانى ان يبدى شكره له اما بلسانه واما برفع قبعته له واما بوضع اخر • وفى وسائط النقل او المحلات العامة تقتضى القواعد واصول المجاملة العامة ان يقدم الشخص مقعده الى السيدة او العاجز اذ ان عدم الاكتراث بهؤلاء والامتناع عن ابداء اللطف والمساعدة لهم تعتبر فظاظة فى الخلق وخشونة فى الطبع وكم اود ان ينتبه الناس عندنا فى العراق الى هذه النقطة

التي يغفلها الكثيرون.

التقديم

والانكليز لا يتعارفون الا بالتقديم(Introduction) فالانكليزي المتأدب لا يتكلم مع غيره ان لم يقدم شخص ثالث احدهما الى الاخر. وفي الاوساط الراقية لا يجري التعارف والتقديم بين الاشخاص على العمياء اذ يجب التأكد من ان الشخصين يرغب احدهما في التعرف بالاخر والا ادى التعارف بينهما الى مواجهة باردة وقلة في الاهتمام. والقاعدة الاساسية في التقديم هو ان يقدم دائما الشخص ذو المقام الادنى او الاصغر سنا الى الشخص ذي المقام الاعلى او الاكبر سنا ولا يجوز في اية حال من الاحوال تقديم السيدات الى الرجال مهما كان مقام الاثنين بل يجب دائما تقديم الرجال الى السيدات مهما كان مقامهما فعند التقديم يذكر الوسيط اسم السيدة او الشخص الاعلى مقاما اولا ثم يقدم الشخص المطلوب تقديمه وذلك عن طريقة الاستفهام كان يقال مثلا :

(Mrs. Henry, May I present (or introduce) Mr. Smith)

(Your Excellency, May I introduce Mr. Jones)

وان الاستثناء الوحيد في تقديم النساء الى الرجال هو في تقديمهن الى الملوك والامراء ورؤساء الكنيسة فقط واذا اراد شخص التعرف بسيدة يجب ان يتم تقديم بعضهما الى بعض بواسطة شخص ثالث هو صديق الطرفين وليس من اللازم ان تصافح السيدة الرجل عندما يقدم اليها بل انها تكتفي بالسلام عليه او بابداء ابتسامة اليه او بانحناء بسيط. وان عادة تقبيل ايادي السيدات عند السلام عليهن هي عادة اوربية غير مستعملة في انكلترا.

بطاقات الزيارة

وترك بطاقات الزيارة عادة مألوفة في انكلترا وكثير من الناس ليس لهم متسع من الوقت لزيارة اصدقائهم بنفسهم فيكتفون بتذكرهم بالبطاقات. واذا ما ترك صديق بطاقته لصديق اخر فعلى الثاني ان يبادر باعادة الذكرى بترك بطاقته مقابلة بالمثل وذلك خلال مدة اسبوع على الاقل وكلما تركت البطاقة يوما اقدم كان ذلك دليلا على الاحترام والتأدب. ومن المعتاد في انكلترا ترك البطاقة بعد حضور دعوة او حفلة عند صديق والبطاقة اما ان ترسل بالبريد او بواسطة رسول واذا ما اوصل الشخص بطاقته بنفسه الى دار صديقه فليس

من المطلوب منه ان يستفسر عما اذا كان الصديق فى الدار ام لا . ومن المعتاد ان يوزع القادم بطاقاته على معارفه واصدقائه ايذانا بوصوله واشعارا بتقديم احترامه اليهم وتذكره اياهم . والبطاقة الانكليزية تختلف عن الافرنسية مثلا فهى سميكة صغيرة الحجم طولها ثلاث بوصات وعرضها بوصة ونصف بوصة والاسم يطبع فى وسطها وباحرف بسيطة غير مزخرفة ويجوز ذكر عنوان الشخص فى زاوية البطاقة اليسرى وكثير من الناس يفخرون بذكر عناوينهم ان كانت تلك العناوين ذات سمعة واعتبار خاص كاسم النادى ان كان النادى من النوادى المعتبرة او اسم المحلة ان كانت محلة شهيرة او اسم الشركة ان كانت شركة كبيرة.

واخيرا نقول كلمة عن الولائم والدعوات وآداب المائدة عند الانكليز. كنا قد ذكرنا قبلا ان الشعب الانكليزى من اكرم الشعوب ولا شىء يلذ للانكليزى قدر ما يشعر به من لذة اذا ما اكرم غيره واسبغ عليه من نعمته وخيراته ونرى الانكليز يكثرون من اقامة الولائم بقدر ما تسمح به حالتهم المالية. ويستحسن ان نصف بعض هذه الولائم وما يتبع فيها من اصول وآداب.

وصف وليمة رسمية

ونود ان نتكلم اولا عن الولائم الكبيرة ذات الصبغة الرسمية اذ يراعى فها من القواعد والاصول ما لايجب ان يراعى فى الدعوات غير الرسمية او الخاصة. ولا شك فى ان توجيه الدعوة لوليمة غداء او عشاء تدل على احترام عظيم نحو الشخص المدعو ووقعها فى النفس اكثر بكثير من دعوة لاى مناسبة اخرى . واذا دعاك الانكليزى لمثل هذه الولائم فما ذلك الا دليل على درجة احترامه لك ولاحكام روابط الود والصداقة بينه وبينك. ومن المتعارف ان الدعوة للعشاء يجب ان توجه قبل اسبوع او عشرة ايام على الاكثر، للدعوات التى ليست ذات صبغة رسمية او عامة، وقبل اسبوعين او ثلاثة للدعوات ذات الصبغة الرسمية، منعا للتصادم التى قد يحصل من جراء التضارب بين المواعيد. وتعيين موعد الدعوة بالاضافة الى تعيين اسماء كبار الضيوف الذين سيدعون هما النقطتان الاساسيتان اللتان يجب ان يقرهما مبدئيا صاحب الدعوة. والانكليز ولا سيما طبقاتهم الراقية، بارعون فى تنظيم

توجيه الدعوة

الدعوات وخاصة فيما يتعلق بالضيوف فصاحب الدعوة يبذل كل جهده لنجاح دعوته وارضاء ضيوفه واكرامهم جهد طاقته، فهو يراعى ميول الضيوف ويحاول ان يوفق بينها، ويود ان يرى بين ضيوفه من يمتاز بحسن الخلقة وكرم الاخلاق ليبثوا فى دعوته روحا وحياة.

الحضور الى الدعوة

واذا ما لبى ضيف دعوة العشاء فعليه ان يحضرها والامتناع عن حضورها او الاعتذار عنه لاسباب غير مشروعة يعتبره الانكليز هفوة لا تغتفر. والاسباب التى يمكن التذرع بها للاعتذار هى المرض والحزن العائلى او حادث طارىء لم يكن فى الحسبان. ومن لم يحسب ما سيكبده صاحب الدعوة من العناء والارتباك من جراء اعتذاره فى اخر ساعة فانما هو قليل الذوق والحس وجزاؤه على ذلك هو اهمال دعوته فى المناسبات المقبلة. والانكى من الاعتذار فى اخر ساعة هو عدم اجابة صاحب الدعوة على دعوة سواء بالرفض او بالقبول اذ ان ذلك يتركه فى حيرة من امره فى ترتيب المائدة واملاء الشواغر بمن يليق.

وتصدر الدعوة عادة باسمى صاحب البيت وزوجته لا باسم احدهما. ويلاحظ فى كثير من الدعوات انه يندر دعوة اكثر من ثلاثة اشخاص من عائلة واحدة مهما كانت علاقة صاحب الدعوة بتلك العائلة. كما انه لا يجوز لزوجة ان تقبل دعوة احد مالم يصحبها زوجها وخاصة فى الحفلات الكبيرة. اما فى المناسبات الخاصة فيجوز التساهل فى هذه القاعدة لبعض الحدود ومع ذلك فان كان رب البيت غائبا عن البلد وعلم الداعى بذلك فهو لا يوجه الدعوة الى السيدة ابدا. والاوانس لا يحضرن اية دعوة كبيرة مالم يكن فى صحبة ابائهن او امهاتهن او اخوانهن او احد من عشيرتهن المقربين.

وقت الحضور

وتقضى الاصول المرعية فى انكلترا، كما فى كثير غيرها من البلاد المتمدنة الاخرى، ان يحضر المدعو خلال ربع ساعة من الوقت المعين فى بطاقة الدعوة والمحافظة على ذلك ضرورى جدا بالنظر الى ما يسببه التأخير من ازعاج بقية المدعوين وصاحب الدعوة. وعندنا من يتوهم انه كلما تأخر المدعو مدة اطول عن بقية المدعوين زاد ذلك فى مقامه واعتباره ولكن العكس هو الصحيح. وساعات العشاء هى بين الساعة الثامنة والتاسعة واكثر الناس

يعنون الساعة الثامنة والنصف موعدا لدعواتهم ان اقيمت الدعوات فى لندن. اما فى الريف فالموعد يحدد بين الساعة السابعة والنصف والثامنة والنصف.

الوصول الى محل الدعوة

وعند وصول الضيوف الى محل الدعوة يضعون معاطفهم وبرانيطهم وعصيهم فى المحل المعد لها اذ لا يجوز استصحابها الى داخل صالة الاستقبال ولا يفوتن احد ان يأخذ وصلا مرقما بها ليسهل عليه استعادتها عند مغادرة المحل منعا من خلق جلبة او ضوضاء.

وفى الدعوات الكبيرة كالدعوات التى تقيمها السفارات والمفوضيات يقف مذيع فى مدخل صالون الاستقبال وبعد ان يذكر له الضيف القادم اسمه ينادى به عاليا ليسمع الحضور بقدومه وليعرفه من لا يعرفه. اما فى الدعوات البسيطة فيستقبل الخادم الضيف ويقوده الى صالة الاستقبال (١) بعد ان يعلم الضيف الخادم باسمه ليذيعه بين الحضور. وعند دخول الضيوف الى صالون الاستقبال يتقدم صاحب الدعوة وزوجته فيصافحان ضيوفهم ويبديان لهم الترحيب المقتضى ثم يحاول السيدات ان يجلسن حالا بعد دخولهن اما الرجال فيقفون قليلا يكلم بعضهم بعضا قبل جلوسهم ولكن يفضل ان يجلسوا بعد بضع دقائق من جلوس زوجاتهم. وفى الدعوات الكبيرة لا يستحسن ان يقوم صاحب الدعوة او زوجته بتقديم جميع المدعوين بعضهم لبعض. ولكنما يجوز لهما ان يفعلا ذلك اذا ما ابدى بعض المدعوين رغبتهم فى التعرف باخرين. وقبل دخول الضيوف للعشاء بمدة وجيزة يدار عليهم ما تيسر من المشروبات. والمفروض الا يسرف المدعو فى تناول هذه المشروبات الى الحد الذى يفقد فيه موازنته اثناء جلوسه على المائدة.

اذاعة العشاء

وعندما تحين ساعة العشاء يدخل النذل (السفرجى) الى صالون الاستقبال فيذيع حلول موعد العشاء. فيتقدم حينئذ صاحب الدعوة ويدعو السيدة التى هى اعلى مقاما بين السيدات من المدعوين ليقودها بذراعه الايمن الى غرفة الطعام ثم يتبعهما بقية المدعوين مثنى وتدخل فى الاخير زوجة صاحب الدعوة يرافقها

(١) وتسمى فى انكلترة (Drawing Room) وسبب تسميتها بذلك هو لانها الغرفة التى ينسحب اليها النساء بعد فراغهن من الطعام تاركات الرجال فى غرفة الطعام للتدخين.

اعلى الضيوف مقاما ويتم جلوس الضيوف على المائدة بحسب خارطة ترسم خصيصا لهذا الغرض تعين فيها مقاعد الضيوف بحسب مقامهم. ويجب ان يتجنب صاحب الدعوة اجلاس الزوجات بجنب ازواجهن او الاشخاص غير المؤتلفين بعضهم جوار بعض.

ترك المائدة

وبعد الفراغ من الطعام تقف زوجة صاحب الدعوة وتشير الى الضيوف بمغادرة غرفة الطعام بانحنائها لاعلاهم مقاما فيقوم المدعوون جميعهم فينسللن النساء من بين الرجال ويذهبن نحو صالة الاستقبال وبعد ان ينتهى الرجال من التدخين يتبعونهن حيث تدار عليهم جميعهم القهوة وماتيسر من المشروبات الحلوة (الليكور) (Liqueurs) وبعد الانتهاء من ذلك يبدأ المدعوون بمغادرة المحل ويستحسن ان يكون وقت المغادرة حوالى الساعة العاشرة والنصف. وليس من التأدب ان يترك المدعو محل الدعوة قبل ان يغادرها اعلى المدعوين مقاما.

هذا وصف مجمل لاحدى دعوات العشاء الفخمة وما يراعى فيها من قواعد واصول وآداب. وهناك مناسبات اخرى كثيرة لكل منها قواعدها وادابها.

ايام القبول

وايام القبول (١) معروفة فى انكلترة ولكنها ليست بالشكل الذى ابتدعه العراقيون (والعراقيات). فباب الدار يوم القبول عند الانكليز ليس مفتوحا للاصدقاء والمعارف جميعا وانما يوجه صاحب الدار وزوجته بطاقات الدعوة الى عدد محدود وطبقة معينة من الاصدقاء يخبرهم فيها بان يوم قبولهم هو اليوم الفلانى من الاسبوع والشهر. وارسال هذه البطاقة يعتبر بمثابة دعوة لهم يطلب فى بعض الاحيان الاجابة عنها (R.S.V.P.) وموعد الزيارة فى ايام القبول فى انكلترة يتراوح بين الساعة الرابعة والسادسة بعد الظهر. ولا تزيد مدة بقاء الزائر اكثر من الساعة ولا تقل عن ربع الساعة ويتوقف ذلك على درجة علاقته باصحاب البيت وصداقته لهم. ويوم القبول عند الانكليز ليس مجتمع للغيبة وأكل لحم الاخ حيا ولا حلقة للمقامرة كما اصبح حال ايام القبول عند بعض العوائل العراقية.

---

(١) (At-Homes)

مناسبات لعب البريج

نعم ان المناسبات التى تقام خصيصا للعب الورق وخاصة (البريج) هى من اهم المناسبات واكثرها اقبالا من الناس على اختلاف طبقاتهم وميولهم واعمارهم. ولكن ليس الغرض منها هو المقامرة والربح فى الدرجة الاولى وانما الغرض منها السمر وقضاء الوقت بين الاصدقاء والاحباب. وقد اصبح لعب البريج وبالاخص (الكونتراكت) (Contract) من الشيوع فى البلاد المتمدنة حتى صار جهله يعد نقصا بينا. وتقام مناسبات البريج اما بعد الظهر واما بعد العشاء ويقدم فيها عادة بعض المرطبات او الشاى وفى ليالى الشتاء الرطبة يقدم الحساء الحار وفى بعض الاحيان يقدم سحور كامل. ويهم صاحب الدعوة تنظيم موائد اللعب وتنسيق المدعوين وملاحظة أقدارهم فى اللعب وميولهم الشخصية بعضهم مع بعض.

حفلات الكوكتيل

والجيل الانكليزى الجديد صار يميل الى حفلات الكوكتيل اكثر من اى نوع آخر من المناسبات وذلك لقلة كلفتها فموعدها ملائم جدا اذ انها تقام عادة بين الساعة الخامسة والثامنة مساء عندما يكون الناس قد فرغوا من اعمالهم او مواعيدهم فيمر الصديق بصديقه بضع دقائق من غير ان يسبب حضوره او عدمه اى ازعاج او كلفة لصاحب الدعوة. والدعوة الى الكوكتيل كثيرا ما تجرى تلفونيا فى اليوم عينه او اليوم الذى قبله. ولوان المفروض فى هذه المناسبات هو تقديم الكوكتيل الا انه فى اغلب الاحيان تقدم بعض المشروبات الاخرى كحولية او غير كحولية، لمن لا يشتهى الكوكتيل او لمن يحرم الكحوليات. ولما كانت الدعوة تقام بين وقت الشاى ووقت العشاء فلا يقدم فيها الا بعض المواد المشهية كالساندويج والزيتون او الكافيار على شكل (Canapés) والبسكت المملح او البصل المخلل او المقانق وكثير من الناس يستسهلون تقديم (الشيرى) على الكوكتيل فانتشرت دعوات (الشيرى) فى انكلترا انتشارا واسعا واصولها ومواعيدها هى ما يراعى فى حفلات الكوكتيل المتقدم وصفها. وهناك السهرات الليلية والحفلات البستانية وحفلات الرقص ودعوات الغداء (Luncheons) وغير ذلك.

حفلات الشيرى

آداب المائدة

وآداب المائدة عند الانكليز هى نفس الاداب المرعية فى اى بلد متمدن اخر ومع ذلك فيستحسن ان نتطرق اليها اتماما للفائدة من استعراضنا العام

لكل نواحي الحياة الاجتماعية الانكليزية. فلكل شخص يجلس على مائدة الطعام «طقمه» الخاص (Cover) وهو يتألف من الفوطة والصحون وما يتبعها من ادوات الاكل وتوضع الفوطة على الحضن لا على الصدر ولا فى الرقبة كما يفعل بعض الاوربيين او الشرقيين. وبعد الانتهاء من الطعام تترك الفوطة على المنضدة دون ان يهتم الشخص بطيها اذ ان ذلك من شؤون الندل اى «السفرجى». ويتناول الشخص بعد ذلك الخبز وله ان يضعه على يمناه او يسراه حسب عادته. ولكن الاوفق وضعه على الجهة اليسرى. والانكليزى لا يتمكن ان يبتلع لقمة الخبز ما لم يطلها بالزبد حتى اصبح اكل الزبد مع الخبز عادة انكليزية عامة. واذا جاء دور تناول الطعام فمن الادب ان يختار الشخص حالا كل اكلة من الاكلات التى ستقدم اليه. فان عرض عليه (الاوردوفر) فعليه ان ينتقى ما يشتهيه بسرعة وان عرض عليه الحساء فعليه ان يبت بسرعة اذا كان يريده رقيقا (Consummé or Clear Soup) او ثخينا (Thick Soup) دون ان يؤخر الخادم واقفا على رأسه. وكما ان ذلك يزعج الخادم فهو يزعج فى الوقت ذاته بقية الحاضرين. وليس من المفروض تناول كمية كبيرة من الشوربة كما انه ليس من المستحسن ان يطلب الشخص صحنا ثانيا منها ويجب مراعاة اكلها بالملعقة الكبيرة الخاصة بها وعلى الاكل ان يملأ الملعقة من جهتها الشمالية ويشربها من جهتها الجنوبية.

كيفية تناول انواع الطعام

الحساء

والانكليز مختصون باكل السمك لانهم شعب كان يعيش على صيد الاسماك. فيروى انهم كانوا يأكلون السمك بالخبز والشوكة فقط ثم صاروا يأكلونه بشوكتين من غير استعمال السكين ثم تطور الوضع فصاروا الان يأكلونها بشوكة وسكين فضيتين خاصتين بأكل السمك.

السمك

ومن المعتاد عندنا فى الشرق تفضيل فخذ الدجاج على غيره من لحم الدجاج. ولكن فى اوربا يفضل الصدر والجناح على الافخاذ وفى كثير من المطاعم الراقية لا تقدم افخاذ فراخ الدجاج الى المدعوين بل تنتزع منها وليس من آداب المائدة عند اكل الطيور الصغيرة تقطيع الآكلين اياها اربا اربا، بل يكتفى بأكل لحم صدورها، ويترك سائرها على حالته..

الدجاج

وأكل الـ (Oysters) مألوف فى اوربا اكثر منه فى انكلترة ولو ان اكل هذه الحيوانات البحرية شهى فى نظرى الا ان كثيرا من الناس يأكلون بعيونهم فلا يتذوقون شكلها ومنظرها الخارجى.

اللحوم

واللحوم منها ما يؤكل بسكين وشوكة ومنها كبعض اللحوم المطبوخة، ما يؤكل بالشوكة فقط حتى ان بعضها يظهر كانه يفقد لذته ان مسته السكين. وعلى الاكلين ان يميزوا بين النوعين فيستعملون الادوات المناسبة لان من الفظاظة ان تؤكل اكلة بغير ادواتها المخصصة لها.

الحلويات والموالح

وللاكل ان يختار اما الموالح(Savouries)او الحلويات، ويجب ان يؤكل كل نوع بادواته الخاصة به. فالموالح كـ (Sardine on-Toast or Welsh ''Rabbit'') تؤكل بالسكين والشوكة والحلويات تؤكل بملاعقها وشوكاتها.

الفواكه

والفواكه تؤكل بحسب انواعها فمنها ما يؤكل بالسكين والشوكة ومنها ما يؤكل بالشوكة والملعقة وفى الحالات غير الرسمية تؤكل باليد.

آداب متفرقة

وعند الجلوس على مائدة الطعام لا ينحنى الاكل على الطاولة او يبسط ذراعيه عليها او يحنى رأسه كلما تناول لقمة. والسرعة فى الاكل مكروهة عند الانكليز وفى الوقت ذاته فأنها مضرة بالصحة كما ان البطاءة الزائدة تسبب ازعاج بقية الاكلين. وليس من التأدب ان يناول الاكل الخادم صحنه بيده، كما انه يعتبر قلة فى التربية ان يستمر الاكل على لمس ادوات الاكل كالشوكات والسكاكين والاقداح وغيرها واللعب بها. واذا ما سقطت احدها على الارض فعليه ان يؤشر للخادم بكل سكون لتبديلها. واستعمال شوكات الاسنان (Tooth Picks) قليل فى انكلترا وان اضطر الشخص الى استعمالها فعليه ان يغطى فمه باحدى يديه وينظف اسنانه باليد الاخرى.

وفيما يلى نتف من عادات الانكليز وطباعهم وادابهم مما يلاحظه الزائر الشرقى فى مختلف حياتهم العامة والخاصة.

نتف من عاداتهم وطباعهم

اذا ما رافق رجل سيدة فى الطريق فهو يسير فى جهة الرصيف القريبة من الشارع لوقاية السيدة مما يحتمل حصوله عليها من الضرر او الاذى من الشارع، وهذه العادة لا تناقض عادة جعل السيدة على الجهة اليمنى من الرجل اثناء مسيرها لان الوقاية من الخطر ابدى من المجاملة الظاهرية.

والانكليزى المؤدب لا يصافح غيره وهو لابس قفازيه بل عليه ان يخلعهما عند الاقبال على المصافحة اما اذا لم يجد مجالا لخلعهما فتراه يعتذر على الاقل من الشخص الذى يريد مصافحته. ولكن لا يجوز باى حال من الاحوال لرجل ان يصافح سيدة بقفازيه.

والانكليز يعتبرونه قلة فى الادب ان خاطب رجل سيدة وهو جالس وهى واقفة وعليه دائما ان يبدى اليها كل مظهر من مظاهر الاحترام، كان يتقدم لفتح باب الغرفة لها ان ارادت الخروج او يبادر لاشعال سيكارتها ان ارادت التدخين، وان رافقته فى السيارة فعليه ان يجلسها عن يمينه وان كانا اثنين فعليهما أن يجلسا السيدة بينهما وان ارادت النزول منها فعليه ان يتقدمها ثم يساعدها على النزول بمد يد المعونة لها.

ولا يجوز لبس البرنيطة فى داخل المحلات العامة كالسينمات والمسارح والمطاعم وفى البيوت والدوائر. ومن الادب ان يرفع الشخص برنيطته عند التحدث الى شخص اكبر منه مقاما وسنا وكذلك عند التكلم مع سيدة او رد التحية لها ولعل اهم وجائب البرنيطة هى لرد التحية برفعها وخاصة للسيدات. واذا ما سلمت سيدة ترافق رجلا،على شخص آخر غريب عن ذلك الرجل فعليه ان يرفع برنيطته ايذانا بالاحترام. ولا يجوز لسيدة ترافق رجلا ان تحيى صديقا ثالثا قبل ان يقدم لها ذلك الصديق ولكن يجوز للرجل ان يحيى سيدة حيث رفيقته. وعلى الرجل ان يحمل كل ما تحمله سيدة ان كانا يسيران معا كما عليه ان يتقدم لمساعدتها حينما تلبس معطفها او يناولها أية حاجة تريدها. ومن الفظاظة فى الخلق ان يخاطب رجل سيدة و (سبيله) او جروده او سيكارته فى فمه بل عليه ان يرفعها. وفى الوقت عينه عليه ان يأخذ موافقتها اذا ما اراد ان يدخن وخاصة اذا كانا على مائدة الطعام واتفق انها نفسها لا تدخن حتى وان كانت هى نفسها تدخن فان الاستئذان منها لازم.

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى.

مراجع ومصادر

الجزء الأول

BIBLIOGRAPHY

A

Amos, Sir Maurice ... The English Constitution.
An Overseas Englishman ... England.

B

Baker, Ernest ... Ideas And Ideals Of The British Empire.
Bigham, C. ... The Kings Of England.
Bagehot, W. ... The English Constitution.
Bell, Tom ... The British Communist Party.
Barker, E. ... National Character.
Bearn, A.W. ... Modern England.
Brandt, Bill ... The English At Home.
Brown, Ivor ... The Heart of England.
Bilham, E.G. ... The Climate Of England.
Bradley, H. ... The Making Of England.

C

Cannan, G. ... Anatomy of Society.
Clann, H. ... The Face Of London.
Council, British ... British Life And Thought.
Collis, J.S. ... An Irishman's England.

D

Derry, T.K. ... British Institutions Of Today.
Dicey, A.V. ... The Privy Council.

E

Elliot, W. ... Toryism In The Twentieth Century.
Ernle, Lord ... The Land And Its People.

F

Fowler, H.W. ... The King's English.
Finer, Dr. H. ... The British Civil Service.

G

Garside, J.T. ... Old English Furniture.
Gray ... The Nation's Intelligence.
Graham, H. ... The Mother Of Parliaments.
Gunther, John ... Inside Europe.

H

Hartley, Dorothy ... Here's England.
Hassall, A. ... English Foreign Policy.
Hamilton, Cicely ... Modern England.
Hearnshaw, E.J.C. ... Conservatism In England.
Hobhouse, L.T. ... Liberalism.

I

Ilbert, Sir C. ... Parliament.

J

Jerrold, D. ... England.
Jennings, W.I. ... Parliament.
Jennings, W.I. ... Cabinet Government.

K

Keith, A.B. ... The Governments Of The British Empire.
Keith, A.B. ... The Privileges And Rights Of The Crown.
Kerr, Philip ... The English Are Like That.

L

Landau, Rom ... Love For A Country.
Low, Sydney ... The Governance Of England.
Lucus, Sir, C. ... The British Empire.
Lucy, Sir, H. ... Lords And Commons.

M

Marjorie and Quennell ... Everyday Things In England.
Morton, H.V. ... In Search Of England.
Murray, J.B. ... The Man In The Street.
Muir, R. ... How Britain Is Governed.
Mackinder, Sir, H.J. ... Britain and The British Seas.
Masterman, C. ... The Condition Of England.
Morrison, H and Abbot ... Parliament: What It Is and How It Works.
Miller, Alice, D. ... The White Cliff.

P

Palmer, S. ... The Ideal Of A Gentleman.
Peddrie ... The British Citizen.
Porthiem, Cohen ... England The Unknown Isle.
Porthiem, Cohen ... The Spirit of London.
Priestly, J.B. ... English Humour.
Pulbrook, E. ... The English Country Life and Work.

R

Robson, W.A. ... The British Civil Servant.
Renier, Dr. G.J. ... The English: Are They Human.

S

Santayana ... Soliloquies In England.
Shore, T. ... Touring London.
Seeley, Sir, J. ... The Expansion Of England.
Smith, L.P. ... The English Language.

T

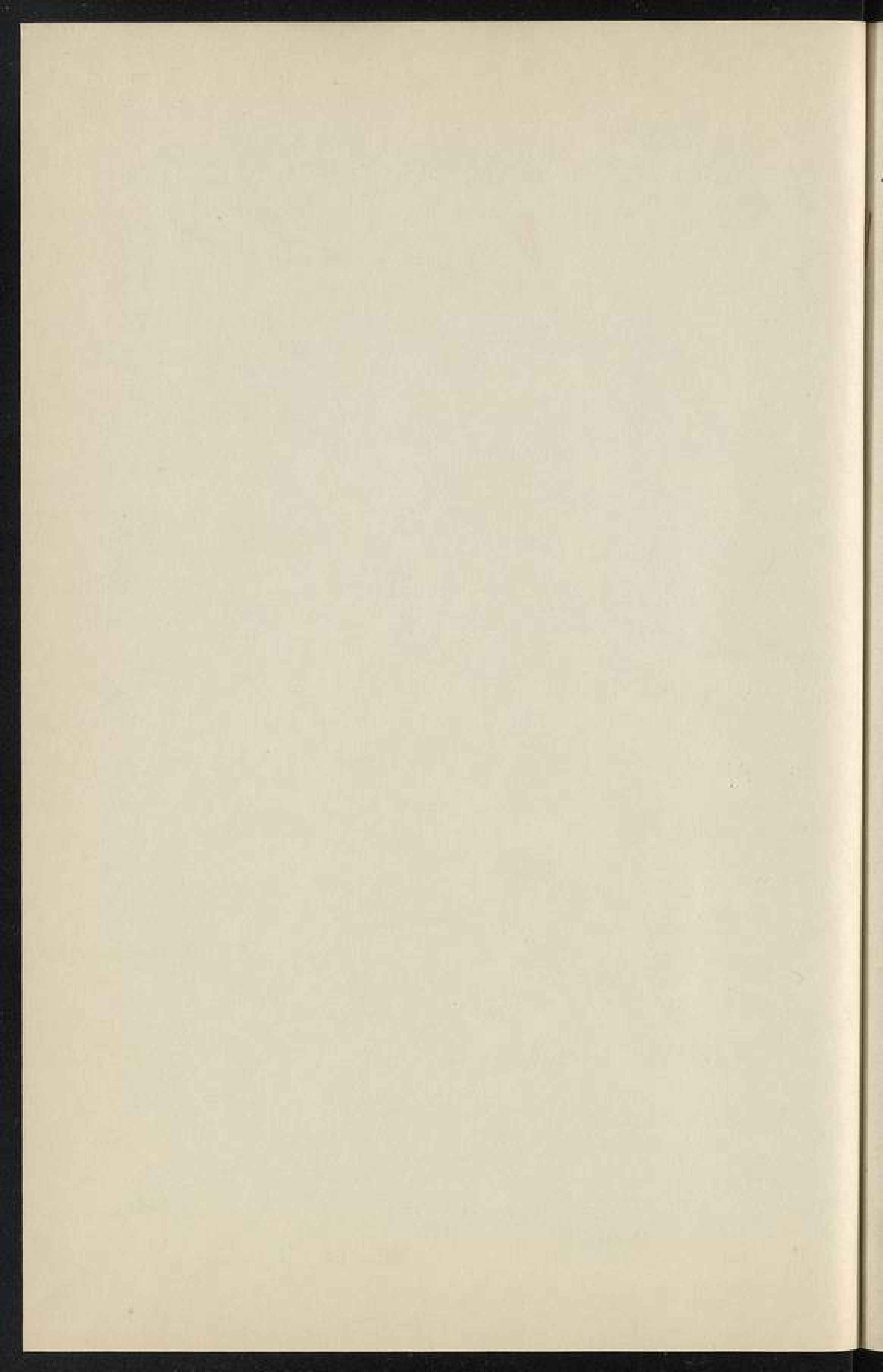
Tilley, Sir, John ... The Foreign Office.
Trevelyan, G.M. ... History Of England.
Trotsky, Leon ... Where Is England Going.
Troup, Sir, E. ... The Home Office.

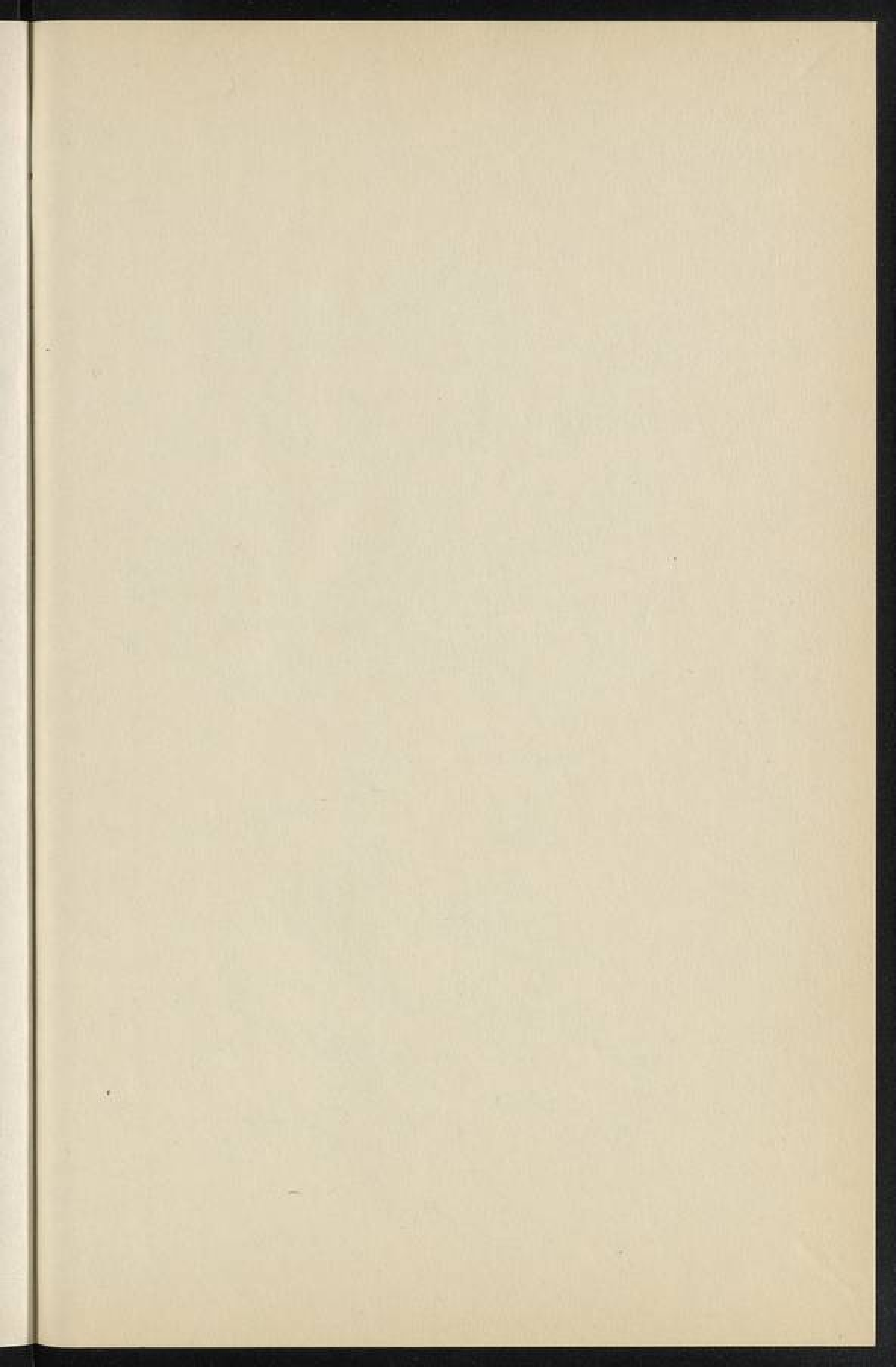
W

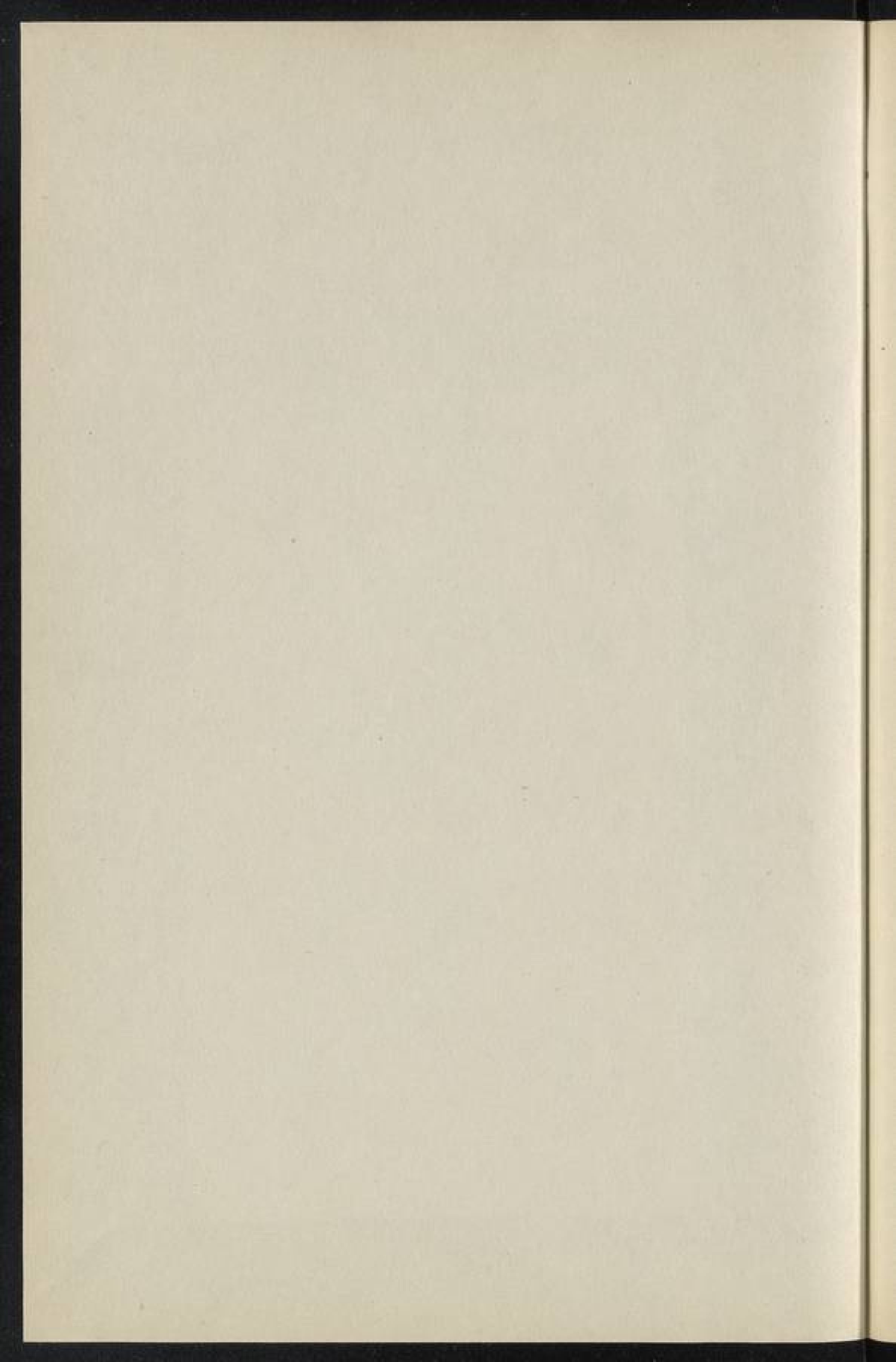
Williamson, S.C. ... The English Traditions In The World.
Webb, S. and B. ... English Local Government.
White, A.B. ... The Making Of English Constitution.

The Encyclopaedia Britannica 14th Edition.
Whitaker's Almanack ... 1938 and 1944.
Who's Who ... 1944.
The London Times. ...

ان المصادر والمراجع الاخرى، غير ما هو مدون اعلاه، قد نوه عنها
في ذيل صفحات الكتاب.








COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
1000417432